

رسالة من تحت الماء

وسخريات صغيرة

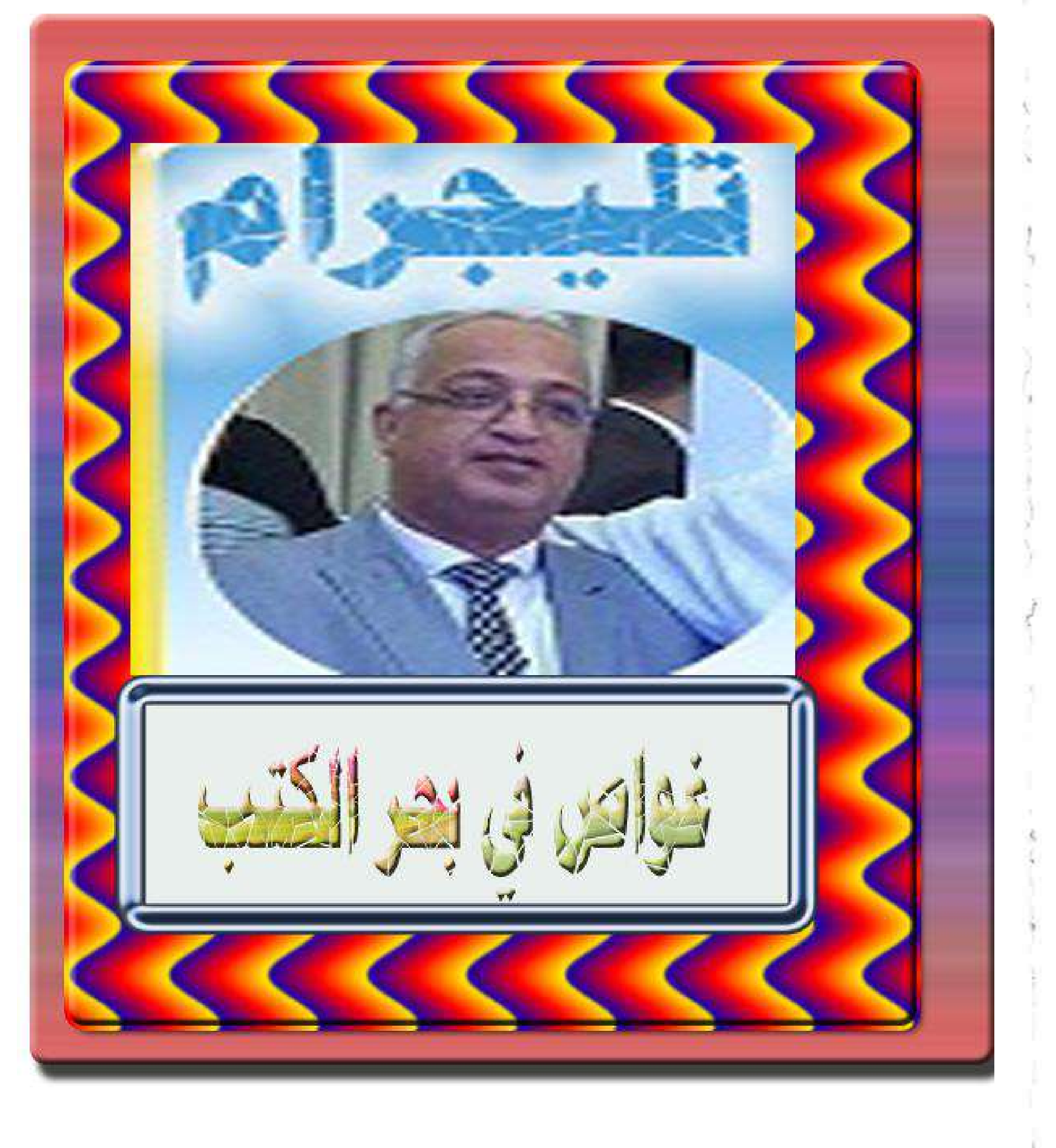
حسين أحمد أمين

حلمي التوني

دار سعاد الصباح


تلغيجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب


تليجرام
هنا
سور الأزبكية



رسالة من تحت الماء

الطبعة الأولى ١٩٩٢

دار سعاد الصباح
ص . ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٢ - الكويت
ص . ب : ١٣ المقطم - القاهرة
تليفون : ٣٤٩١٧٢٧
٣٤٩٧٧٧٩
فاكس : ٥٠٦١٠٢٠

رقم الإيداع : ٧٩٥٣ / ١٩٩٢
I.S.B.N : 977 - 5344 -17 - 4

الاشراف الفني : حلمي التوني

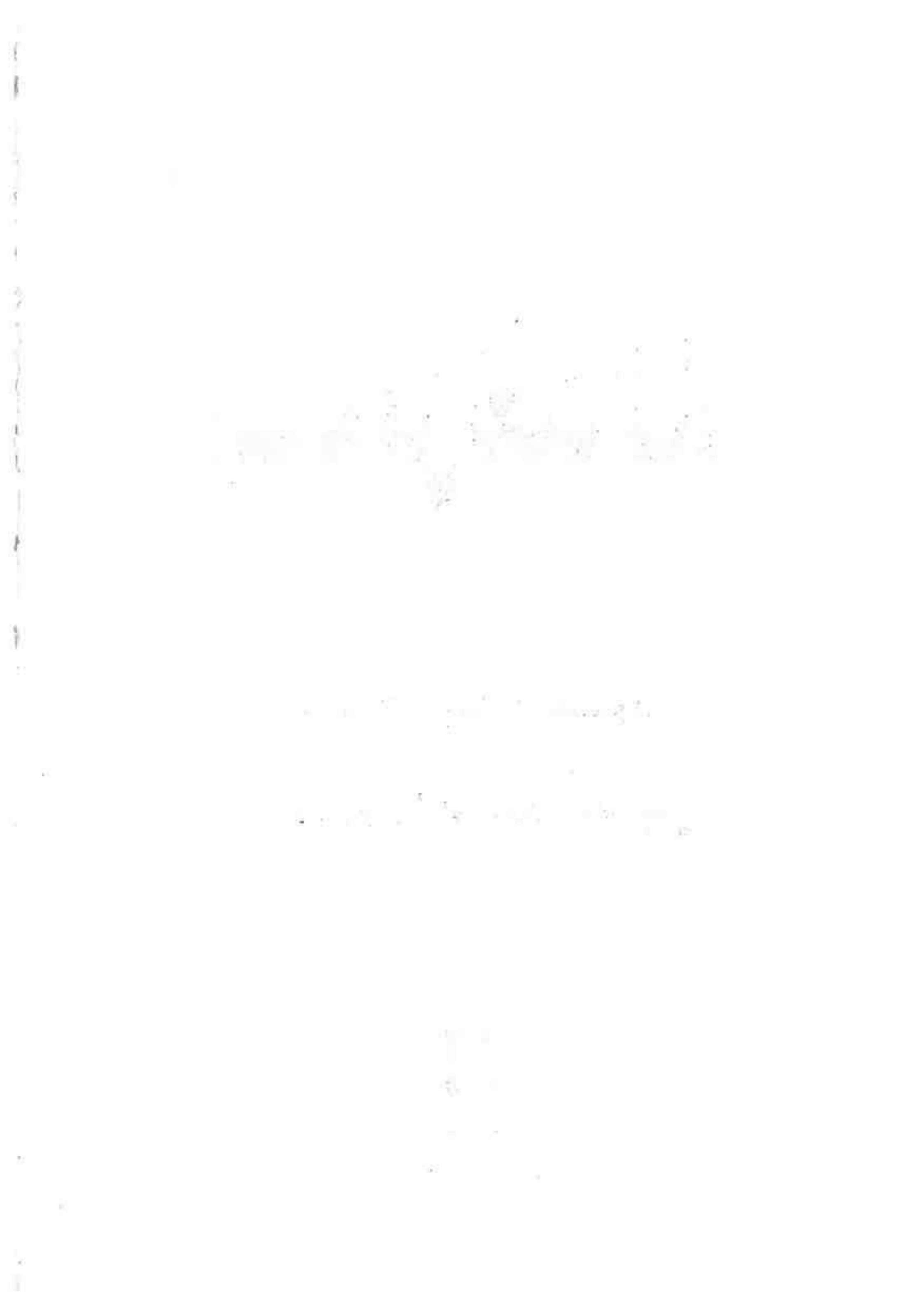
رسالة من تحت الماء

وسخريات صغيرة

حسين أحمد أمين



دار سعاد الصباح



1 fear I have a little turn for satire,
And yet methinks the older that one grows
Inclines us more to laughter than scold,
though laughter
Leaves us so doubly serious shortly after..
-Lord Byron: "Beppo"

By laughter only can you destroy evil without malice..
-George Bernard Shaw



الإهـداء

هل يطمعُ الكاتبُ من قُرّائه فى أكثر من حرارة التشجيع، وذكاء النقد؟

فأما الأولى فقد لقيتها من ابنة صديقين من أعزّ أصدقائى، هى سلمى سمير حنّا صادق... كان ضحكها أثناء قراءتها لكل مقال، وحرارة تعبيرها عن استحسانها له بعدها، حافزا لى على كتابة المقال الذى يليه.

وأما الثانى فقد لقتيه من ابنتى رانية... كان نقدها لكل مقال قبل نشره حافزا لى على إعادة كتابته لتعديل مساره، وتلافى ما انزلقت إليه فيه من أخطاء.

فثلاثتنا إذن مشتركون فى تأليف هذا الكتاب... وإلى الاثنتين أهديه.



ألو .. سيادة الوزير ؟

ــ آلو ؟ سيادة الوزير؟

ــ نعم.

ــ سيادة الوزير. أنا مواطن من عين شمس. تفرّجت يوم أمس على الحديث التليفزيونى الرائع بين سيادتك ونجوى ابراهيم، وأسعدنى جدا أن أسمع سيادتك تقول للمذيعة إن وزارتك تعمل جاهدة، وبكل الوسائل المتاحة، من أجل إنقاذ الشباب المصرى من براثن دعاة التطرف الدينى، ومكافحة هذا التطرف، وتوجيه الشباب التوجيه الاجتماعى والدينى الرشيد، وغرس مبادىء الإسلام المعتدل المستنير فيه.

ــ هذا حق.

ــ ربنا يوفقك ياسيادة الوزير.

ــ الله يحفظك ويكرمك.. آهو بنحاول نؤدى واجبنا قدر الإمكان، وربنا يعمل مافيه الخير.

ــ طيب ياسيادة الوزير أنا عندى مشكلة صغيرة.. لى ابن فى الخامسة عشرة من العمر... لاحظت فى الفترة الاخيرة أن بعض أصدقائه من شباب الحىّ قد بدأ يستدرجه الى المساجد التى يهيمن عليها المتطرّفون، وأنه قد بدأ يحرص على صلاة الفجر معهم فى تلك المساجد، ويتردّد على اجتماعات لهم فى بيوتهم ، مستبدلا فى زيّه الجلباب والسروال والصندل بالبدلة والحذاء، ويضيقّ على أخته الأصغر سنا حتى يضطرها الى لبس الحجاب.

ــ وماله؟ لا بأس. العاطفة الدينية والتأثر بالأصدقاء فى مثل هذه السن أمر طبيعى. والمسألة بإذن الله مسألة وقت.. فلا تحمل همّا، ولا تهوّل الأمور. صدقنى، هى مجرد سن المراهقة التى يمرّ بها.

ــ ولكن يا سيادة الوزير، هل تعلم أنه ليس بالحىّ الذى نسكن فيه مكتبة عامة واحدة، ولا ناد رياضى واحد، ولا دار سينما واحدة؟.. أين يمكن للشباب أن يقضى وقت فراغه فيما يفيد؟ إلى أى جهة يمكننا أن نوجّه هذا الشباب بطاقته وحيويته، حتى نجنبه الوقوع فى براثن دعاة التطرف؟

ــ هذه ليست مسئولية وزارتى. هى مسئولية وزارة الثقافة والمجلس الأعلى للشباب والرياضة.. حاول الاتصال بهما..

* * *

ــ سيادة الوزير؟

ــ نعم.

ــ أنا كنت كلمت سيادتك منذ عام مضى بشأن مشكلة إبنى.. أنا مواطن من عين شمس، وابنى فى السادسة عشرة.. لقد بدأت ألاحظ منه تصرفات غريبة ياسيادة الوزير.. ليس فقط أنه أطلق لحيته وأهمل المذاكرة، وبات يقضى الساعات الطوال فى قراءة كتب غريبة عن عذاب القبر وعلامات الساعة وحساب الملكين.. ولكنه مثلا يرفض أن يحضر فى المدرسة حصص الكيمياء لمجرد أن الأستاذ مسيحى.. يسميّه ذمّيا!! ويرفض أن يذاكر دروس الطبيعة على أساس أن «من قال بالطبع أو بالعلّة، فذاك كفر عند أهل الملة»!.. كل شىء أفعله أو تفعله أمه أو أخته يراه منافيا للدين ومما يستجلب نقمة الله وغضبه.. تصوّر معاليك أنه فى الأسبوع الماضى شرع

يكسر التماثيل التى أصنعها، ويمزق اللوحات الزيتية التى ترسمها أمه، باعتبارها أوثانا، ويسمى نشاطنا الفنى هذا شركا بالله؟!! بالله عليك يا سيادة الوزير، ما الذى يمكن لوزارتكم أن تفعله مع مثل هؤلاء الشباب؟ لقد كنت منذ نحو عام قد استمتعت بحديثكم مع السيدة نجوى إبراهيم الذى قلت فيه إن وزارتك تعمل جاهدة وبكل الوسائل المتاحة من أجل .. آلو.. آلو.. سيادة الوزير! سيادة الوزير! ... آلو...

* * *

ــ سيادة الوزير؟

ــ نعم.

ــ أنا كنت كلمت سيادتك آخر مرة منذ حوالى سنتين بشأن مشكلة إبنى... أنا مواطن من عين شمس، وابنى الآن فى الثامنة عشرة.. فُصل من مدرسته بسبب رسوبه المتكرر واعتدائه بالسب على أساتذته واتهامه إياهم جميعا بالكفر... أنا أعلم جيدا يا سيادة الوزير أنك شديد الاهتمام بإنقاذ الشباب المصرى من براثن التطرف الدينى.. ولكن بالله عليك ماذا أصنع يا سيادة الوزير؟ أنا وأمه نبكى ليل نهار ولا فكرة لدينا عما عسانا أن نصنع معه، أو كيف نعامله... هو يرفض حتى الحديث إلينا ومناقشتنا. .خرب لنا جهاز التليفزيون، وخرب جهاز الراديو، باعتبارهما رجسا من عمل الشيطان، وهو يضرب أخته التى تأبى ارتداء النقاب. فإن جلسنا إلى الطعام، انتحى بطبقه ناحية من صالة الطعام، وجلس على الأرض يأكل وحده، لأن الموائد والكراسي فى رأيه بدعة لم تكن على زمن الرسول والصحابة... والأدهى من كل ذلك يا سيادة الوزير أننى انتهزت يوم أمس فرصة غيابه عن البيت، وفتشت غرفته ونظرت فى كتبه وأوراقه لعلّى أكتشف أشياء تلقى الضوء على

عقليته ومسلكه، فإذا بى أجد مسدّسا فى درج مكتبه! نعم! وحين واجهته به عند عودته، ردّ بأنه يتدرّب مع أصدقاء له على إطلاق النار فى ناحية من نواحى جبل المقطم كل يوم جمعة بعد صلاة العصر.. نعم؟... معاليك لاترى فى ذلك بأسا؟... شدّة وتفوت؟.. مرتبطة بالسن؟.. نعم؟.. أنا آسف إذ أشغل سيادتك فى زحمة عملكم بمشكلة خاصة، ولكنى أعيش مأساة دامية ياسيادة الوزير... وكنت قد سمعت سيادتك منذ ثلاث سنوات تقول فى التليفزيون لنجوى ابراهيم.. آلو.. آلو.. سيادة الوزير!

* * *

ــ سيادة الوزير؟

ــ نعم.

ــ أنا المواطن من عين شمس اللى كلم سيادتك آخر مرة منذ خمس سنوات.. نعم؟.. بشأن مشكلة إبنى عمرو الذى يبلغ سنه الآن ثلاثة وعشرين عاما... نعم؟... أنا أعلم يا سيادة الوزير أن معاليك مشغول ولا يمكنك أن تنظر فى مشاكل المواطنين فردا فردا وأن وقتكم أضيق من ذلك.. ولكن مأساتى يا سيادة الوزير ومأساة أم الفتى تتفاقم.. نعم؟.. أكلم وكيل الوزارة؟ لا داعى يا سيادة الوزير.. كل ما أردت أن أقوله هو أن ابنى قد اعتقل مساء أمس مع جماعة من تنظيم الجهاد بتهمة التخطيط لاغتيال معاليك.. نعم؟... مجرم وابن كلب؟ لا ياسيادة الوزير.. المجرم ابن الكلب هو الذى صدق حديث سيادتكم منذ ثمانى سنوات مع نجوى إبراهيم الذى قلتم فيه إن الوزارة تعمل جاهدة وبكل الوسائل الـ..... آلو.. آلو.. سيادة الوزير! آلو.....

الأصل والصورة

١

احتراما لوقت القارىء، وتجنّبا لذكر ماهو مألوف لديه، سأغفل وصف الطوابير العديدة التى وقفت فيها، وذكر الإجراءات المائة التى كان علىّ إنجازها، وأبدأ قصتى من لحظة وصولى إلى شباك تسليم الأوراق، ووقوفى أمام الموظف المختص وجها لوجه. وهى لحظة لا شك فى أن القارىء سيتصور أنى قد أصبحت عندها قاب قوسين أو أدنى من تحقيق مرادى، ونيل مرامى، وإدراك بغيتى.. وهو ما تصورته أنا أيضا.

قال الموظف بعد أن اطمأن إلى أن الأوراق والشهادات كاملة غير منقوصة:

ـ نريد صورة شمسية لك.

أخرجت محفظتى وأبرزت منها الصورة.

تناولها الموظف وراح يدقق فيها، ويرفعها فى الضوء تارة ذات اليمين وتارة ذات الشمال، ويضيق من عينيه، وينقل ناظريه بين الصورة وبينى أربع مرات أو خمس.. ثم إذا به يلقى بالصورة تجاهى ويفاجئنى بقوله:

ـ هذه الصورة ليست صورتك..

صحت به:

ـ ليست صورتى؟! كيف؟ ماذا تعنى؟ ومادافعى وأنا أسعى إلى تجديد رخصتى إلى تقديم صورة ليست لى؟

أجاب فى هدوء وهو يرمقنى شذرا من مكانه الآمن:

ـ وحتى على فرض أنها لك، فلا بد أنها قد التقطت لك فى زمن سيدنا حتحوت.. نريد هنا صورة حديثة.

ـ الصورة حديثة وليست من زمن حتحوت.. قد التقطت لى منذ شهر واحد فحسب قبل عودتى إلى مصر من الخارج وباستطاعتك أن تقرأ تاريخ التقاطها مطبوعا على ظهرها.

استرد الموظف الصورة، وقرأ التاريخ المسجل على ظهرها.. ومع ذلك فقد اعادها إلىّ .

ـ التاريخ هو كما ذكرت. وحيث أنها بالتالى صورة حديثة، فمن المؤكد إذن أنها ليست صورتك.

ـ صورة من إذن؟ سعاد حسنى؟

ـ سيدى الفاضل، لا تضيع وقتى ووقتك ووقت المنتظرين فى الطابور الطويل خلفك.. تأمل معى الصورة إذا تكرمت..هذان الخدان النضران فى الصورة، أين هما فى الأصل؟ وأين هذه البشرة المتوردة فى الصورة من بشرتك الشاحبة المغبرة؟ وهاتان العينان المرحتان المتألقتان فى الصورة من عينيك أنت الخاملتين الخاليتين من أى بريق؟ لن أتحدث عن الابتسامة فى الصورة أو عن تقطيبة الأصل وجهامته؛ فالابتسامة والجهامة قد تأتيان وتذهبان. غير أن هذا الوجه بوجه عام، وبكل تأكيد، ووالله العظيم ثلاثة، ليس وجهك وعليك أن تعترف بذلك.

قلت فى صبر:

ـ أنا معك فى أن بعض التغيير قد طرأ على سحنتى خلال الشهر الماضى منذ عودتى من الخارج.. ربما لأنى قضيت أسبوعين كاملين فى جمرك الاسكندرية محاولا التخليص على أمتعتى.. وربما لأنى أستخدم هنا أوتوبيسات النقل العام فى تنقلاتى حيث أن سيارتى المشحونة فى البحر لم تصل بعد.. وربما لأنى عدت إلى قراءة الصحف القومية المصرية، أو لأنى أستمع احيانا إلى أحاديث الشيخ متولى الشعراوى، وأقطع الوقت بمشاهدة المسلسلات التليفزيونية.. ربما.. غير أنى أقسم لك برحمة أبويا، بشرفى، بحياة ابنى كمال، أن هذه الصورة صورتى.

قال الرجل فى سعة صدر:

ـ ربما.. غير أننا نريد مع ذلك صورة حديثة. صورة لك كما أنت اليوم، بحيث يتعرف عليها شرطى المرور متى استوقفك فى الطريق لمعاينة الرخصة.. وعلى أى الأحوال فإنه لايزال أمامك شهر كامل حتى يحين تاريخ انتهاء الترخيص.. مع الف سلامة .. اللّى بعده...

٢

خرجت من إدارة المرور متوجّها من فورى إلى أحد ستوديوهات التصوير فى مدينة نصر... وقد كانت الصورة هذه المرة باعثة على الرضا والارتياح. فهى بكل تأكيد أكثر تعبيرا عن الواقع: الخدّان غائران فى الوجه، والعينان غائرتان فى المآقي، والتجاعيد عميقة فى الجبهة وما بين المنخارين وطرفى الفم... كل شيء إذن على ما يرام.. ومع ذلك فقد أردت المزيد من الاطمئنان، فأريت الصورة لزوجتى، وأولادى، وأصدقائى، وزملائى فى

العمل، وعدد من الجيران، سائلا كلا منهم على انفراد ودون أن يطّلع أيهم على إجابة الآخر :

- لمن هذه الصورة؟

فكانت إجابة الجميع دون استثناء:

- لك أنت.

فاطمأننت.

٣

غير أنى لم أتمكن - بسبب انشغالى بالبحث عن مسكن ـ من العودة إلى إدارة المرور إلا يوم انتهاء أجل الرخصة... اصطحبت معى (كى أقطع ساعات الانتظار الطويلة فى الصفوف امام شبابيك الإدارة العشرة) كتابا ضخما عن الإنجازات المجيدة فى عهد الرئيس حسنى مبارك.. وكنت قد أنتهيت من قراءة ثلاثة أرباع الكتاب حين وصلت إلى شباك تقديم الصور. وحمدت الله علي أن الموظف المختص عنده كان غير الموظف السمج الذى رفض قبول الصورة فى الشهر الماضى.

وناولته الصورة.

قال:

- إحنا بنهزّر يا أستاذ؟! تأتى إلىّ فى الشهر الماضى بصورة غير صورتك، ثم تعود إلىّ اليوم بصورة هى الأخرى ليست لك؟!

وأدركت على الفور ـ لدهشتى العظيمة ـ خطأ اعتقادى أنه موظف آخر.

قلت له:

- أقسم بالله العظيم، وبحياة ابنى كمال، أن الصورة لى، وأنها التقطت منذ شهر واحد فى أحد ستوديوهات مدينة نصر. التاريخ مطبوع على ظهر الصورة.. ولدىّ شهود (إن احببت) على أن الصورة صورتى.

تأملنى ساخرا بعض الوقت، ثم نادى على الواقف خلفى فى الطابور:

- تسمح يا أستاذ يا محترم لحظة واحدة؟ تفضل هنا واشهد: هل هذه الصورة الفوتوغرافية صورة الأستاذ الواقف أمامك؟

نظر الرجل المشلول إلى الصورة، ثم إلى وجهى، ثم إلى الصورة مرة أخرى ، ثم رفعها فى اتجاه الضوء، ثم عكس الضوء ، ثم ضيّق عينيه، ثم هزّ رأسه بالنفى:

- قد تكون هناك صلة قرابة بين الشخصين، وقد تكون الصورة لابنه، غير انها ليست صورته.

- صورة ابنى يا رجل يا مخرّف؟!!

- إحفظ لسانك يا أستاذ واحترم نفسك.

- صورة ابنى!!

- حضرة الموظف سألنى سؤالا وأجبته برأيى، فماذنبى أنا؟ يكفى أن ألاحظ أن شعر الشاب فى الصورة أسود وشعرك أشيب. فهى إما لك، فى شبابك الأول، أو الصورة لابنك.

قلت فى نفسى:

- والله ما شاب شعرى إلا بسبب أفاعيلكم بى يا أولاد الكلب!

أما جهرة فقد قلت فى أدب جم، ضاغطا على أعصابى:

– أعترف بأني قد أبدو اليوم مرهقا أكثر مما كنت وقت التقاط الصورة... غير أنى كنت آمل أن تلتمسوا لى العذر وتغفروا لى ما طرأ على وجهى وجسدى من تدهور متى أخبرتكم أننى قضيت الشهر الماضى بأكمله أبحث عن مسكن جديد، ولم أوفق حتي اليوم.

قال الموظف:

– هذه مشكلتك أنت... وهو أمر لا يهمّنا ولا يعنينا فى شىء.. نريد صورة حديثة يتعرّف عليك منها شرطىّ المرور متى استوقفك فى الطريق... وعلى أىّ حال فلا مبرر للانزعاج. فالأمر لن يترتب عليه غير غرامة تأخير.

٤

وضعت الكتاب الضخم تحت إبطى، وتوجّهت إلى نفس الاستوديو فى مدينة نصر.. لم أتعرف إلا بصعوبة على المصوّر الذى التقط صورتى فى الشهر الماضى، ولا هو تذكّرنى.. وكان المكان مكتظّا بالزبائن الوافدين من أجل أن تلتقط لهم صور حديثة.. وكان اكتظاظهم هذا هو السبب فى أن المصوّر أجّل تسليم الصورة إلى ما بعد ثلاثة أسابيع، لا بعد أربعة أيام كما فى المرة السابقة.

بطبيعة الحال – وكما يمكن للقارىء أن يتصوّر – كان همى الأكبر خلال تلك الأسابيع الثلاثة من انتظار تحميض الصورة هو أن أتجنّب قدر الإمكان كل ما من شأنه أن يعكر دمى، أو يرهق أعصابى، أو يزيدمن حدّة توترى،

خشية أن يختلف الأصل كثيرا عن الصورة التالية... أجّلت البحث عن مسكن.. أحجمت عن قراءة الصحف اليومية... قاطعت أصدقائى حين بدأوا يروون قصة مصادرة الكتب فى معرض القاهرة الدولى للكتاب... لم أسمح للجيران بأن يمضوا فى حديثهم أمامى عن الحكم بالسجن على المؤلفين والناشرين وأصحاب المطابع بتهمة التعبير عن رأى مخالف لرأى السلطة.. صرخت فى وجه امرأتى حين بدأت تروى لى حادث اغتصاب الفتاة فى ميدان العتبة أمام أعين الناس... نبّهت على أولادى ألاّ يأتوا إلىّ بالفواتير الجديدة لاستهلاك الكهرباء والمياه... تركت لزوجتى كلية أمر شراء احتياجاتنا من السوق ودفع ضريبة المبيعات... حظرت على أهل البيت أن يديروا التليفزيون أو الراديو إلا بعد انتهائى من تجديدالرخصة... واختصارا أقول: إنى قطعت صلتى تماما بالعالم الخارجى......

٥

ومع ذلك... ومع كل ذلك، تبيّنت من فورى عند استلام الصورة أن هناك اختلافا ملموسا بينها وبين الأصل.. ربما كان السبب هو تلك الرتوش اللعينة التى يصرّ المصوّرون على إجرائها علي الصور لإزالة التجاعيد وإصلاح ما أفسده الدهر... أو ربما كان السبب هو الدهر ذاته.. المهم هو أننى عدت إلى بيتى حزينا مهموما وفى نيّتى أن أضيف بالحبر الأسود إلى الوجه مزيدا من التجاعيد، ومزيدا من الظلال القاتمة تحت العينين، وأن أخفى شبح ابتسامة كادت أن ترتسم عند الجانب الأيسر من فمي، وأن أستعين بالظلال على إبراز عظام الخدّين وإخفاء أى بريق باق فى العينين.. غير أن جهودي الفنية باءت بالفشل.. أسفرت عن كارثة.. وبدا الأمر وكأنما

هو لا يعدو أن يكون تزويرا فاضحا مكشوفاً فى أوراق رسمية.

٦

ما كدت أسلم نفسى لمشاعر اليأس، حتى برقت فى ذهنى فكرة.

فكرت فى أنه قد يكون من العبث ومن غير المعقول أن أستمر على هذا النحو.. أن أدور فى حلقة مفرغة لا مخرج منها.. أن أظل إلى أبد الآبدين أتنقل من إدارة المرور، إلى استوديو التصوير، إلى إدارة المرور، إلى استوديو التصوير، ما دام ماء الحياة يتسرّب من وجهى أسبوعا تلو أسبوع، ويوماً بعد يوم...

الأمر إذن فى حاجة إلى حلّ جذرى مختلف.

ثم كان أن تذكرت أن الناس جميعا كانت دائما تخبرنى أننى شديد الشبه بوالدتى رحمة الله عليها، وأننى كنت قد التقت لها صورة فوتوغرافية وهي علي فراش الموت، قبل يومين من وفاتها بداء السرطان عن ثمانين عاماً ...

بحثت عن تلك الصورة حتى وجدتها.

وهى الصورة التى قدمتها فى صباح اليوم التالى إلى إدارة المرور.

٧

تأملها الموظف لبضع ثوان ثم قال:

– أخيراً جئتنا بصورتك.

– نعم.

- ولكن ......

- ماذا؟

- ما هذا الحلق في الأذنين؟

أجبته بأنه حلق لبسته للصورة من قبيل الفكاهة والمزاح..

فابتسم الرجل ابتسامة ضيقة ولم يعلّق.

ثم أصدر الرخصة لى.



رسالة من تحت الماء

عزيزى الأستاذ فيليب جلاب رئيس تحرير جريدة «الأهالى» :

تصلكم هذه الرسالة منى بعد أن أكون قد فارقت الحياة.. لا لأنى أكتب هذا وأنا راقد فى فراش الموت، ولا لأنى مريض مرضا ميئوسا منه، (فأنا ـ ولله الحمد ـ موفور الصحة كامل العافية) ، ولا لأنى يائس قد سئمت الحياة واعتزمت الانتحار، وإنما لسبب تجدون شرحا له فى هذه الرسالة، متى صبرت فقرأتها إلى نهايتها...

١

وأبدأ فأقول إنني موظف شاب فى المجلس المحلّى لقرية «الشهدا»، محافظة المنوفية، سعيد بعملى، سعيد بعائلتى الصغيرة، مشهود لى بالكفاءة والتفانى فى أداء مهامي الوظيفية، وخدمة المواطنين الفقراء بالقرية... وقد حاول المجلس جاهدا فى الماضى ، ولا يزال يحاول، إقناع هيئة المعونة الأمريكية فى القاهرة بأن تشمل برعايتها هذه القرية الصغيرة، فتنفّذ فيها بعض الإصلاحات العاجلة وبعض المشاريع الحيوية التي نحن فى أمسّ الحاجة إليها، والتى تعتذر الحكومة المصرية دائما عن عدم استطاعتها تنفيذها «لعدم توافر الإمكانات المالية فى الوقت الراهن»..

والظاهر أن المبدأ الذى دأبت حكومتنا علي الإلتزام به هو انتظار حدوث الكارثة حتي تصدّق شكاوى المواطنين وتحذيراتهم من احتمال حدوثها، ثم يطلب رئيس الجمهورية الشروع «فورا» فى التحقيق فى أسباب الكارثة، ويظهر على شاشة التليفزيون وهو يوبخ هذا الوزير المسئول أو ذاك، مطالبا إياه بتقديم تقرير عما حدث «فى أقرب وقت ممكن»، والوزير واقف أمامه يرتعش ويرتعد ويتلعثم كالتلميذ الخائب أمام مدرّسه الغاضب ، ثم ينتهى الأمر ويُسدل عليه الستار، ويعود المسؤلون إلى تجاهل الشكاوى المستجدة، والتحذيرات المتكررة من أمور أخرى، وتعود الأجهزة المعنية إلى الاعتذار بعدم توافر الإمكانات، حتي تحدث كارثة ثانية فثالثة فرابعة، فيعود السيد الرئيس إلى الظهور على شاشة التليفزيون ثانية فثالثة فرابعة!

٢

لذلك قرر المجلس المحلى للقرية كما قلت، وبناء على نصيحة منى، تجاوز الحكومة التى لم يعد لدينا أمل فى أن تتجاوب معنا، واللجوء مباشرة إلى هيئة المعونة الأمريكية التى تمن علي الكثير من المدن والقرى فى الوجهين البحرى والقبلى بتنفيذ مشروعات إصلاحية مثل تعميم مواسير المياه للشرب، والصرف المغّطى،وتدريب الفلاحين ورفع مستوي إنتاجيتهم، وإنارة القرى، نطلب منها أن تُدخل قرية «الشهدا» فى حسبانها، وأن تلقي علينا ولو نظرة واحدة، وتمدّ إلينا يد العطف والرعاية. غير أن المسئولين فى الهيئة الأمريكية تردّدوا زمنا طويلا، بحجّة أن أهل قريتنا «هم من التخلّف والغباء الظاهر»، بحيث لا يمكن للهيئة الاعتماد علي مساهمة «الاهالى المحليين» فى تنفيذ أىّ

مشروع، أو فى أعمال صيانته، أو حتى الاستفادة منه على النحو المنشود...
وساقوا لنا مثلا للتدليل على ذلك ما حدث عندنا عام ١٩٧٦، وقت محاولة البرنامج الأمريكى لتنظيم الأسرة المصرية بثّ دعايته فى القرية، وهو ما سأذكره لسيادتكم فى اختصار شديد، خشية أن تكونوا غير ملمّين به:

ذلك أنه فى سنة ١٩٧٦، وصلت إلى الأمريكيين العاملين فى هذا البرنامج إحصاءات تشير إلى ارتفاع معدل المواليد فى قرية «الشهدا» عن سائر المعدلات فى قرى محافظة المنوفية، فقرروا بذل محاولة لإقناع هؤلاء المتخلّفين الأمّيين بمزايا تحديد النسل وخطر الانفجارالسكانى.. ثم كان أن توصّل أحد الموظفين الأمريكيين فى البرنامج إلى تصميم مُلصق كبير ملون طُبعت منه نسخ كثيرة، عُلّقت فى محطة القطار، والمراحيض، وعلي الجدران الخارجية لدار العمدة، وسور المدرسة، وفى قسم الشرطة، وفي مقهى القرية، بل وعلى الشجر فى الحقول...

وقد كان الملصق من الضخامة وجمال الألوان وأناقة الطباعة بحيث التفّت حوله جماعات غفيرة من الفلاحين وأهالى القرية أينما رأوه معلّقا، يهزّون رؤوسهم وأكتافهم، ويشيرون بأصابعهم إليه.

كان عبارة عن صورتين متقابلتين: الأولى لغرفة فى كوخ فقير قذر، ازدحم فيها أحد عشر طفلا من كل سنّ، تبدو عليهم جميعا إمارات الجوع والمرض والبلاهة، ممزّقة ثيابهم، والأب جالس إلى مائدة خشبية أمام طبق فارغ لاطعام فيه، وقد بدا على وجهه الهمّ والاستغراق فى التفكير، ومن وراء باب المطبخ المفتوح تلمح زوجته ذابلة الوجه، محنيّة الظهر، وقد شاخت قبل الأوان من كثرة الحمل والولادة، تبحث فى دولاب المطبخ عن طعام تقدّمه... أما الصورة الثانية فهى لحجرة صالون أنيقة يغمرها ضوء الشمس، ترقد على

أريكة وثيرة فيها أم شابة حسناء فى غلالة حريرية شفافة، تلتهم قطعة كبيرة من الجاتوه ، وبجوارها زوجها الأنيق يقرأ فى صحيفة، وأمامهما طفل واحد ممتلىء صحة وعافية، مشغول بلعبته... وفى مساحة صفراء بين الصورتين رسم لعلبة كبيرة تحوى أقراصا لا شك فى أنها لمنع الحمل، وقد كتبت تحتها عبارة «أىّ المنزلين تفضّل؟».

كان اهتمام الفلاحين بهذا الملصق عظيما كما قلت، كما بدا وهم ملتفّون حوله يدققون فيه النظر أنهم قد فهموا مغزى الصورتين فى وضوح وجلاء.. وقد شاء أحد موظفى البرنامج من الأمريكيين المجيدين للعربية أن يستوثق بنفسه من أنهم فهموه، فراح يطوف بهم ويسألهم عن المغزى الذى خرجوا به من مشاهدة الملصق، فإذا إجاباتهم جميعاً تجىء على النحو التالى:

«فى الصورة إلى اليمين رجل غنىّ يقرأ الجريدة كما يفعل حضرة العمدة... أما زوجته فامرأة كسول لا نفع فيها، لا تعرف غير الرّقاد والأكل.. والزوج نفسه يبدو أنه ضعيف جنسيا، فهو يقرأ الجريدة غير عابىء بمفاتن زوجته فى غلالتها الشفافة، كما أنه ليس لديه غير طفل واحد. والواضح أنه عجز بعد إنجابه عن أنجاب غيره... أما الصورة إلى اليسار فهى لرجل فقير ليس لديه ما يأكله، وهو مع ذلك رجل فحل قد أنجب من زوجته أحد عشر ولدا. وزوجته امرأة نشيطة ممتازة، تعمل فى همّة وجدّ من أجل خدمة عائلتها... أما هذه العلبة فى الوسط، فلا شك فى أنها إعلان عن أقراص لتقوية القدرة على الجماع والإنسال».

٣

وقد ظلت هيئة المعونة الأمريكية منذ ذلك الحين عازفة تماما عن تنفيذ

أىّ مشروع إصلاحىّ فى قريتنا، إلى أن رقّ قلب رئيسها فى النهاية واستجاب لتوسلاتنا وخطاباتنا، فقرر إيفاد خمسة من موظّفيه الأمريكيين لدراسة أوضاعنا واحتياجاتنا، ومشاريع الإصلاح الضرورية، وإحتمالات تقديم القرض وفتح الائتمان لقريتنا.

وصل الأمريكيون الخمسة إلى قرية«الشهدا»، يصحبهم مندوب من وزارة الرىّ بالقاهرة، وآخر من وزارة الصناعة، وثالث من وزارة الإسكان ، ورابع من وزارة التربية والتعليم.. وقد طافوا يومين أو ثلاثة بأنحاء القرية، يدرسون هذا ويسألون عن ذاك، ويتحدثون إلى أهل القرية ويرقبون سلوكهم وعاداتهم ويدوّنون الملاحظات فى كرّاسات صغيرة انيقة... وفى اليوم الرابع، فوجئت بمن سلّمنى ورقة من مندوب وزارة الرىّ يطلب منى فيها أن أقابله على انفراد فى دار العمدة.

توجّهتُ إلي الدار لمقابلته فإذا هو بعد مصافحتي يقول لى:

- هناك اتجاه إلى تقديمهم المساعدة لنا.

- اللهم لك الحمد.

ـ غير أن هناك صعوبة صغيرة تجعلهم يتردّدون فى تقديمها.

- وهى؟

- يبدو أنهم قد أقتنعوا بأن أهالى القرية متخلّفون عقليا بعض الشىء.

- متخلفون عقليا؟! كيف؟ جميعهم يتفرّجون على برامج التليفزيون، ويتابعون المسلسلات فيه، بل وثمة مقهى فى القرية يعرض الأفلام الجنسية الفاضحة من منتصف الليل إلى الفجر. فكيف يمكن تسميتنا با لمتخلفين؟

ـ وماذا عن الجسر؟

ـ أىّ جسر؟

– على الترعة فى قريتكم جسر خشبى بنته الحكومة منذ ثلاثة أعوام ليستخدمه الأهالي والسيارات في عبورها.. وقد لاحظ الأمريكيون خلال اليومين الماضيين أنه ما من أحد من الأهالى يستخدم هذا الجسر، وأنهم جميعا يتجنّبونه ويخوضون الترعة بأحذيتهم وملابسهم لعبور الترعة من ضفة إلى ضفة، وكأنهم حيوانات لا بشر، والجسر قائم على بضع خطوات منهم لا يصنع شيئا ولا يخدم أحدا... فكيف بالله عليك يمكن للامريكيين تقديم القروض أو الائتمانات إلى القرية و أهلها عاجزون عن فهم الغرض من بناء الجسور على الأنهار والترع؟!

– سيدى الفاضل، إسمح لى بأن أقول إنه لا علاقة لهذا بالأمر بكوننا متخلّفين أو غير متخلّفين.. كل ما هناك هو أن هذا الجسر المشار إليه قد بنى فى عهد الوزير عصام راضى، ولا أحد من الأهالي يستطيع أن يأمن على نفسه إن هو قرر استخدامه فى العبور.

– هل هناك خطر من استخدام الجسر؟

– الله وحده يعلم.. قد لايكون ثمة خطر جسيم.. صحيح أنه «ملخلخ» بعض الشىء وصحيح أنه حدث منذ عامين أن عبره كلب من الكلاب الضالة فاهتز الجسر بعض الاهتزاز، غير أنه قد يكون جسرا لا بأس به علي الإطلاق.. كل ما فى الأمر هو أن الناس لا ثقة لها فيه لأسباب إيديولوجية.

ـ تقصد لأنه بنى فى عهد وزارة عصام راضى؟

ـ بالضبط.. وقد زاد الطين بلة حدوث كارثة العامرية، وانهيار الجسر على الترعة النوبارية، رغم الشكاوى المتكررة من سكان المنطقة منذ عام ١٩٨٨ إلى عصام راضى ، مطالبين إيّاه بتقوية هذا الجسر الهشّ ودعمه بالحجارة لمنع انهياره، أو تحويل مجرى الترعة بعيدا عن المساكن المقامة على أرض منخفضة عن مستوى الترعة بنحو مترين ، فلم يستجب الوزير لتحذيراتهم، مما أدّى الي انهيار الجسر، وغرق خمسين ألف فدان مزروعة بالخضر والفواكه، وتشريد أكثر من عشرة الاف مواطن.

– إسمع ياسيد حسين ..الأمريكيون لن يفهموا هذا.. وأنت نفسك تقول إن خوف الأهالى من استخدام الجسر قد لا يكون له مبرر، وأنه من الجائز جدا أن يكون صالحا للعبور.

– سيدى.. نحن نعلم أنه فى مقدور الفيل، متى وضع قدما واحدة على أىّ جسر يريدونه أن يعبره ، أن يقدرّ ما إذا كان الجسر سيحتمل وزنه أم أنه سينهار به.. ومتى أحس بالاحتمال الثانى فما من قوّة على ظهر الأرض بوسعها إجباره على العبور.

– هذا عن الفيل..

– ألا يمكن أن يكون لدى أهالى القرية شعور تجاه الجسر مماثل لشعور الفيل؟

– لا ياسيدى .. هو مجرد تعصب لا مبرر له ولا أساس.. لذلك فقد قررنا أن نقصدك فى خدمة جليلة هى فى صالح القرية وصالح أهلها أنفسهم.. ألاتريدون معونة من الأمريكيين؟ نعم أم لا؟

– نعم.

- حسنا إذن .. أفلا يمكنك - باعتبارك عضوا فى المجلس المحلى - أن تحاول إقناع الناس بالعدول عن مقاطعتهم للجسر، والبدء فى استخدامه؟

- لن يأبهوا لقولى .. إما أنهم سيعتبروننى عميلا للحكومة، وإما سيقولون إن عصام راضى قد دفع لى قرشين حتى أقنعهم باستخدامه.. وهذا هو كل مافى الأمر.. قد لا تعلم سيادتك أن أحد طلبة المدرسة الثانوية فى القرية قد ألفّ فى العام الماضى قصيدة طويلة فى هذا الجسر، مطلعها :

وزيرَ الرىّ، قد شاهدتُ جسراً
أمرُّ على الصِّراط ولا عـليهِ
له خشبٌ يجوع السوسُ فيه
وتمضى الفأرُ لا تـأوى إليه
وكم قد جاهـد الحيوانُ فيه
وخلّف فى الهزيمـة حافِرَيْهِ
ومِن عجبٍ هو الجسر الـ.....

- وهو كذلك .. وهو كذلك .. لن تكون هناك إذن معونة أمريكية .. يمكنك الانصراف .. مع ألف سلامة.

هنا أحسست ببعض الخجل وكثيرمن الاضطراب والحيرة.. لقد مضت أعوام ونحن نجاهد فى سبيل الحصول على هذه المعونة. فكيف أقبل من نفسى أن أرفض أداء مثل هذه الخدمة الهامة لأهالى قريتى، وهم فى أمسّ الحاجة الى المساعدة الامريكية، لمجرد شك قد يكون خاطئا فى قدرة الجسر على تحمل المارة؟

- آسف ياسيدى.. قد عدلتُ عن رأيى.

ـ موافق أنت إذن على فكرتى.

ـ نعم

ـ برافو؛ وستضرب أنت لهم المثل والقدوة .

ـ أنا ؟

ـ بالتاكيد.. لا تقلق.. سنعطيك سيارة حكومية تعبر الجسر بها ، حتى إذا ما انهار الجسر وغرقت السيارة فلن تكون هناك خسارة بالنسبة لك.

ـ ولكنى سأكون وقتها داخل السيارة !

ـ بإذن الله لن يحدث إلا كل خير.. لا داعى للتشاؤم أو التفكير أكثر مما ينبغى فى العواقب.. ستعبر إذن الجسر بالسيارة، وسندعو الأهالى كلهم لمراقبة عملية العبور، حتى إذا مارأوك قد عبرته بنجاح، وأن الجسر ظل قائما على حاله وفى مكانه بعد وصولك بالسلامة الى الضفة الأخرى، فلا شك فى أنهم سيغيّرون رأيهم ، ويبدأون فى استخدامه والكفّ عن عبور الترعة بملابسهم ..نعم.غدا الجمعه.. سأطلب من إمام مسجدّ الشهدا أن يعلم الأهالى أثناء خطبة الجمعة بأن فى نيتك استخدام الجسر فى عبور الترعة فى الساعة العاشرة من صباح السبت، لا على قدميك ، وإنما مستخدما سيارة حكومية زيادة فى التأكد من متانة الجسر.. ثم يدعو الأهالى إلى الاحتشاد فى تلك الساعة على ضفتى الترعة لمشاهدة عبورك المجيد..

٤

عدت إلى منزلى بعد هذه المقابلة وأنا فى حالة لا يعلم بها إلا الله.. ناديت زوجتى وأبنائى الأربعة ، وجمعتهم فى حضنى أقص عليهم الموضوع

كله بملابساته ودواعيه، فإذا بهم ينفجرون بالعويل والنحيب ويتوسّلون إلىّ ألا أفعل ، ألا أقبل ، أن أستقيل ، أن أختفى أسبوعا من القرية، أن أدّعى المرض صباح السبت حتى يرحل الضيوف الأمريكيون... غير أنى شرحت لهم أهمية هذه المغامرة بالنسبة للقرية وأهلها، وما قد تجلبه لهم من معونة أمريكية سخيّة وتنفيذ مشروعات حيوية لا تستطيع الحكومة المصرية النهوض بها «لعدم توافر الإمكانات».. وأخبرتهم أنه لا نهضة لمصر إلا بتضحيات من أبنائها. ثم ذكرت لهم فى النهاية ما وعدنى به مندوب وزارةالرىّ من أنه فى حالة وقوع حادث (لا قدّر الله) فسترعى وزارة الرىّ أسرتى مدى الحياة، وتعوّض أفرادها عن فقدى التعويض الكافى، مقابل أنى رحت شهيدا للواجب وللمعونة الأمريكية.

أضافت زوجتى قائلة بلهجة ساخرة:

- شرط توافر الإمكانات!

قلت مهدئا:

- بإذن الله لن يحدث إلا كل خير ...

● ● ●

وقد خطر لى مساء الجمعة أن أكتب رسالة إلى سيادتكم بكل تفاصيل الموضوع وملابساته، كى تنشرها صحيفة «الأهالى» الغرّاء، من أجل إطلاع الجمهور على خلفية الموضوع، وطبيعة مجريات الأمور فى بلادنا العزيزة..وقد طلبت من أكبر أولادى (واسمه صلاح) أن ينتظر حتى ظهر يوم السبت،

حتى إذا ما سمع بأنى رحت ضحية لحادث العبور، بادر بإرسال الخطاب إليكم للتكرم بنشره .

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام.

من الشهيد/ حسين أحمد أمين

الجمعة ١٣ ديسمبر ١٩٩١ (عشيّة يوم العبور).

إحنا بتوع الأتوبيس !

أنا رجل ـ كما سيتّضح ـ معتزّ بمصريتى. لا عن تعصّب للبلد الذي نشأت فيه، وإنما نتيجة تفكير ومقارنة. دليلى على ذلك أن الأفكار التى كوّنتها عن كرم طبيعة الشعب المصرى، لم تكن لدىّ حتى أتيحت لى الفرصة أن أزور أوروبا ضمن مجموعة سياحية فى رحلة دامت أسبوعين، وأن أقارن بين الشعوب الأوروبية وشعبنا العظيم.

هذه المذكرات المتفرقة أكتبها لنفسى للاستعانة بها فى البحث الضخم الذى أنوى إعداده عن مزايا الشعب المصرى، والذى أهدف به إلى أن يكون بمثابة المرآة، يرى فيها مواطنىّ سجاياهم الطيبة التى قد لا يكونون واعين لها، فيزدادون بذلك ثقة فى أنفسهم، واعتزازا بمصريتهم فى مواجهة الأوروبيين والأجانب عامة...

وقد كنت فى الأصل أنوى أن أبدأ هذه المذكرات منذ خمسة أيام. غير أن تيار الكهرباء كان معطلا فى المنطقة التى أسكنها طوال هذه المدة، نتيجة لعبث بعض الفئران بالأسلاك كما يقولون.. ولما كانت الظروف لا تسمح لى بالكتابة إلا بعد منتصف الليل حين يطفىء الجيران مذاييعهم وأجهزة التيلفزيون، وتتوقف مكبرات الصوت بالحىّ عن إذاعة القرآن الكريم، فقد تأخرت فى البدء حتى تم إصلاح الخلل.. وقد ذكرت الجرائد أن إدارة الكهرباء قد وضعت يدها على الفئران المسئولة ، وطمأنت الجمهور

والمستشفيات التى شكت من انقطاع الكهرباء أثناء إجراء بعض العمليات على إمكان الاعتماد الآن على استمرار ورود التيار لأيام عديدة مقبلة.

ما علينا.. أمور لاصلة لها بالموضوع الأصلى، «مزايا الشعب المصرى»، غير أن هذه، كما قلت، ليست إلا مذكرات متفرقة أكتبها لنفسى، وسأحذف الخارج منها عن الموضوع فيما بعد، عند كتابة البحث.

لندخل رأسا إلى الموضوع إذن.

مزايا الشعب المصرى.

الميزة الرئيسية فى نظرى هى عمق إنسانية هذا الشعب.. إذ يكفى أن تراقب الوجوه، وجوه المصريين المعبرة الناطقة، وأن تقارنها بوجوه الإنجليز مثلا، أو السويديين أو الألمان، الخالية من كل تعبير، الشبيهة بتماثيل الشمع، كى تتضح لك هذه الحقيقة. وإنه لباستطاعة الفنان أن يتخذ من كل وجه مصرى يصادفه، نموذجا لتمثال حىّ، سواء كان هذا الوجه لشحاذ أعمى على قارعة الطريق، أو لخادمة فى الخامسة من عمرها تحمل صاجات الكعك عائدة من الفرن، أو لموظف فى أوتوبيس مزدحم ساعة الظهر، يحمل كيس عنب فى يد، ويدفع المتزاحمين حوله باليد الأخرى حتى لا يعصروا العنب.

قارن ذلك بالإنجليزى مثلا وهو فى طريق عودته من عمله بالقطار: الغليون فى فمه قد أطبق عليه بأسنانه، والجريدة قد نشرها أمامه يقرأها، والوجه بارد بارد، لا يوحى بمعنى أو يثير عاطفة. حتى إذا وصل إلى محطته، طوى الجريدة فى بطء، وتناول مظلته التى كان قد وضعها على الرف فوقه، ثم ينزل.. برود لاحدّ له.. ثم انظر بعد ذلك إلى أية وسيلة من وسائل المواصلات عندنا.. فى اعتقادى أنه لايمكن لأى شخص ذى حس فنى أن

يركب الأوتوبيس أو القطار فى مصر دون أن ينزل منه بقصة أو أكثر... وسائل المواصلات فى أوروبا للتوصيل فحسب؛ تركب وتجلس ثم تنزل، وكأنك آلة لا إنسان حيّ.. أما عندنا، فإنك تركب السيارة العامة أو القطار، دون أن تستطيع التكهن سلفا بالنتيجة... والمناظر التى تراها! والأحاديث التى تسمعها! كلها أمور تزيد من تجاربك، وتعمق من إنسانيتك...

جارك الذى لاتعرفه لايجد غضاضة فى أن يبثك متاعبه.. فلاحة يصلك صوتها من أقصى العربة تشرح للركاب سبب طلاقها.. شاب رشيق يغير وقفته كل دقيقة ليكمل التصاقه بالفتاة أمامه... أمور لاحصر لها مما يعرفه كل مصرى، ولا محل للتفصيل فيه.

أقول: إن كل مظهر من مظاهر الحياة فى مصر هو من الامتلاء بالإنسانية بحيث لابد أن يوحى للروائى بقصة، وأن كل وجه من وجوه المصريين هو من الغنى بالتعبير بحيث لابد أن يفرض على الفنان فكرة. ولهذا فإنى عظيم التفاؤل والأمل فى انتعاش فنون القصة والتصوير والنحت فى مصر، وبلوغها درجة من الكمال لم تصل إليها فنون الشعوب الأوروبية.. أما عن السبب فى أن هذه الفنون لم تنتعش لدينا حتى الآن، فهو فى اعتقادى...

* * *

انقطعت الكهرباء مرة أخري ليلة أمس أثناء كتابتى لهذه المذكرات . وقد حاولت الآن جهدى أن أتذكر تفسيرى للظاهرة التى كنت أتحدث عنها، فلم أفلح.. لا بأس .. المهم هو أننى متفائل بمستقبل الفنون عندنا.

نرجع إلى موضوع الأوتوبيسات. فالحقيقة أننى مغرم باستنباط الحقائق الكبيرة من أكثر الظواهر العادية بساطة. ومن دراسة أحوال المواصلات فى مصر، يمكننا معرفة الكثير من مزايا الشعب وخلقه.

خذ مثلا تلك الظاهرة الشائعة فى مصر، وهى وقوف السائق بالأوتوبيس للراغبين فى الركوب فى غير المحطات المقررة، عن مجرد طيبة منه، وحرصا منه على عدم كسر خاطرهم.. أمر لا تجده فى أية دولة أخرى غير مصر.. وفى مقابل هذه الطيبة من جانب السائق لاحظ طيبة الركاب وتساهلهم عندما يقف السائق بالأوتوبيس عند دكان للفول أو الشاى، فينتظرون جميعا دون تململ أو تعليق، مدة خمس دقائق، وصول الصبى بنصيب السائق من الفول أو بقدح الشاى، فلا تتحرك السيارة إلا بعد أن يقضم سائقنا لقمته، ويشرب جرعته... كل شىء هنا يوحى بالجو العائلى الطيب المتسامح، والأمور بعيدة كل البعد عن الرسمية والشكلية الباردتين.. السائق يتناول إفطاره، والركاب لا يجدون حرجا فى الركوب ببيجاماتهم، والفلاحات يفاصلن فى ثمن التذكرة.. نعم! إنى أرى أن الأوتوبيس فى مصر عالم كامل بذاته.. هو مصر مصغَّرة. والجو الذى يحيط بهذا العالم الصغير، جو عبيره الطيبة والإنسانية، حتى لو كان الأوتوبيس من الازدحام بحيث لم يعد فيه جو على الاطلاق، ولا عبير سوى عبير البصل والثوم.

أقول، قد تجد الأوتوبيس من الازدحام حتى لتخاله لايتسع لقدم. ومع ذلك، فإن حاولت سيدة جميلة الصعود أفسح لها الركاب على السلم صدورهم، (وهو بالكاد كل ما باستطاعتهم إفساحه)، قائلين:

«أمّال! إن ما كناش حانساع بعض حانساع مين؟»

ثم يدعونها تركب... طيبة غير معقولة.. صحيح أن العجلة غالبا ما تفرقع نتيجة لصعود الراكب الجديد، غير أن مجرد سماع مثل هذه الكلمات

الحكيمة السمحة، كفيل بأن يثلج الصدور، ويطرب القلوب، مدة يوم بأسره.

* * *

ثم خذ مثلا آخر ما حدث لى منذ بضعة أيام.. كنت فى الأوتوبيس فى طريقى إلى موعد بالمطرية... فى إحدى المحطات صعد المفتش، وكان أول من طلب إليه إبراز التذكرة، شابا يرتدى الملابس المدنية أجاب المفتش بأنه «بوليس» . وعندما طلب المفتش منه ـ مع ذلك ـ إبراز بطاقته، وألح فى الطلب، ضربه الشاب على رأسه.. قبل أن يردّ المفتش الضربة، ضمن شهادة جميع الركاب أن الشاب هو البادىء، ثم لكم الشاب فى فكّه.. وفى أثناء توجه الأوتوبيس بالركاب إلى قسم البوليس استمرت المعركة، بينما حرصنا جميعا على مراقبتها بدقة كى نتمكن فيما بعد من الإدلاء بشهادة أمينة.

غير أن هذا ليس هو المهم فى الموضوع. فالأمور ــ كما يقولون ــ بخواتيمها. وخواتيم الشجارات فى مصر، وفى عالمنا العربى بصفة عامة، (بل وفى علاقات الدول العربية بعضها ببعض)، معروفة، إن كانت تدل على شىء فإنما تدل على طيبة قلب متناهية، وعدم استعداد لإضمار الكراهية والحقد مدة طويلة . فقد يسفك المرء للمرء دمه، وقد يسمّم مواشيه ويحرق زرعه ويستبيح ماله ويرميه بأقذع السباب. ولكن النزاع عادة ينتهى بعناق وقبلات، قبلات تنسى لها الضحية دمها المسفوك، ومالها المستباح، وتخرج بعدها أكثر إنسانية ورضا من ذى قبل. ولا محبة إلا بعد عداوة كما يقال. وهل أنا فى حاجة إلى أن أورد الصعيد على سبيل المثال، والعداوات التى تستمر هناك أجيالا وأجيالا، وتذهب ضحيتها عشرات الأنفس والماشية

والمحاصيل، ثم تنتهى بوليمة عامرة، وتصاف كريم، وغفران حلو، وتأكيد لصداقة أبدية؟

ما علينا! كان فى الأوتوبيس الذى أتحدث عنه رجل أجنبى ومعه زوجه وطفلاه، أحدهما مريض. وإذ أصابت هذا الطفل المريض لكمة طائشة من الراكب الذى رفض إبراز بطاقته، فقد أراد الأجنبى النزول بعائلته فورا، متمتما بألفاظ غير واضحة، خمنت أنها لابدّ كانت موجهة ضد المصريين. نعم... كل ما كان يعنيه هو سلامته وسلامة أولاده وزوجته. أما أن يتناسى هذه الغايات الشخصية الضيقة، ويصبر وينتظر حتى يرى نتيجة هذا الشجار البرىء فلربما تعلم من المصريين درسا فى سرعة التصافى ونسيان العداوة، فمما لم يكن بوسعه... فكرت حينذاك: هكذا الأوروبيون فى حكمهم علينا! يحكمون على أخلاقنا حكما سطحيا سريعا أساسه أعمالنا الظاهرة، ولا يكلفون أنفسهم أبدا النظر الى أبعد من السطح.. فليكن إذن! فالخاسرون هم.

* * *

اختصارا للقصة ، أقول، إن السيارة بالركاب وصلت إلى قسم الشرطة، (لا أدري فى أى حىّ)، ونزل بعضنا مع المختصمين للإدلاء بالشهادة، كنت أحدهم . وإذ مثلنا أمام الضابط ، تبين أن الراكب ليس برجل بوليس ، وإنما هو طالب فى كلية الشرطة ليس غير، استعجل الأمور واستبق الحوادث، فادعى أنه ضابط. كان بإمكان الضابط فتح محضر له. غير أننا معشر المصريين من الطيبة والحكمة، والاستعداد للعفو، بحيث لا نصّر على تطبيق نصوص القانون الجامدة غير الإنسانية إلا فى الحالات التى لانجد فيها مفرا من ذلك، تاركين طريق الإصلاح والاستقامة مفتوحا أمام ضمير المعتدى،

واستعداده لتفهم الحق والخير. وهو أمر لست بواجده فى أوروبا ولو فتشت من أقصى القارة إلى أقصاها. فالقانون فى نظرنا عدوّ للرجل العادى، وشرّ لابد منه، نتجنب الالتجاء إليه قدر المستطاع، مما يجنبنا بالتالى وخيم عواقبه (عواقبه على الجانى والمجنى عليه على السواء)، ويزيد من فرص إدراك المعتدى للطريق السوىّ.. خذ مثلا لذلك: قد يعثر شرطى على عربة فاكهة لبائع متجول فى مكان محظور على الباعة المتجولين ممارسة نشاطهم فيه . نجد الشرطى يكتفى بالتوبيخ والتوجيه، شأنه فى ذلك شأن الأخ الكبير، وقد يصحب توجيهه بصفعة أو صفعتين على قفا البائع، غير أن الأمر ينتهي عند هذا الحد. وينصرف البائع طائعا إلى غير ذلك المكان، وينصرف الشرطي بموزة أو بعض التين مما أهداه له البائع فى طيب نية تعبيرا عن امتنانه لما تلقّاه من إرشاد.

* * *

نعود إلى القصة.. أنا أعلم أننى كثيرا ما أشطح أثناء السرد، غير أنى أرى أن كل هذا سيخدم بحثى عن مزايا الشعب المصرى. الأمر فقط فى حاجة إلى بعض التشذيب والحبكة، غير أنى أترك ذلك إلى حين البدء فى كتابة البحث.

أقول: إن الضابط لم ير ضرورة لتحرير محضر بالحادث، إشفاقا منه على مستقبل الطالب، وحرصا منه على عدم إيلام شعور والده الذى اتضح من كلام الشاب للضابط أنه لواء بالجيش . بالعكس ، لقد رجا الضابط الطالب أن يجلس على كرسى بجواره، وطلب له فنجان قهوة، رفضه الطالب فى تواضع حلو .

أما عن المفتش، فقد نصحه الضابط أن يرقق معاملته فى المستقبل، وأن

يحسن نيته وظنه بالناس. والدين ـ كما جاء فى الحديث الشريف ـ المعاملة . ثم طلب من المختصمين أن يتصافحا (وهو ما قاما به)، وأن يتنازلا عن شكواهما (وهو ما فعلاه أيضا وعلى وجه كل منهما ابتسامة، خاصة وجه المفتش الذى أسفرت ابتسامته العريضة عن مكان سِنّتين كانتا هناك قبل صعوده الأوتوبيس).

فكرت : أى انطباع مختلف كان سيحدث لدى الرجل الأجنبى لو أنه صبر وانتظر حتى شاهد هذه اللحظات من الغفران والتسامح والاستشهاد بالأحاديث النبوية الشريفة؟ الأمر الطبيعى فى بلاده هو أن يعاقبوا الطالب، وربما فصلوه من كليته، دون أدنى اعتبار لمستقبله أو لمشاعر أبيه. والنتيجة هى أن يخرج الفتى بعد العقوبة أكثر استعدادا للجريمة من ذى قبل... أما هنا، ففنجان قهوة، وسؤال عن صحة الوالد الكريم، وترديد لموعظة حسنة، كفيلة بتهذيب النفس دون عقاب، وردع عن الجريمة دون تطبيق للقانون... إننى أقولها فى إيمان، إنه مازال أمام الأوروبيين الكثير مما يمكن أن يتعلّموه منا.

* * *

على أىّ حال، فلا أدرى ما الذى دفعنى وقتئذ، والمفتش والشهود يتأهبون للانصراف، والضابط يرجو الطالب تبليغ سلامه لوالده؛ أقول: لا أدرى ما الذى دفعنى ــ سوى ربما اقتباس الضابط للحديث الشريف، ورغبتى فى إضافة موعظة حسنة أخرى مساهمة منى فى تبديد الغيوم نهائيا وإصلاح المجتمع ــ إلى أن التفت إلى الطالب قائلا له فى رقة:

ــ إن مهمة رجل الشرطة هى أن يحرص على رؤية النظام يحترمه الناس، لا أن يعبث هو نفسه بهذا النظام.

قولة صدرت منى عفوا وعن طيب خاطر، ودون أدنى ذرة من سوء النية.. مجرد رغبة ــ كما قلت ــ فى المساهمة فى تصفية الجو باعتبارى مواطنا صالحا.. تصوّر دهشتى وجزعى إذن عندما شاهدت الضابط والطالب (بل والمفتش) وقد اصفرّت وجوههم فى غضب، بينما فغر الحاضرون أفواههم وهم يحدّقون فىّ، وكأنما نطقت بفاحشة مبيّنة.. فاجأنى الضابط بقوله:

ــ انت يا أفندى انت.. تعالى هنا.. إسمك؟

وفتح لى محضرا بالحادث..

لا أكتم القارىء أننى دهشت فى بادىء الأمر لمعاملته، خاصة أنه استجوبنى وأنا واقف، ولم يطلب لى فنجان قهوة، ولا هو سألنى عن صحة والدى. كما عجبت حين أمسكنى الشرطى من ياقة سترتى عند قفاى، ودفعنى إلى مكتب الضابط رغم أنى كنت أتقدّم إليه من تلقاء نفسى:

ــ إسمك؟

ــ فخرى عزّ العرب.

لحظة تردّد من جانب الضابط:

ــ سيادتك قريب العقيد رفعت عز العرب؟

ــ لا.

ينتهى التردّد.

ــ صناعتك؟

ــ أديب.

همهمات سخرية من الضابط والطالب.. المسكينان! إنهما لايدركان بعد

أهمية دور الأديب فى تطوير الوعى القومى، ودعم إحساس المواطنين بالعزة الوطنية.

ــ أديب أدباتى حضرتك؟...

«طيب اقرالى اللى فى قلبى   واحكــى لــى عليــــه»!

أنشده بنفس اللحن الذى وضعه عبد الوهاب لأغنيته مع راقية إبراهيم. ثم انفجر مع الطالب بالضحك.. ولا أدرى مبلغ سوء المآل الذى كنت معرضا له لولا أن أسعفتنى سرعة البديهة، وطيب الاستجابة للنكتة، المعروفان عن الشعب المصرى، فأجبته بالبيت التالى من الأغنية.

«اللى مكتوب فيه بيخوّف   مقـــــدرش احكيــــــــه»!

هنا انفجر الإثنان ، وتبعتهما ، بالقهقهات العالية المتواصلة ، خاصة الضابط السمين الذى ضحك ــ كما تقول كتب التراث ــ «حتى استلقى على قفاه واخضلّت لحيته». والواقع أن الموقف كان خليقا بالمقارنة بمجالس طرب الخلفاء العباسيين، ولو كان فى جعبة الضابط أكثر من جنيهين لأمر لى بجائزة سنية كما يروون عن هؤلاء الخلفاء... المهم هنا هو أنه أقفل المحضر وأمر لى بكرسى وفنجان قهوة.

* * *

نعم هكذا انتهت مغامرتى البسيطة.. أركب الأوتوبيس بنية التوجه الى موعد بالمطرية، فتتشابك أيد، وتسيل دماء، ويلكم طفل فى وجهه، ونقوم بزيارة لقسم الشرطة، ونتلقى درسا فى رقة المعاملة مستندا إلى أحاديث نبوية، وأجد نفسى معرضا للحجز، ثم ينتهى تعرضى له بنكتة وقهقهات. وصديقى

واقف ينتظر، لا أنا أذهب إلى موعدى معه، ولا قدماى تطآن المطرية.

قصصٌ لمن شاء كتب، وغنى فى التجارب والاحتمالات، لاتجده إلاّ فى قطرنا الحبيب، وبين ظهرانى شعبنا الإنسانى.

* * *

شغوف بالنكتة هذا الشعب المصرى. نعم! ألا كم هو شغوف بالنكتة! إنه لعلى استعداد للتضحية بالأب والأم، وطلاق الزوجة وفقدان الوظيفة، واغتفار الجرائم ونسيان الاحقاد، لو أن النكتة فقط حبكت. وهل سمعنا عن بلد آخر غير مصر يقفل فيه المحقق محضرا محررا لإهانة موجهة إلى هيئة عامة، لمجرد أن الجانى أسعفته قريحته، فاقتبس بيتا مناسبا من أغنية! فى اعتقادى أنها ظاهرة قديمة كل القدم، نلمسها فى عهد الخلفاء والولاة العرب، حين كانت القولة اللبقة، والردّ الظريف، لا يمحوان جريمة الجانى فحسب، بل ويجلبان له عطاء سخيا، وأحيانا منزلا وجاريتين.

والنكتة فى مصر ــ كما هو معروف ــ بإمكانها أن تسقط الوزارات، وأن تقضى على المستقبل السياسى لزعماء الأحزاب. وإذ أن الغالب أن يكون للنكتة السياسية قاعدة شعبية واسعة، فأية ديموقراطية فى العالم هى خير من ديموقراطية إسقاط النكت للوزارات، وهى التى تعبّر فى صدق، وفى قالب فنى محبوك، عن آلام الشعب ومشاعره. صحيح أنه كثيرا ما يحدث أن يفقد قائل النكتة نفسه مستقبله السياسى، وربما الاجتماعى والاقتصادى أيضا، بينما تستمر الوزارة قائمة، غير أنى مازلت أذكر أمثلة حدثت منذ نصف قرن لنكت كان لها الأثر الذى أتحدث عنه.

* * *

فنان شعبنا المصرى هذا بطبعه. وميزة فنه أنه ليس بالفن المنعزل عن الشعب، وإنما هو فن منبثق عن أدنى طبقات الشعب اجتماعيا وثقافيا.. هو فن يصادفك فى كل خطوة تخطوها، وعند كل منحنى للطريق... أسير فى حارة فينسكب علىّ من أعلى ملء جردل من الماء.. فإن احتججت على المرأة التى سكبته، صاحت بى:

ــ هى ميّه وسخة؟ دى مرقة فراخ يا دّلعدى!.

دُعابة ممتازة، وفهم لطبيعة النكتة سليم. بل حتى فى التبادل العادى للتحيات: تمرّ على شيخ جالس على مصطبة يعبث بسبحته، فتلقى عليه السلام:

ــ اتفضل.

ــ الله يخليك.

ــ اتفضل.

ــ الله يحفظك.

ــ والله لتيجى.

ــ الله يكرمك.

ــ علىّ الطلاق لانت جاى.

ــ الله يبارك فيك.

ربع ساعة على هذا المنوال، لايتعب أثناءه لسان، ولا ينفد خلاله جعبة الكلمات والتعابير المنوعة.

ثم فوق كل شىء ــ كما أشار زميل لى فى الأدب شديد الإعجاب بمواهب الشعب المصرى الفنية ــ الرّدح: أعظم الفنون المصرية طرا، وأوسعها انتشارا.. كتب الزميل يشرح طبيعة هذا الفن:

«الردح، كالزغاريد، فن مصرى أصيل. وكما أن الزغاريد لا تجيدها كل النساء، فكذلك الردح. هناك المتخصصات فيه يحفظن عددا لا نهاية له من الشتائم، بعضها عادى، وبعضها فيه تشبيهات واستعارات وكنايات، وبعضها أدب خالص. ولايكفى الحفظ، بل لابد أن يكون فى استطاعة المرأة أن تلضم الكلمة فى الكلمة، بلا تردد أو توقف، وتحيل الشتائم إلى سيل متدفق لا ينقطع. ولابد للشتمة من وقع وموسيقى. ولابد أن يكون للصوت مقام معين يرتفع فى المواضع المهمة إلى السوبرانو، وينخفض عند بعض الكلمات الماسة إلى الألتو. فمع أن المسألة شتيمة فى شتيمة، إلا أن هناك على كل حال شتائم لا تصحّ، ونحن شعب مؤدب خجول بطبعه. ثم لابدّ للردح من موهبة فطرية، تستطيع بها أن تخرج أرفع الأصوات وأعلاها بأقل مجهود، حتى تستطيع المرأة الصمود.. فالردح مسابقة، والفائزة هى من يظل صوتها عاليا إلى النهاية...»

تحليل ذكىّ يضىء لنا الكثير مما كان خافيا علينا بصدد هذا الفن. لقد ظل الكثيرون من المثقفين عندنا ينظرون باشمئزاز الى الردح، ويعتبرونه عارا، حتى جاء هذا الفنان المعتز بمصريته، الخالى من عقد النقص تجاه الأوروبيين، فجعل من الحجر المرفوض ركن الزاوية، وأوضح لنا أنه من الواجب الاعتزاز بالردح اعتزازنا بمواهبنا الأخرى المماثلة، وأن تتولى الهيئات الثقافية المسئولة تشجيعه، وتوفير المنح والمكافآت المالية للنهوض به.

إننى أكرر هنا: إن شعبنا فى حاجة ماسة إلى الكثيرين من مثل هذا

الأديب، كى يرفعوا من معنوية المصريين ويزيدوا من اعتزازهم بمزاياهم الكامنة.

* * *

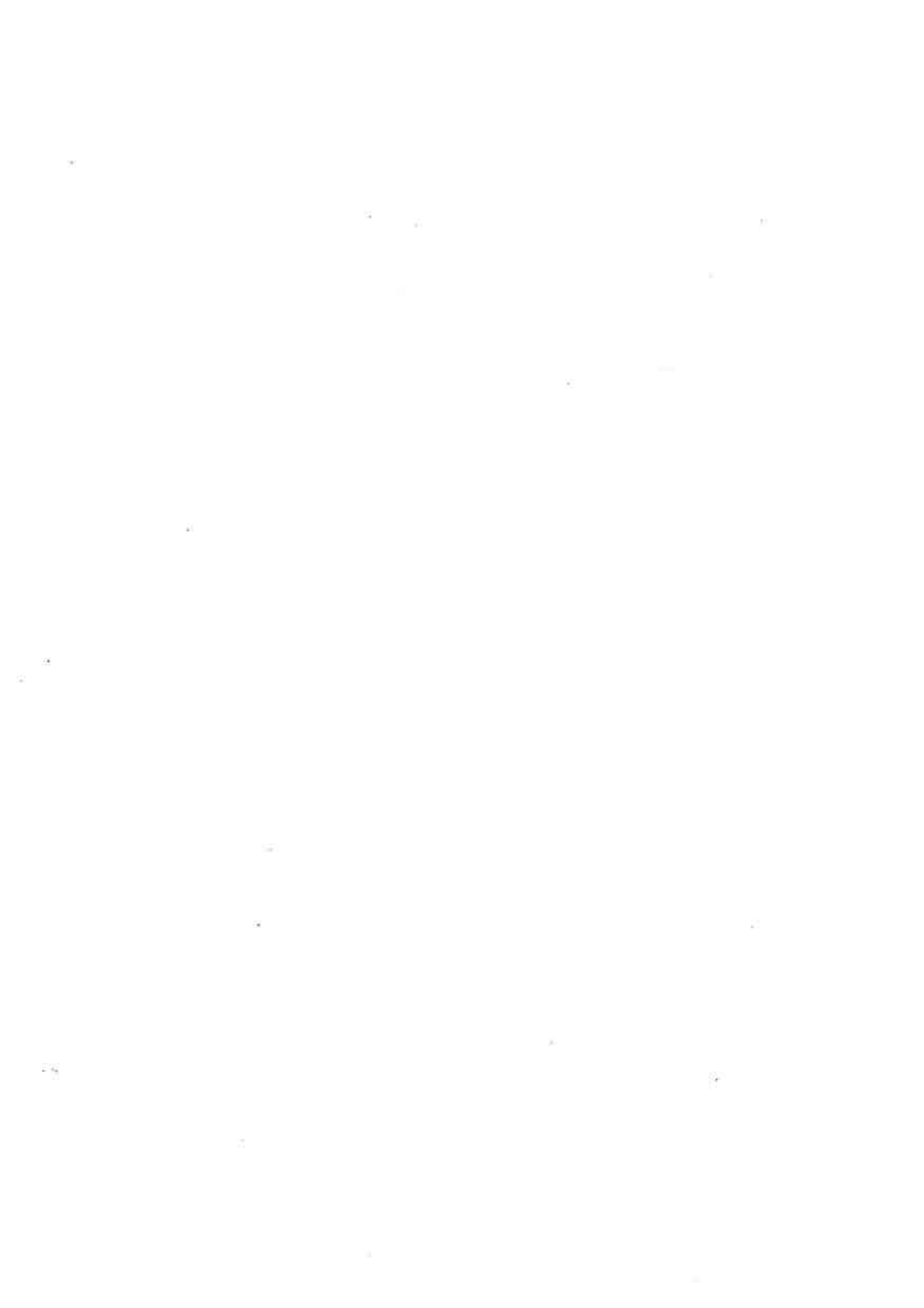
كلمة المحرر:

هنا تنقطع فجأة هذه المذكرات التى كتبها صديقى فخرى عز العرب، بنية الرجوع إليها عند إعداده لبحثه عن «مزايا الشعب المصرى». وليس بوسعى أن أعبرعن مدى أسفى وحزنى إذ شاء القدر ألا يتيح لأستاذنا الجليل فرصة إكمال مشروعه... ذلك أنه فى صباح ١٥ سبتمبر الماضى أصيب بوعكة خفيفة طارئة. وإذ دخل مستشفى قصر العينى فقد مات . وقد طلب منى قبل موته أن أتصل بخادمته كى تسلمنى هذه المذكرات التى يجد القارىء بين يديه عدة صفحات منها، حتى إذا آنَسْتُ فى نفسى رغبة فى كتابة البحث، استعنت بها.

وبالفعل، قمت بزيارة لشقته بعد شهر من وفاته، وقابلت خادمته. وهى امرأة فى الخمسين تتحلى بكافة السجايا الطيبة التى كان يحبها صديقنا رحمة الله عليه فى شعبنا المصرى. وعندما ذكرت لها وصيته بشأن المذكرات، بدا عليها الارتباك، ثم اعترفت لى بأنها ــ إذ كانت تجهل طبيعة هذه الأوراق لجهلها بالقراءة والكتابة ــ قد استخدمت الشطر الأكبر منها ــ حتى أثناء حياة المرحوم ـ فى بعض الشؤون المنزلية... هنا انتابنى غمّ حقيقى إذ يُحرم الشعب المصرى من بعض الملاحظات الثاقبة عن مزاياه... على كل حال، فقد أتتنى بالأوراق القليلة المتبقية من دورة المياه حيث استخدمت معظم

الأوراق المفقودة. وهأنذا أضع كل ما تجمّع لدىّ منها بين يدى القارىء، دون التغيير والتشذيب اللذين كان أستاذنا ينوى إجراءهما.

أما فيما يتعلّق بطلبه أن آخذ على عاتقى مهمة كتابة البحث، فأمرٌ فوق طاقتى، لافتقارى إلى الكفاءة الأدبية، وتخلّفى عما كان يتمتع به صديقى من نظرات ثاقبة وفكر نفّاذ. وإنى لأترك لمن شاء غيرى إكمال البحث الحرية الكاملة فى الاستعانة بهذه المذكرات.



المعذّبون فى الأرض

وقت أن كنت أعمل فى ألمانيا وزير مفوضا بالسفارة المصرية فى أوائل الثمانينيات، كان أحد هموم رجل الشارع الألماني، ومن أكبر مشاغله ، كيفية إنقاذ الضفادع من خطر السيارات المسافرة على الطريق السريع.

فالمعروف عن الضفادع التى تسكن الغابات المجاورة لضفاف الأنهار، أنها متى ما حان أوان وضع الإناث لبيضها، حمل كل ذكر أنثاه على ظهره، وتوجه بها من الغابة إلى ضفة النهر حيث تبيض الضفدعة.. غير أن شق الطرق السريعة التى تفصل الغابات عن الأنهار أدّى بالضّرورة إلى مصرع عدد كبير من الضفادع أثناء عبورها هذه الطرق فى اتجاه النهر، خاصة أثناء الليل.

وكان أن دشّنت جمعيات الرفق بالحيوان الألمانية، (وتبعها في ذلك التليفزيون فالإذاعة فالصحف)، حملة مكثفة واسعة النطاق، تعرض جوانب المأساة ، وتستنكر الظلم الواقع على الضفادع، وتعرض صورا لضحايا السيارات وقد التصقت جثة الضفدع بجثة أنثاه التى كان يحملها على ظهره فى اتجاه ضفة النهر.. وكانت نتيجة هذه الحملة أن نصبت حكومات الولايات الالمانية اللافتات على جانبى الطرق السريعة، (وعليها رسم لضفدع)، تدعو السائقين إلى تخفيف السرعة من أجل التمكن من تفادي

الضفادع العابرة للطرق، ثم أنفقت بعد ذلك ملايين الماركات على بناء الحواجز عند أطراف الغابات، وشق الأنفاق الكثيرة من الغابات إلى الأنهار تحت الطرق السريعة حتي تستخدمها الضفادع في عبورها الآمن إلى الضفة، بدلا من الطريق المكشوف المحفوف بالأخطار.

● ● ●

حدث هذا خلال عامى ١٩٨١ و١٩٨٢... وعندما توجهت إلى ألمانيا هذا الصيف لقضاء إجازتى السنوية فى ميونيخ، إذا بحملة أخرى هي على قدم وساق، قد شغلت الرأى العام الألمانى، بل وكادت تصرفه عن التفكير فى المشاكل الاقتصادية الخطيرة التي نجمت عن توحيد شطرى البلاد، والتي ستنجم عن قرار نقل العاصمة من بون إلى برلين، ألا هي الدعوة إلى إنقاذ الخنافس المشرفة على الانقراض والاندثار.

فالمعروف عن الخنافس أن الأنثى منها تقضي زمنا طويلا قبل أن تبيض فى حفر سرداب طويل ضيق تحت الأرض، وفى نهايته حجرة كروية واسعة، ثم تمضي طوال موسم الأمطار فى صنع كرات صغيرة مجوّفة من الطين والعشب، تبيض بيضة فى كل منها، ثم تحكم إغلاقها، وتظل من حين لآخر تقلبّها على جوانبها لإحكام تكويرها، ثم تخرج من السرداب إلى الهواء الطلق، فتموت فى بداية موسم الجفاف... ويظل الجنين مدة خمسة أشهر يتغذّى على ما فى كرته اليابسة من طين وأعشاب، حتي إذا ما عادت الأمطار وابتلت الكرة، تمكنت الخنفساء من شق طريقها بسهولة إلى خارجها، ثم إلى خارج السرداب، لتبدأ حياتها على ظهر الأرض.

غير أن الذى لاحظه الألمان مؤخرا ، هو أنه بالأضافة إلى الطيور التى تتغذى على الخنافس، قد تكاثر نسل ذلك الحيوان المعروف بآكل الخنافس

(الشبيه بآكل النمل) الذى تقوده غريزته فى يسر إلى السراديب، فيظل يحفر فيها حتي يصل إلى البيض فيكسره ويأكل الأجنة، وأن تكاثر هذا الحيوان بات يشكل خطرا عظيما يهدّد بانقراض الخنافس.. وهو ما أثار انزعاج الشعب الألمانى الذى دشّن حملة إعلامية قوية من أجل الإسراع باتخاذ الخطوات اللازمة لحماية هذه الحشرة البريئة التى يتطلب تكوينها من الزمن ما يزيد على خمسة أشهر ومن جهد الأم ما عرضته علينا كاميرات التليفزيون فألهبت مشاعر المشاهدين، وأثارت رثاءهم....غير أنه بالنظر إلى تضاؤل القدرة الراهنة لدى حكومات الولايات على الأنفاق بسخاء على مشاريع حماية الخنافس، فقد تُرك أمر تدبير المبالغ اللازمة للهيئات والجمعيات الخيرية، عن طريق جمع التبرعات من أفراد الجمهور المتعاطفين مع هذه الحشرة.

● ● ●

حفزني ما لمسته من نجاح هذه الحملة لجمع التبرعات على الشروع فى تنفيذ فكرة خطرت لى. فقمت يوم الخميس ١١ يوليو بزيارة مقرإحدى هذه الجمعيات الخيرية فى ميونخ، وجلست في الردهة الخارجية فى انتظار الإذن لى بمقابلة المدير، أقلب النظر في الملصقات الدعائية التى تملأ حيطان الردهة:

«جاهدوا من أجل إنقاذ الحيوان من قسوة الإنسان »

« تبرعوا في سبيل مساعدة الحيوان »

« هذا العذاب غير اللازم، من المسئول عنه؟ »

« حماية الخنافس من الانقراض واجب على الكافة »

« لا تدعهم يغرّرون بك ويثبتون لك أن التجارب المعملية على الحيوانات هي لمصلحة العلم والبشرية »

« المعامل البريطانية تشهد خلال عام ١٩٩٠ وحده تعذيب ٤ ملايين من الحيوانات».

« تدهور الأحوال المعيشية للحمير فى منطقة الشرق الأوسط ».

* * *

رحّب المدير بى وطلب منى الجلوس ومن سكرتيرته أن تجمع لى فى مظروف كبير منشورات الجمعية وعيّنات من مطبوعاتها... ثم سألنى عن وضع الحيوانات فى مصر، وعن معاملة المصريين لها، وذكر لى أنه قد تناهي إلى سمعه مؤخرا، للأسف الشديد، وبالرغم من عراقة المصريين وحضارتهم الفرعونية المجيدة روايات مزعجة عن وضع بعض الحمير والكلاب والقطط، وعن إزعاج الجمهور المتردد على حديقة الحيوان بالجيزة للقرود والنسانيس..

قلت له إننى أحمل تقديرا عميقا لذلك الاهتمام العظيم الذي يبديه الشعب الألمانى من أجل حماية الحيوانات والحشرات، خاصة المهددة بالانقراض.. غير أنه لا شك يوافقني على أن هناك أولويات، وأنه لا يزال هناك فى عالمنا هذا، خاصة في الدول الفقيرة مثل مصر، من المعذبين فى الأرض، كائنات أخرى غير الحشرات والحيوانات، ربما تكون فى حاجة أكبر إلى المعونات وجمع التبرعات لتخفيف ما تعانيه من مشكلات، وما تنوء تحته من أعباء.

قال فيما يشبه الضيق: تقصد البشر؟

قلت نعم.

قال: هل هناك جماعات منهم فى مصر مهددة بالانقراض؟

فكرت فى أن أجيبه بالايجاب، وأن أذكر له على سبيل المثال من المهددين

بالانقراض : الموظفين غير المرتشين، والتجار الشرفاء، والمسئولين الجادين فى محاولة الإصلاح، والصحفيين الذى يأبون بيع أقلامهم لحكومات الدول الخليجية، والمفكرين الرافضين الانصياع لتوجيهات رجال السلطة وذوي النفوذ، إلى آخره... غير أني أحجمت عن ذكرهم لسببين: الأول خشيتى من الإساءة إلى سمعة بلدى، والثاني عزوفى عن أن أشغل اهتمام الجمعية الألمانية بحفنة من المصريين قد لا يزيد عددهم على عشرة أو عشرين.

وبدلا من ذلك أخرجت من جيبى مظروفا به قصاصات من صحيفة «الأخبار» من رسومات مصطفى حسين الكاريكاتورية الخاصة بقهوة الموظفين، توضح الحالة البائسة التى وصل إليها الموظفون المصريون العرايا المظلومون المطحونون.

تأملها الرجل دون أن يبدو على وجهه اهتمام كبير أو شفقة ملحوظة، ثم ردّها إليّ بحركة من أصابعه.

- هل هم في سبيلهم إلى الانقراض؟

- بالعكس عددهم يتزايد يوما بعد يوم.

- قد يكون وضعهم بائسا كما ذكرت. غير أن مثل هذه الصور لا يمكن أن تثير شفقة الجمهور الألمانى على النحو الذى تثيره صور الخنافس والضفادع والكلاب والقردة التى تجمعها لك الآن سكرتيرتى... صور تكاد تمزق القلب... ثم إننا نهتم أساسا بالحيوانات والحشرات التى لا تملك من أمرها شيئا في مواجهة عدوانية الإنسان. أما هؤلاء فى صورك فما الذى يحول بينهم وبين تنظيم أنفسهم للدفاع عن حقوقهم ودفع الظلم عنهم؟ أتراهم يفضلون الثبات على سلبيتهم ثم يمدون أيديهم يشحذون من الدول الغنية؟ ...

ثم إن حكومتنا الفيدرالية تقدم بالفعل المساعدات المالية والقروض الطائلة لمصر ، وكان من اليسير أن توجهها حكومتكم لتحسين أحوال هؤلاء الموظفين وغيرهم، بدلا من إنفاقها مثلا على توفير الامتيازات للضباط وبناء النوادى الترفيهية بالغة الفخامة والضخامة لأسلحة الجيش المختلفة، وهي نوادٍ رأيتها بعينى رأسى فى الطريق المؤدى إلى مطار القاهرة ، ولم أشاهد مثيلا لها فى بذخها وفخامتها فى أغنى دول العالم وأعظمها جيوشا.

ودخلت السكرتيرة لتناولنى باسمةً مظروف مطبوعات الجمعية. فلما خرجت استطرد قائلا:

– فإن إذنت لى أن أتحدث بصراحة قلت لك إن أية حملة لجمع الإعانات لأى شعب عربى أو أية قضية عربية هى فى الوقت الراهن على الأقل محكوم عليها بالفشل فى ألمانيا... إذ كيف يمكن أن يتعاطف الشعب الألمانى معكم أو يتجاوب مع قضاياكم وهو يرى امراءكم وأثرياءكم هنا أو في سائر بلدان أوروبا ينفقون أموال شعوبهم على الساقطات من نسائنا وعلى موائد القمار وسائر صنوف اللهو الرخيص، ويرى المطحونين فى بلادكم صامتين لا يتحركون؟ أو كيف يمكنه أن يتعاطف مع العالم العربى وقد غدا اليوم آخر قلعة للديكتاتورية ولنظم الحكم الفاشية فى العالم بأسره؟...لا يا سيدى العزيز ...... مساعدة الضفادع والخنافس أقرب إلى قلوبنا.

* * *

أعدت مظروف القصاصات إلى جيبى وقد ارتسمت على وجهى علائم الحزن وخيبة الأمل. فأسرع يقول:

– آسف أن أكون قد أغضبتك أو آلمتك... ولكننا راغبون حقا فى

المساعدة لو أنك أشرت علينا بفكرة عملية مقبولة.. قل لى: هؤلاء الموظفون المصريون الذين أريتنى صورهم، هل يربّون فى بيوتهم الكلاب، أو القطط؟

فهمت قصده على الفور، فأجبته في حماسة زائدة: نعم!

- برافو.. وهذه الكلاب والقطط لا شك في أن حالتها المعيشية تتأثر تأثرا سلبيا نتيجة سوء أحوال أصحابها من الموظفين.

- بالتأكيد!

- بحيث لم يعد فى مقدور الموظف المصري المطحون أن يوفّر لكلبه أو قطته المستوى الائق به أو بها من المأكل والرعاية الصحية وغير الصحية...

- بدون شك!

- وبحيث أصبح حال هذه الحيوانات الأليفة الوديعة سُبَّة في جبين البشرية، وعارا لابد من تداركه.

- هو ذاك! هو ذاك!

- اتفقنا إذن .. عليك أن تبادر فور عودتك إلى القاهرة بموافاتي بمجموعة من الصور الفوتوغرافية المؤثرة لبعض هذه الحيوانات، مع بيانات وإحصاءات عنها وعن أسعار أطمعتها، ومتوسط دخول أصحابها من الموظفين، وسأشرع على الفور فى محاولة إقناع أعضاء مجلس إدارة جمعيتنا بتدشين حملة لجمع تبرعات هنا من أجل إنقاذها من محنتها... اتفقنا؟

- اتفقنا.

قال وهو يودعنى عند الباب:

- ولكن لتكن الصور مؤثرة حقا... قطّة لطيفة نحيفة على وجهها

وجسمها أثر سوء التغذية، وفي خلفية الصورة موظف مصرى مكتئب لا يدرى كيف يوفر اللحم واللبن لها... أو كلب ظريف جميل يرتعد من برد الشتاء في مسكن يفتقر إلى التدفئة المركزية.. وأشياء من هذا القبيل... فهمت؟

- فهمت.

- بارك الله فيك.

صُرصار حُبّنا!

تزوّج صديقى برهان علم الدين من زميلته في مصلحة الكفاية الإنتاجية بوزارة الصناعة. فلما عادا من إجازة شهر العسل، قمت بزيارة مجاملة لهما فى شقتهما الجديدة.

قادتنى الخادمة إلى حجرة الصالون، وطلبت مني الانتظار ريثما تُخطر العروسين.. وإذ شرعت أقلّب نظرى فيما حولى من أثاث وزهريات وصور، لفت نظرى شيء بالغ الغرابة على الحائط إلى يمين الباب، لم أصدّق عينىّ لمرآه. كان بروازا واحدا لصورتين فوتوغرافيتين، الأولى مائلة إلى اليمين للزوج، والثانية مائلة إلى اليسار للزوجة، وقد رسم بينهما قلب فى حجم التفاحة الكبيرة بداخله... صرصار !! نعم. صرصار بُنىّ كبير محنّط، بشاربه وجناحيه!

مكثت أتأمله فاغرًا فاى من الدهشة. فما إن دخل صديقى برهان، وحيّاني وحييّته، وتلقىّ مني تهانئى الحارة وهديتي المتواضعة، حتي أشرت له إلى الصورة مستفهما.

ضحك وقال:

- آه تقصد الصرصار؟ جميع زوارنا دون استثناء يبدأون زيارتهم بالسؤال عنه.

- ولا غَرْو !

- هذا، يا صاحبى، صرصار حبّنا.

ثم سكت وكأن في جملته هذه تفسيرا كافيا. فلما وجدني على حالى من التساؤل والدهشة، أضاف قوله:

-لولاه ما جمع الحب بيننا ولا تزوجنا.

- إشرح لا فضّ الله فاك، ما لم يكن فى الأمر سرّ عائلى تفضلان الاحتفاظ به.

قال برهان:

لا سرّ ولا يحزنون... منذ حوالى ستة أشهر عقد مساعد وزير الصناعة المختص بالكفاية الإنتاجية اجتماعا لكافة موظفى المصلحة، وخطب فينا فقال : إنه لاحظ فى الاشهر الماضية تدهورا ملموسا فى مستوى الأداء، واستهتارا من الموظفين بالعمل وساعاته... وحيث إن هذه المصلحة هى المسئولة عن غرس مفاهيم الكفاية الإنتاجية فى الدولة كلها، فإن الإثم هو فى الحقيقة إثمان، والمسئولية عن التقصير مضاعفة، خاصة أننا دولة متخلفة ذات اقتصاد متهالك، ولابدّ لنا من أجل مجرد البقاء أن ندخل في سباق مع الزمن حتى لا تتسع الفجوة بيننا وبين الدول المتقدمة...

صحيح أن المرتبات ضعيفة لا تغرى الموظفين ببذل مجهود أكبر، غير أنه قد وضع خطة ستدخل على الفور في مرحلة التنفيذ، يمنح بمقتضاها الموظفون ذوو الهمة والطموح مكافآت تشجيعية، وحوافز على الجهود غير العادية، وبدلات مالية عن ساعات العمل الإضافية.. وعلى كل موظف يلمس فى نفسه الاستعداد لأن يعمل فترات مسائية ينجز خلالها الأعمال

المتراكمة، والواجبات المتأخرة، أن يخطر مدير إدارته بنيّته هذه ليسجل اسمه في قوائم المستحقين لمكافآت المجهود غير العادي التى تصرف له فى منتصف كل شهر.

وأضاف مساعد الوزير قوله إن حضور عدد كبير من الموظفين للعمل فى المساء ستكون له قيمة أخرى غير إنجاز المصلحة لأعمالها، هي أن جمهور المارة فى الطريق أمام المبنى، حين يرون النور مضاءاً فى المكاتب أثناء الليل، ويسألون عمن يشغل المبنى فيجيبهم البوّاب بأنها مصلحة الكفاية الإنتاجية، سيقدرون الجهد المتفاني الذى تبذله المصلحة فى سبيل الله والشعب والوطن، وهو تقدير سينعكس على سمعة وزارة الصناعة بأسرها، وعلى مكانة السيد الوزير لدى السيد الرئيس.

* * *

وبالرغم من أنى كنت فى العادة أُنهي جميع الأعمال الموكلة إليّ فى ساعة واحدة من ساعات الصباح، وأقضى باقي الوقت إلى حين موعد الانصراف فى قراءة الصحف، أو حلّ الكلمات المتقاطعة، أو الدردشة مع الزملاء، أو المحادثات التليفونية مع الأصدقاء، أو النزول إلى السوق بعد استئذان المدير لشراء بعض حاجياتي من الجمعية التعاونية، بالرغم من هذا فقد سجلت اسمى في قائمة المستحقين لمكافآت المجهود غير العادى، وبدأت فى الحضور يوميا فى الفترات المسائية، من السادسة مساء إلى التاسعة..

بطبيعة الحال لم تكن هناك أعمال متراكمة على الإطلاق، ولا واجبات تأخر إنجازها. فكان عليّ أن أملأ تلك الساعات الثلاث على أى نحو كان حتي لا يصيبنى الملل... أخذت معى، بالإضافة إلى بعض السندوتشات

وترموس الشاى، عددا من المجلات الأسبوعية والكتب الفكاهية، كما كنت أقضى بعض الوقت في محادثات تليفونية. غير أن الملل انتابني مع ذلك بعد الأسبوعين الأولين، خاصة أنه لم يكن معي بالحجرة موظفون آخرون، لدرجة أنى فكرت فى أن أضحىّ بالمكافأة على المجهود غير العادى، وأكفّ عن الحضور فى المساء... وقد كدت بالفعل أنفذ هذا العزم لولا اكتشافى لموضوع الصراصير..

وصلت يوما إلى مكتبى متأخرا بعد ساعة من الغروب. وإذ أضأت النور إذ بأربعة صراصير ضخمة على منضدة بالغرفة تلتهم بقايا سندوتشات الليلة السابقة مما لم يُعن ساعي الإدارة المهمل مّيت الضمير بإزالتها فى الصباح.. فما أحسّت الصراصير بالضوء حتي ولّت بالفرار، كل صرصار في اتجاه ولجأت إلى مخابئها في أركان الغرفة... حيئذ خطرت في ذهني فكرة أن أسلّى نفسى خلال الساعات الطوال بأن أضع لقمة من السندوتشات على الأرض فى بقعة تتوسّط الغرفة، ثم أطفىء النور، وأصبر وقتا مناسباً ملتزما خلاله بالسكون التام، ثم أضيء النور فجأة حين أكون واثقا أن الصراصير لابدّ قد التقت عند لقمة الخبز ، ثم أرقبها وهي تهرب إلى الأركان بعد أن أكون قد راهنت علي أحدها أنه سيكون أول من يصل إلى مخبئه.

وجدت في هذه اللعبة تسلية تقطع الوقت. غير أن لذّتي وتحمسى لها زادا زيادة كبيرة منذ أحد أيام الأسبوع الرابع، حين حدث ما تغيّر به مجري حياتى..

كنت قد أضأت النور فجأة وبدأت فى مراقبة هروب الصراصير، حين فتح باب الحجرة وأطلّ منه رأس زميلتي عنايات - زوجتى الآن - وكانت قد سجّلت اسمها في اليوم السابق فى كشف المستحقين لمكافآت المجهود غير

العادى عن الفترة المسائية... كنت في الماضى المحها أحيانا فى الصباح متوجهة إلى إدارتها في نفس الطابق من المبنى، غير أنه لم يكن بيننا معرفة تسمح بأكثر من تبادل التحية بهزّة من الرأس.. أما اليوم فالظاهر أنها شعرت بالملل في حجرة مكتبها فتركتها تبحث عن أحد المستحقين الآخرين للدردشة معه وقطع الوقت.. وعندما سألتني مبتسمة عما أصنع وأخبرتها بأمر السباق، ضحكت طويلا ثم قالت:

- آه قد أخذت إذن بنصيحة مساعد الوزير!

- كيف؟

- ألم يحدّثنا عن ضرورة دخولنا في «سباق» مع الزمن حتي لا تتسع الفجوة بيننا وبين الدول المتقدمة؟! ها ها ها !

ثم أعلنت استعدادها للدخول في الرهان معى ، ويكون على الخاسر أن يطلب للرابح طلبا علي حسابه من بوفيه الكفاية الإنتاجية.

تكررت مُراهناتنا في الأيام التالية . فقد كانت عنايات مثلى غير مغرمة بالقراءة، ولا كانت محادثاتها التليفونية مع صديقاتها تستغرق أكثر من ساعة أو ساعة ونصف الساعة. فكانت إذا وصلت إلى المصلحة فى السادسة، تتجه مباشرة إلي مكتبها فتضىء النور فيه (لصالح جمهور المارة فى الطريق)، ثم تتركه وتأتي إلى مكتبى للرهان على الصراصير.. وبنمو الألفة بيننا، وإحساسنا بما يجمعنا من اهتمامات مشتركة في الحياة، بدأت أصابع أيدينا تتشابك أثناء انتظارنا فى الظلام المدة المناسبة لخروج الصراصير إلى لقمة الخبز، (وهي مدّة كنا نطيلها أحيانا لإعطائها فرصة أكبر) ، أو حين نضىء النور ويشرع كل منا فى تحميس صرصاره على الإسراع في هروبه كما يفعل

جمهور المشجعين في سباق الخيل... ثم إذا بعنايات في مرة من المرات التى فاز فيها صرصارها، تعبرّ عن فرحتها بقبلة عفوية خاطفة طبعتها على خدّى وهي تقفز من نشوة الفوز، أخذتها بعدها بين ذراعىّ وقبّلتها علي شفتيها مهنّئنا.

* * *

ما أن مضى شهر حتي كان قد انضم إلينا فى لعبتنا كافة المستحقين للمكافآت التشجعية في المصلحة، حتي أولئك الذين يعملون في الطوابق السبعة الأخرى من عمارة الكفاية الإنتاجية. وإذ لم تكن حجرة مكتبى تتسع لأكثر من عشرة أشخاص، فقد بحث الباقون عن حجرات أخري مماثلة من التى تحوى مخابئها الصراصير، فوجدوها كثيرة ولله الحمد بفضل إهمال السعاة تنظيفها.. غير أن إقبال الزملاء على الاشتراك معي وعنايات فى لعبتنا، حرمنا من فرص الخلوة غير الشرعية اللذيذة، فبتنا بعدها نلتقي خارج المصلحة، إما للعشاء بعد ساعات العمل الإضافية، وإما في عطلة نهاية الأسبوع... ثم كان بعد ذلك أن خطبتها، ثم تزوجنا كما تري، وكان أن أصرّت عنايات (ووافقتها على رأيها)، على الاحتفاظ فى عُشّ الزوجية بأحد صراصير مكتبى التى كانت سببا في نشأة عاطفة الحب بيننا. فرششت بالبيروسول أحدها ، ثم حنطته ، وهو هذا الصرصار الذى تراه الآن مع صورتينا فى البرواز.

* * *

سـألت برهان:

ــ والحوافز لا تزال تُصرف؟

ـ لاتزال تصرف.. فى منتصف كل شهر.. ولعلك قرأت فى «الأهرام» منذ أسبوع نص الخطاب الذى وجّهه رئيس الوزراء إلى مساعد وزير الصناعة المختص بالكفاية الإنتاجية، يشكره فيه على الهمة منقطعة النظير التى باتت تبديها المصلحة فى الفترة الأخيرة، فى سبيل إنعاش الاقتصاد المصرى المتداعى.

زيارة مفاجئة

١

كلّفنى رئيس تحرير «الأهالى» بتغطية الزيارة « المفاجئة » التى قرر رئيس الوزراء الدكتور عاطف صدقى القيام بها يوم ١٢ اغسطس ٩١ لمستشفى الأمراض العقلية، والتى صحبه فيها عدد كبير من الصحفيين والمصورين والعاملين فى الإذاعة والتليفزيون، بالإضافة إلى الدكتور راغب دويدار وزير الصحة، ومحافظ القاهرة وكبار المسئولين بالمحافظة، ولفيف من رجال المباحث والأمن.

والمعروف عن الزيارات المفاجئة التى يقوم بها كبار رجال الدولة لبعض المواقع، أنه يجرى قبل موعدها بأسبوع على الأقل اتصال تليفونى بين مدير مكتب المسئول الكبير ومدير الموقع المعتزم زيارته، لإخطاره بأمر الزيارة المفاجئة (حتى لا يؤخذ على غرّة)، ولكى يتخذ الاستعدادات اللازمة لتهيئة الموقع وتزيين المكان حتى يبدو فى صورة لائقة تُرضى الزائر الكبير، ويشيد بها رجال الإعلام، وتطمئن خاطر مجلس الشعب.

وهو ما حدث فى هذه المرة أيضا... ما أن انتهى الإخطار التليفونى لمدير المستشفى حتى هبّ الرجل مذعورا من كرسيه، وضعط على أحد الأزرار

يستدعى سكرتيره الخاص ليأمره بدعوة كافة العاملين بالمستشفى من أطباء وممرّضين وحرّاس إلى اجتماع عاجل فى صالة الاجتماعات . وهناك أخطرهم بالنبأ بصوت يرتعش، معلنا حالة الطوارىء فى المستشفى إلى حين إتمام الزيارة، وملغيا الإجازات (مع استدعاء الذين قاموا بها بالفعل من أماكن اصطيافهم، واستدعاء المتغيبين فى منازلهم دون إذن أو إجازة من أماكن إقامتهم)، وعين لجنة للإشراف على تنظيف ردهات المستشفى وممراتها وغرف المرضى ومكاتب الموظفين تنظيفا شاملا، والاتفاق مع المسئولين فى المحافظة على سبل نقل القمامة المتراكمة فى أسرع وقت إلى مكان آخر، (ولو بصورة مؤقتة)، ولجنة أخري للإشراف على غسل وكىّ ملابس المرضى وفرش أسرّتهم، وثالثة للنظر فيما يمكن عمله فى ظرف أسبوع بشأن مايسمى «بحديقة» المستشفى التى تحولت على مرّ السنين من حديقة إلى خرابة عظيمة (عدا بعض الأشجار المعمّرة الضخمة) ومقلب مهيب للقمامة، ودراسة إمكانية غرس زهور صناعية فى الأحواض المهجورة. ثم أصدر تعليمات مشدّدة إلى الممرّضين بالبدء على الفور بالتمرّن على تحسين معاملتهم للمرضى، والامتناع عن ضربهم وشتمهم إلى حين انتهاء الزيارة، بل ومحاولة الابتسام فى وجوههم أحيانا والرّبت على أكتافهم إن أمكن، وإلى الطبّاخين بالاهتمام يوم ١٢ أغسطس بنوعية وكمية ونظافة ما سيقدّم ساعة الغداء للمرضى من طعام، والتأكد من خلوه من الصراصير، خشية استمرار زيارة الدكتور عاطف حتى ساعة الغداء.

كذلك فقد كلّف المدير سكرتيره بالاتصال بالمؤسسة العامة للأدوية ليرجوها موافاة صيدلية المستشفى فى أسرع وقت بالأدوية التى نفدت منها لسبب لا داعى لذكره فى هذا المقال، أو على الأقل بكميات كبيرة من العلب

الفارغة لهذه الأدوية لرصّها على الرفوف. «لا أظن رئيس الوزراء سيمدّ يده ليفتح أيا من هذه العلب» . وطلب المدير من وكيل المستشفى أن يقوم صباح يوم الزيارة بحبس الخطرين من المجانين فى إحدى دورات المياه المهجورة لضمان عدم التقاء رئيس الوزراء بهم، (والخطرون المعنيون هنا ليسوا من يُخشى منهم الاعتداء الجسدى أو اللفظى على الزائر، بل من يُخشى منهم أن يكاشفوا الزائر بحقيقة مجريات الأمور فى المستشفى).

ثم أنهى كلمته بتوصية مشدّدة منه بأن يتصرف الجميع يوم ١٢ أغسطس، (ورغم كل هذه الاستعدادات) وكأن الزيارة جاءت مفاجأة لهم، ومفاجأة سارة، فى يوم روتينى عادى ككل الأيام، تسير فيه أمور المستشفى فى مجراها الطبيعى المألوف.

الغريب فى الأمر أنه حتى المرضى فى عنابرهم (وهم الذين لم يُخطروا بأمر الزيارة) أحسّوا خلال الأسبوع السابق عليها بأن شيئا هاما على وشك أن يحدث.. أحسّوا بذلك حين سُحبت من أسرّتهم الملاءات وأكياس المخدات، وحين أخذت منهم ملابسهم عدا الداخلية منها، وحين شرع الممرضون فى محاولة التمرن على الامتناع عن ضربهم، وحين وجدوا الأطباء الذين كانوا نادرا ما يتركون مكاتبهم إلى عنابر المرضى، يمرّون الآن بها رائحين غادين وعلى وجوه بعضهم الابتسامة، بل ويتوقفون أحيانا عند هذا المريض أو ذاك لسؤاله عن صحته.. وهى أمور كادت أن تتسبب فى تفاقم حالة المرضى العقلية، وأشعرت كافتهم على أى حال بأن حادثا جللا هو الآن على وشك الوقوع، بل وخمن بعضهم حقيقة الأمر، وأنه لابدّ أن مسئولا كبيرا من الخارج سيزور موقعهم عن قريب...

٢

حلّ يوم الزيارة، وانتشر فى حديقة المستشفى منذ الصباح الباكر عشرات من رجال المباحث والأمن، البعض يحمل أجهزة الووكى توكى والبعض يحمل السلاح، فى حين تظاهر كافة العاملين با لمستشفى (حتى البوّاب الذى أدخل هؤلاء الرجال إلى الحديقة)، بعدم ملاحظتهم حتى لا يفسدوا عنصر المفاجأة.. ثم وصل الصحفيون ومصوّرو التليفزيون بأجهزتهم، فالمحافظ ووزير الصحة وغيرهما من المسئولين ليكونوا في استقبال السيد رئيس الوزراء عند باب المستشفى، دون أن يقوم أحد بإخطار مدير المستشفى الذى كان وقتها فى مكتبه بالطابق الثانى يرقب من خلف ستارة نافذته ما يحدث فى الحديقة. وأخيرا وصل ركب الدكتور عاطف بموتوسيكلاته وصفّاراته وسيارات حراسته. وحينئذ فقط ترك المدير مكتبه وأسرع يعدو نازلا إلى البوابة وقد ارتسمت على وجهه علائم الدهشة لهذه الزيارة المفاجئة. ونزل الدكتور عاطف من سيارته، فتقدم المدير إليه مرحبا محييا وقد انحنى جسمه فى زاوية حادة إلى الأمام، واصطف وراءه جمع من الأطباء الذين هرعوا إلى المكان حين وصل إلى أسماعهم خبر مفاجأة رئيس الوزراء لهم بزيارة المستشفى.

قال الدكتور عاطف للمدير وهو ينظر من طرف خفى إلى مندوبى الصحف ومصوّرى التليفزيون:

ــ كنت مارا من هنا فى الطريق الى مكتبى، فخطرت فجأة فى ذهنى فكرة زيارتكم... أرجو ألا يكون فى الزيارة أى إزعاج.

ـ إزعاج؟! ياخبرا! ده سيادتك شرفتنا.. خطوة عزيزة يا سيادة الرئيس.. أهلا وسهلا.. تفضلوا. أهلا وسهلا سيادة المحافظ.. أهلا سيادة الوزير.. يا ألف نهار أبيض.

* * *

غير أن الموكب ما كاد يتحرك ليقطع «الحديقة» فى«اتجاه الباب الرئيسى للمستشفى حتى لفت سمع رئيس الوزراء وبصره شىء غير عادى... رأى أشباح مخلوقات غريبة تحبو على الأرض صوب الموكب من وراء الأشجار الكثيفة الضخمة، وقد رفع كل مخلوق منها فى يده اليمنى خشبة طويلة ثبتت فى أعلاها لافتة تحمل بعض العبارات. وإذ تبين للجميع على الفور أن هذه المخلوقات ليست إلا عددا من نزلاء المستشفى من المجانين (ممن خمّنوا أمر الزيارة)، توقف رئيس الوزراء وموكبه ليستوضحوا الأمر، فى حين أقبل عدد كبير من رجال الحراسة يعدون بالمدافع الرشاشة والمسدسات ليقفوا حول الدكتور عاطف يحمونه من أى تصرف قد يقوم به أفراد هذه المظاهرة غير المألوفة.

تقدم المرضى فى وجل من موكب الزوار وهم لايزالون يحبون على الأرض كالخراف. ورفع رئيس الوزراء رأسه يقرأ ما كتب على لافتاتهم، فإذا هى:

«عاشت ضريبة المبيعات» ـ «عاشت شروط اتفاقية صندوق النقد الدولى» ـ «نعم لشدّ الأحزمة على البطون» ـ «لا نهضة لمصر بدون تضحيات» ـ «عاش الرئيس بوش» ـ « إلى اليمين ياعاطف ونحن معك» ـ «لا يسارية بعد اليوم»...

تأمل رئيس الوزراء اللافتات وقد ارتفع حاجباه فى جبينه من فرط الدهشة. ثم تقدم بضع خطوات (ومعه الحراس بالمدافع الرشاشة) تجاه الرجل الذى يحمل لافتة «إلى اليمين يا عاطف»، فإذا بالرجل، وقد رأى المدافع مصوبة إليه، يترك اللافتة تسقط من يده، ويندفع تجاه الأشجار فجأة للهرب، وهو يولول باكيا ويصيح :

ــ أنا والله العظيم مانى اشتراكى ولا يسارى ولا أى حاجة من دى... أقسم بالله العظيم! أحلف طلاق بالتلاته.. وحياة النبى محمد..

قال الدكتور عاطف للحرس: هاتوه هنا!.

وحين أتوا به أقبل رئيس الوزراء على الرجل محاولا أن يهدّىء من روعه:

ــ ماتخافش ياجدع انت.. ماحدّش مننا حايؤذيك.. أنا كرئيس وزارة يهمنى أعرف إنت مين وعايز إيه.

قال الرجل: أنا مدحت عبد العظيم ومانيش يسارى ولا اشتراكى.

ــ امال أنت إيه؟

ــ يمينى وابن كلب ومؤيد لفرض ضريبة المبيعات.

وضيقّ الرجل من عينيه فجأة ليرصد ملامح الدكتور عاطف وقد بدأ الشك يخامره فى حقيقة اتجاهات رئيس الوزراء.. قال هامسا:

ــ حضرتك يسارى؟

ضحك الدكتور عاطف وقال: لأ طبعا.. إيه اللى خلاّك تسأل السؤال ده؟

ــ أمال ليه موش شايل يافطة زيّنا توضّح إنك موش يسارى؟

ــ ضرورى أشيل يافطة تقول إنى موش يسارى؟

ـ طبعا.. موش خايف ليرفدوك؟ دلوقت أنا مثلا أى واحد يشوفنى حايعرف على طول إنى موش يسارى.

ـ يعنى إيه يسارى يا أستاذ مدحت؟

ـ موش عارف بالضبط، بس أنا أكيد موش يسارى.

ـ وهو كذلك.. طيب ليه يا أستاذ مدحت إنت وزملاءك ماشيين بتحبوا على ركبكم؟

انفجر الرجل بالبكاء وانهمرت الدموع كالمطر من عينيه، فأسرع الدكتور عاطف بإخراج منديل من جيبه ليقدّمه له، بينما انشغل المصورون بالتقاط الصور لهذا المنظر المؤثر.

أجاب الرجل بعد أن هدأ بعض الشىء.

ـ كنا زمان واقفين على رجلينا وبنقول رأينا بصراحة زىّ الرجّالة لغاية ما حصل اللى حصل.

ـ وإيه اللى حصل يا أستاذ مدحت؟

ـ حصل إنهم قالوا لنا وقت عبد الناصر تحيا الاشتراكية واللى موش اشتراكى راح نرفده من شغله ونحطه فى السجن، قلنا اشتراكية . قالوا لنا يحيا الاتحاد السوفيتى وتسقط الولايات المتحدة، قلنا موافقين.. قالوا لنا لا بد من وحدة عربية مع توجّه أفريقى، قلنا مفيش مانع.. قالوا لنا لا صلح مع إسرائيل ويحيا الفلسطينيين وما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، قلنا يحيا الفلسطينيين.. جه السادات قال تسقط الاشتراكية واللى ماهوش مؤيد لسياسة الانفتاح الاقتصادى حانرفده من شغله ونحطه فى السجن، قلنا

تسقط الاشتراكية.. قالوا لنا تحيا الولايات المتحدة ويسقط الاتحاد السوفيتى، قلنا موافقين.. قالوا لنا بلا وحدة عربية بلا هجص، قلنا مفيش غير مصر. قالوا لنا فإن جنحوا للسلم فاجنح لها، قلنا نجنح.. قالوا لنا يحيا الصلح مع إسرائيل وفى داهية الفلسطينيين، قلنا مفيش مانع.. قالوا لنا بعد الصلح حايكون عام تمانين عام الرخاء، قلنا من بقكم لباب السما... جه مبارك قال ولا رخاء ولا حاجة دا اقتصاد البلد حالته مهبّبة، قلنا معلهش.. قالوا لنا صندوق النكد الدولى شروطه مهبّبة لا يمكن نقبلها لأنها مابتراعيش أحوال البلد أو ظروف العالم الثالث، قلنا مستحيل نقبلها.. قالوا لنا لأ بعد التفكير اتضح إنها كانت شروط كويسة وفى مصلحة العالم الثالث وكان حقنا نقبلها من زمان، قلنا وماله.. قالوا لنا لازم نشد الأحزمة على البطون، قلنا نشدّ.. قالوا لنا وان شاء الله حاتفرج كمان أربع أو خمس سنين، قلنا ان شاء الله.. قالوا لنا صدام حسين ده بطل، قلنا أكيد.. قالوا لنا لأ ده طلع مجرم، قلنا خسارة.. قالوا لنا القذافى وحافظ الأسد دول ناس بطالين، قلنا ربنا يجازيهم.. قالوا لأ دول طلعوا صحابنا وحبايبنا، قلنا بالأحضان.. قالوا لنا دى إسرائيل هىّ اللى اتضح انها متعنّتة وشرّانية، قلنا إخص.. قالوا لنا بس واجب برضه العرب يصطلحوا وياها، قلنا الصلح واجب.. وكل مرة ياعاطف بك يأمرونا نقول زىّ ما بيقولوا نلاقى راسنا اتدلدلت لتحت، وايدينا اتدلدلت، وركبنا سابت، لغاية ما بركنا وبقينا نحبى على الأرض زى ماحضرتك شايف.. بقينا خرفان ياعاطف بك.. خرفان وموش عارفين حاجة، ولا عارفين بكره وبعد بكره حايأمرونا نقول إيه كمان... وكل ده فى جيل واحد ياعاطف بك.. كل ده فى جيل واحد.. لو كان ده حصل لشعب فى ظرف متين سنة كان زمانه اتجنن.. فما بالك فى جيل واحد يا عاطف بك؟

فى أقل من تلاتين سنة! ياناس خلوا فى قلبكم رحمة.. خلّوا فى قلبكم رحمة. كنا عملنا إيه عشان يتعمل فينا كل ده؟!

تطلع مدير المستشفى إلى وجه الدكتور عاطف، فإذا به يخلع نظارته السميكة ليمسح عينيه بالمنديل، ثم إذا به يتجه بخطوات سريعة إلى سيارته ليركبها، غير عابىء هذه المرّة بمصورى التليفزيون، آمرا السائق بالتوجه سريعا إلى مكتبه، دون موتوسيكلات، ودون صفارات، ودون رجال المباحث والأمن، ورغم ما كان الطباخون قد أعدّوه من وجبة شهية، خالية هذه المرة من الصراصير.

* * *

ملاحظة ختامية: تشير إحدى تجارب العالم الروسى الكبير بافلوف إلى أنك إن وضعت طعاما لكلب فى صندوق أبيض بين صناديق مختلفة الألوان، فسيمضى الكلب يتفحصها جميعا حتى يجد طلبته فى الأبيض. وهو فى اليوم التالى سيتجه أول ما يتجه إلى الأبيض، فإن كنت قد وضعت الطعام هذه المرة فى الأحمر، فسيمضى يتفحصها جميعا حتى يجده فى الأحمر. وستجده فى اليوم الثالث قد بدأ بحثه بالأحمر، فإن كنت قد أودعت يومها الأصفر الطعام، فسيمضى يتفحصها جميعا حتى يصل إلى الأصفر.. غير أنك إن اخترت فى اليوم الرابع صندوقا ذا لون رابع، فستجد الكلب منذ اليوم الخامس، وإلى الأبد، وقد اعترته حالة من البلاهة والخبل، يخرج إلى الصناديق كل يوم يتفحصها دون ترتيب أو نظام معين، حتى لو وضعت له الطعام كل يوم، من وقتها وإلى الأبد، فى الصندوق الأسود.

والغالب أن هذه النظرية تنطبق على الشعوب كما تنطبق على الكلاب...



البديل

لا بأس الآن - وقد أعفيت من رئاسة الوزارة ـ من أن أدلى باعتراف صغير لا علم به لأحد إلا بعض أقرب المقرّبين.

وأبدأ فأقول إننى حين اخترت فى ١١ مايو ـــ ١٩٨ رئيسا للوزراء، كان فرحى بالنبأ عارما، وسعادتى لا تقدّر، وكذا فرح أفراد أسرتى وسعادتهم... غير أنه بمضى الأسابيع والشهور بدا لى واضحا أن المنصب لا يخلو من متاعب حقيقية كنت قبل تولّيه غافلا عنها، أو مستخفا بقدرها. لا أعنى بهذا سخريات أحمد رجب فى صحيفة «الأخبار»، ولا كاريكاتير مصطفى حسين، ولا وصف صحف المعارضة لى برئيس الوزارة الذى ليس بوسعه حتي الإدلاء بتصريح قصير (سنعرف بعد قليل حقيقة هذا الاتهام وسببه). وإنما أعنى أننى رجل شديد التعلق بعائلتى، شغوف بتبادل الأحاديث الطويلة مع زوجتى فى الأمسيات، والجلوس إلى أولادى وملاعبة أحفادى، فإذا بمنصب رئيس الوزراء يحرمنى من هذا كله، ويستغرق وقتى بأكمله، ليلى ونهارى، ويحرمنى كذلك من متعة كبرى فى حياتى، هى لعب الطاولة مع بعض الأصدقاء... صحيح أننى اخترت بعضهم وزراء فى حكومتى، وكان باستطاعتنا أحيانا فى مقر مجلس الوزراء أن نختلس بضع دقائق لممارسة هوايتنا قبل اجتماع المجلس أو بعده، غير أن اختلاس الدقائق شىء والتفرغ

للهواية فى بيوتنا فى جو من الاسترخاء وراحة البال وقلة المبالاة بالوقت شيء آخر.

ولا يعنى هذا بأى وجه من الوجوه أنى رجل لا أحبّ العمل الجاد، أو أميل إلى التنصل من المسئولية. فالعكس هو الصحيح. وما كان بأقل أسباب فرحى بتعيينى رئيسا للوزارة رغبتى فى تنفيذ أفكار لدىّ عن كيفية إنقاذ الاقتصاد المصرى من كبوته، وإقالة الحياة السياسية عندنا من عثرتها. غير أن الذى حدث هو أنى تبينت بعد بضعة أسابيع من تعيينى أن فكرة تكريس حياتى ووقتى وجهدى فى منصبى الجديد لإصلاح أحوال الدولة، وهم كبير ، وأنى لا أقل عجزا عن التأثير فى مجريات الأمور من أصغر موظف بإدارة المحفوظات في أية وزارة أو مؤسسة ، ولا تزيد قدرتى على اتخاذ القرار (أىّ قرار كان) عن قدرة حارس قفص الدببة في حديقة الحيوان.

غير أن الأدهى من كل ذلك أنى رأيت وقتي بأسره - أو الشطر الأعظم منه - يضيع نهبا لأمور ليس بينها وبين ممارسة الحكم أدنى صلة؛ كتوديع واستقبال السيد رئيس الجمهورية في المطار عند سفره إلى الخارج أو عودته. (وهو ما كان يضيّع علىّ الساعات الطوال حتى اهتديت إلى فكرة أن أترك طاولة في المطار لألعب عشرة أو عشرتين مع أحد الوزراء في حالة تأخر الوصول أو الإقلاع) ، وكأداء صلوات العيدين وليلة القدر ونصف شعبان وذكرى المولد النبوى، إلى آخره ، مع السيد الرئيس وكبار رجال الدولة، (وكنت أثناءها غالبا ما أفكر في أمور دنيوية هي أبعد ما تكون عن المناسبة المحتفل بها، مع حرص شديد كلما أحسست بعدسة التليفزيون مسلطة علىّ أن أرسم على وجهى علائم التقوى والورع والانغماس في العبادة)، وكافتتاحى لهذه المدرسة أو تلك، وهذا المعرض الفنى أو ذاك، (دائما أبدا

ذلك المقص الكبير علي وسادة من قطيفة يقدّم إليّ في احترام شديد لأقصّ به شريطا حريريا عبيطا يسدّ الباب) ،وكحضور احتفالات قومية وجلسات لمجلس الشعب تلقى فيها الخطب الطويلة الطويلة التى لا تنتهي، (أغمض خلالها عينيّ متظاهرا بتركيز انتباهى فى معانيها، وأروح فى سبات عميق بعد أن أدعو الله ألا يصدر منى شخير يظهر في التليفزيون صوته)، وكالتردد على حفلات استقبال غبية يقيمها السفراء الأجانب أو الوزراء أو غيرهم ، فأضطر وأنا أحمل كوبا من العصير لا أشرب منه إلى التفوّه بمجاملات لا معني لها، والردّ على أسئلة لا طائل وراءها، راسما على شفتى طول الوقت ابتسامة بلهاء وكأنما أستمتع حقا بهذا كله، وهي ابتسامة عريضة تسميها زوجتي مازحة بالنّبلة ، لأنها كالنبلة قد شُدّت شدّا إلى الوراء، فما أن أخرج من الحفل وأركب سيارتى حتى أطلقها وأرخيها فجأة، والألم يشتعل فى فكّى ويلهب أعصابى من طول الابتسام.



تصوّروا إذن مدى سروري وغبطتى حين توجّهت مع زوجتي صباح يوم جمعة إلى الفيوم نجلس للاستجمام في شرفة الفندق هناك، فإذا بزوجتى تشهق فجأة شهقة عظيمة، وتلكزني بكوعها لتلفت نظرى إلى رجل يجلس بمفرده فى أقصى الشرفة وهو يشرب من كوب عصير ليمون أمامه، ما أن وقع نظرى عليه حتى صدرت منى شهقة كشهقة زوجتى... كان الخالق الناطق أنا، وكأنما هو توأم لى من بويضة واحدة؛ نفس الوجه، نفس الشعر المجعد الأشيب، نفس السمنة المفرطة، نفس اللغد، نفس القامة القصيرة.. كل ما هناك هو أنه لم يكن يلبس نظارة، قد ترك لحيته دون حلاقة مدة يومين أو ثلاثة، ضعيف الاعتناء بهندامه ومظهره الخارجى..

ظللت وزوجتى نتأمله مشدوهين بعض الوقت، إلى أن أحس الرجل بنظراتنا تدقق فيه، فابتسم ابتسامة عريضة، وقام من مقعده متجها إلينا للتحية.. ياإلهى! حتى الصوت! .. دعوته إلى الجلوس معنا، وطلبت له فنجان قهوة. وإذ شرع يعرّفنى بنفسه تبيّن أنه موظف بفرع لأحد البنوك بمدينة الفيوم، غير متزوج، ونادرا ما يحضر إلى العاصمة.

جلست قبالته وكأنما أتأمل نفسى فى مرآة...وفجأة، لمعت الفكرة فى ذهنى:

ما الذى يمنع من أن أتخذ من هذا الرجل بديلا لى (كالبديل السينمائى) ليقوم بدوري نيابة عنى فى مناسبات مضنية معنية، كالتوديع والاسقبال فى المطار، والمناسبات القومية التى تلقى فيها الخطب، واحتفالات تدشين مدرسة أو مصنع أو معرض، وحفلات الاستقبال وجلسات مجلس الشعب، والمؤتمرات الصحفية، إلى آخره؟.. لن يحتاج الأمر منى إلا إلى تعويضه عن مرتبه البسيط، وإلباسه منظارا ذا عدسات زجاجية لا تضايقه، وشراء بعض الحلل والقمصان والأحذية الفاخرة له، وأن أخصص له حجرة في منزلى، إن خرج من المنزل اعتكفتُ فيه، وإن خرجت اعتكف فيه، مع تخصيص أسبوعين أو ثلاثة قبل البدء فى التنفيذ لتدريبه على دوره الجديد، وتمرينه على حركات محددة، وتلقينه نص الإجابات على أسئلة معينة، ونص التصريحات في مناسبات شتى ، مع إتاحة الفرصة الكافية له لمراقبة حركاتي وأسلوبى الخاص فى الحديث والتصرف، حتي يتقن تقليدها إتقانا تاما.

عرضت عليه الفكرة فتردّد بعض الوقت فى وجل ثم قبل.. وأعطيته مهلة أسبوع يستقيل خلالها من عمله، ويصفّى أموره ومصالحه فى الفيوم، ثم يـأتى

إلى منزلى بالقـاهرة، ويـا حبذا لو كان وصوله تحت جنح الظــلام.

* * *

كانت زوجتى فى البداية تشك فى نجاح الخطة، فإذا بها تصادف من النجاح ما تجاوز كل توقعاتنا وآمالنا، وإذا بالأمر أسهل بكثير مما تصوّرنا.. وهى سهولة لابدّ من أن أعترف بأنها آلمتنى بعض الشىء، حيث إنها أثبتت لى أنه بمقدور أىّ إنسان كان، حتى لو كان مجرد موظف بسيط، فى فرع لأحد البنوك، فى محافظة من محافظات القطر، أن يحل محل رئيس وزراء مصر فى القيام بمهامه ومسئولياته.

قضيت أسبوعين لا أكثر فى تدريبه:

فى المطار: «مع ألف سلامة يا ريس» (عند مصافحة رئيس الجمهورية له قبل صعوده إلى الطائرة)... «ألف حمد الله على السلامة يا ريّس» (عند مصافحة الرئيس بعد هبوطه من الطائرة)... «كل شىء تمام يا ريّس» (عند سؤال الرئيس إياه عن أحوال الدولة أثناء غيابه)... ولا بأس من إضافة «إن شاء الله الرحلة كانت موفّقة).

عن افتتاح المدارس والمعارض والمصانع: أخبرته بأمر المقص والوسادة الصغيرة والشريط الحريرى. أما عن الكلمات التى سيلقيها فى هذه المناسبات فهناك أشخاص مهمتهم أن يكتبوها له، وما عليه إلا أن يحفظ مضمونها أو يقرأها من الورقة. والحفظ مفضّل حتى تبدو الخطبة إرتجالية عفوية.. وهي عند افتتاح المدارس تتحدث عن أهمية التعليم في حياة الأمم ونهضتها؛ وعند افتتاح معارض الرسم والنحت والكتب عن ضرورة الثقافة فى حياة الأمم ونهضتها؛ وعند افتتاح المصانع عن عظم شأن التصنيع فى

حياة الأمم ونهضتها.. ولا بأس عند الطواف بماكينات المصنع من أن تتظاهر بإدراك أهميته، ومن أن تمدّ يدك إلى إحدى الماكينات تحسّسها برفق وتسأل عن طبيعة تشغيلها؛ وعند الطواف باللوحات والتماثيل من أن تتراجع خطوتين إلى الوراء وتضيقّ من عينيك وكأنك تتأمل العمل الفنى بإمعان، ثم تهز رأسك مرتين أو ثلاث مرات تعبيراً عن إعجابك وفهمك لمغزاه؛ وعند الطواف بفصول المدرسة من أن تربت علي شعر هذه التلميذة أو تلك فى حنان واضح، أو تقبّل هذا التلميذ أو ذاك فى أبّوة ظاهرة، خاصة عند التقاط المصوّرين الصور لك.

وعن جلسات مجلس الشعب: لا بأس من النوم بعض الوقت أثناء كلمات الأعضاء المملة حتي لو لاحظ النواب ذلك. غير أن إخفاء الإغفاءة لازم في الأعياد والمناسبات القومية التى يحضرها رئيس الجمهورية.. وعلى أىّ حال فإن الاستغراق في النوم أثناء ما يلقى فى هذه المناسبات من الخطب صعب عسير، بالنظر إلى كثرة ما يتخلل هذه الخطب من هتافات وتصفيق حاد لابدّ من أن تشترك فيها.

وعن لقاءاتك مع مندوبى الصحف عند عودتك مثلا من زيارة فى الخارج:

إن سألوك عن الزيارة قل: «كانت زيارة موفّقة».

وإن سألوك عن الغرض منها فقل: «بحث المسائل المعلّقة».

وإن سألوك عن علاقات مصر بالدولة التى زرتها فصفها بأنها علاقات وثيقة وأخوية، وصداقة حميمة أبدية.

وإن سئلت عن طبيعة المباحثات فأجبهم بأنها تناولت العلاقات الثنائية، وبعض المسائل الدولية، والمشاكل الإقليمية.

أما عن حفلات الاستقبال: فكوب عصير الفاكهة فى يدك اليسرى حتى لو كنت ممن لا يرى بأسا فى الويسكى أو البيرة، والابتسامة الازلية لابدّ من رسمها على شفتيك حتي لو كان محدّثك أثقل الثقلاء وأسخف الأدعياء؛ ثم لابدّ عند الانصراف من التعبير للداعى عن مدى سعادتك بحضور الحفل، ومدى امتنانك لدعوته إياك، ومدى أسفك إذ تضطر إلى الانصراف مبكرا من هذا الحفل البهيج بالنظر إلى ارتباطك بمواعيد أخرى.

* * *

وقد كنت فى البداية اقتصر على تكليف بديلى بالنيابة عنى فى هذه المناسبات التى تغلب المراسم والشكليات عليها. غير أنى بمرور الوقت بدأت أتوسّع شيئا فشيئا حتى بتّ أكلفه بحضور اجتماعات مجلس الوزراء، والمباحثات مع صندوق النقد الدولي، واللقاءات مع الضيوف الأجانب، بعد أن رسخ عندى إيمان بأنه حتى هذه الاجتماعات والمباحثات واللقاءات ليست إلا مراسم وشكليات، وأن القرارات التى تنجم عنها متخّذة سلفا، ومخطط لها من مدة طويلة.. أما المهام الوحيدة التى احتفظت بها لنفسى فهى لقاءاتى مع السيد الرئيس، خشية أن يفلت من البديل خطأ لا يليق، أو تصريح عن عمل الوزارة ينمّ عن جهل فاضح...

* * *

وباستقرار الأوضاع ونقل مسئولياتى إلى البديل، صار بإمكانى أن أقضى الساعات الطوال مع أسرتى، وفى الحديث مع زوجتي، والإشراف على مذاكرة أولادى، ومداعبة أحفادي، وأن أقضي ساعات أطول في ممارسة هوايتى المفضّلة، وهي لعب الطاولة مع وزير الـ .... ، وهو الوحيد من بين

الوزراء الذى أطلعته على سرّى، والذى خرج هو أيضا من وزارته عند إعفائى من منصبى.

* * *

وقد كانت هذه الطاولة - للأسف الشديد - هي السبب وراء ذلك الانهيار المفاجىء للأمر كله، ووراء تنحيتي بالتالى عن الوزارة....

ذلك أنه في صباح يوم من الأيام، وأثناء انتظار البديل في المطار مع سائر الوزراء لوصول طائرة السيد الرئيس من روما ، جاء من يخطرهم بأن الوصول سيتأخر ثلاثة أرباع الساعة.. وهنا التفت وزير التموين إلى البديل قائلا له:

- طيب يالله يا دكتور نلعب لنا عشرة طاولة.

فإذا بالبديل الذى كنت قد نسيت تماما أن أخبره بأمر الطاولة وأن أعلّمه قواعد اللعبة يجيب بقوله:

هذه لعبة لا أعرفها ولا أحبّها.

والتفت وزير التموين يتأمل وجهه فى استنكار وعجب، ويدقّق فى ملامحه علّه يكتشف لغز هذا التصريح الغريب منه. فإذا بالوزير يكتشف عندئذ إلى يسار الشفة السفلى فى وجه البديل حَسنة سوداء صغيرة ليست عندى ولا انتبهتُ أو انتبهت زوجتي أو البديل إليها فى أى وقت من الأوقات.

وقد ظل الوزير صامتاً بعض الوقت ثم انصرف . وشاهده البديل يتوجه من فوره إلى مجموعة من الوزراء الآخرين الواقفين فى جانب من قاعة كبار الزوار ، ويسّر إليهم حديثا هامسا وقد اتجه ناظره إلى مكان البديل ، فإذا بأنظار كافتهم تتجه هي أيضاً إليه .

* * *

ووصل الخبر فى صباح اليوم التالى إلى سمع السيد رئيس الجمهورية......

ثم كان ما كان ..



وسواس بك الخنّاس

فُصلت من عملي وضاقت بي سبل الرزق. وإذا تدهورت فى نفس الوقت صحتى، واضطربت أحوالي، واسودّت الدنيا في عيني، توكّلت على الله وقررت أن أصنع ما صنعه فاوست وأن أبيع روحى للشيطان.. غير أنى فشلت فى استدعائه عن طريق كافة الطقوس السحرية التى استخدمها الرجل فى مسرحية جوته أو مسرحية مارلو، ولم يُجْد فتيلا ما رسمته مرارا وتكرارا من أشكال هندسية معقّدة، وتمتمت به من عبارات، وألقيتُ به فى المواقد، وذبحته من طيور، واستخرجته من جوف الضفادع.. حينئذ خطر فى بالى أنه ربما كان لكل عصر أو جيل من الناس وسائله الخاصة به لاستدعاء هذا الروح الشرير بما يتماشى مع مبلغ ما وصلته التكنولوجيا فى ذلك العصر.. فكان أن رفعت سماعة التليفون وطلبت الدليل:

- ممكن يا مدموازيل تدلّينى على رقم؟

- الإسم؟

- الحقيقة الإسم أنا غير متأكد منه... تلاقيه إما تحت «إبليس»، أو «شيطان» ، أو «رجيم» ، أو ...

ردّت على الفور: ٢٩٠٣٥٣ .. سبعة خطوط.

قلت فى دهشة : بسرعة كده؟!

- كل ثلاث دقائق بالكثير يا أستاذ أتلقى مكالمة تسأل عن هذا الرقم حتي حفظته.. على فكرة ستجده فى دفتر التليفون تحت إسم «وسواس الخنّاس - مكتب استشارى» ، والإسم التجارى (وخما).

* * *

حاولت علي مدى أسبوع كامل أن أتصل بذلك الرقم، دون جدوى . فالخط دائما مشغول، صبحا ومساء.. وأخيرا، وبعد أن كاد يصيبني اليأس، ردّت سكرتيرته قائلة بصوت دفىء موسيقيّ ناعم:

- مكتب وسواس بك الخناس ؛ صباح الخير.

- صباح النور يا مدموازيل.. ممكن أكلم الأستاذ وسواس الخناس لو سمحت؟

- آسفة يا فندم. وسواس بك عنده الآن اجتماع مع وزراء المجموعة الاقتصادية... أيّ خدمة؟

خجلت من أن أذكر للسكرتيرة، فى التليفون، رغبتى فى أن أبيع روحى.

فأجبتها: موضوع شخصى.

- سيادتك تريد أن تبيع روحك، أليس كذلك؟

سبحان الله ! بالمكشوف كده؟! أين راح الحياء؟ ما الذي حدث فى عالم اليوم؟

- طيب أكلّمه مرة ثانية.

ووضعت السماعة.. ومرّ أسبوعان آخران: الخط إما مشغول، أو الأستاذ وسواس في اجتماع: مرة مع رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون، ومرة أخرى مع

رؤساء تحرير الصحف القومية، ومرة أخري مع نجوى فؤاد وهاني شاكر، ومرة مع فضيلة الشيخ الشبراوى، ومرة مع أصحاب شركات توظيف الأموال، إلى آخره.. وأخيرا وفّقنى الحظ ووجدته.

- الأستاذ حسين أمين، موش كده؟

سبحان الله ! كيف عرفنى ولم أخبر السكرتيرة بأسمى؟

- على فكـرة أنا معجـب جدا بمقالاتك فى «الأهالى».. خصوصا مقالك«إحنا بتوع الأتوبيس». شربات !

- الله يحفظك ويخلّيك.. سيادتك بتقرأ صحيفة «الأهالى»؟

- بانتظام.. أى خدمة يا أستاذ حسين.

- كنت أريد مقابلة سيادتك فى موضوع شخصى.

- بكل سرور. أنا مسافر بكرة صباحا إلى العراق، وبعدها أمرّ على واشنجطون أسبوعين أو ثلاثة.. إن كان فى الموضوع استعجال ممكن أن نتعشى الليلة فى مطعم «إيليت» ولما أرجع نمضي العقد.. وهو كذلك؟

* * *

كانت دهشتى بالغة حين قادنى الجارسون إلى مائدة ووقعت عينى عليه لأول مرة.. صحيح أننى لم أكن أتوقع أن أري فى رأسه قرنين، أو في مؤخرته ذيلا، أو أن ألمح فى حذائه حافرين لا قدمين.. غير أنى كنت أتصور على الأقل أن يكون منفّر الهيئة قبيح الوجه، مكير العينين على النحو المذكور فى مسرحية جوته.. لا شىء من هذا القبيل.. بدا رجلا وسيما في نحو الخمسين، هو أشبه ما يكون بالدكتور سعد الدين إبراهيم حتي لتخال لأول وهلة أنه

هو ؛ عيناه الواسعتان البرّاقتان يشعّ منهما الذكاء والفطنة، كثّ الحاجبين، مشعّثهما، ولحيته رمـادية صغيرة مذّببة، وقد خالط الشيب شاربه الخفيف ومـا تبقىّ من شعره على جانبى صلعته وفي أعلى جبينه، يرتدى حلة رمادية أنيقة، ورباط عنق أحمر.

صافحته مهنئا إياه على فوزه فى انتخابات مجلس الشعب، فأشاح بيده وكأن الأمر ليس ذا أهمية كبيرة. ثم قهقه قهقهة شيطانيه قصيرة وهو يقول:

- ألمح فى وجهك استغرابا لهيئتى. وهو أمر متوقع. غير أن عجبك سيزيد حين تلمس أسلوب تعاملى معك ومع الناس عموما.. فالشيطان يا سيدى متّهم لم يسمع الناس دفاعه عن نفسه بالنظر إلى أن كل الكتب السماوية هى من عند الله!.. غير أنى قد بدأت مؤخرا أفكر في تأليف كتاب من عندى، ربما لجأت إليك - باعتبارك أديبا - كى تساعدنى فى صياغته على الأقل..

ثم ابتسم مشيرا إلى الجارسون أن يحضر لنا كأسين من الويسكى. واستطرد يقول:

- يقولون أنى أغرى الناس وأغويهم.. تفضل وزر مكتبى وسترى بنفسك الآلاف التى تتدفق عليه أو تتصل تليفونيا من تلقاء نفسها دون أن أرفع أصبعا من أجل استدراجها.. خاصة منذ أن أنتهج الرئيس السادات (الله يرحمه) سياسة الانفتاح الاقتصادى.. ومع ذلك فكل عملائى الذين يفدون عن طيب خاطر إلى مكتبى، ويلحّون على سوسن من أجل مقابلتي، يتهمونني فيما بعد بأنى ضللتهم ووسوست فى صدورهم!... آه لا مؤاخذة. أنت لا تعرف سوسن بعد.. هى سكرتيرتى الخاصة. وهى لعلمك فتاة محجّبة ، أختي البريونية! ها ها ها ! فى صحتك.. خذ حالتك مثلا: هل كنتُ أنا البادىء بالاتصال بك؟

- بالعكس.

لاحظت وهو يمدّ يده إلى صحن الزيتون الأسود أمامنا ليغرس فيه شوكته أن أصابعها قد شوّهها الروماتيزم. وإذ لمح من فوره اتجاه نظرى إلى هذه الأصابع ابتسم وقال:

- آه ! تستغرب أن يعانى الشيطان من الروماتيزم؟ ولكني يا سيدى مادمت قد أخترت أن أتجسّد فى صورة البشر فلابدّ من أن أعانى أيضا مما يصيب الجسد البشرى من آفات... والآن ماذا تطلب؟

- سكالوب فيينواز.

- ها ها ها ها ! لم يكن هذا ما عنيته. كنت أعني ماذا تطلب مقابل بيع روحك؟ أم أنك تطلب سكالوب فيينواز مقابل روحك؟! ها ها ها. ومع ذلك لا بأس! جارسون! سكالوب فيينواز للأستاذ، ونجريسكو لى.. آه ! نعم. كنا نتحدث عن العقد.. تريد العقد المعتاد؟

قلت : في مسرحية مارلو على ما أذكر ينص العقد على أن تخدم المتعاقد معه طوال السنوات المتبقّية من حياته، وتحقق رغباته، وتفعل كل ما يأمرك به، مقابل أن تقبض روحه عندما يحين أجله .

- ولا يزال هذا حتى اليوم مضمون العقد، مع فارق أو أثنين عن أيام فاوست، الأول هو أننا لم نعد نصرّ أن تكتب العقد بدمك، وتكتبه السكرتيرة الآن على الآلة الكاتبة؛ والثاني هو أنه بدلا من أن يكون العقد فى نصف صفحة، قد أصبح الآن فى خمس وثلاثين.

- خمس وثلاثين صفحة!!

- نعم . من أصل وست صور. ها ها ها ! تصوّر لو أن جوته أو مارلو أورد نص العقد فى مسرحيته فى خمس وثلاثين صفحة ! غير أنه قد تبينّ لى أن العقود القصيرة تحمل خطر نشوء النزاعات بين المتعاقدين حول تأويل الشروط وتفسير الالتزامات ، وأن الاسلم دائما تجنب احتمال هذا الخلاف عن طريق التفصيل فى بيان الالتزامات • أعتقد أن المال هو مطلبك الرئيسى، أليس كذلك؟

- نعم.

- على بركة الله.. عين الحكمة.. فعن طريق المال يأتى كل شىء آخر: النساء ، الشهرة، المنصب الرفيع، احترام الناس، عضوية مجلس الشعب،.. ومديح النقاد لك إن كنت من الأدباء.

- مديح النقاد؟

- بالضبط.. أنظر إلى ثروت أباظة.. رجل لا يستطيع كتابة جملة ذكية واحدة قد عيّنوه رئيسا لاتحاد الكتّاب، وخصصوا له صفحة أسبوعية في أكبر صحيفة مصرية..... ستكتب إذن فى العقد إن من حقك الحصول علي أىّ مبلغ تريده طوال السنوات المتبقية من حياتك.

- نعم.

- وهو كذلك.. ستكتب أختى البريونية العقد وأوقّعه بعد عودتي من واشنجطون، ونرسله إليك بالبريد المسجل بعد ثلاثة أسابيع أو أربعة.

- أربعة أسابيع ؟!!

- آه ! فهمت .. لا يمكنك الانتظار طوال هذه المدة.. بوسعى أن

أعطيك الآن مبلغا من تحت الحساب، وأنا واثق من أنك لن تغدر بي.. كم تريد؟

- عشرة آلاف؟

- عشرون ألفا يا سيدى الفاضل.. ها هو ذا الطعام قد وصل .. سأعطيك شيكا على بنك تنمية الصادرات المصرية قبل خروجنا.

وبدأنا نأكل.

- عندى سؤال لو سمحت.

- سل عما بدا لك، فهذا أيضا من التزاماتي في العقد.

- ذكرت منذ دقائق أن إقبال الناس على مكتبك وعلى التعاقد معك قد زاد أضعافاً مضاعفة منذ قرر السادات انتهاج سياسة الانفتاح الاقتصادى.. هل من حقي أن أسألك عن العلاقة بين الأمرين؟

سكت دقيقة كاملة وهو يبتسم، ثم وضع الشوكة والسكين من يده، وشرع يقول :

- سأخبرك .. أنت رجل مثقف وبوسعى أن أتكلم معك بصراحة... منذ وقت آدم عليه السلام وحتي أوائل السبعينيات، كانت سياستى هي التعامل مع كل فرد على حدة .. أتعامل مع كل فرد على ضوء تكوينه النفسى، ورغباته وشهواته وتطلعاته، وعقده ونقاط الضعف فيه.. غير أنه بازدياد عدد السكان، ومع التقدم الشيطانى المذهل في التكنولوجيا الحديثة، رأيت أنه قد يكون من اللازم، ومن الضرورى من أجل تعزيز الكفاءة الإنتاجية لمكتبي، وتوفير قدر معتبر من الوقت والجهد، ابتداع وسيلة موّحدة لتصيدّ

أرواح البشر..... فكرت طويلا وأعطيت نفسى أجازة لمدة شهر من أجل الوصول إلي حل.. وفجأة ، وفي يوم من الأيام، أثناء أحد اجتماعاتى العديدة مع الرئيس أنور السادات في استراحته بالقناطر، ألهمني الرئيس الفكرة حين ذكرت له مشكلتى.

- أنور السادات هو الذي ألهمك الفكرة؟!

- من غيره ؟

- ماذا قال؟

- قصّ عليّ قصة من كتاب «وفيات الأعيان» لابن خَلِّكان.

- تعتقد أن الرئيس أنور السادات قد قرأ «وفيات الأعيان»؟

- الأغلب أن يكون أحد مستشاريه هو الذي قرأها، أو سمعها، ثم قصها عليه.

- فما القصة؟

- يحكى أن أحد أجلّة الفقهاء المحدّثين فى عصر الخليفة المهدى، وهو شَريك النخعي المعروف بورعه وتقواه، طلب الخليفة منه أن يتولى القضاء فرفض. فطلب منه أن يكون معلما ومؤدبا لأولاده فرفض. كما رفض كل منصب عرضه الخليفة عليه حرصا منه على دينه وزهدا فى الدنيا وفى خدمة السلطان . فلما استبدّ الغيظ بالمهدى، استدعاه وقال له:

لابدّ من أن تقبل واحدا من أمور ثلاثة أعرضها عليك، وإلا قتلتك.

قال شريك: وما هى يا أمير المؤمنين؟

قال المهدي : إما أن تلى القضاء، أو تتولّى تعليم أبنائى، أو تقبل دعوتى لتناول طعام العشاء معى الليلة.

فكر شريك ساعة ثم قال: تناول العشاء معك أخفّ الأمور الثلاثة على نفسي يا أمير المؤمنين.

ثم انصرف على أن يحضر في المساء.. عندئذ استدعى المهدى طباخه وقال له: أريدك أن تعدّ لعشائى الليلة مع شريك النخعى طبقا عظيما شهيّا من المخ المعقود بالسكر والعسل.

أجابه الطباخ بقوله (وكان على علم بنية المهدى): سأعدّه يا أمير المؤمنين كما أمرت. والله لن يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبدا !

وبالفعل جاء الشيخ، وأكل من المخ المعقود بالسكر والعسل، فما أن انتهى العشاء حتي كان قد قبل أيضا أن يلى القضاء، بل وأن يعلم أولاد الخليفة فى أوقات فراغه!!

ما أن روى لى السادات هذه القصة حتي برقت فى ذهني الفكرة. وخلاصتها أن كل المطلوب من أجل خلق وسيلة موحّدة لتصيّد الأرواح، هو إحداث تغيير جذري في أخلاقيات الأمة المصرية.. كيف؟ عن طريق خلق عادات واحتياجات استهلاكية جديدة، مع توسيع قاعدة القادرين على الأستهلاك ، والتأثير في أنماط سلوك الأفراد وقيمهم بحيث يصبح المال والإثراء السريع بأية وسيلة من أجل إشباع شهوة الاستهلاك، هو غايتهم الرئيسية، وهدفهم الذى لا هدف وراءه..

مثل هذا الغرض لا يمكن تحقيقه إلا بإعادة تكييف المجتمع المصرى، وخلق الجو الكفيل بأن يحقق انحلال الروابط العائلية والطائفية والطبقية

والمهنية.. ففى مثل ذلك الجو وحده نلمس فى أفراد المجتمع اتجاها طاغيا إلى التفكير في مصالحهم الخاصة دون غيرها، واتخاذ سمت الفردية المطلقة، والسعى وراء المنفعة الذاتية دون أدنى اهتمام بالصالح العام.. وقد تمكنت بسهولة من إقناع السادات بأن يتولي - تحت إشرافي المباشر - مهمة التشجيع علي انتشار الرذائل، وتعهّد نموّها وازدهارها، من أجل حرمان المصريين من أىّ إحساس بالتضامن، وتجريدهم من مشاعر الأخوّة، والمواطنة، والجيرة الطيبة، والحرص على خدمة الجماعة التى ينتمون إليها... أضحى الهدف الرئيسى لنظام السادات هو أن يتقوقع كل مواطن فى حياته الخاصة، وأن يبقي بمنأى عن الآخرين، وأن يشعر تجاه كل من عداه - خلاف افراد عائلته الصغيرة، (زوجه وأولاده فحسب) بالشك والنفور.

وإذا تمكن السادات بعد ذلك - بفضل تتابع قوانينه وإجراءاته التحكمية المفاجئة، وبفضل التضخم الرهيب فى الأسعار - من خلق الإحساس لدى الشعب بأنه ما من وضع يمكن الاطمئنان إلى ثباته ودوامه واستقراره، فقد سيطر على كل فرد منهم الخوف من أن يهبط مستواه الاجتماعي، والرغبة القلقة فى النهوض والارتقاء بهذا المستوى، وأصبح الرعب الأكبر لدي أفراد الطبقة المتوسطة هو أن ينحدروا إلى مستوي البروليتاريا.. وحيث إن المال يصبح فى مثل هذا المناخ العام هو المقياس الوحيد للمركز الاجتماعي للفرد، فقد اتجه الجميع فى لهفة شديدة إلى تحصيل أكبر قدر منه، وأضحت أشد العواطف تحكما في النفوس حبّ الكسب، والرغبة في الثراء بأى ثمن، ومن أىّ طريق، واللهفة على رغد العيش والحياة المادية السهلة..

وقد بادر نظام السادات - مرة أخرى تحت إشرافى - بتهيئة جوّ السرّية اللازم لإزدهار النصب والاحتيال، والسرقة والكسب غير المشروع، وإطلاق

العنان لكل شهوة.. وكان هدفه من كل ذلك زعزعة القيم الروحية والأخلاقية للشعب، إذ رأى فى هبوط معنوياته الضمانة الأساسية لتحويل اهتمامه عن الشؤون العامة، وعن مقاومة استبداده، وعن السعي وراء أىّ شىء عدا المركز الاجتماعى، وعدا الثراء الذى هو مقياس هذا المركز، وعدا التوسع فى إستهلاك السلع الذي فيه الدلالة الظاهرة الوحيدة على الثراء..

فاهمنى؟

- نعم.

- وهذا هو بالضبط الجو الذي خَلَقَتْه فى مصر سياسة الانفتاح الاقتصادى.. وقد سهّل هذا الجو علىّ مهمتى إلى أقصى حدّ ممكن... كنت فى الماضي (كما ذكرت لك) أواجه نفوسا تنوعها لاحد له، ورغبات تعدّدها لا حصر له. وكنت أسعي إلى كل إنسان بطريقة تخصّه هو وحده، وأبرم معه عقدا شروطه والتزاماته خاصة به هو وحده.. فأصبح الناس جميعا الآن متشابهين في طبيعتهم، متماثلين فى رغباتهم، متحدين في أهدافهم، لا همّ لأى منهم سوى تحصيل المال الكثير، وتحصيله بسرعة. ولن يأتّى تحصيله بهذا القدر ، ولا بهذه السرعة، إلا عن طريقى. فهم الآن يسعون إلىّ بعد أن كنت فى الماضى أسعى إليهم، ويسألون الدليل عنى بعد أن كنت أسأل عنهم الدليل. وأصبحت صيغة العقد معهم جميعا واحدة، آلاف النسخ منه فى مكتبى لا تحتاج سكرتيرتى البريونية إلا إلى كتابة الإسم وتاريخ الميلاد والعنوان وتاريخ بدء سريان التعاقد، وبيانات بسيطة من هذا القبيل.

كل هذا تحقق فى مصر منذ بداية السبعينات، وهى بالضبط نفس الفترة التى صفّى فيها زميلى القديم الملاك جبريل أعمال مكتبه فى مدينة المهندسين

ورحل نهائيا عن مصر.. ولعلك سمعت أن حكومة عاطف صدقى حاولت مؤخرا الإتصال به فى الخارج من أجل إقناعه بالعودة لممارسة نشاطه فرفض. وحسنا فعل. فالأوضاع فى مصر بالنسبة له قد باتت ميئوسا منها. والآن ماذا تطلب؟

- المال.

- ها ها ها ها ! لم يكن هذا ماعنيته.. كنت أعنى ما تطلبه من حلوى أو فاكهة.. عندهم هنا «أم على» ممتازة ، وعيش سرايا بالقشدة لا بأس به.. أيهما تريد؟

إتحاف الناس بأقوال وسواس الخنّاس

أ

الآراء : هى كالناس؛ ثمة مصالح وراءها.

الآلهة : أرباب ترقى أخلاقها برقىّ أخلاق العباد.

الآنسة : أنثى لاتريد قبل الزواج إلا الزوج، فإن تزوّجت أرادت كل شىء .

الآنسة : لقب نطلقه على المرأة غير المتزوجة للإعلان عن أنها لاتزال معروضة فى السوق.

اتفاق الآراء : أمر لا يتحقق إلا حيث يضعف الاكتراث بالرأى المتفق عليه.

الإجتماعات : كحفلات الاستقبال؛ لا أحد يحبّ حضورها، والكل يغضب إن هو لم يدع إليها.

احتمال الشدائد : مقدرة متوافرة لدى الجميع، شرط أن تصيب الشدائد الغير.

احتمال الشدائد : أمر فى مقدور الملايين، عكس احتمال النجاح الذى لا يقدر عليه غير القِلّة.

الإحصاءات : بيانات يستخدمها الناس استخدام السكارى لأعمدة النور فى الشوارع ، للاستناد إليها لاالطلب الرؤية الواضحة.

الأذواق　　الأمور الوحيدة غير القابلة للمناقشة.
الأساطير　　: ديانات الآخرين.
الاستشهاد فى سبيل قضية　　: أمر ممكن، شرط ألا تكون القضية واضحة تماما لدى المستشهد فى سبيلها.
الاستشهاد فى سبيل قضية　　: السبيل الوحيد أمام الخالى من المواهب لنيل الشهرة
الاستماع　　: ما من أحد مستعد له إلا إن كان واثقا من أن دوره فى الكلام آت.
الاستماع　　: ليس عكس الكلام، وإنما عكس الكلام الانتظار.
أصالة الفكر　　: سرقة من أفكار الآخرين لم يكتشفها أحد بعد.
الاعتراف بالخطأ　　: هو فى الحقيقة افتخار بأننا اليوم أحكم منا بالأمس.
الإعجاب　　: اعتراف مهذب بشبه آخرين بأنفسنا.
الأعداء　　: اخطرهم من كان فى الماضى صديقا لك؛ فهو أدرى الناس بمواطن ضعفك.
الأغبياء　　: ذمّهم لك أدعى إلى الفخر من امتداح الأوغادإياك.
أفريقيا　　: قارة خلقها الله تعالى لمضايقة وزارة الخارجية.
الأقارب الفقراء　　: هى الكائنات الوحيدة التى لانفهم الحكمة من خلقها.
الإلحاد　　: إيمان معكوس.
الأمومة　　: حقيقة ثابتة، عكس الأبوّة التى هى مجرد ظنّ.
الأناقة　　: وسيلة أكثر فاعلية من الدين لجلب السكينة إلى قلب المرأة.

الأنانى	إنسان بلغت به قلة الذوق أن أصبح أكثر اهتماما بنفسه منه بى.

الإنسان	حيوان إن تصرّف تصرّفَ الحيوان قال: لستُ إلا بشرا، وإن عومل معاملة الحيوان قال: ألستُ بشرا؟!

الإيمان	: الاعتقاد دون دليل، بصحة أقوال شخص يتحدّث دون علم، عن أشياء غير مألوفة.

الإيمان الشديد	: إنعدام الرغبة فى معرفة الحقيقة.

ب

البخل	: آخر شهوات إمرىء قضى شبابه فى اقتناص الملذات، وكهولته فى خدمة طموحه.

البنوك	: مؤسسات لاتقدم القروض إلا إلى من ليس فى حاجة إليها.

ت

التاريخ	: سَرْدٌ جُلُّه كذب، لأحداث جلها تافهة، تسبّب فيها حكام معظمهم أوغاد، وجنود معظمهم بلهاء.

التاريخ	: هو العزاء الوحيد الباقى للناس، إذ يريهم أن أسلافهم كانوا تعساء مثلهم، وربما أكثر تعاسة.

التاريخ القديم	: مجموعة من الأساطير اتفقت الأغلبية على تصديقها.

التافه كريم الأصل	: كالفجلة فى الأرض؛ خير مافيها تحت الثّرى.

تبادل القبلات	: نشاط لايدوم، عكس طهى الطعام.

التثاؤب	: صيحة احتجاج صامتة.

التحالف الدولى	: اتفاق بين لصين لا يستطيع أحدهما أن يسرق الآخر،

على أن تعاونهما لاغنى عنه من أجل سرقة ثالث.

تدين المرأة : شعور ينشأ حين يفقد الشيطان كل اهتمام بها.

التسلية : سعادة من ليس بمقدوره أن يفكر.

التعصب : مضاعفة الجهد عند نسيان الهدف.

التعصب : عاطفة تزداد قوة كلما قلت ثقة المرء بصحة رأيه.

التعليم : هو ما يتبقى بعد نسيان كل ماتعلمناه.

التعليم : هو ما يوضّح للعاقل ويخفى عن الغبيّ أنهما جاهلان.

التعليم : نشاط يوفر للناس القدرة على القراءة، دون القدرة على تمييز ما يستحق القراءة .

التفاخر بالأنساب اعتزاز بالانتساب إلى سلف لم يكن يعتز بالانتساب إلي سلفه.

التمدن : استخدام المتوحش للشوكة والسكينة فى أكل لحوم البشر.

التملق : ما يهمك منه هو أن شخصا وجد داعيا إليه.

التملق : كدخان السجائر؛ لا بأس عليك منه إلا إن بلعته.

التواضع : فن تشجيع الآخرين على اكتشاف مواهبنا بأنفسهم.

التواضع : فن إبراز مواهبنا عن طريق التظاهر بأننا غير واعين لها.

التوفير : فعل محمود، خاصة إن أتى من الآباء.

ث

الثروة : أتفه النعم فى نظر الآلهة، وإلا لما كانت أغدقتها على الأوغاد.

الثروة : كالسِّماد؛ كريه الرائحة إن تجمَّع، مفيد للأرض إن وُزِّع.

الثقة بالنفسة : أن يكون الشخص مخطئا بأعلى صوته.

ج

الجمال : قوة تستخدمها المرأة فى اجتذاب العشيق، وإرهاب الزوج.

جمال الماضى : ثمرة ضعف الذاكرة.

الجماهير : جموع تهتف لنا أيام مجدنا، وتهتف ضدنا حين نقاد إلى المشنقة.

الجماهير : رءوس كثيرة ولا عقل.

الجنازات : هى فى المدينة مجرد تعطيل للمرور، وفى الريف شكل من أشكال الترفيه.

الجنتلمان : هو من إذا دعا فتاة إلى مسكنه ليريها لوحاته، أراها لوحاته.

الجنون : مرض وراثى، نرثه عن الأبناء.

ح

الحاكم الجاهل : حمار مُتوّج.

الحب : هو حكمة الحمقى، وحماقة الحكماء.

الحب : كالحصبة؛ أخطر ما تكون حين تصيب كبار السن.

الحب : هو كالكلب الذى يفضل الضرب من يد معينة على الملاطفة من يد أخرى.

الحب : مبالغة لا تغتفر فى بيان اختلاف شخص معين عن كل

الآخرين.

الحديث عن النفس : إن كان بالخير لم يصدّقه أحد، وإن كان بالشرّ صدّقه الجميع.

حسن الإصغاء : يتوافّر حين نكلم الشخص عن نفسه.

الحفلات الراقصة : حفلات يقصدها الرجل لغرض من ثلاثة ليس الرقص أحدها: إما البحث عن زوجة، وأما لإرضاء زوجة، أو لتصيد زوجة رجل آخر.

الحكمة : مشط تهديه إلينا الطبيعة بعد سقوط الشعر .

الحكيم : من يعرف منذ البداية ما لايدركه الأحمق إلا فى النهاية.

الحل الوسط : فن تقسيم الكعكة بحيث يظن كل شخص أنه حصل على أكبر نصيب منها.

الحياة : عزف منفرد على الكمان أمام الجمهور، يتدرب عليه العازف أثناء الحفل.

الحياة الاجتماعية : حفلة تنكرية يخفى فيها كل امرىء وجهه الحقيقى، فيفضحه اختياره للقناع.

خـ

خطاب التوصية : أصعب الأمور إن تعلّق بشخص نعرفه.

د

الدبلوماسى : رجل يفكر مرتين قبل أن يقول شيئا لاقيمة له.

الدبلوماسية : فن تملّق الكلب إلى حين عثورك على حجر.

الدعاء : هو دائما من أجل حدوث معجزة؛ هو بمثابة القول: «يا إلهى، أتوسل إليك ألا تجعل ٢ + ٢ = ٤».

الديكتاتورية : مذهب سياسى ينكر على الناس حقهم فى النزول إلى الماء إلى أن يتقنوا السباحة.

الديموقراطية : نظام يعتمد على عدّ الأصوات لا وزنها.

الديموقراطية : مذهب سياسى يضمن الا تحكمنا حكومة هى أفضل مما نستحق.

الديموقراطية : مذهب سياسى أكبر نقائصه الميل إلى تشجيع الناس على الاعتقاد الخاطىء بأنهم ولدوا متساوين.

الدين : خير درع، وشرّ قناع.

ر

رئيس التحرير : صحافى يفصل بين الغث والسمين، ثم ينشر الغث.

رجال الدين : أناس ألفوا ضرب الأحياء بعظام الأموات.

الرخاء : حال يتقرب فيها معارفنا إلينا، عكس الشدة التى هى حال نتقرب فيها إلى معارفنا.

الرغبة : هى عند الرجال فى النساء، وعند النساء فى رغبة الرجال.

رفع الصوت : وسيلة نلجأ إليها حين نفشل فى الإقناع با لمنطق.

الرقص : تعبير دائرى عن شهوة افقية.

الرواية : الفرق الوحيد بينها وبين التاريخ هو أن الرواية تتجنب المصادفات.

ز

الزواج : هو فى الحياة كمبارزة إبان معركة حربية.

الزواج : أصعب سنواته السنة الراهنة.

الزواج : وجبة تقدم فيها الحلوى فى بدايتها.

الزواج السعيد : شرطه التدقيق قبله، وعدم التدقيق بعده.

الزواج عن حب : ليلة سعيدة، ونهار منحوس.

س

سر الشهرة : هو إزعاج أكبر عدد ممكن من الناس.

السرقة : جريمة إن سرقت محفظة، وجرأة إن سرقت مصرفا، وعظمة إن سرقت تاجا، اللوم فيها يتضاءل بتعاظم الجرم.

السرقة الأدبية : هى حين يسرق الكاتب من مؤلف واحد. أما السرقة من عدة مؤلفين فتسمى بحثا.

السعادة : إحساس بالرضا ناجم عن تأمل تعاسة الآخرين.

السعادة : أمر يسير لولا إصرارنا على أن نكون أسعد من الآخرين، وهو أمر صعب حيث أننا دائما نتخيل الآخرين أسعد حالا مما هم عليه فى الواقع.

السلام : هو فى الشؤون الدولية فترة من الغش بين فترتين من القتال.

السُّمعة : أمر يسهل الاحتفاظ به، ويصعب استرداده.

سن المرأة : إن أردت معرفته فاسأل أخت زوجها.

سوء الظن بالناس : رذيلة تنمّ عن عقل سليم.

السياحة : الغرض منها ليس مشاهدة أقطار أجنبية ، وإنما هو مشاهدتك بلدك عند العودة وكأنه قطر أجنبى.

السياسة : فن التنبؤ بالأحداث التى ستقع فى المستقبل، والقدرة بعد ذلك على تفسير عدم حدوثها.

السياسة : فن الحصول على أصوات الفقراء، وتمويل المعركة الانتخابية من الأغنياء، عن طريق وعد كل فريق بحمايته من عدوان الفريق الآخر.

السياسى : رجل لا يهمه فى أى اتجاه تسير السيارة مادام فى مقعد القيادة.

السيرة الذاتية : هى بعد الإعلانات أكثر صنوف الكتابة مدعاة للشك.

ش

الشجاعة : هى أحيانا عجز عن إدراك حقيقة الموقف.

الشجاعة : أهم متطلباتها متفرج يرقبها.

الشجاعة : رغبة شديدة فى الحياة تأخذ شكل الاستعداد للموت.

الشخصية : مفتاحها هو مدى استعداد الشخص لارتكاب الذنوب إن اطمأن إلى أن أمره لن يفتضح.

الشعر المنثور : هو كلعب التنس دون شبكة.

الشفاء : يحققه الله ويقبض الطبيب أجره.

شهادة الدكتوراه : نقل عظام من قبر الى قبر.

الشهرة : طريقها لا يتوقف على ماتعرفه، وإنما على من تعرفه.

الشهرة : سبيلها إما تسجيل أشياء تستحق القراءة، وإما القيام بأشياء تستحق التسجيل.

الشيخوخة : ابيضاض ماكنت تحب أن يسودّ، واسوداد ما كنت

تحب أن يبيض ، واشتداد ما كنت تحب أن يلين ، ولين ما كنت تحب أن يشتدّ .

الشيخوخة : موت لا يستمتع بهدوء الموت.

الشيخوخة : مرحلة من العمر تبدأ حين يصبح عدد نسلنا أكبر من عدد أصدقائنا.

ص

الصحافيون : أناس عاجزون عن التفرقة بين حادث دراجة، وانهيار حضارة.

الصحف : كل أخبارها صادقة، إلا تلك التى صادف أن عرفناها بأنفسنا.

الصدفة : حقيقة واقعة لانستنكرها إلا فى الروايات.

صدق الأخبار : أول الضحايا عند نشوب الحرب.

الصديق : شخص يعرفك جيدا، ويحبك رغم ذلك.

الصديق : شخص يحبك ويدعك كما أنت. أما الزوجة فتحبك وتسعى إلى أن تجعل منك شخصا آخر.

ض

الضمير : صوت داخلى يحذرنا من احتمال ان يرانا أحد.

ط

الطبيب : شخص صنعته ان يأمرك بأن تأكل ما لاتشتهى، وأن تشرب ما لاتستسيغ، وأن تفعل ما لاتحب.

الطُّعم : مستحضر يجعل الخطاف ألذ طعما، وأشهى صنوفه الجمال.

طلب النصيحة : التماس موافقة الآخرين على قرار قد اتخذناه بالفعل.

ع

العاقل : من كفّ نفسه وفق أحوال الدنيا، عكس الأحمق الذى يسعى إلى تغيير أحوال الدنيا وفق أحلامه. ولذا فإن كل تقدم يحدث فى أحوال الدنيا هو من صنع الحمقى.

العبارة الجميلة : حيلة يلجأ إليها الكاتب وقت الافتقار إلى المعانى.

عبودية المرأة : هى ثمرة عبودية الرجل للحكام.

العدسات المكبرة : أقواها عين المرء حين تقع على نفسه.

عشق الذات : هو عشق لن يجد صاحبه له منافسا فيه.

العصبية : هى أن يرى الرجل شرار قومه خيرا من خيار قوم آخرين.

العصر الذهبى : كل عصر إلا الراهن.

العِفّة : فضيلة لايمكن الافتخار بها ما لم يتعرض صاحبها لإغراء.

العقل : جهاز يوهمنا أننا نفكر.

العقل : جهاز يبدأ فى العمل حالما يستيقظ الإنسان من نومه إلى حين وصوله إلى مكتبه.

العِناد : وسيلة الإنسان الضعيف لتأكيد ذاته.

العِناد : إن كان فىَّ فهو حزم، وإن كان فيك فهو عناد، وإن كان فى غيرنا فهو غباء.

العناد : ضعف فى الشخصية مظهره فقدان القدرة على التأثر بالمتغيرات.

غ

الغرور : هو حق كل إنسان إلى أن ينجح.

ف

الفقر : وضع لايخلو من مزية؛ هى أن الطبيب سيعالجك بسرعة.

الفـن : إما سرقة، وإما ثورة.

الفنان : شخص باستطاعته أن يجعل من الحلول ألغازا.

الفنان : هو كالإنسان الذى يعيش فى سويسرا أثناء حرب عالمية.

الفيلسوف : أعمى فى حجرة مظلمة، يبحث عن قطة سوداء ليست فى الحجرة.

ق

القانون : كالسويسريين، بإمكان أى شخص أن يجنده فى جيشه.

القطة : مخلوق قصدت به الطبيعة أن يركله أفراد العائلة متى ساءت الأحوال فى محيط المنزل.

قمع حرية الرأى : نشاط يمارسه مشعلو الحرائق فى مواجهة من يدق ناقوس الخطر.

القوانين : وليدة اليأس من إصلاح طباع البشر.

ك

كاره الناس : امرؤ يظن الآخرين سيئين مثله، ويكرههم لهذا السبب.

الكتاب الضخم	: كتاب يميل الناس عادة الى مدحه لمجرد أنهم تمكنوا من قراءته كله.
كتمان السر	: إن كنت حريصا عليه، فاحرص على أن تخفى عن الناس أن لديك سرا.
الكذب	: جزاؤه ليس فى إحجام الناس عن تصديق الكذاب، وإنما فى عدم استطاعة الكذاب تصديق الناس.
الكريم	: سارق الورثة؛ وهو عكس البخيل، سارق نفسه.
الكلام	: وسيلة الإنسان لإخفاء أفكاره.
الكلب	: حيوان يعامل سيده وكأنه الإسكندر الأكبر، وهذا هو سر شغف الناس به.

ل

اللِّجان	: لكى تكون فعالة يجب ألا يزيد عدد أعضائها على ثلاثة، إثنان منهم متغيبان.
اللص	: شخص يطالبك بمالك أو حياتك؛ عكس المرأة التى تطالبك بالإثنين معا.

م

المبادىء	: قضية من الأسهل أن نموت فى سبيلها من أن نعيش وفقها.
المتدين	: شخص ضعيف الإرادة ، يستسلم لإغراء حرمان نفسه من الملذات.
المتشرد	: إنسان فقير يتنقل من مكان إلى مكان . أما إن كان غنيا فهو سائح.

المتشائم : متفائل قد اطلع على حقيقة الأمور.

المتصوف : شخص يسعى فى بستان الحياة ليجمع أشواكه ويطأ على وروده.

المتعصّب :عقليته كحدقة العين؛ تزداد تقلصا بازدياد قوة الضوء.

المتعصّب : شخص عنيد يتحمس لرأى لا نؤمن به.

المثالية : عقيدة تزداد قوة بمقدار بُعد صاحبها عن المشكلة.

المحافظ : سياسى مغرم بالشرور القائمة، وهو بخلاف الثورى الراغب فى أن يحل محلها شرورا أخرى.

المحافظون : أناس لايعجبون بالثوريين إلا بعد مرور قرن على وفاتهم.

المحافظون : صفة نطلقها من قبيل الرأفة على الأغبياء.

المحافظون : أناس يؤمنون بضرورة التغيير، ولكن فيما بعد.

المحامى : رجل يعرف أن موكله كاذب، غير أنه يحرص على الإلمام بالأكاذيب بترتيب دقيق.

المحامى : رجل يؤجر عقله للآخرين، بالضبط كما تؤجر المومس جسدها.

المحامى : شخص يستخلص حقوقك من براثن الآخرين، ليحتفظ بها لنفسه.

المحايد : شخص لم يكتشف بعد مصلحة شخصية له فى الانحياز إلى طرف من أطراف النزاع.

المذبح : مكان لذبح الحيوانات، يقام عادة بعيدا عن مساكن الآدميين حتى لا يفسد منظرالدماء شهية محبى أكل اللحوم.

المرأة : كائن إن تنازلت له عن شبر جاء بسيارته ليوقفها فيه.

المرأة : كائن نريد أن نقع بين ذراعيه دون أن نقع فى يديه.

المرأة : كائن لا يخفى إلا ما لا يعرفه.

المرأة : إنسان يعتقد أنه بالإمكان أن يجعل ٢ + ٢ = ٥ لو أنه بكى، أو تجمل، أو تدلل.

المرآة : هى عند المرأة بمثابة الضمير، تنظر فيها قبل الشروع فى أى أمر هام.

المساواة : مبدأ لا يعيبه غير أننا لانتمسك به إلا حيال الطبقة الأعلى من طبقتنا.

المساواة : شعار يقضى بأن يبدأ الناس السباق معا، وأن ينتهوا معا.

المساواة أمام القانون : ما يضمن منع الأغنياء والفقراء على السواء من التسول فى الشوارع، أو سرقة الخبز.

المشهور : شخص يعرفه الكثيرون ممن يسعده الا يعرفهم.

المصيبة : نوعان ؛ ما ينالنا من شرّ، وما يناله الآخرون من خير.

المعارف : درجة من درجات الصداقة، توصف بالضعف إن تعلقت بفقراء مغمورين ، وبالقوة إن تعلقت بذوى السلطة أو الثراء.

المعبد : مكان يشيد فيه أناس بنعيم جنة لم يروها، لأناس لن يروها.

المعجزة : حادث يصفه أناس سمعوا عنه من أناس لم يروه.

المعرفة الشاملة : أمر لا يدعيه غير صغار السن.

الملابس الأنيقة : ملابس تلبس لتخلع.

الممثل : إنسان إذا انت لم تحدثه عن نفسه لم يعر حديثك اهتماما.

المناقشة : وسيلة لتثبيت الآراء الخاطئة لدى المشتركين فيها.

المهن الحرة : جميعها مجرد مؤامرات تحاك ضد غير المشتغلين بها.

الموافقة من حيث المبدأ : لاتعنى غير انعدام نية التنفيذ.

المؤتمرات : اجتماعات لأناس مهمين لا يستطيع أحدهم فعل شىء بمفرده، غير أن بإمكانهم مجتمعين أن يعترفوا بعجزهم عن فعل شىء.

المؤرخ نبى عيناه فى قفاه.

الموضة : طاغية يسخر منه العقلاء ويطيعونه.

الميناء : مكان تلجأ إليه السفن لتحتمى من العواصف، فتقع فى براثن رجال الجمارك.

ن

الناقد : إنسان يهدم لمجرد عجزه عن البناء.

الناقد : هو كالخصى فى الحريم؛ يعرف جيدا كيف يتم الجماع، ولكنه غير قادر عليه.

الناقد : إنسان يدهش المؤلف بإخباره إياه عن معني ماكتب.

الناقد : إنسان يعرف الطريق دون أن يستطيع قيادة السيارة.

الناقد : إنسان يشعر المؤلف نحوه شعور عمود الإنارة تجاه الكلب الذى يتبول عليه.

النجاح : أمر يأتى أحيانا بفضل الزوجة الأولى. أما الزوجة الثانية فتأتى بفضل النجاح.

النجاح : سبيله إما اجتهادك، ووأما غباء الآخرين.

النجم اللامع : شخص يعمل جاهدا طيلة حياته حتى يعرفه الناس، ثم يلبس نظارة سوداء حتى لا يعرفوه.

النصيحة : واجبة إلا فى أمرين: الزواج والدين، حتى لا يحملنا أحد المسئولية عن عذابه فى الدنيا، أو عذابه فى الآخرة.

نفقة المطلقة : هى بمثابة شراء الشعير لحصان ميت.

هـ

الهدية : أغلى مما تشتريه.

الهواية : هى مجال النشاط الوحيد الذى لايمكن للشخص أن يكون فيه منافقا.

و

الوحشية : هى إقدام الحيوان على قتل الإنسان. أما قتل الإنسان للحيوان فيسمى صيدا.

الوطنية : إيمانك بأن بلدك أعظم من أى بلد آخر لمجرد أنك ولدت فيه.

الولايات المتحدة : دولة قفزت من التخلف إلى الانحلال دون أن تمر بمرحلة التمدن.

الولايات المتحدة : كلب ضخم ظريف فى غرفة ضيقة، كلما حرك ذنبه أسقط كرسيا.

ى

اليوميات : لاتكتبها غير الفتيات المهذبات. أما غير المهذبات فلا وقت لديهن لكتابتها.

فَحْص فنـىّ

فى إدارة المرور لإجراء فحص فنى لسيارتى من أجل تجديد الرخصة... أكّد الجميع لى قبل ذهابى أن الزمن الذى كان فيه تقديم الرشوة للمهندس المكلف بالفحص أمرا لا مفرّ منه، (سواء كان عمر سيارتك قرنا كاملا أو يوما واحدا)، قد ولّى إلى الأبد، وأننى سأدهش حقا إزاء ما سألمسه الآن من أمانة منقطعة النظير، وصرامة ودقة فى تطبيق التعليمات حيال كافة المواطنين..فحمدت الله كثيرا على هذا الفضل، وعلى هذا التغير المحمود في الطبيعة البشرية، وبعد سنين وسنين ما كان المرء ليتحرك فيها دون أن يضطر إلى توزيع الرشاوى يمنـة ويسرة.. وحيث أن سيارتى الفولكس فاجن كانت فى حالة من الكمال والتمام يحسدني عليها أصحاب السيارات فى كل طريق أسير فيه، فقد توجهت إلى إدارة المرور فى رباطة جأش، وثبات قلب، وقد ارتسمت على شفتى ابتسامة الثقة والرضا.

لم يزعجنى ما رأيته من زحام شديد فى فناء المبنى. فقد حصلت من رئيسى فى العمل على إجازة عارضة، وبوسعى أن أقضى الصباح كله هنا إن لزم الأمر. فأما المهندس الذي كان في بؤرة الزحام، فأنيق الهيئة، نبيل الملامح، يتنقّل في بطء ووقار من سيارة إلى أخرى وحوله العشرات من الوجـوه القلقة المتوسّلة لأصحـاب السيارات، وفى يـده قلم ودفتر، يمـلأ

البيانات ويسجل الملاحظات ويوقّع الأوراق.. كان صورة مشرّفة ناصعة للموظف المصرى النشيط الأمين، لايعيبه سوى بعض التزمّت فى الالتزام بالتعليمات، وهو تزمّت كان يبدو غريبا بعض الشى متى كان الفحص متعلقا بسيارة جديدة أو كالجديدة، يصعب على العين المجرّدة أن ترى فيها عيبا، ويشرّف الشارع المصرى أن تسير فيه... فكان إذا جاء دور مثل هذه السيارة، وفحص المهندس فراملها وإشاراتها وفوانيسها ووجدها سليمة، وحرّك الفتيس ووجده سلسا ناعما، وسأل عن طفّاية الحريق ووجدها متوفّرة، وعن عدّة السيارة ووجدها كاملة، التفت إلى اللوحات المعدنية التى تحمل رقم السيارة ثم تمتم :

- الرقم غير واضح وتصعب قراءته..

ثم يرفض التوقيع على الموافقة على شهادة الفحص.. هنا يصفرّ وجه صاحب السيارة، ويرتسم الجزع فى عينيه، ويصيح:

- إزاى يا باشمهندس ! الرقم واضح أمامك كالشمس.. ٧٧٨٣٠٩ ملاكى جيزة.. ماله؟

فيجيبه المهندس فى هدوء :

- هدىء نفسك.. جري لك إيه؟ أنا شخصيا لم أستطع قراءته، وأنا الحكم لا أنت. وعلى كل حال أعتقد أن رجلا يقف قريبا من هنا عنده طلاء وفرشاة.. أطلب منه أن يدهن اللوحات لك، ثم تعالى إليّ مباشرة دون انتظار لدورك من جديد ، وسأوقّع بالموافقة .. وبالفعل ، كان هناك رجل على الرصيف المقابل على بعد أربعة أمتار أو خمسة من مكاننا، وإلي جانبه علبة لبن نيدو قديمة ضخمة فيها طلا ء أبيض، وعلبة سيريلاك صدئة فيها طلاء

أسود، وفى يده فرشاة، ينتظر طلبات أصحاب السيارات ليدهن اللوحات المعدنية لسياراتهم مقابل أجر معين.

وجاء دور الفحص لسيارة رجل سمين يلبس نظارة سميكة جدا، ويبدو مصابا بقصر نظر شديد.. كانت سيارته فى حالة ممتازة، ومع ذلك فقد تمتم المهندس بعد فحصها بكل دقة وعناية :

– غير صالحة.. أرقام اللوحات المعدنية غير واضحة .

ويحمر وجه الاستاذ.

– غير واضحة؟! الأرقام أعدت طلاءها فى الاسبوع الماضى استعدادا للفحص. فكيف لا تكون واضحة ؟!

أجاب المهندس وهو يتوجه إلى سيارة أخرى:

– ماليش دعوة.. غير واضحة يعنى غير واضحة.

ثم بدرت من يده إشارة إلى الجهة التى يقف فيها الرجل صاحب علبتى النيدو والسيريلاك... غير أن الرجل السمين ذا النظارة السميكة فسّر حركة يد المهندس تفسيرا آخر، فإذا بيده تمتد إلى جيبه ليخرج من محفظته ورقة من فئة الخمسة جنيهات، وحاول أن يدسّها سرّا فى يد المهندس.

هنا احمرّ وجه المهندس غضبا وصرخ بأعلي صوته:

– ما هذا ؟! تريد إعطائى رشوة يا رجل ياأعمش يا أبو أربع عيون؟! وارتبك الرجل السمين واضطرب وقد علت وجهه دلائل الخجل الشديد. وتلعثم قائلا وهو يعيد الجنيهات الخمسة إلى جيبه:

- أبدا والله العظيم لم أحاول رشوتك، ولا كانت هذه نيّتى.. كنت فقط أريدك أن تمسك بالورقة ريثما أخرج المنديل من جيبى لأمسح عرقى.. والله العظيم ثلاثة ما خطرت فى ذهنى هذه الفكرة.

وتجنب الواقفون من أصحاب السيارات النظر اليه وقد وضح أنهم لم يصدّقوا إنكاره ودعواه... ومضى المهندس فى صياحه بأعلى صوته.

- انكسف على دمك يا رجل وافهم أن زمن الرشاوى قد انقضى إلى غير عودة. ألم تقرأ تصريحات رئيس الوزراء أمس الأول؟ .. خذ سيارتك وامش من هنا قبل أن أستدعى الشرطة.. ولكن معلهش.. المسامح كريم.. أطلب من ذلك الرجل الواقف هناك بالفرشاة أن يطلى اللوحات لك.. واحمد الله أنه ليس لدىّ وقت لاستدعاء البوليس..

ثم التفت المهندس إلى أحد موظفى إدارة المرور كان يمر بالمكان :

- تصور يا محمود .. تصور؟! هذا الاستاذ اللابس نظارة حاول رشوتى كما كانت عادتهم فى العهد البائد.. لا فكرة لديه أن الاحوال قد تغيرت.. للأسف لم أحتفظ فى يدى بالجنيهات الخمسة حتى أثبت واقعة الرشوة.. معلهش.. المسامح كريم !

أجابه محمود وهو يمضى لسبيله:

- شىء مؤسف.. أخلاق مفيش!

وتوجّه الرجل السمين من فوره إلى صاحب علبتى النيدو والسيريلاك، وعاد بعد خمس دقائق فحصل على التوقيع بالموافقة..

هنا خطر بذهني أن ألقى نظرة (قبل أن يجىء دورى) على لوحات

سيارتى المعدنية لأطمئن على وضوح الأرقام.. كانت واضحة جالية، تمكنت من قراءتها من علي بعد متر، ومن على بعد خمسة، ومن على بعد عشرة.. غير أني زيادة فى الأطمئنان واختصار للوقت، توجهت إلي الرجل على الرصيف ليعيد طلاءها فإذا به يطلب عشرة جنيهات أجراً لهذه العملية البسيطة غير المعقدة.

صحت فى وجهه:

– حضرتك بتهزّر ؟ عشرة جنيهات من أجل طلاء لوحتين ؟! هذه سرقة علنية !

اكفهر وجهه وتأملنى لحظات وهو عابس ثم همس فى أذنى :

– وطّى صوتك يا أستاذ موش كده.. أنا لو عليّ مستعد أدهنها بثلاثة جنيهات لا غير. ولكن ضع نفسك مكاني.. عليّ أن أقتسم المبلغ فيها بعد مع هذا المهندس الذى لا يرحم ولا يخاف الله.. فهمت ؟ وسيادتك عارف تكاليف المعيشة النهاردة شكلها إيه.. البيضة بقت بكام؟ وكيلو الطماطم بقى بكام؟ على كل حال سأطليها لك بثمانية جنيهات فقط ورزقى على الله.

ناولته الجنيهات الثمانية وأنا أنفث غيظا ، فدهن اللوحات المعدنية، وعدت إلى مكاني منتظراً دورى وكلى ثقة الآن في نتيجة الفحص.. تصوّروا دهشتى العظيمة ومبلغ جزعي حين جاء دور سيارتى وفحصها المهندس ثم تمتم بقوله :

– الارقام غير واضحة.

وأشار بيده تجاه علبة السيريلاك.

صحت فى وجهه بكل قوة:

– غير واضحة!! لقد عدت لتوى من عند هذا الرجل.. والدهان لم يجفّ بعد.. تفضل وانظر بنفسك.

ولمست بإصبعى اللوحة أمامه، وأريته أثر الطلاء فيه.

التفت المهندس سريعا إلى الرجل علي الرصيف ، فأومأ الثانى إليه برأسه.. حينئذ نظر المهندس إلىّ فى شىء من الخجل، ثم قال:

– آسف يا أستاذ .. آسف .. مجرد سوء تفاهم.. لا مؤاخذة . نعم.. الأرقام واضحة.. ولكن عليك أن تعترف أنها لم تكن قبل طلائها واضحة تماما.. ماذا بك؟ قلت لك لامؤاخذة، باردون ، آسف.. عايز إيه بقى؟ خلاص يا أخ، خلاص.

ووقّع بإمضائه على شهادة الفحص..

شركة «مالتس» للتخليص والتشهيل

- الأستاذ فهمى فايق ؟

- نعم.

- أنا حسين أمين مندوب شركة فارس مالتس للتخليص والتشهيل.

- أهلا وسهلا.. أهي شركة للتخليص علي الأمتعة والسيارات فى الجمرك؟

- ستعلم بعد قليل.. يمكننا القول مبدئيا إنها شركة خيرية إنسانية تعمل فى حدود إمكانياتها، (وبالتعاون مع صندوق النقد الدولى)، من أجل «تخليص» مصر من بعض مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية الحادة، و«تشهيل» إعدادها لقبول النظام الدولى الجديد، واستقبال القرن الحادى والعشرين بروح اكثر فاعلية وواقعية.

- شركة مصرية؟

- شركتنا هى إحدى الشركات التى تدخل فى إطار مشروع الصندوق الاجتماعى الذى تقرر إنشاؤه عقب اتفاق مصر الأخير مع صندوق النقد الدولى، وذلك من أجل المزج بين الإجراءات التقشفية الصارمة وبين

الإجراءات التلطيفية التى تستهدف تخفيف العبء على المواطنين، وتمكين الناس من قبول الإجراءات التقشفية، وتحقيق آثار برنامج الإصلاح الاقتصادى بسرعة أكبر.

- عظيم.. وما دخلى أنا بالذات فى هذا الأمر؟

- ستعلم بعد قليل.. لا شك أن سيادتك تدرك، وأنت رئيس مجلس إدارة بنك «جيرى ترست»، أن أكبر عقبة يواجهها الصندوق الاجتماعي هى الضآلة الشديدة فى موارد هذا الصندوق التى تتمثل فى ٤٠٠ مليون دولار بالإضافة إلي ٢ مليار جنيه مصرى فى الموازنة، في حين لا يجوز أن تقل موارد الصندوق عن ٤ مليارات دولار لمساندة عملية التصحيح الاقتصادى ورفع العبء عن بعض الطبقات التى قد تعانى بشدة من هذه العملية.

- حسنا؟

- لهذا فكر الدكتور فارس مالتس في إنشاء هذه الشركة الخيرية من أجل المساهمة في توفير موارد اكبر للصندوق الاجتماعى.

- عن طريق .....؟

- ستعلم بعد قليل ... سيادتك تدرك كيف أن التقدم العلمى المذهل في مجال الطب والدواء والرعاية الصحية قد أسهم في إطالة الأعمار وخفض نسبة الوفيات عندنا فى مصر بصورة لا تتفق مع متطلبات رفع مستوي المعيشة، ولا تتمشى مع الواقع الاقتصادى أو مع معدل نمو الانتاج... وكانت النتيجة أن أصبح عدد من تزيد سنهم في مصر على الخمسة والستين أكثر من مليونين، وينتظر أن يصل هذا العدد عام ٢٠١٠ (أي في أقل من عشرين عاما) إلى ثلاثة ملايين وستمائة ألف نسمة.

- صحيح .

ـ يحدث هذا فى الوقت الذي تتهيأ فيه بلادنا لاستقبال القرن الحادي والعشرين، وتحاول لاهثة أن تفيق من أزمتها الاقتصادية.. ونحن يا سيدى في عالم تهيمن عليه فكرة التقدم، عالم من المنتجين والمستهلكين الذين يبذلون قصارى جهدهم من أجل تحسين الأحوال المعيشية.. وكبار السن، كما تعلم سيادتك، لا هم بالمنتجين النافعين، ولا بالمستهلكين الذين يعتدّ بهم.. وبالتالي فهم ليسوا إلا مجرد عائق غير مرغوب فيه فى سبيل المزيد من التقدم، وفى سبيل النهوض بالمستوى المعيشى للشعب.

– ولكن.....

– وحتي لو أننا نظرنا إلى الأمر نظرة عاطفية ، أو قلنا إن المسنينّ فى الماضى كانوا يؤدون مهام مفيدة، كرعاية الأطفال أو النهوض بالأعباء المنزلية أثناء انشغال الشباب بأعمالهم، فإن هذا القول لا ينطبق على عصرنا هذا الذى نشهد فيه الآلاف من دور الحضانة وآلاف الوسائل لتأدية المهام المنزلية، وعلى نحو أفضل وأرخص من تأدية المسنينّ... هل لديك اعتراض على ما أقول؟

– ربما كنت علي حق . ولكنك تصوّر البشر على أنهم مجرد آلات لا أكثر ولا أقل.

– وهل هم يا سيدى الفاضل غير آلات لا أكثر ولا أقل ؟ قد نكون آلات فريدة رائعة، ولكننا في المحصلة النهائية مجرد آلات...نظرة مجردة واحدة منك إلى العالم حولك تكشف لك عن أنه مجرد آلة ضخمة هائلة مكوّنة من أجزاء قابلة للاستبدال، ولا همّ لها غير الإنتاج والاستهلاك، ثم الانتاج والاستهلاك حتي تتلف الاجزاء المكوّنة للآلة فيستبدل بها قطع غيار جديدة... فهل من حقنا أن نستسلم للعاطفة وللمشاعر التقليدية البالية ونستبقى الاجزاء

المستهلكة التالفة إشفاقا عليها؟ بالطبع لا! الواجب يحتم علينا التخلص منها حتى تبقى الآلة نشطة منتجة . فالآلة الكبرى هي ما يجب الحرص عليه لا مكوّناتها.

- قد تكون مصيبا، ولكن....

- إسمح لي بأن أقاطعك.. أنظر إلى حالنا اليوم في مصر.. صندوق النقد الدولي يطالبنا بشدّ الأحزمة علي البطون، ولا تخفى السلطات عنا أن أمامنا سنوات عديدة من شظف العيش والتضحيات الجسام، وضريبة المبيعات قد أثقلت كل كاهل، والطبقة البورجوازية مهددة بأن تصبح بروليتاريا، والعملة المصرية فى تدهور يومى، ومعدلات التضخم فى ارتفاع في حين تتباطأ معدلات النمو الاقتصادى القومى بصفة عامة.

- اسمح لي أنا هذه المرة بأن أقاطعك.. ما صلة كل هذا بالزيارة التى تفضلتم عليّ بها؟

- ستعلم بعد قليل... خلاصة القول أنه فى الوقت الذي يعانى فيه المصريون ما يعانون من أهوال اقتصادية، نري نسبة معتبرة من تعداد الشعب، (وأعنى المسنين غير المنتجين) يعيشون عالة علي المنتجين من الشباب، ويثقلون كاهلهم، ويخفضون من مستوي معيشتهم، ويضاعفون هموم الاجراءات التقشفية.... لهذا كله فكر الدكتور فارس مالتس المفكر الاقتصادي المعروف فى إنشاء شركتنا هذه ، شركة مالتس للتخليص والتشهيل.

- التخليص؟

- تخليص مصر من المسنينّ غير المنتجين الذين يعيشون عالة على الشباب.

- والتشهيل؟

- تشهيل عملية قبول الناس للإجراءات التقشفية، وتشهيل الإجراءات التلطيفية لتخفيف العبء عن المواطنين.

- هل أفهم من ذلك... أن الغرض من شركتكم... التخلص جسديا من كبار السن؟

- لا فض الله فاك.. هو كما ذكرت.

- أجننتم ؟! هذه جريمة! أيحسب صاحبك فارس مالتس أنه سيفلت من طائلة القانون؟

- لا تقلق . فالشركة قد بدأت تزاول نشاطها وتزاوله بنجاح كبير. أوّلا لشدّة حرصنا علي أن تبدو الوفاة كأنها حدثت بصورة طبيعية. وما من حالة واحدة شك البوليس في أن الوفاة غير طبيعية: نتيجة حادث مرور، أو حريق فى الأدوار العليا، أو شرب مياه ملوثة، أو أكل فسيخ فاسد، أو مجرد الشيخوخة.

- ثانيا ؟

- وثانيا لما تتلقاه شركتنا من رعاية ومن دعم مادى و معنوى من جهات خارجية معينة، ومن مسئولين كبار فى أجهزة السلطة، يتعاطفون مع أهدافنا القومية والإنسانية، مما يضمن بقاءنا دائما خارج متناول القانون الجنائى.

ـ هل تريد إقناعي بأنه من الإنسانية إقدامكم علي قتل الأبرياء لمجرد أنهم مسنّون؟

ـ سيدي العزيز، المسنّون على عينى ورأسى.. ولكن الأهم فى اعتبار شركتنا هو المساهمة قدر الإمكان فى التخفيف من أعباء شروط صندوق النقد الدولى على المواطنين المنتجين.

ـ وهو كذلك.. وهو كذلك.. قد يكون الامر كما ذكرت.. ولكن ما دخلى أنا فى هذا الموضوع؟

– آه! وصلنا الآن إلى الغرض من زيارتى لسيادتك . إن شركتنا فى سبيل قيامها بنشاطها، تعتمد اعتماداً أساسيا على إجراء تحريات واسعة النطاق عن الافراد ، يقوم بها مئات من المخبرين العاملين بالشركة في مختلف محافظات مصر.. وقد كشفت تحرياتنا عن سيادتك عن أنك فى الخمسين من العمر، واسع الثراء، ومتزوج، ولك ابنة فى العشرين تعيش مع زوجها بالأسكندرية، وأنك بوجه عام موفور الصحة، موفق فى زواجك ، سعيد فى حياتك، ولا ينغص عليك عيشك غير أمر واحد.

– وهو؟

– وهو إقامة حماتك العجوز معكم في مسكنكما وذلك منذ أن تزوجت ابنتك ورحلت إلى الأسكندرية وأقنعتك زوجتك بقبول فكرة أن تسكن والدتها معكما رحمة بها و إشفاقا عليها.

– ولكن...

– لحظة من فضلك. وبالرغم من أن السيدة حماتك قد جاوزت الخامسة

والسبعين فإن صحتها من القوة بحيث لا يستبعد أن تعيش عشر سنوات أخرى، أو خمسة عشر عاما... تفهمنى؟

- نعم.. أكمل.

- عظيم .. كذلك كشفت تحريات مخبرينا عن أنك تشكو لبعض أصدقائك الحميمين من إقامة حماتك معك، وتعكيرها صفو حياتك مع زوجتك، واضطراركما دائما إلى اصطحابها فى أية رحلة تقومان بها، حتي إلى الخارج، كما ذكرت لهؤلاء الأصدقاء أن زوجتك رفضت اقتراحك إسكان والدتها بملجأ فاخر للعجائز تتكفل أنت بدفع مصاريفها فيه.

- هذا حق.

- وزوجتك أيضا على حق فى رفضها.. فمجرد فكرة أن والدتها تعيش بعيدا عنها فى ملجأ للعجائز مع غرباء، ويخدمها غرباء، هي فى مجتمعنا، وبحكم تقاليدنا المصرية،كفيلة بأن تتعسها وتشقيها، ولا مفر من أن تنعكس تعاستها وقلقها وتأنيب ضميرها عليك أنت..

- وهذا حق أيضا.

- نخلص من هذا إلى أن ما يضايقك ويثير أعصابك ليس وجود حماتك معكما فى بيت واحد، وإنما هو مجرد وجودها علي الإطلاق.

- مجرد وجودها؟ ماذا تعنى؟

- أعنى مجرد وجودها على قيد الحياة.

- فهمت... الآن تفضل بمغادرة مكتبي وإلا استدعيت البوليس.

- سبق أن أخبرت سيادتك منذ بضع دقائق أن هناك اعتبارات معينة

تحول بين الشرطة وبين تدخلها في مثل هذا الموضوع أو في أى نشاط لشركتنا... كذلك فإن بوسعك أن تتخيل أن نشاط الشركة فى ميدان التخلص ممن هم فوق الستين يمكن بسهولة أن يمتد ليشمل المشاغبين ممن هم دون الستين.

- مفهوم.. وماذا تتوقعون منى مقابل الموافقة؟

-إمضاءك على هذه الورقة التي تتعهد فيها بدفع ثلاثين ألف دولار لشركتنا بعد شهر واحد من تاريخ اليوم.

- ألا ترى المبلغ كبيرا بعض الشيء؟

- ليس كبيرا عليك... والشركة تراعى دائما فى تحديد المبلغ مدى قدرة العميل على الدفع.

- قد تطلب إذن من غيرى دفع مبلغ أقل مقابل نفس الخدمة؟

- هو ذاك.

- وعند انقضاء الشهر؟

- عند انتهاء الشهر تكون مشكلتك مع حماتك قد انتهت إلى الأبد.

وسيكون بإمكانك خصم المبلغ الذى تدفعه لنا من أرباحك التجارية فتعفى من الضرائب عليه باعتباره تبرعا لمؤسسة خيرية.

- ماذا لو أنى لم أدفع لكم المبلغ بعد انقضاء الأمر؟

- سبق أن قلت لسيادتك أن غير المسنيّن هم كالمسنيّن عرضة فى أىّ قت للموت فى حادث.. حريق فى الأدوار العليا.. فسيخ فاسد.....

- أعطنى الورقة... أين التوقيع؟

- هنا ... نعم .. ألف شكر. مبروك مقدما.

- ولكن...

- ماذا؟

- خطرت فى ذهنى هذه اللحظة فكرة رهيبة.

- وهى؟

- كنت قد ذكرت فى حديثك أن عدد المسنيّن في مصر سيصل عام ٢٠١٠ إلى ثلاثة ملايين وستمائة ألف نسمة.

- بالضبط.

- ولكنى سأكون أنا نفسى سنة ٢٠١٠ من هؤلاء المسنّين!

- بإذن الله تعالى.

- لا أظنك قد فهمتنى.. أليس من الجائز إذن أن تتصل شركتكم عندئذ بابنتى أو زوج ابنتى فى الإسكندرية للاتفاق معها أو معه على... على «التخليص والتشهيل»؟

- سيدى العزيز . بعد عشرين عاما ستكن أزمة مصر الاقتصادية فى طريقها إلى الانفراج، ولن يكون هناك داع إلى استمرار نشاط الشركة فى هذا المضمار... أرجوك ألا تقلق.. ألم يقل السيد الرئيس فى خطابه الأخير أن الضائقة لن تستمر أكثر من أربع سنوات؟

- ولكنى كنت فى حوالى منتصف مايو الماضى أحضر غداء فى فندق شيراتون الجزيرة وخطب فيه مدير صندوق النقد الدولى.. وعندما سأله أحد

الحاضرين بعد المحاضرة عن المدة التي يتوقع الصندوق أن يستمر المصريون خلالها فى شدّ الأحزمة على البطون، أجاب المدير بأنه يتوقع أن يظل شدّ المصريين الأحزمة قائما إلى الأبد ، حيث أن التصحيح الهيكلى فى الاقتصاد المصرى الذى نصح الصندوق الدولى والبنك العالمى به، تأخذ به بلدان كثيرة أخرى، وبالتالى فإن أحوالها الاقتصادية ستتحسّن هي أيضا، فتدخل مصر فى منافسة مريرة معها سواء فى مجال التصدير أو ضغط الإنفاق أو زيادة الكفاءة. أو بمعني آخر فإننا لن نكون وحدنا فى السباق وإنما سيشاركنا فيه الكثير غيرنا.

- وبالتالى ؟

- وبالتالى فإن الضائقة المالية في مصر ستستمر إلى الأبد.

- وبالتالى؟

- بالتالى فستكون هناك دائما حاجة إلى خدمات شركتكم.

- وبالتالى؟

- وبالتالى فقد تلجأ ابنتى أ ويلجأ زوج ابنتى إلى الاستعانة بخبراتكم.

- قلت لك يا سيدى العزيز ألا تقلق.. لقد كان تصريح مدير صندق النقد مجرد زلة لسان... وحتى لو أنه كان مصيبا فى اعتقاده فإنه ... آخ! قد بلغت الساعة الثانية دون أن أشعر وورائى موعد هام.. فرصة سعيدة جدا يا أستاذ فهمى، وإلى اللقاء بعد شهر من الآن.. فرصة سعيدا جدا.

تعليم النّفاق فى الصّغر، كالنّقش على الحجر

أطفالى الأعزاء، مساء الخير. النهارده خمسة رمضان، و معانا دلوقتى فى الاستوديو مجموعة من إخوانكم الأطفال من سن ثلاث سنين إلى سبع سنين، جايين يحتفلوا بمناسبة من أسعد المناسبات، عيد من أجمل الاعياد.. تقدر تقول لي يا تامر إيه هوّ العيد ده؟

– عيد الأم يا أبله.

– برافو يا تامر.. عيد الأم.. وبنعمل إيه فى عيد الأم ده يا محمود؟

– بنجيب من المحلات هدية لمامتنا.

– برافو يا محمود.. طيب مين يقدر يقول لى ليه بنشتري هدايا لمامتنا فى عيد الأم.

– لأنها هى التي حملتنا في بطنها تسعة أشهر، ثم أرضعتنا، وتعبت من أجل تربيتنا، وضحت بنفسها من أجل سعادتنا وراحتنا.

– مضبوط يا كوثر يا حبيبتى.. ويا ترى أنت جيبتى أيه لماما النهارده في عيد الأم؟

– جبت لها بلوزة وقزازة برفان.

ـ من فلوسك إنتى ولاّ من فلوس بابا ؟

ـ من فلوسى يا أبله .

– برافو يا كوثر.. وانت يا سمير، جبت لمامتك إيه؟

– أنا عملت لها كارت، ورسمت فيه قلب، ولونته، وكتبت لها كل سنة وانتي طيبة.

– بس كده؟ من غير ولا هدية؟

– ما هي دى الهدية.

– بذّمتك دى هدية يا سمير؟! كارت؟ ده أنت باين عليك بخيل قوى!

– لا يا أبله إزاى؟ ما هو أنا... ماهو أنا كمان جبت لها مع الكارت اللى رسمته فستانين وبالطو، وست شربات.

– برافو يا حبيبى.. آدى الهدية ولاّ بلاش! ويا ترى جبت كل ده من فلوسك ولاّ من فلوس بابا؟

– من فلوسى طبعا.

– هايل يا سمير.. سامعين يا أطفال؟ سمير جاب لمامته فستانين وبالطو وست شرابات.. شايفين بيحب مامته قد إيه؟.. وأنت يا سعيد، جبت لمامتك إيه فى عيد الأم؟

– أنا دايما أسألها هىّ عايزه إيه، وإن ماقالتش على حاجة معينة باجيب لها أىّ حاجة.

– أى حاجة يعنى ايه؟

– يعنى... يعنى أى حاجة.

– طيب جبت لها إيه النهارده مثلا ؟

– جبت لها وردة.

ــ وردة من الجنينة ولاّ من محل زهور؟

ــ من الجنينة

ــ إخص يا سعيد.. تجيب لمامتك، حبيبتك، اللى تعبت من أجل سعادتك وراحتك، وردة واحدة بس ؟ ومن الجنينة كمان؟!

ــ ما هى أصلها يا أبله بتحب الورد.

ــ ولو... تقوم تجيب لها وردة بس؟ شوف سمير ياحبيبى جاب لمامته فستانين وبالطو وست شرابات... وانت تجيب لمامتك وردة؟!

ــ ده كداب يا أبله.

- عيب يا سعيد ماتقولش كده.

ــ والله العظيم كداب. وربنا حايوديه النار لأنه بيكدب فى رمضان.. قال فستانين وبالطو قال!

ــ أنا موش كداب . إنت اللى ستين كداب.

ــ طيب بمناسبة رمضان يا أطفال.. مين يقدر يقول لى إحنا ضرورى نعمل إيه فى رمضان غير الصوم ؟

ــ لازم نصلى.

ــ برافو ياحازم.. إنت بتصلى ياحازم ؟

ــ طبعا يا أبله.

ــ كم مرة فى اليوم ؟

ــ .... كتير .

ـ قصدك خمس مرات، موش كده؟

ـ أيوه خمسة.

ـ فى البيت ولا فى الجامع؟

ـ فى الـ.. فى البيت.

ـ بس بتروح الجامع كل يوم جمعة، موش كده؟

ـ أيــوه.

ـ إنت عمرك كام ياحازم؟

ـ أربع سنين.

ـ وياترى كمان بتطلع زكاة للفقرا والمحتاجين؟

ـ طبعا يا أبله.

ـ من المصروف اللى بيدّهولك باباك، موش كده؟

ـ أيوه.

ـ شايفين يا أطفال؟ زىّ مابيقول حازم لازم كل واحد منكم يوفّر جزء من المصروف اللى بياخده ويديه للفقرا والمحتاجين وأبناء السبيل.

ـ أبناء السبيل يعنى إيه يا أبله؟

ـ يعنى.. يعنى.. بذمتك ياصلاح ماتعرفش يعنى إيه أبناء السبيل؟ عمرك كام ياصلاح؟

ـ ستة.

ـ ست سنين ولسّه مابتعرفش أبناء السبيل؟!

ــ طبعا عارف.. أنا بس كنت....

ــ كنت إيه؟

ــ كنت ... كنت عامل نفسى موش عارف.

ــ طيب قول لى يا صلاح. إنت صايم؟

ــ أيوه يا أبله..ماما بتقول لى أصوم بس لغاية الساعة اتنين عشان أنا صغير، بس أنا باعمل نفسى باكل وبصوم برضه من وراها.

ــ مامتك بتقول لك تفطر الساعة اتنين؟

ــ أيوه يا أبلة.. أصلها هى نفسها فاطرة ومابتصومش.

ــ لازم عندها عذر قوى جدا بيخليها ماتصومش، وإلا كانت صامت لأن ربنا أمرنا جميعا بأننا نصوم، وضرورى كلنا نسمع كلام ربنا.. موش كده؟

ــ أيوه يا أبله... وبابا كمان مابيصومش.

ــ هممم.... طيب تقدر تقولى لى يا صلاح بتقضى النهار إزاى فى رمضان وانت صايم؟

ــ بارجع من المدرسة، أتغدى، وبعدين....

ــ تتغدى؟! إحنا موش اتفقنا إنك بتصوم؟

ــ أأأ... قصدى باعمل نفسى باتغدّى عشان ماما ماتزعلش.

ــ ومامتك بالذمة تزعل لما تلاقيك صايم وبتسمع كلام ربنا؟ المفروض إنها تفرح موش تزعل.

ــ أيوه يا أبله. بس هىّ خايفة علىّ من الصيام عشان أنا صغير

ـ وما تخافش عليك من جهنم يا حبيبى؟... طيب قول لى يا شاكر، إنت صايم؟

ـ ..... لأ.

ـ وبتقول لأ كده بكل بساطة؟ إنت عمرك كام؟

ـ سبعة.

ـ سبع سنين ومابتصومش؟! موش مكسوف من نفسك ياحبيبى؟

ـ ... أصل أنا يا أبله ... قبطى.

ـ ....

ـ ....

ـ إنت جيت التليفزيون مع مين؟

ـ مع بابا.

ـ وباباك موش عارف إن النهارده رمضان؟

ـ قال لى فيه برنامج بمناسبة عيد الأم.

ـ طيب معلهش.. معلهش.. إنت إسمك شاكر إيه؟

ـ شاكر شفيق.

ـ شاكر شفيق إيه؟

ـ شاكر شفيق ميخائيل.

ـ طيب معلهش ياحبيبى.. المهم أخلاقك تكون كويسة.. موش كده يا أطفال؟

ـ لا يا أبله.. ده حايخش النار. بابا بيقول إن كل اللى موش مسلمين حايخشوا النار.

ـ ..... طيب إنت يامختار، جبت إيه لماماتك فى عيد الأم؟

ـ موش كده يا أبله؟ موش كل اللى موش مسلمين حايخشوا النار؟

ـ كفاية يامحمود.. المهم النهارده احتفلنا بعيد الأم، وكل سنة وانتو جميعا طيبين، وأمهاتنا جميعا طيبين... ودلوقت حانسمع كلنا أغنية «ست الحبايب» لفايزة أحمد.

● ● ●

ملحوظة: هذا الحديث التليفزيونى ليس من وحى الخيال، وإنما هو حديث دار بالفعل فى برنامج الأطفال بالتليفزيون يوم الخميس ٥ رمضان (٢١ مارس ١٩٩١) ودوّنته من الذاكرة بعد مشاهدته مباشرة.



إعادة كتابة التاريخ

[إن شئت استئصال شعب ما، فلتكن أول خطوة هى محو ذاكرته.. إحرق كتبه، واسحق ثقافته، ودمرّ تاريخه. ثم كلّف شخصا بتأليف كتب جديدة، وبناء ثقافة جديدة واختراع تاريخ جديد.. ولن يمضى وقت طويل قبل أن تبدأ الأمة فى نسيان ماهى، وكيف كانت...]

الكاتب التشيكى ميلان هوبْل، ١٩٧١.

* * *

لم أعتد أن أحضر مع بناتى مذاكرتهن لدروسهن.. غير أنى أذكر يوما فى عام ١٩٦٦ دخلت على كبراهن فى حجرة مكتبها، وألقيت نظرة على درس التاريخ الذى كانت تذاكره، فلم أصدّق عينى إذ قرأت فيه:

«كان تحتمس الثالث أول من أدار معركة حربية منظمة، وقسّم الجيش إلى قلب وجناحين، وأول من عرف الحرب الخاطفة... وأول من آمن بفكرة الوحدة العربية، وسعى إلى توحيد الأقطار العربية ليجعل منها أكبر قوة اقتصادية وسياسية وعسكرية في العالم القديم»!

- سيدتى الفاضلة ! (هكذا قلت لمدرستها فى صباح اليوم التالى) ماذا أراكم تصنعون بأبنائنا وبناتنا؟ وحدة عربية فى عهد تحتمس الثالث؟!

أكانت هناك أقطار عربية فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد؟ ألا تعلمين، وأنت مدرسة للتاريخ، أن أول إشارة إلى العرب على الإطلاق وردت فى نقش آشورى للملك شلْمَنَصّر الثالث عام ٨٥٤ قبل الميلاد ؟ أىّ عبث هذا بالتاريخ وبعقول أفراد الجيل الجديد؟!

إستمعت إلى فى برود تام، ثم تمتمت وهى تصلح من كُمّ فستانها:

- أعلم ما ذكرت. غير أن هذا هو ما تريدنا وزارة التربية والتعليم أن ندرّسه للطلبة.. إن كان لديك اعتراض فأذهب به إلى الوزير أو إلى رئيس الجمهورية، لا إلى المدرسة وهى العبد المأمور.

- وماذا عساك أن تجيبى ابنتى فى حصة التاريخ غداً إن هى أنكرت أمام الفصل هذا الزعم وَفَنّدته؟

قالت بامتعاض وهى تتهيأ للقيام مؤذنة بانتهاء الحديث.

- وحياتك ما تجيبليناش وجع دماغ، وتجيب لنفسك ولبنتك مشاكل!

* * *

ودارت الايام حتى صرنا فى عام ١٩٧٩، وهو العام الذى شهد توقيع السادات على معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، وبدء مقاطعة الدول العربية لمصر، وقرار الجامعة العربية بوقف عضوية مصر فيها... وحدث أن دخلت أيامها علي ابنتى الصغرى حجرة مكتبها، وألقيت نظرة على درس التاريخ الذى كانت تذاكره، فلم أصدق عينى إذ قرأت فيه:

«كان إخناتون أول من نادى بوحدانية الله، يراه فى قرص الشمس ولا

يُشرك به أحدا.. غير أن كهنة الديانة القديمة التى كان يؤمن بها سلفه أمنحوتب الثالث كادوا له حين رأوه يحطم أصنامهم ويمحو اسم معبودهم من كل أثر ... فلما ثارت أقطار الشام وغيرها على حكمه وأعلنت استقلالها عن مصر، لم يعبأ إخناتون بذلك ولم يهتز، بل صرّح بما معناه :فى ستين داهية»!

ثارت ثائرتى وغلى الدم فى عروقى، ثم اندفعت أشرح لابنتى أن العكس تماما هو الصحيح، وأن الفكرة الرئيسية وراء دعوة إخناتون إلى عبادة الشمس وحدها هى أن من شأن احلال مثل هذه العبادة التى يمكن لشعوب الامبراطورية المصرية أن تفهمها محل عبادة آلهة محلية، أن يعزّز من الروابط التى تربط بين أنحاء هذه الامبراطورية.. وبالتالى فإنه لا يعقل أن يكون إخناتون قد هزأ واستخفّ بانفصال أقليم الشام وغيرها عن مصر، أو أن يكون قد قال: «فى ستين داهية»، ولا حتى باللغة الهيروغليفية!

وهنا تدخّلت حماتى قائلة لى فى توسل:

- يا حسين ما تلخبطش عقل البنت.. خليها تذاكر اللى مطلوب إنها تكتبه فى ورقه الإجابة، وبعد ما تنجح تبقى تقول لها اللى أنت عايزه!

* * *

علّمونى فى صباى أن (محمد على) كان وليا عظيما على مصر، وعدّدوا لنا فى المدرسة مآثره وإصلاحاته وفتوحاته فيما يزيد على أربعين صفحة من الكتاب . ثم جاءت ابنتى فعلموها فى مدارس الثورة أن الرجل لم يكن عظيما على الإطلاق، وإنما كان مغامرا ألبانيا، خبيثاً غادرا أفاقا، لم يستهدف غير مصلحته الخاصة دون الشعب، واختُصر الفصل الخاص به إلى تسع

صفحات، وحُذفت صورته من الكتاب المدرسى الجديد، فلم يعد بوسع الطالب حتى أن يعرف ما كانت عليه ملامح الرجل.

غير أن الأطرف من ذلك ما حدث بصدد اسماعيل... علّمونى فى صباى ما تم فى عهده من إصلاحات باهرة دون أن يتغاضوا عن ذكر مثالبه وأخطائه، وأبرزها إثقال عاتق مصر بالديون الأجنبية التى بلغت فى نهاية عهده واحداً وتسعين مليون جنيه مصرى... ثم جاءت حكومة الثورة فعلموا ابنتى الكبري أن تستخفّ بذلك الخديو «الأهبل» الذى ورّط مصر وجلب عليها بسبب القروض تدّخل الدول الأوروبية فى شؤونها أولا، ثم الاستعمار البريطانى لها فيما بعد... غير أن ابنتى الصغرى لم تلتحق بالمدرسة إلا فى عهد السادات الذى بلغت ديون مصر الأجنبية فى أواخر ايامه أكثر من ثلاثين ألف مليون دولار. دون أن تشهد سنوات حكمه ما يماثل من قريب أو بعيد تلك الإصلاحات والمشروعات الضخمة التى تمت في عهد إسماعيل.. فإذا كتب التاريخ المدرسية - وغير المدرسية - وقد أعيدت كتابتها فى زمن السادات، قد ضغطت إلى أصغر حيزممكن ذكر القروض التى عقدها إسماعيل وأثرها فى ضياع استقلال مصر وسلب الدول الأجنبية لإرادتها.

كذلك فإنه إذ كان السادات قد دبّر فى مايو ١٩٧١ لخصومه السياسيين ما يشبه كثيرا مذبحة القلعة التى دبّرها محمد على لأمراء المماليك عام ١٨١١، فقد أعادت كتب التاريخ المدرسية - وغير المدرسية - وصف مذبحة القلعة، وأطالت فيه، وأبرزت أوجه الحكم الفائقة من الاقدام عليها، فى حين كانت ابنتى الكبرى تدرسها فى عهد عبد الناصر باعتبارها مثلا صارخا لغدر الرجل، وافتقاره إلى الخلق والضمير.

* * *

توجّهتُ أكثر من عشرين مرة بالسؤال إلى مسئولين كبار فى وزاة التربية والتعليم عن السبب في أن منهج التاريخ المصرى المقرر على المدارس يغفل إغفالا تاما ذكر العصر القبطى الذى دام ستة قرون فى مصر (هى أطول من تاريخ الولايات المتحدةبأسره)، وكأنما هى فترة شاءت السلطات لها أن تُحذف من ذاكرة المصريين أجمعين...

لم يجبنى أكثرهم بأكثر من هزّة من أكتافهم، فى حين أجابنى أحدهم - وهو صديق - بما ذكّرنى بردّ حماتى وردّ مدرسة ابنتى الكبرى، إذ قال:

- يابنى خللينا ناكل عيش وبلاش مشاكل الله يخليك ! ألا تقرأ الاحتجاجات اليومية للأصوليين الإسلاميين فى الصحف على إبراز الكتب المدرسية لعظمة حضارة الفراعنة الذين يعتبرهم هؤلاء من الكفرة وعبدة الأصنام، وأعداء موسى عليه السلام، واحتجاجهم الغاضب على ما في بعض هذه الكتب من صور لنساء من زمن الفراعنة عاريات الصدور، رغم ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم لأسماء بنت أبي بكر من أن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا الوجه والكفّين؟... ثم تريدنا أن نتحدث فى كتبنا المدرسية أيضا عن أمجاد العصر القبطى وإنجازاته؟! إحمد ربك أنه لا يزال مسموحا لنا حتى الآن أن ندرّس للتلاميذ تاريخ الفراعنة... غير أني لا أضمن لك أن يستمر هذا الوضع مدة طويلة....

ثم انحنى على أذني ليهمس فيها.

- أتعلم أن الكثيرين من مدرّسى مادة التاريخ يمتنعون عن التدريس لفترة قد تبلغ شهرا أو أكثر بعد بدء السنة الدراسية، منتظرين أن توزّع الكتب المدرسية الجديدة ليعرفوا منها ما إذا كان عليهم هذا العام أن يمدحوا (محمد على) وإسماعيل أم يسبّوهما، وما إذا كان المطلوب منهم أن يثنوا على

سعد زغلول ووطنيته الصادقة أم يصوّروه عميلا مستترا للإنجليز؟ إنك تحدّثني عن أمثلة ثلاثة: عن ابنتك الكبرى عام ١٩٦٦،وابنتك الصغرى عام ١٩٧٩، وعن حفيدتك عام ١٩٩١.. ولكن أتعرف كم مرة أعدنا فيها كتابة التاريخ وغيرنا فى وقائعه خلال هذه الخمسة والعشرين عاما فيها بين عام ١٩٦٦ و ١٩٩١؟ إن قلت لك مائة مرة كنت متواضعا فى تقديرى... مدحنا الحكم المطلق ثم هاجمناه، وهاجمنا الديمقراطية ثم مدحناها، وأيّدنا نظام الحزب الواحد ثم عارضناه، واستنكرنا مبدأ الصلح مع إسرائيل ثم باركناه، ودعونا إلى مقاومة النفوذ الأمريكى ثم بيّنّا حكمة الاستسلام له، وهلّلنا لمباهج الاشتراكية ثم لمباهج سياسة الانفتاح الاقتصادى، وباركنا السير فى ركاب الشرق ثم السير فى ركاب الغرب،وقلنا بالأنتماء العربى والافريقى لمصر ثم تحوّلنا إلى التركيز على القومية المصرية، ولهجنا بالثناء على نظام النميرى فى السودان ثم حذفناه ، وهاجمنا القذافى ثم هادنّاه، ولعنّا حافظ الاسد ثم صالحناه، وشتمنا السعودية ثم تلقينا المساعدات من ملكهافمدحناه، وعبدنا عبد الناصرثم سردنا عيوبه وأخفينا مزاياه، وأقبلنا على تمجيد أنور السادات ثم قتلناه... وسنظل هكذا أبدا يا صديقى إلى ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

صحت به: ولكن ماذا عن الطلبة؟ ماذا عن شباب مصر؟

أجاب بقوله:

– طلبة مصر وشبابها يا سيدى هم من الذكاء بحيث يسهل عليهم أن يدركوا بالغريزة أن مدرّسيهم لا يؤمنون بما يلقونه عليهم من دروس، وأن صحفهم إنما تنشر ماتمليه عليهم السلطات، وأن السلطات إنما تكذب لخدمة أغراضها.. فهم إنما يذاكرون ما يدرّس لهم على أنه تاريخ ليتقيأوه بعد ذلك فى ورقة الإجابة، ثم يمحون ما تعلّموه من ذاكرتهم إلى الأبد كأنه لم

يعلق بعقولهم قط... هذا يظن أنه خدع ذاك، وذاك يحسب أنه خدع هذا.. والنتيجة يا صاحبى أن شباب مصر الآن شباب مجرّد من الذاكرة التاريخية. وليست المأساة في أنه لُقّن معلومات خاطئة أو تاريخا شائها، وإنما المأساة فى أنه لا معلومات لديه على الإطلاق وأنه أضحى بلا تاريخ... أتراك تصدّقنى لو أنى أخبرتك أن صديقا لى هو أحد أطباء الأسنان المرموقين الآن فى مصر ممن تلقّى تعليمه فى مدارس الثورة، ليس واثقا مما إذ كان النبي محمد قد عاش فى القرن السابع أم فى القرن السابع عشر؟!

إنه لا شك عندى فى أنهم علّموه فى مدرسته أنه عاش في القرن السابع. غير أن الذي حدث هو أنه لمس بعد ذلك فى كل عام تغييرا فى الموقف والمناهج والمعلومات والتقييم، وشهد إصدار الطبعات المتوالية من الكتب ودوائر المعارف، كل طبعة تصحّح «أخطاء» و «معلومات» سابقتها، وتجعل من الأبطال أنذالا ومن الأنذال أبطالا، بل وتعبث بالصور الفوتوغرافية التاريخية ذاتها فتمحو من هذه الصور رفاقا كانوا يبتسمون فيها مع الزعيم الخالد، ثم غضب عليهم وأبعدهم وقرر استئصالهم من ذاكرةشعبه. كما لمس فى الصحف وأجهزة الإعلام تلوّنا بألف لون، وتسمية الشوارع والميادين بأسماء الحكام ثم تغييرها، وإقامة التماثيل لهم ثم تحطيمها، وسمع من الشعارات ما ناقض بعضها بعضا ألف مرة، ومن خطب الزعماء ما تغيّر فيها الاتجاه السياسى والاقتصادى تغيرا جذريا مرة كل سنتين أو ثلاث، مع وصف الاتجاه الجديد فى كل خطبة بأنه الاتجاه السليم الحق، وبأنه مستوحى من ضمير مصر ورسالتها الخالدة، ووصف كل اتجاه غيره بأنه إما غباء وإما انتهازية وإما خيانة... كل هذا قد دفع شبابنا إلى أن يطرح ذاكرته وراء ظهره إلى الأبد، وخلق لديه الاعتقاد بأنه إن كان لابد من العيش فلا مفرّ من أن يعيش بلا تاريخ!



اللّهمّ لا اعتراض

الأستاذ محفوظ عبد الجبار موظف بإدارة المحفوظات فى المؤسسة التى أعمل بها . رجل بسيط هادئ، قليل الكلام، لا يتدخل أبدا فيما لا يعنيه، وأهم ما يعنيه هو السّتر . وبالرغم من أن الحجرة الواسعة التى يعمل بها فى بدروم المؤسسة يشغلها ثلاثة عشر موظفا غيره، فهو نادرا ما كان يشاركهم حديثهم، خاصة إن اتصل هذا الحديث بسياسة الحكومة، أو غلاء الأسعار، أو متاعب المعيشة، أو شروط صندوق النقد الدولى. فكان إذا سمعهم يخوضون فى مثل هذه الموضوعات الشائكة يتظاهر بالانهماك الشديد فى عمله، ويقرّب منظاره الغليظ أكثر مما ينبغى من صفحات الدفتر أمامه يسجّل فيه الصادر أو الوارد، أو يسحب جريدة «الأخبار» من على مكتب جاره ويفتحها ليحل مسابقة الكلمات المتقاطعة.. فإن سأله أحد منهم عن رأيه فى هذا الموضوع أو ذاك تمتم بقوله «دع الخلق للخالق يا صاح!» أو «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم» ، أو «هوّه احنا حانصلح الكون يا جماعة؟! » . فإن ألحّوا عليه تظاهر بضرورة الإسراع إلى الحمام لقضاء حاجته، فلا يعود إلا بعد أن يطمئن إلى أن الحديث لابدّ قد تحوّل إلى موضوع آخر.

وكثيرا ما كان الخبثاء من زملائه يتعمّدون إحراجه والعبث به. فهو يحضر

مثلا إلى الإدارة فى التاسعة فيجد على مكتبه نسخة من صحيفة «الاهالى»، أو مجلة «اليسار» فيصيبه فزع شديد، ويتناول الجريدة أو المجلة بإصبعين اثنين وكأنها يتناول فأرا ميّتا من ذيله، ويسارع بإلقائه فى سلة مهملات بعيدة عن مكتبه. وهم أحيانا - يجتمعون لإعداد عريضة احتجاج وشكوى، أو طلب زيادة فى الحوافز والمكافآت التشجيعية، ويطلبون منه المشاركة بالتوقيع عليها لرفعها إلى مدير المؤسسة، أو إلى الوزير، فيتوسل حينئذ إليهم أن يتركوه وشأنه وألا يُحرجوه، مضيفا قوله إنه راض بمرتبه، وبأوضاع العمل، وأنه لا اعتراض له على شىء، ولا هو أهل للحكم على الأسلوب الذى تدار به شؤون الدولة، وأنه من مصلحة الجميع أن يُترك «العيش لخبّازه» وتجنّب الاعتراض على قضاء الله.

ولا يعنى هذا أن مرتبه كان يكفيه، أو أن «الستر» الذى ينشده كان متوفرا. فكثيرا ما لجأ إلى بيع قطعٍ من أثاث بيته ليسدّد قيمة إيجار مسكنه، أو لينفق على علاج ولد من أولاده، أو لشراء كسوة الشتاء لهم.. وقد هجرت زوجته بيت الزوجية إلى أهلها حين ضاق ذرعها ولم يعد فى وسعها احتمال المزيد، تاركة أبناءها الأربعة معه. فكان عليه أن يخرج ابنته الكبرى من مدرستها ويقطع تعليمها حتى تتفرغ للطهى والغسيل وسائر الواجبات المنزلية . بل إن صحته هو نفسه تدهورت تدهورا سريعا بتأثير فقر التغذية وتراكم الهموم حتي غدا كعصاه المقشّة نحولا...... ومع ذلك فإنه لم يكفّ يوما عن حمد الله على ما رزقه إياه من قدرة نادرة على إبعاد نفسه عن المشاكل، بتجنّبه الخوض فى الحديث فى السياسة.

* * *

وفى أحد أيام رمضان، أقام مدير إدارة المحفوظات بالمؤسسة حفل إفطار لموظفى الإدارة . وكان الأستاذ محفوظ من بين المدعوين.. حاول جهده ألا يجعل زملاءه يلاحظون نهمه إلى الطعام، وكمية ما أكله منه، وكثرة تردده على المائدة كلما فرغ طبقه.. ثم جلسوا بعد الإفطار يتسامرون ويشربون الشاى . غير أن زملاءه - خيّبهم الله - أفسدوا عليه بحديثهم ما كان يشعر به من الرضا والارتياح بعد هذه الوجبة التى لم يتناول مثلها منذ أكثر من أربع سنوات . دار الحديث حول التضخم والغلاء الفاحش، وعن كيف أن المنحة التى ستصرف لهم فى عيد العمال ستعقبها زيادة تبلغ ثلاثين فى المائة فى سعر استهلاك الكهرباء، وهو ما ينذر بارتفاع أسعار معظم السلع الأخرى. وإذ تطور الحديث بعد ذلك إلى التعبير عن السخط على سياسة الحكومة، وشرع مدير الادارة نفسه يستشهد بمقال فى إحدى صحف المعارضة، نهض الأستاذ محفوظ من مقعده، وتوجّه إلى صاحب الحفل يشكره على دعوته ، ويعتذر عن إضطراره إلى الانصراف فورا لارتباطه بموعد سابق. وقد حاول المدير أن يستبقيه بعض الوقت، خاصة أن المطر كان يهطل فى الخارج بغزارة، ولكن دون جدوى.

توقف بعض الوقت عند مدخل العمارة آملا أن ينتهى المطر بعد قليل. غير أنه لمح إلى يساره رجلا يحمل أوراقا فى يده يقترب منه. فما أن صار محاذيا له حتى قدّم إلى الأستاذ محفوظ إحدى هذه الأوراق، ثم انصرف لتوّه.. ونظر محفوظ إلى الورقة فأصابه الذعر، وتركها تسقط من يده على الأرض وكأنما التقط خطأً جمرة موقدة. ثم مضى يعدو فى الطريق تحت المطر.. لقد كانت الورقة منشورا يعرض شكوى لعمالٍ مضربين عن العمل فى جهة ما، ويدعو إلى تضامن الجمهور معهم.

سار محفوظ فى اتجاه منزله نحو ربع ساعة وقد تشبّعت ملابسه ماء وتسرّب الماء من الثقوب فى حذائه إلى جوربه ثم إلى قدمه، وسرت فى بدنه رعدة قوية. وتلفّت حوله لعله يجد مأوى يعصمه من المطر، فلم ير غير ماسورة واسعة طويلة من مواسير المياه الضخمة على الرصيف، هرول تجاهها، وحبا على يديه وركبتيه حتي صار داخلها. فإذا به، حتى فى هذه الماسورة، يجد رجلا آخر قد لجأ إليها فرارا من المطر..

ولم يكن هناك مفر من الدخول مع هذا الرجل فى حديث ريثما ينقطع السَّيل. غير أنه ما مضى من الحديث خمس دقائق أو عشر حتى أتضح لمحفوظ أن رفيقه فى الماسورة عامل فى شركة الحديد والصلب وعضو نشط فى حزب التجمع. وهنا شرع محفوظ يحبو من جديد فى اتجاه فوّهة الماسورة ليخرج خشية أن يراه أحد مع هذا الاشتراكى.

صاح العامل به.

- إلى أين يا رجل؟! سيصيبك برد فى هذا المطر يا مجنون!

غير أن محفوظا لم يعبأ بقوله، ولا عُنى حتى بأن يجيبه، حتى لا يقحم نفسه في مشكلة هو فى غنى عنها.

* * *

وقد أدخلوه المستشفى فى اليوم التالى مصابا بالتهاب رئوى حاد.. كانوا يعتزمون إبقاءه فيها أسبوعين على الأقل ريثما يستكمل العلاج. غير أنه كانت تتناهي إليه خلال الايام الأولى، وهو راقد على سريره فى العنبر الطويل، عبارات السخط الشديد من المرضى على قذارة المستشفى، ورداءة الطعام، وإهمال الأطباء، ونقص الدواء، ووقاحة الممرضين. فأصابه الجزع

من أن تظنه إدارة المستشفى من المشتركين فى الشكوى والسخط، وانتهز فرصة مرور الطبيب بالعنبر فاستدعاه إلى جانب فراشه يهمس فى أذنه مقسما أغلظ الأيمان أنه لا ولم ولن يشترك بحرف واحد في حديث سائر المرضى ، وأنه راض جدا عما يتلقاه من علاج، وعن الخدمة، وعن الطعام، بل وعن صراصير العنبر وذبابه، وأنه رجل لا يحب المشاكل، ولا يريد إلا الستر، ولا يقرأ غير الصحف القومية، ويدلى بصوته فى كل انتخابات فى جانب مرشح الحزب الوطنى، ويقول نعم فى كل استفتاء حول سياسة الحكومة.. كل ما يعجب له هو السبب فى إدخاله هذا العنبر بالذات الذى يغصّ بأنصار المعارضة.. وسأل عما إذا كان بالإمكان نقله إلى عنبر آخر، فأجابه الطبيب بأن المرضي فى كل العنابر سواء: مدللون مشاكسون ملاعين.. حينئذ آثر الأستاذ محفوظ أن ينسحب فى هدوء خشية أن يجلب على نفسه الكلام، وأصرّ على أن يترك المستشفى قبل استكمال العلاج.



وفي جنازته التى تلت خروجه من المستشفى بيومين، سار زملاؤه فى إدارة المحفوظات وراء نعشه يعدّدون فضائله، ويصفونه بأنه رجل أهم ما فيه أنه لم يكن يتدخل قط فيما لا يعنيه، يحب الهدوء وراحة البال، ولا يقحم نفسه أبدافى مشاكل لا تخصه.



وثيقة تأمين !

فى عدد ٩ إبريل ٩١ من صحيفة «الأهرام» قرأت الخبر التالى:

«بعثت إحدى شركات التأمين المصرية بخطاب إلى المواطن عبد اللطيف شلش تخبره فيه أنه حرصا من الشركة علي مصلحة أولاده، ورغبة منها فى المشاركة فى توفير المستقبل السعيد لهم، وتسليحهم بسلاح العلم والمال لمواجهة أخطار الحياة فى حاضرهم ومستقبلهم، قد وقع اختيار الشركة على ابنه إسماعيل البالغ من العمر ثمانية عشر عاما للحصول على هدية هذا العام.. وعندما ذهب الوالد إلى الشركة للاستفسار عن تلك الهدية، فوجىء بأنها عبارة عن وثيقة تأمين بمبلغ ١٢٥٠٠ جنيه لا تصرف لابنه إسماعيل إلا في حالة مصرع والده فى حادث»!!

* * *

هذا ما نشرته الصحيفة.. أما باقى القصة مما لم تنشره فهو كالآتى:

* * *

أطرق إسماعيل مليّا وهو مستغرق فى التفكير وفى يده الوثيقة. ثم رفع رأسه وقال لأبيه الأستاذ شلش بعد تردد طويل:

– بابا.

– نعم.

ـ ألا ترى أن هذه الوثيقة قد تكون المخرج الوحيد من الورطة المالية التى تعانيها أسرتنا؟

قال الوالد بحسن نية: كيف؟ أنا فى الحقيقة لا أتوقع أن أموت في حادث، خاصة أنى نادرا ما أغادر البيت.

سكت الإبن طويلا وهو يراقب وجه أبيه، ثم استجمع شجاعته وقال بما يشبه الهمس:

ـ أنا لا أقصد حادثا مفاجئا.

بدا الذعر الشديد على وجه الأستاذ شلش، ثم قال:

ـ ما الذى تعنيه إذن ؟ حادث مدبّر؟ أهذا ما تعنيه؟

ـ أبى .. لنتكلم فى هدوء وصراحة. أنت نفسك منذ أسبوع أو عشرة أيام وقبل أن أفوز بهذه الوثيقة، كنت تتحدث باكيا عن استحالة مجابهتنا التضخم والغلاء الفاحش، وتذم الحياة وأهلها، وتستشهد بأبيات لأبى العلاء المعرى وتدعو الله أن يأخذك.. ألا تذكر؟

ـ..................

ـ وقد أتيحت الآن هذه الفرصة الذهبية لتحقيق رغبتك وللخروج من مأزقنا المالى فى نفس الوقت.

ـ فما اقتراحك إذن أيها الولد البار؟ أن أخرج فألقى بنفسى تحت عجلات سيارة مارة فى الطريق؟

ـ الاختيار متروك لك يا والدى.

ـ وماذا لو أن السيارة هشمت ضلوعى أو قطعت ساقى دون أن أموت فى

الحادث؟ لن تُصرف لك عندئذ قيمة الوثيقة، وسيضاف إلى العائل عبء دفع مصاريف العلاج.

- يمكنك أن تختار سيارة تسير بسرعة جنونية.. فى الطريق الصحراوي مثلا، أو في طريق المطار. وهنا تصبح النتيجة مؤكدة.

- ما كنت لأحلم يوما أن أسمع مثل هذا الاقتراح من ولد لى.

- أنا أعلم يا والدى أن الأمر صعب ، وأنه ما كان ينبغى لولد يحب أباه كل هذا الحب أن يتلفّظ بها تلفظت به الآن.. ولكنك تعرف جيدا كيف سُدّت أبواب الرزق فى وجوهنا، وكيف أضحت الحياة مستحيلة مع كل هذا الفقر الذي نعانيه. سامحنى يا والدى ولكني أرى فى الوثيقة فرصة لا تعوّض.

- وهو كذلك.. وهو كذلك.. سأفعل.. وأدعو الله ألا يوبخك ضميرك وأنت تقبض قيمة التأمين.

* * *

ثم صار من عادة الأب فى الأيام التالية أن يرتدى ملابسه بعد الإفطار مباشرة، ويخرج إلى شوارع مختارة يراقب فيها السيارات المسرعة مدة ساعتين أو ثلاث، ثم يعود بخطا متثاقلة إلى داره وقد نكس رأسه خجلا من ابنه. أما إسماعيل فكان يقابل والده عند رجوعه فى صمت وخيبة أمل، وقد ارتسم على وجهه تعبير الاستياء من أبيه الذى يتردد فى التضحية بنفسه فى سبيل الصالح العام.

وتوالت الأيام والأستاذ عبد اللطيف حى لاّ يُرزق، قد زاد تعلّقه بالحياة

وعزوفه عن أداء واجبه نحو أسرته. واضطر إسماعيل فى النهاية إلى أن يجمع إخوته وأمه في مجلس عائلى ليشكو لهم من الوضع:

- أحوالنا المالية على ما تعرفون جميعا. وأنا أجهد ذهنى وأعصر مخى من أجل العثور على مخرج لنا، وحين يهديني عقلى إلى فكرة نيّرة من أجل الحصول على المال أجد والدى يقدّم رجلا ويؤخر أخرى ويتردّد فى القيام بمهمته!

قالت الأم: إصبر عليه بعض الوقت يا ولدى وأعطه فرصة.

- هذا ما يقوله هو. يقول إنه فى حاجة إلى مهلة وأنه لا يدرى كيف يشرع فى تنفيذ عزمه، وكأن الأمر بالغ الصعوبة، أو كأن تدبير حادث مرور بسيط عادى هو أشق وأصعب شيء فى الوجود ويحتاج إلى شهور من الدراسة والاستعدادات الخاصة! حادث مرور بوسع أى طفل فى السادسة أن يخطط له وينهيه في ثلاث دقائق! أطرح عليه اقتراحا وجيها، فإذا به بدلا من أن يتقبله مسرورا وبصدر رحب، وينفّذه بروح من التضامن الأسرىّ، يعود إلينا كل يوم بحجة واهية.. الواضح لى الآن أنه لا رغبة لديه فى بذل تضحية صغيرة من أجل المصلحة العامة، وأجدنى أبكى كلما فكرت فى كل ذلك المال الذى ينتظرنا في خزانة شركة التأمين لو أن مثل هذا الحادث البسيط وقع.. يا ناس! يا هوا! مثل هذه الحوادث تحدث كل يوم فى جميع أنحاء العالم، وفى أحسن العائلات، إلا فى عائلتنا المنكوبة.. افتحوا أية صحيفة.. هاتوا «الأهرام».. مصرع خمسة أشخاص فى حادث تصادم بالطريق الزراعي عند بنها.. الزلزال فى بيرو يقتل ويشرّد ثلاثين ألف نسمة.. انقلاب سيارة أوتوبيس وغرق جميع من فيها فى ترعة المحمودية.. انهيار عمارة حديثة البناء فى الدقى ومصرع سبعة وسبعين من سكانها.. تسمّم مائتى طفل في إحدى

المدارس فى كلكتا بالهند نتيجة تناول أطعمة فاسدة.. نعم! فى كل أنحاء العالم. والسيد عبد اللطيف شلش هو وحده الباقي وفى أكمل صحة!

قال أخوه إبراهيم: كنت أسير معه فى الطريق ليلة أمس حين جاءت سيارة مسرعة كادت تدهمنا، فإذا به يعدو مذعورا ويقفز إلى الرصيف، بينما كان مجرد تأخره ثانية كفيلا بأن ينهى الموضوع.

- أرأيت؟! لابدّمن أن يذكّره أحد منّا بمسئولياته.

* * *

ثم كانت المواجهة الصريحة معه.

- ما الوضع بالضبط يا أبى؟

أجاب وهو يتجنب النظر فى وجوههم: أى وضع؟ آه! تقصدون الحادث.

ــ نعم.

ــ أفكر فيه.

ــ تفكر فيه؟! أيمكن أن تتاح لنا مثل هذه الفرصة الذهبية ثم تدعها تضيع هباء؟ تذكر يا والدى أنك قد وعدت.. تذكر قدر المبلغ ، ١٢٥٠٠ جنيه وما يمكننا أن نسدده به من الديون وأن نشتريه وأن نفعله.. لا يا أبى، ما كانت هذه فكرتنا عنك. كنا نظنك أشد حرصا على إسعاد أسرتك.

- تذكروا أنتم أنه ليس بالامر الهين علىّ ان أخرج فألقى بنفسى تحت عجلات سيارة.

- وما فى ذلك؟ كل ما يتطلبه الأمر هو قدر بسيط من قوة الإرادة ثم ينتهى الموضوع فى ثوان.. لماذا تجعل من الأمر مشكلة.

- نعم ولكن...

- وهو كذلك . إن كنت تعترض علي فكرة السيارة فهناك وسائل أخرى كثيرة .. هناك مثلاً ...

- إسمعوا ! سأخبركم بما سأصنعه . أنا لا أستطيع أن ألقى بنفسى تحت عجلات سيارة وأنا فى حالة طبيعية . أعصابى لا تحتمل .. ما رأيكم لو أنكم دعوتمونى إلى عشاء فاخر في فندق الشيراتون بمصر الجديدة ، مع خمس كؤوس أو ست من الويسكى ، مقابل وعد قاطع منى بأن أخرج بعدها من الفندق فأنفذ فوراً ما اتفقنا عليه فى طريق المطار ؟

- عشاء فاخر في الشيراتون ؟ ويسكى ؟ ! ومن أين لنا بالنقود ؟

- يمكنكم اقتراض المبلغ من خالكم ، ثم تسّددونه له بعد صرف قيمة وثيقة التأمين.

* * *

تجمّعوا حوله فى مطعم الشيراتون يرقبونه وهو يلتهم الطبق إثر الطبق، ويشرب الكأس تلو الكأس... كان فى حالة معنوية عالية، يضحك ويمزح، ويبسط رأيه فى مستقبل صناعة السينما فى مصر، وفى آخر مجموعة قصصية لنجيب محفوظ، وفى تمثيل محمود مرسى فى مسلسل «بين القصرين» وتوقعاته للتشكيل الوزارى الجديد... ثم طلب كأسا سابعة من الويسكى وسيجارا فاخرا . والتزمت العائلة طوال كل هذا إما بالصمت، وإما بالتأمين على آرائه، مدركين أنه من المهم للغاية أن يلاطفوه حتى النهاية.

ثم دفع إسماعيل الحساب، وخرجوا من الفندق، ووقفوا معه على الرصيف فى طريق المطار ينتظرون خطوته التالية.

صاح بهم غاضبا: ما هذا؟ ألا تثقون فىّ؟ إنصرفوا لابارك الله فيكم!

- هدّىء من نفسك. ألا تريد أن تكون أسرتك الحبيبة معك فى اللحظات الأخيرة؟

رفع حاجبيه وقال فى دهشة: أية لحظات أخيرة؟

- الحادث.

وإذا به فجأة ينفجر مقهقها:

- لن يكون هناك حادث.. أظننتم حقا أنى سأفعلها؟ كل ما هناك هو أنى كنت دائما أحلم بتناول العشاء فى الشيراتون، مع كأسين أو ثلاث من الويسكى، وأتيحت لى هذه الفرصة. هذا هو كل فى الأمر.. ها ها ها!

ثم طلب منهم العودة إلى البيت فرفضوا أن يتحركوا.

- فليكن. ما دمتم ترفضون فسأعود وحدى.

ونزل من الرصيف إلى الطريق وهو يترنح، فإذا بسيارة مسرعة تدهمه فيسقط على الأرض.

وبادر إسماعيل بالعودة إلى الفندق لاستدعاء طبيب. وجاء الطبيب وكشف عليه وقد تجمهر حولهما جمع من المارة. ثم التفت الطبيب إلى إسماعيل قائلا:

– اطمئنوا.. الإصابة بسيطة.. مجرد كسر فى بعض الضلوع.. سأستدعى سيارة إسعاف لنقله إلى المستشفى، وأؤكد لكم أنه لا داعى على الإطلاق للقلق.. ولن يمضى شهر حتى يكون قد عاد إليكم بالسلامة.

عن يوسف إدريس، و«الغزو الفكرى»

نشرت صحيفة «الاهرام» يوم ٢ اغسطس ٩١ ما يلى:

«فقدت مصر صباح أمس الكاتب الكبير يوسف إدريس الذى وافاه الأجل المحتوم فى أحد مستشفيات لندن على إثر هبوط حاد فى القلب.

« وكان السيد الرئيس حسنى مبارك رئيس الجمهورية قد قرر أن يسافر يوسف إدريس إلى لندن للعلاج فى طائرة مجهّزة خاصة حين أصيب بجلطة فى المخ منذ ثلاثة أشهر. وقد أكد جميع زوار الفقيد فى المستشفى أن يوسف إدريس كان يكنّ تقديرا كبيرا وامتنانا عميقا للسيد الرئيس حسنى مبارك على وقفته الإنسانية العظيمة معه خلال رحلة مرضه. وقد صرح الدكتور ذهنى فراج الذى كان يشرف على حالة قلب يوسف إدريس بأن الكاتب الكبير، بمجرد إفاقته من الغيبوبة التى لازمته ثلاثة أشهر واستعادته للقدرة على الكلام، التفت إلى زوجته وطلب منها إرسال برقية شكر للسيد الرئيس.

«كما صرح الوزير المفوض بالسفارة المصرية فى لندن محمد شعبان بقوله إنه خلال زيارته للدكتور يوسف إدريس يوم الجمعة التى سبقت زيارة الرئيس حسنى مبارك لبريطانيا، كانت حالة يوسف إدريس النفسية والمعنوية فى ذلك اليوم مرتفعة إلى «أعنان» السماء (كذا)، وأنه تحدث معه عن زيارة السيد الرئيس المرتقبة للعاصمة البريطانية، وقال الكاتب الكبير بالحرف الواحد: إن زيارة الرئيس مبارك الرسمية لبريطانيا هى أكبر تكريم

وتشريف من بريطانيا لرئيس دولة، وأن هذا هو ثمرة موقف السيد الرئيس الأخلاقى الرفيع تجاه أزمة الخليج.

«ونفس الشىء أكده على القراقصى قنصل مصر العام فى لندن الذى زار يوسف إدريس قبل وصول الرئيس مبارك بيوم واحد، والدكتور صلاح الشوربانى سكرتير عام الجالية المصرية فى لندن الذى زاره منذ اسبوعين.

«وكان قد تردّد عدد كبير من المسئولين المصريين على الدكتور يوسف إدريس أثناء علاجه فى بريطانيا للاطمئنان على صحته وتشجيعه على الشفاء (كذا).

« ومن بين هؤلاء الزوار السيد الدكتور أسامة الباز مدير مكتب السيد الرئيس حسنى مبارك للشؤون السياسية خلال وجوده فى لندن للإعداد لرحلة السيد الرئيس مبارك لبريطانيا، وذلك بالرغم من البرنامج المشحون للدكتور الباز.

«والمعروف أن للدكتور يوسف إدريس نحو أربعين كتابا فى القصة القصيرة والرواية والمسرح والمقال».

* * *

يذكرنا هذا النعى فى «الأهرام» بالنعى الذى نشرته صحيفة «فرانكفورتر ألجيماينى» للروائى الألمانى هاينريش بول الحائز على جائزة نوبيل للأدب والذى توفى منذ سنوات قليلة:

«فقدت ألمانيا صباح أمس الكاتب الروائى الكبير هاينريش بول الذى صعدت روحه إلي بارئها فى إحد مستشفيات القاهرة على إثر هبوط فى القلب. وكان السيد المستشار هيلموت كول قد قرر أن يسافر هاينريش بول

إلى القاهرة للعلاج على نفقة الدولة فى طائرة مجهزة خاصة، وذلك حين تناهى إلى أسماع سيادته نبأ إصابته بجلطة فى المخ. وقد أكد جميع زوار الفقيد فى مستشفى السبكاكينى أن هاينريش بول كان يكنّ تقديرا كبيرا وامتنانا عميقا لسيادة المستشار هيلموت كول على وقفته الإنسانية العظيمة معه خلال رحلة مرضه، لدرجة أنه بمجرد إفاقته من غيبوبته واستعادته القدرة على الكلام التفت إلى زوجته فراو بول طالبا منها إرسال برقية شكر لسيادة المستشار على نفقة الدولة.

« كما صرح الهر فيدلر سفير ألمانيا بالقاهرة لمراسل فرانكفورت ألجيما ينى بقوله إنه خلال زيارته لهاينريش بول يوم الأحد الذى تلا زيارة السيد المستشار هيلموت كول لواشنجطون، كانت حالة الروائى الكبير النفسية مرتفعة إلى «أعنان» السماء بسبب الاستقبال الحار الذى استقبل به السيد المستشار فى العاصمة الأمريكية، مما يدل على المكانة المرموقة التى بلغتها ألمانيا بفضل سياسة سيادته الرشيدة الحكيمة، داخل التحالف الغربى.. وقد طلب بول منه (أى من السفير) إرسال برقية تهنئة عاجلة إلى سيادته على نفقة الدولة أيضا.

«ونفس الشيء أكده الهرشتيفان براون السكرتير الثانى بالسفارة الألمانية فى القاهرة، والدكتور فريد ريش هونيكه سكرتير عام الجالية الألمانية بمصر.

«والمعروف أن لهاينريش بول روايات كثيرة مثل «وما نطق بكلمة» (١٩٥٣)، و«كاتارينا بلوم» (١٩٧٤)، و «شبكة الأمان» (١٩٧٩)، إلى آخره».

* * *

هذا التشابه الكبير بين بعض العبارات فى النعيين لا يمكن أن يكون من قبيل المصادفة. وهو تشابه إن كشف عن شىء فإنما يكشف عن مظهر آخر من مظاهر ذلك «الغزو الفكرى» الأوربى المقيت لشعوب منطقتنا المتحضرة الذى اكتشفه الدكتور مصطفى محمود مؤخرا واستنكره على صفحات «الأهرام» نفسها.. إذ أنه لولا تقليدنا الأعمى للغرب فى كل شىء، ولو أننا، نحن العرب، كنا قد تمسكنا بقيمنا وتقاليدنا الناصعة المشرفة التى ورثناها عن السلف الصالح، لتركّز نعى الدكتور يوسف إدريس على خدماته الجليلة فى ميدان القصة القصيرة والمسرح، لا على تصريحات السيد مدير مكتب السيد رئيس الجمهورية للشؤون السياسية.. وهل يمكن إلا أن تكون إقامة بيرم التونسى الطويلة فى فرنسا، وتأثره بما لمسه هناك من تمجيد الفرنسيين لرؤساء جمهوريتهم ونفاقهم وتملقهم لهم، وراء قوله عن الملك فاروق:

يا فرحتى يا هنايا
حضرت فى عيد جلوسه
وكل قصدى ومنايا
أفرش له خدى يدوسه
واخد تراب السرايا
من تحت رجله أبوسه
بس الحكمدار وجيشه
داير يفتّش علىّ؟

* * *

وإنى لعلى ثقة من أنه لو أن الرئيس مبارك وبّخ رؤساء تحرير الصحف القومية علي هذا التملّق الزائف له، وعلى نشرها صورته فى الصفحة الأولى من كل عدد يومى، وإبرازها لتصريحاته أو اجتماعاته أو افتتاحه لمصنع هنا أو كوبرى هناك باعتباره الخبر الأهم من بين أنباء العالم كلها، حتى لو كانت هناك حرب أهلية دامية فى يوغوسلافيا، أو اجتماع قمة فى موسكو، أو ثورة شعبية فى الصين،... أقول، إنه حتى لو وبّخهم على ذلك، لدفعهم تأثرهم بالغزو الفكري الأوربى الذى نبّهنا إليه مشكورا المفكر القدير مصطفى محمود إلى نشر خبر هذا التوبيخ علي النحو التالى، فى الصفحة الأولى، وتحت صورة السيد الرئيس:

«صدرت تعليمات سنيّة يوم أمس من السيد الرئيس محمد حسني مبارك رئيس الجمهورية إلى الصحف القومية بالتوقف عن تملقه والإشادة به وبمواقفه فى كل مناسبة وبدون مناسبة، وعن نشر صورته يوميا بالصفحة الأولى.. ولا شك لدينا أن هذه اللفتة الكريمة، والتعليمات النبيلة الرشيدة التى تستهدف حماية صرح الديمقراطية والحرية الشامخ فى مصر، لهى موقف نبيل آخر يضيفه السيد رئيس الجمهورية إلى موافقة النبيلة العديدة السابقة.. كما أنه لا يسعنا إلا أن نشيد بقراره السامى بحظر الإشادة بقراراته، وأن نلهج بعبارات الإعجاب والتقدير، والحمد والثناء، على توجيهه الحكيم للصحف بالامتناع عن تملّق سيادته».

آياتُ الغضب

١

أطوف بسيارتى ساعة صلاة الجمعة بشوارع القاهرة، مدينة الألف مئذنة، فتتناهى إلىّ فى كل حىّ من أحيائها أصوات خطباء المساجد تنقلها مكبرات الصوت الرهيبة، لتُسمع الحاضر والغائب، الصحيح والسقيم، المصلّين والمارّة، المسلمين والنصارى، في الحىّ وما جاوز الحى ، شئت أم أبيت ، تنثر الدّر فى أسماع المتّقين وأفواه الخنازير...

وصوت الخطيب لعلّة أجهلها هو دائما غاضب، يهدر كالموج الصاخب المتلاطم، ينذر ويتوعّد، ويحذّر ويهدّد، يفيض بمشاعر الكراهية والحقد، سواء كان موضوع الخطبة أهوال القيامة، أو موقعة بدر، أو شمائل الرسول والصحابة، أو الدعوة إلى المغفرة والمعاملة بالحسنى، أو زواج النبى من زينب بنت جحش . وهو إن تناول بالتفسير آية مثل «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» وردت كلمة «السلام» على لسانه وكأنما يستنزل بها اللعنات الإلهية على هؤلاء الجاهلين، أو عبارة «الصفح والمغفرة» فكأنما يقصد بلهجته النارية أن أبوابها قد أغلقت إلى الأبد.

وقد تعجب لأمر هذا الخطيب أو ذاك ما أغضبه ، وما عكّر صفو مزاجه

وأزعجه ، فتحسب أن المسكين لابدّ يعانى من قرحة فى معدته، أو أن زوجته ربما غاضبته وأبت أن تعدّ له فطور الصباح، أو أن ابنه خرج عن حدود الأدب فى مخاطبته إياه قبل أن يتوجه إلى المسجد ليؤم الصلاة.... غير أنك تمر بالمسجد تلو المسجد فى القاهرة (بل وفى سائر أنحاء القطر)، وتسمع صوت الخطيب تلو الخطيب فى مكبر الصوت، فإذا الجميع غضبى، قد بُحّت أصواتهم من حدّة الصراخ وطول الزعيق، فتدرك أنه لا يمكن أن تكون القرحة أصابت معدات الجميع، ولا يُعقل أن تكون زوجاتهم جميعا قد أبين إعداد الفطور.. ويخامرك عندئذ الشك فى أنه ربما كان الحديث الدينى لا مجال فيه للصوت الهادىء أو للنبرة الوقورة ومشاعر الحلم.... وتتذكر لتوّك أداء الممثلين المصريين فى المسلسلات الدينية التليفزيونية، فإذا هو الشىء ذاته، وكأنما كان من المتعذّر على أبى بكر أن يخاطب عمر بن الخطاب بحديث عاديّ هادىء كحديثك مع صديق فى زمننا هذا.

هى اللهجة ذاتها يستخدمها خطيب المسجد فى الكلام عن نعيم الجنّة والكلام عن عذاب النار. غير أنه عند الكلام عن عذاب النار تتفجر مواهبه الكامنة إذ يجد فيه مجاله الطبيعى الموافق فيرتع فيه ويسبح كالسمكة فى الماء. كذلك فإنه لا شك فى أن مكبرات الصوت تناسب الحديث عن الزبانية والشياطين أكثر مما تناسب الحديث عن الملائكة وسكينة الروح.

لسان حالهم يشهد بأن المسلم كلما ازداد فظاظة وكراهة لمخالفيه فى الدين، أو مخالفيه فى الرأى، كان أقرب إلى الله تعالى وإلى الإيمان الحق. وأغلب ظنى أنهم حين يتلون من آيات الذكر الحكيم (وجادلهم بالتى هى أحسن)، أو (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)، يودّون فى أنفسهم ان القرآن لم يوردها واكتفى بآيات مثل: (فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم).

٢

أعود إلى المنزل فأدير التليفزيون لأشاهد برنامجا تسجيليا عن تاريخ مصر منذ ثورة ١٩٥٢ يتضمن خطبا للقادة منذ عهد عبد الناصر. استمعت إلى الخطب وراقبت الإشارات والحركات وتعابير الوجه مما يصاحب تلك الخطب... نحن نعلم أن كل خطبة تلقى على الجماهير هى نوع من التمثيل وضرب من ضروب العجيج.. دائما نفس النغمة: تاتا تتتاتا.. تاتا.. تتا تاتتتا... ياللوقار ! ويالها من أداة رفيعة لتنوير الأذهان! تتا تا تاتتتا... تتا تا تتتا! وتسأل نفسك فى انزعاج عما عساه أن يكون قد حدث فأغضب الرجل المسكين. لا شىء.. الرجل المسكين فى منتهى السعادة .. إنه مجرد الصوت فحسب. فالصوت عند إستخدامه في مخاطبة الجماهير دائما غاضب.. دائما مخيف.. بوسعك أن تتحدث بهدوء إلى صديق، أو إلى زوجتك.. أمّا إلى ألف، فلسبب لا يعلمه إلا الله تظهر من حيث لا تدرى نبرة جنائزية، نبويّة، تتتا تاتا تاتتتا.. وتتأمل وجوه المستمعين إلى الخطاب من حاضرى الاحتفال، فإذا بأصحابها ينهلون من كلمات الزعيم نهلا وقد وجدوا في خطبته تعبيرا عن حقدهم وسواد قلوبهم.. حقد أينما ولّيت وجهك.. حتي فى لهوهم ومزاحهم.

صرنا منذ ثورة ١٩٥٢ وقد بات واجبا علي كل فرد منا أن يستشعر الكراهية العظيمة نحو شىء ما، كراهية يغذيها الفرد منا ويرعاها ويتعّهدها رعايته للنبات في الوعاء. وقد أدرك زعماؤنا أنهم متى أرادوا الناس أن يتبعوهم فما عليهم إلا انتهاج سبيل واحد لا سبيل غيره : أن يخبروا الناس أنهم فى

هذه اللحظة بالذات تعساء أشقياء بؤساء.. ولأى سبب؟ بسبب أشخاص آخرين لئام أشرار خبثاء.. ولكى نحظى بالسعادة نحتاج إلى شىء معين، شىء ليس فى داخلنا ولا هو فى حوزتنا، بل هو خارجنا.. والسبب فى أن هذا الشىء ليس معنا هو أن أشخاصا آخرين سرقوه منا.

أضحت مهمة القادة أشبه بمهمة مربى المواشى أو الإخصائى فى حديقة الحيوان.. لا بأس بالناس ماداموا مجتمعين فى الأسواق أو الميادين أو ملاعب كرة القدم أو أمام أجهزة التليفزيون .. حتى إذا ماعادوا إلى ديارهم أو انتهى إرسال التليفزيون ، ظهرت فى أعينهم نظرة العجول الحزينة وهى تهيم فى الحقول .. لا يدرون ما يصنعون .. يخرجون من حجرة ويدخلون أخرى وهم يصفرون .. يقصدون المرآة لينظروا إلى أنفسهم فيها ويرقبون التعبير على وجوههم ، فلا يصدقون أنه تعبير يفصح فى أمانة عن وضعهم البائس ..

بالله عليك لا تتركهم وحدهم . فهم يشعرون بالحيرة ويخيم الغباء عليهم متى تركتهم وحدهم ..

وهنا يأتى دور الزعيم الذى لا ينبغى له أن يترك الشعب وحده ، أن يتركه وشأنه .. تصريحاته وأحاديثه كل يوم تشغل الصفحات الأولى من الصحف ، وخطبه العديدة تلقى مسئولية تعاسة الفرد على شىء خارجه .. فى عهد عبد الناصر على مؤامرات الاقطاعيين والاستعماريين والصهاينة . وفى عهد السادات على اليساريين والناصريين والعرب . وفى عهد مبارك على الجماعات الإسلامية المتطرفة وشروط صندوق النقد الدولى ومقتضيات الحياة فى ظل النظام العالمى الجديد ...

٣

أغلق التليفزيون وأفتح إحدى الجرائد فإذا بها مقال يهاجم كتابا جديدا لأحد المفكرين :

« هذه أقوال لا يقولها إلا جاهل أو مبتدع أو كلاهما .. وقد دل الكتاب على القصد السيىء من الكاتب للكيد لهذه الأمة فى دينها وعقيدتها . ولا ريب فى أن من يروج لهذه الأفكار إنما هو من صنف المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر . ويكيدون للإسلام والمسلمين ، ويزعزعون ثقتهم فى عقيدتهم وأنفسهم ، ويعملون على تمكين الأعداء من النيل منهم وتدمير كيانهم واستباحة أوطانهم وحرماتهم .. .. إننا لا ندرى ما الكفر إن لم يكن هذا الذى قاله .. وهل قال أعداء الإسلام أكثر من هذا ؟ .. ونحن قائلون للكاتب إذا ذهب الحياء فاصنع ما شئت وشاء لك الذين تكتب نيابة عنهم ... » إلى آخره .

وأفرغ من قراءة المقال فأفكر :

ما السبب فى أنه كلما كان هناك خلاف فى الرأى حول مسألة تتصل بالدين ، كان من الصعب على عامة الناس فى مصر ، وعلى علمائهم وفقائهم على السواء أن يناقشوا الأمر فى هدوء ، ودون انفعال ، ودون سباب وتكفير وتخوين ، وأن يجادلوا بالتى هى أحسن ؟

ما السر فى أنه من النادر أن يصبر مسلم عندنا على الاستماع إلى وجهة نظر دينية من مسلم يخالفه ، وأن يعرض قضيته عرضا موضوعيا نقديا كما يفعل العلماء الذين يرون الحقائق كافة قابلة للتمحيص والجدال

والتصحيح؟ ما الذى يمكن أن يدفع رجلا إلى الثورة والهياج والصراخ وإطلاق اللسان بما يخالف الأدب ، لمجرد أنه قرأ كتابا يتضمن آراء فى الدين لا تتفق ورأيه ؟ ما الذى يحول بينه وبين أن يرد على الكتاب على النحو التالى مثلا :

« قرأت كتاب كذا بقلم فلان . وأعتقد أن كاتبه قد أخطأ إذ جعل كلمة كذا مرادفة لكلمة كذا ، فى حين أن معاجم اللغة تعرفها بأنها كذا وكذا .. كذلك فإنى لا أرى رأيه فى أن الدافع الرئيسى وراء كذا كان كذا ، وإستند فى رأيى هذا إلي ما ذكره ابن اسحاق فى سيرته وما ذهب إليه الطبرى فى تاريخه .. ورغم أنى أتفق مع الكاتب فى كذا فإنى أخالفه فى اعتباره الأمثلة التي أوردها كافية لإقامة الدليل .. وما كنت أحب له أن يستشهد بقصة فلان ويجعلها حجة على غيره .. وقد كان من واجبه أن يذكر المصدر الذى استسقى منه حديث كذا إذ لم نوفق فى العثور عليه فى المراجع التى بين أيدينا .. وسيسعدنا أن نقرأ قريبا ردا من الكاتب يفسر لنا على نحو أكثر تفصيلا وتوثيقا هذه النقطة أو تلك .. والكتاب على أي حال ورغم كثرة الأخطاء مما نبهنا إليه لا يخلو من فائدة . فقد كان له فضل إيضاح كذا وكذا.. ويا حبذا لو أن الكاتب التزم فى بحوثه التالية بمراعاة كذا وكذا .. » إلى آخره .

مثل هذا الأسلوب فى الجدال والنقد لا يكاد يكون معروفا عندنا فى مصر فى أى مجال من مجالات الفكر أو السياسة خاصة فى مجال الفكر الدينى .. لقد استقر فى المجتمعات المتحضرة منذ أمد بعيد مفهوم يرى المفكر ونقاده شركاء فى مهمة واحدة ، هى توسيع مدارك القراء وفهمهم ، وتنمية معارفهم، وتمكينهم من تكوين نظرة سليمة إلى الأمور . والمفكر فى تلك المجتمعات

يدرك عادة ـ مالم يكن مفرط الحساسية، أن عليه أن يكون شديد الإمتنان للمساعدة التى يقدمها النقاد له بتنبيههم إياه إلى أخطاء وقع فيها ، أو وهم انزلق إليه ، أو أوجه قصور تعتور فكره .. كذلك يدرك الناقد أن الإسفاف والحقد الشخصى والافتقار إلى الموضوعية فى مجال الفكر ، أمور كفيلة بهدم سمعته هو لا سمعة موضوع النقد ..

أما فى مصر فإن القاعدة التى لا يستثنى منها غير القليلين هى أن الناقد المادح مأجور ، والناقد القادح مسعور . فأما المدح الناجم عن اعتراف بفضل جاء ، أو توقع لفضل قد يجىء، فأمره يسير الغرم . وأما القدح المسعور ، والسباب غير المأجور ، والتشنج إزاء الفكرة الجديدة ، والمبادرة إلى تكفير القولة الجريئة ، والاتهام بفساد العقيدة ، والانتقال من تسفيه الفكرة إلى الطعن الشخصى بأسلوب يفيض بذاءة وينضح بالحقد والكراهية دون مبرر ظاهر غير اختلاف الرأى ، فأمر يتعذر فهمه إلا على ضوء طبيعة تكويننا ، وفساد أسلوب تربيتنا ، وأفقنا المحدود ، وحظ قطرنا المنكود .

٤

وقد كنت فى البرازيل ، قبل حضورى إلى مصر ، إن سألنى سائل من الأجانب عن الشعب المصرى وخصائصه ، أشدت له بسماحة شعبنا ورحابة صدره ، ورفضه للتعصب واتساع أفقه .

مش كاذرا

لم يكن فى نيتى أن أكتب ما سأكتبه الآن لولا إلحاح شديد من رجاء النقاش أن أروى للقارىء بالحرف الواحد ما رويته له خلال حفل عشاء ..

والقصة قصة حقيقية من ألفها إلى يائها . وسأقتصر على سرد وقائعها المجرده دون أى تعليق .

❊ ❊ ❊

فى أكتوبر ١٩٧٧ عدت وأسرتى من نيجيريا إلى القاهرة ، فاحتجنا إلى خادمة ترعى شؤون البيت . وكان أن أحضرت لنا حماتى من عزبتها فى كمشوش بالمنوفية إبنة فلاح فقير فى أرضها ، هى فتاة أمية سوداء البشرة فى الثانية عشرة من عمرها ، تدعى خضرة ، وأخبرتنا أنها اتفقت مع الوالد على أن يكون راتبها الشهرى أربعة جنيهات ، تدفع له . ولم يكن لدينا اعتراض على شىء سوى صغر سنها وافتقارها إلى الخبرة . غير أن ما لمسناه فيها منذ الأسبوع الأول من ذكاء واستعداد للتعلم وذاكرة قوية ، طمأننا إلى إمكان الاعتماد عليها .

١٩٧٧ - ١٩٨٠

لا أزال إلى هذه الساعة أذكر منظرها يوم أن أحضرها والدها الطويل

الأسود إلى القاهرة التى لم تكن زارتها من قبل ، ثم إلى شقتنا .. كانت ترتدى جلبابا مهلهلا وصندلا رثا ومنديلا أحمر على رأسها يخفى شعرها وثلاثة أرباع جبينها ، وقد بدا فى عينيها وعلى وجهها الوسيم وهى واقفه عند باب الصالة علائم الفزع والخوف ، خاصة منى . غير أنها لم تبك ساعة ودعها أبوها وانصرف ، ولا بدا عليها التأثر لفراقه . وسرعان ما انطلقت بعد أن أغلقنا الباب خلفه تروح وتجىء فى حجرات الشقة بمفردها ، ودون أدنى حرج ، تتفحص قطع الأثاث والأجهزة الكهربائية فيها ، تلمسها بيدها ، وتسأل زوجتى أو بناتى الثلاث عن ماهيتها : التليفون ، التليفزيون ، الفيديو ، الفريجيدير ، الأباجورات ، الخلاط ، والكثير منها أجهزة كانت تراها لأول مرة .

شرعت زوجتى تدربها على مهامها المنزلية حتى أتقنتها ، ثم انتقلت إلى تعليمها طهى الطعام فبدا الأمر ، ــ عكس ماتوهمنا ــ غير عسير عليها إذ سبق أن كانت تساعد أمها فيه قبل أن تترك القرية .. غير أن عملها كان ينتهى فى العادة بعد فراغنا من الغداء وفراغها من غسل الأوانى والصحون . فكانت عندئذ تجلس على الأرض فى غرفة الجلوس للتفرج على برامج التليفزيون ، حتى تعود بناتى من المدرسة فتدخل وراءهن حجرتهن لتراقبهن وهن يذاكرن دروسهن .

أحبتها بناتى كل الحب ، وأشركنها معهن فى ألعابهن وأحاديثهن ونزههن ، وأعطينها الكثير من ملابسهن . ثم خطر لهن جميعا إزاء ما لمسن فيها من ذكاء وتوقد ذهن ، أن يتناوبن فيما بينهن فى تعليمها القراءة والكتابة والحساب فى أوقات فراغهن . فما مضى عام أو بعض عام حتى كانت قد بلغت فى كل

ذلك الغاية ، وحتى انصرفت عن التلفزيون إلى قصص كامل كيلانى وغيرها من كتب الأطفال ، تقرأ فيها أثناء انشغال بناتى بمذاكرة دروسهن .

١٩٨٠ ـ ١٩٨٣

فى إبريل ١٩٨٠ صدر قرار بتعيينى وزيرا مفوضا بالسفارة فى ألمانيا الاتحاديه . فلما استأذنا والدها فى اصطحاب خضرة معنا ، تردد أسبوعا أو أسبوعين ، ثم وافق شرط أن نضاعف لها أجرها . وقد راقبتها وهى تحضر حقيبتها تدس فيها مجموعه من الكتب العربية ، فلما طلبت منها أن ترينى إياها إذا بها : قصص شكسبير للأطفال بقلم شارلز ومارى لام ، « لا تطفىء الشمس » و « البنات والصيف » لإحسان عبد القدوس ، ثلاثية نجيب محفوظ وروايته « بداية ونهاية» ، ثلاث مجموعات قصصية ليوسف إدريس ، وخمسة مجلدات من أزجال بيرم التونسى .. كانت وقتها فى الخامسة عشرة من العمر .

لا بدا على وجهها خوف من ركوب الطائرة فى مطار القاهرة ، ولا أى دليل من دلائل العجب أو الرهبة وقت نزولنا فى مطار فرانكفورت ، ولا إمارات الدهشة والانبهار بما شهدته بعد ذلك من مظاهر المدنية فى ألمانيا .. كان ثمة بالتأكيد خوف وعجب ورهبة ودهشة وانبهار . غير أنها نجحت تماما فى إخفاء مشاعرها حتى لاتبدو لنا (وللألمان) قروية ساذجة قادمة «من ورا الجاموسة» .. المرة الوحيدة التى اتسعت فيها عيناها وأصابها الذعر هى حين جلسنا يوما فى منزلنا فى بون نشاهد الحلقة الأولى من مسلسل «فيليكس كرول» عن رواية توماس مان ، فإذا بالمرأة فى المسلسل تتجرد عارية تماما وتقفز إلى عشيقها فى الفراش لتمارس الجنس معه .

اشترينا لها الثياب فى ألمانيا فبدت أنيقة كبناتى ، وباتت تقصد الكوافير معهن مرة فى كل شهر . وإذ كان عليها أن تمضى كل صباح إلى السوق لشراء ما نحتاج إليه من مأكولات ومشروبات وغيرها ، أبدت همة لا بأس بها فى تعلم الكلمات الألمانية الدالة على هذه الحاجات ، مع قدر مناسب من الأفعال . وقد أحبها من كانت تتصل بهم من الألمان ، خاصة لسواد بشرتها وجمال ملامحها ، ووداعتها ودماثة طبيعية فى خلقها ، ووقارها اللافت للنظر . وكان بعضهم يخالها ابنة سفير من السفراء الأفارقه . وكثيرا ما كان هذا الوقار الغريب منها يذكرنى بقولة الأفغانى لمحمد عبده : « قل لى ، ابن أى من الملوك أنت ؟! »

فى ألمانيا جعلناها تجلس معنا إلى المائدة لتناول الوجبات ، بعد أن كانت فى مصر تتناولها وحدها فى المطبخ بعد انتهائنا منها . وعلمناها استخدام الشوكة والسكين . وسمحنا لها بأن تحتل مقعدا بجوار مقاعدنا فى غرفة الجلوس أمام جهاز التليفزيون ، بعد أن كانت فى مصر تجلس أمامه على الأرض .. واستمر الوضع على ذلك بعد عودتنا إلى القاهرة ، مما أثار دهشة أقربائنا وضيوفنا إذ يرونها تأتى بعد تحضير السفرة للجلوس بيننا والمشاركة فى الحديث .

١٩٨٣ - ١٩٨٥

حين نقلنا إلى مصر كانت فى الثامنة عشرة . وقد تقدم لخطبتها خلال الشهرين الأولين من وصولنا ثلاثة من شباب قريتها ، فرفضتهم الواحد تلو الآخر .وقد أحسست وزوجتى وقتها ببعض الانزعاج خشية أن تكون إقامتها فى ألمانيا وماحصلته من تعليم قد وسعا الفجوة بينها وبين أقرانها ، مما ينذر بأن يجعل من أمر زواجها مشكلة عسيرة .

ثم كان أن أقدمت هي على توسيع هذه الفجوة يوما بعد يوم بانصرافها انصرافا واعيا ملؤه التصميم والعزم على تثقيف ذاتها .. دخلت المطبخ يوما فإذا بى أجد على أحد الرفوف فيه نسختى من ديوان أبى القاسم الشابى . وحين سألت عمن أخذه من مكتبتى وأتى به إلى المطبخ اتضح أنها هى . ثم بدأت ألحظ ما كانت تأخذه معها إلى المطبخ لتقرأه من كتب أثناء إعدادها الطعام ، أو إلى الشرفة الزجاجية حيث تجلس عادة بعد انتهائها من غسل الصحون :رجال وفئران لشتاينبك ، أولاد حارتنا لنجيب محفوظ ، ديوان إبراهيم ناجى ، المساكين لدوستويفسكى ، جان دارك لبرنارد شو ، مسرحيات موليير ، خريف الغضب لهيكل ، الأيام لطه حسين ، اعترافات تولستوى ، العجوز والبحر لهيمنجواى ، حظيرة الحيوانات الزجاجية لتينيسى ويليامز ، إلى آخره . وكلها كتب إما أخذتها من مكتبى ، أو اشترتها من مرتبها الذى بدأت منذ عودتها من ألمانيا تحتفظ به لنفسها وتأبى أن تدفعه لأبيها .

وقد تخلصت فى تلك الفترة نهائيا من لهجتها الريفية ، بل وأضحت كثيرا ماتستخدم فى حديثها العادى كلمات من العربية الفصحى .

إلى جانب هذا الإقبال النهم على القراءة ، أظهرت خضرة مواهب أخرى.. فقد باتت الآن تتولى إصلاح أى جهاز كهربائى فى البيت يصيبه الخلل ، وتقوم بكافة أعمال السباكة سواء فى بيتنا أو من نغشى بيوتهم من الأقارب، وهى التى تقوم بإعادة تركيب الدواليب ، ودق الخوابير ، وطلاء الحجرات ، ولصق ورق الحائط ، وتسجيل الأفلام فى جهاز الفيديو ، إلى آخره ، وسرعان ما أصبح الاعتماد عليها فى محيط العائلة الكبيرة فى كل شىء تقريبا : « ننتظر حتى تجىء خضرة تصلحه لنا » ، « لا بأس ، فخضرة ستحضر غدا »، «أسألوا خضرة من أين نشتريه ؟» .

١٩٨٥ - ١٩٩٠

وفى إبريل ١٩٨٥ صدر قرار بنقلى إلى ريو دى جانيرو. وقد رفض أبوها هذه المرة أن يأذن باصطحابنا إياها . وكان محقا فى رفضه فلم نلح . فالفتاة قد جاوزت الآن العشرين ، وسيعنى بقاؤها معنا فى البرازيل مدة أربع سنوات أو خمس ، بقاءها دون زواج طوال تلك المدة ، وهو مالايمكن لأسرتها الريفية أن تقبله . غير أنه وافق على أن تنتقل بعد سفرنا إلى منزل حماتى للإقامة معها إلى أن توفق إلى زوج تقبله .

عشية سفرنا كنا نتناول العشاء عند الأخت الكبرى لزوجتى، وهى مساعدة مدير المجلس البريطانى بالقاهرة . وحين عبرت لها عن رغبتى الشديدة فى أن تهىء لخضرة فرصة تعلم اللغة الإنجليزية ، أبدت أخت زوجتى استعدادها لقبولها طالبة فى قسم تعليم الإنجليزية للكبار عندها ، وأبت أن تأخذ منى مصاريف تعليمها ، قائلة: إنها ستعينها فى مكتبة المجلس فى وظيفة يغطى مرتبها هذه المصاريف .

ثم تتابعت الخطابات العائلية إلينا ونحن فى البرازيل تنقل أخبار خضرة:

تقدمها فى تعلم الإنجليزية قد أدهش الأستاذة ..

هى الآن تكتب موضوعات الإنشاء فى كفاءة ويسر ..

قد عينتها أخت زوجتى مساعدة لأمين مكتبة المجلس ..

أمين المكتبة والطلبة يعتمدون عليها فى كافة الأمور.

الطلبة يسمونها مس كادرا ويعاملونها باحترام جم ..

رؤساؤها الأنجليز بالمركز شديدو الإعجاب بكفاءتها وشخصيتها ودقتها فى العمل ..

مس كادرا تتلقى دروسا فى استخدام الكومبيوتر .

أمين المكتبة نقل إلى منصب آخر وصدر القرار بتعيين مس كادرا مكانه...

مس كادرا الآن تستخدم اللغة الإنجليزية فى كل معاملاتها بالمجلس ، وأحيانا خارجه..

مس كادرا فى طريقها إلى أن تصبح أشهر شخصية فى المجلس البريطانى..

ثم الخبر الأهم :

علاقة غرامية تنشأ بين مس كادرا وموظف مصرى زميل لها بالمجلس هو ابن رئيس مجلس إدارة إحدى شركات القطاع العام ..

ابن رئيس مجلس الإدارة يتقدم إليها بطلب الزواج ..

خضرة تبكى ليل نهار لا تدرى هل تصارحه أم لا بحقيقة أمرها ..

أخت زوجتى تنصحها بمصارحته بكل شىء..

خضرة تأخذ بنصيحتها وتصارحه ، فيصر فى رجولة على الزواج منها، ويقوم هو بدوره بمصارحة أبويه ..

أبواه يرفضان بشدة الموافقة على زواجه منها، ويهددانه بالتبرؤ منه إن

فعل، فيقاطعهما وينتقل إلى مسكن مستقل فى الدقى يبدأ فى إعداده للحياة الزوجية ...

* * *

ويقام حفل زفاف خضرة إلى زميلها بالمجلس البريطانى فى منزل حماتى يوم ١٩ مايو ١٩٩٠ ، فلا يحضره أحد من أقارب العريس غير ابن عم له ، ويحضره أكثر من مائة من فلاحى كمشوش من أقارب العروس .. وأعود وأسرتى من الخارج فى أجازة صيفية ، فنزور العروسين للتهنئة فى شقتهما الجميلة قرب نادى الصيد ، ويكون أكبر دواعى سعادتى بهذه الزيارة أن أجد بالشقة مالا أجده فى بيوت معظم معارفى فى مصر : غرفة قد خصصت بأكملها لكتب العروسين . وإذ ألمح على أحد رفوفها المجلدات الضخمة السبعة لتاريخ ابن خلدون ، أبادر بسؤال العريس عما إذا كان قد قرأه أو يقرأ فيه ، فيجيبنى بقوله :

ـ لا هذا ولا ذاك .. هذا كتاب خضرة المفضل .

* * *

قلت فى مستهل مقالى إنى سأورد الوقائع دون تعليق .. غير أنى أختمه بتساؤل واحد :

هذه الموهبة المصرية التى شاء الحظ أن يلتقطها وأن يجلوها ، هل هناك المئات أو الآلاف أو عشرات الآلاف من أمثالها فى ريف مصر ، وغير ريفها، مما يرزح فى أغلال الجهالة والأحوال الاجتماعية المتردية ، وتأبى الظلمات له أن يظهر نوره ، وينتظر اليوم الذى تمتد يد الحظ إليه أيضا لتأخذ بيده ؟ فإن كانت الإجابة بالإيجاب ، فعلى عاتق من تقع مسئولية هذه الخسارة المفجعة ، وهذا الإهدار لثروة مصر ؟

لو أن داروين كان مصريا
أو
حيرة الأستاذ درويش

١

بعد أربع سنوات من عودة الأستاذ درويش إلى القاهرة من رحلته الاستكشافية حول العالم، (وهى رحلة استغرقت مايقرب من خمسة أعوام)، كان قد أتم تأليف كتابه الضخم « أصل السلالات» (فى نحو خمسمائة صفحة كبيرة) ولم يبق أمامه سوى الاهتداء إلى ناشر ينشره .

كانت السعادة تغمر كيانه كله بفضل ثقته التامة فى أن الكتاب هو فتح جديد فى علم الأحياء (البيولوجيا) ، بل وفى أنه سيترك أثره العميق فى العلوم الإجتماعية كافة وفى علوم الدين .. وإذ سمح لنفسه بعد الفراغ من كتابة الفصل الأخير بإجازة لمدة أسبوع فى الإسكندرية، يرتاح خلالها من عناء العمل المتواصل لعدة سنوات ، فقد كان يقضى معظم ساعات أيامه على شاطىء البحر ، يتخيل الدوى الهائل الذى سيحدثه الكتاب فى كافة الأوساط ، ويحلم بثناء العلماء والنقاد عليه ، وتكريم الدولة إياه .. لم يكن من السذاجة بحيث يغفل إحتمال ثورة المشايخ عليه ، أو حتى بعض الحاسدين من علماء الأحياء .. غير أنه كان واثقا من أن غالبية القراء والدوائر العلمية فى مصر لا بد سترى وضوح حجته ، وقوة أدلته ، وأنها ستستقبل الكتاب بالترحيب الحار .

لم يبق إذن أمامه سوى الاهتداء إلى ناشر ينشره .

٢

عاد من الإسكندرية بعد انقضاء الأسبوع ، وخرج ذات صباح إلى وسط البلد يتأبط مظروفا ضخما يحوى أصول الكتاب .

توجه أول ماتوجه إلى مكتبة « دار السلام » وقابل مديرها .. غير أن المدير الذى اكتفى بإلقاء نظرة جانبية على المظروف دون أن يطلب رؤية الكتاب ، أجابة فى أدب بأن الدار لا تنشر غير الكتب الدينية . وقد كاد الأستاذ درويش أن يرد عليه بأن لكتابه صلة جد وثيقة بالمعتقدات الدينية السائدة لولا أن حانت منه التفاتة إلى كتب الدار المعروضة إلى يمينه وإلى شماله فإذا هى : « عذاب القبر» ، « حساب الملكين » ، «حكم الزواج من الجن المتشكل بصورة الإنس وما ينشأ عن هذا الزواج من حقوق عائلية » ، « ضرورة لبس الجلباب وتقصيره إلى مافوق الكعبين » ، « رضاع الرجل الكبير» ، « حكم طلاق من لا يحسن العربية» ، « حكم الصلاة بجوار امرأة»، « تفسير الأحلام لابن سيرين » ، إلى آخره ، فآثر أن يمضى بمخطوطته إلى ناشر آخر .

سأله الناشر الثانى ، صاحب « دار المعرفة» عما إذا كانت له مؤلفات أخرى سبق نشرها . وعندما أجابه الأستاذ درويش فى شىء من الفخر بأن هذا هو أول كتاب له ، لم يجد الناشر فى الإجابة ما يشجعه على نشر الكتاب .. ثم سأله عن موضوع الكتاب .. « بيولوجيا ؟ وماعساها أن تكون هذه البيولوجيا ؟ »

ـ هى علم الكائنات الحية من نبات وحيوان ، بما يتضمنه من علوم الخلية

والأنسجة والتشريح ووظائف الأعضاء والأجنة وعلم البيئة وعلم الوراثة والتطور.

قال الرجل ساخرا:

ـ موضوع شائق جدا ! سيدى الأستاذ ، نحن نتعامل مع كتب مثل اعترافات تاجر مخدرات سابق ، مذكرات اعتماد خورشيد ، وفضائح صلاح نصر ، ونساء فى حياة المشير عامر ، لا مع البيولوجيا .. أتحسب أنى سأجد خمسة قراء فى العالم العربى لكتابك هذا يهمهم موضوعه ؟ حياة الناس ياسيدى أضحت من البؤس والضنك بحيث لم تعد فيهم فضل طاقة لمثل هذه الدراسات ، وبحيث باتوا لا يطيقون غير قراءة الفضائح أو القصص عن نجوم السينما وأخبار لاعبى كرة القدم .. إنى آسف . غير أن بوسعك أن تحاول مع « دار الفكر الجديد » .

واعتذر صاحب « دار الفكر الجديد » قائلا: إن ارتفاع أسعار الورق فى السوق يجعل من الصعب تنفيذ نشر هذا الكتاب الضخم الذى لن يتسنى بيعه بأقل من ثلاثين جنيها إن هو أراد تحقيق ولو ربح بسيط .. والربح من مثل هذا الكتاب فى مثل هذا الموضوع العويص الثقيل مشكوك فيه .. ثم نصحه فى ختام المقابلة بأن يعرضه على « دار الاستنارة » .

أخبره مدير « دار الاستنارة» أن سوق الكتاب فى مصر (وفرص الاستنارة كلها إن أردت الحق !) أضحت كاسدة تماما منذ فرض ضريبة المبيعات ، وإلغاء الدعم ورفع أسعار السلع ، إذ لم يعد فى جيوب الناس فائض ينفقونه على شراء سلع كمالية فى نظرهم كالكتاب ، والقادرون الوحيدون على شرائه هم تجار المخدرات والسمكرية والقوادون والوزراء ، وهؤلاء لا يقرأون أصلا

. ثم ذكر له أنه فى سبيل تصفية الدار وإغلاقها عن قريب ، أو ربما حولها إلى مطعم لسندوتشات الشاورمة والفول والفلافل .

٣

بعد عشر محاولات كهذه مع دور نشر أخرى ، عاد الأستاذ درويش بمظروفه الضخم إلى بيته وهوفى حال من الذهول والإحباط .. ثم اتصل تليفونيا بى ينبئنى بما كان ، فنصحته بأن يقصد السكرتير العام للمؤسسة القومية للتأليف والنشر والتوزيع ، حيث أنها مؤسسة النشرالوحيدة فى مصر التى لا تسعى إلى تحقيق ربح ، ويهمها فى المقام الأول نشر المؤلفات الجادة حتى وإن كان واضحا أنها لن تلقى رواجا فى السوق .. ثم نصحته فى ختام المحادثة بأن يخبر السكرتير العام للمؤسسة بأمر علاقة القرابة التى تربطه بالأستاذ حمزة درويش مستشار رئيس الوزراء للشؤون الخارجية .

وكان أن تردد الأستاذ درويش بمظروفه الضخم عدة مرات على المؤسسة فى محاولة للوصول إلى سكرتيرها العام .. فهو مرة فى الأردن للاشتراك فى مؤتمر ، ومرة فى فرانكفورت لحضور افتتاح المعرض الدولى للكتاب ، ومرة فى تونس لتسجيل حلقات برنامج ثقافى للتليفزيون التونسى ، ومرة فى لوس أنجلوس لسبب لا يعلمه إلا الله ، ومرة فى الرياض لسبب يعرفه الجميع .. وأخيرا وصل السيد السكرتير العام إلى القاهرة لقضاء يومين بها قبل التوجه إلى باريس لإجراء فحص طبى . واستطاع الأستاذ درويش بفضل بطاقة توصية حملها معه من قريبه مستشار رئيس الوزراء ان يصل إلى مكتبه .

ـ نعم

وقدم درويش المظروف إليه ففتحه ونظر إلى عنوان الكتاب وفهرس محتوياته .

ـ « أصل السلالات » .. أيمكن لسيادتك إعطائى فكرة عن الموضوع بإختصار شديد .

أجابه درويش فى حماسة وقد عاد الأمل يداعبه من جديد :

ـ نعم .. فى الكتاب عرض لنظرية جديدة هى نظريه النشوء والارتقاء ، وخلاصتها أن كافة أشكال الحياة الكثيرة والمتنوعة على الأرض ، بما فى ذلك الإنسان نفسه ، قد تهيأ لها على مدى زمان طويل أن تنشأ وتتطور من نسب أو أصل مشترك عن طريق الانتخاب الطبيعى ، وفى إطار عوامل بيئية مختلفة ككمية الغذاء والماء المتوافرة ، ودرجة الحرارة والضغط .. فزيادة النتاج فى الحيوان والنبات ينشأ عنها صراع من أجل البقاء ، وفى سياقه لا يبقى على قيد الحياة سوى تلك الكائنات التي يكون تكيفها مع البيئة أفضل ، وبذلك تتكاثر ، فى حين ينقرض غيرها من الكائنات التى عجزت عن ملائمة نفسها للحياة التى تحياها ، وللبيئة التى تعيش فيها .

سكت المدير مدة بعد سماعه إلى هذا العرض وهو يعبث بمسطرة أمامه على المكتب .. ثم نهض من مكانه ليجلس على مقعد وثير فى مواجهة الأستاذ درويش ..

ـ جميل .. الكتاب لا شك لا يخلو من الأهمية .. وسيشرفنى أن أنشره خاصة بعد هذه التوصية من الأستاذ حمزة درويش الذى لا أستطيع أن أرد له طلبا .. غير أن هناك مشكلتين .

ـ وهما ؟

ـ الأولى أن خطة العام الحالى فى النشر قد تم بالفعل اعدادها ولا سبيل إلى إدراج كتابك فيها .

ـ العام القادم إذن ؟

ـ ربما .. وإن كان الأمر قد يكون صعبا بالنظر إلى أننا قد وعدنا الأستاذ ثروت أباظة بأن تتضمن خطة العام القادم نشر المجموعة الكاملة لرواياته .. وهى من ضخامة الجثة كما تعلم بحيث قد تستنفد معظم حصتنا من الورق ومن ميزانية نشر الكتب الجديدة ...

ـ روايات ثروت أباظة ؟ !!!!

ـ نعم .

ـ والمشكلة الثانية ؟

ـ المشكلة الثانية خاصة بالأزهر واحتمال اعتراضه على نشر الكتاب وتوصيته للسلطات المعنية بمصادرته ، وهو ما سيجر المتاعب علىّ بالتأكيد فى وقت قد يجرى فيه تعديل وزارى .

ـ مادخل التعديل الوزارى فى موضوع كتابى ؟

ـ ما علينا .. أنت فى كتابك ـ كما فهمت من عرضك لمحتواه ـ تذهب إلى أن الإنسان قد تطور على مدى زمان طويل من أصل يشترك فيه مع حيوانات أخرى .

ـ نعم.. القردة .

ـ وهذا يتعارض تعارضا صريحا مع ماورد فى الكتب السماوية عن قصة خلق آدم وحواء ... قد نضطر إلى أن نطلب منك حذف بعض الفصول

وتعديل البعض الآخر حتى لا توقعنا وتوقع نفسك فى مشكلة نحن فى غنى عنها .

ـ أؤكد لك أن شيخ الأزهر وعلماء الدين لن يقرأوا هذا الكتاب .. هم لا يقرأون فى البيولوجيا .

ـ أعرف ذلك .. لا فى البيولوجيا ولا فى أى شيء آخر .. هم أيضا لم يقرأوا رواية « آيات شيطانية » لسلمان رشدى التى أدانوها بكل عنف ، غير أن هذا لم يحل دون وصول الخبر بمحتواه إليهم .. ما أخشاه هو أن يصل خبر محتوى كتابك أيضا إليهم فيأمروا بمصادرته ، ونضطر إلى سحب نسخه وايداعها مخازن المؤسسة ، وهى دون كتابك مكتظة فعلا بالكتب غير المباعة.

ـ ولكن الصحف ذكرت فى معرض احتفالها بالذكرى العاشرة لتولى حسنى مبارك الرئاسة أنه لم يصادر فى عهده كتاب قط .

ـ نعم .. الصحف ..

ـ أليس هذا صحيحا ؟

ـ .. فإن أردت نصيحة أخرى منى فقد تصدّر الكتاب ببعض الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية حتى تطمئن القلوب .. آيات مثل « فلينظر الإنسان مم خلق » ، أو « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا»... لقد لاحظت أنك لم تكتب حتى « بسم الله الرحمن الرحيم » فى صدر الكتاب ... وهو إغفال يثير الشبهات .. ثم نصيحة ثالثة .. إجراءاتنا تقضى بأن يعرض الكتاب أولا على لجنة القراءة لكتابة تقرير عنه والنظر فى إقراره .. أعضاء هذه اللجنة خمسة ، مرتباتهم ـ كمرتبات سائر موظفى الدولة ـ ضعيفة ، ولا سبيل أمامهم إلى العيش إلا بزيادة دخلهم عن طريق مايجود

به المؤلفون عليهم قبل كتابة التقارير عن كتبهم ... فهمتنى ؟

ـ نعم .

ـ شخشخ إذن جيبك إن أردت أن ترى اللجنة كتابك صالحا للنشر .
وأعاد المدير المظروف إلى الأستاذ درويش قائلا له :

ـ خذه إلى عطوة أفندى فى الدور الثالث لإعطائه رقما وتسجيله فى دفتر الوارد .. وأعدك بأن أبذل جهدى فى سبيل إدراجه فى خطة العام القادم مع المؤلفات الكاملة للأستاذ ثروت أباظة ...غير أنى غير واثق من إمكان ذلك.

٤

لم يشخشخ الأستاذ درويش جيبه ، ولا هو نزل إلى الطابق الثالث لمقابلة عطوة أفندى .. وإنما توجه رأسا إلى منزلى متأبطا مظروفه الضخم ليخبرنى وهو يكاد يبكى بالقصة كلها ، وليطلب منى النصيحة ، خاصة أني كنت قد قرأت المخطوطة وأعجبت بها إعجابا شديدا .

وكان رأيى أن نتولى ـ أنا وهو ـ ترجمة الكتاب إلى الإنجليزية ، وإرساله إلى إحدى دور النشر فى إنجلترا للنظر فى إمكان نشره . وقد استغرقت ترجمة الكتاب وطبعه على الآلة الكاتبة نحو خمسة أشهر .. فما مضت ثلاثة أسابيع على إرسالة إلى دار مكميلان فى لندن ، حتى جاء الرد با لموافقة على النشر مع رسالة ثناء عاطر على الكتاب من مدير الدار .. وقد صدر الكتاب بالفعل فى لندن فى الأسبوع الماضى بعنوان :

The Origin of Species

مسكن لكل مواطن !

١

سَرِّح الطرف أينما شئت : عمارات شاهقة ترتفع فى كل مكان .. فى كل شارع .. فى كل خرابة وأرض فضاء .. الفيلات الجميلة الأنيقة ذات الطابق الواحد أو الطابقين تتطاول بفضل ربّ صاحبها إلى عشرة طوابق أو أكثر ، وتقام مكان حديقتها الواسعة عمارة مماثلة تحجب الضوء والرؤية عن الأولى .. إن انهار المبنى على سكانه بسبب إضافة بعض الطوابق فى أعلاه ، أو فى إزالة أعمدة الخرسانة المسلحة فى سافله (للتمكين من فتح سوبر ماركت أو جراج عمومى) ، فسرعان مايقوم على أنقاضه مبنى جديد .. والحركة دائمة لا تتوقف ، تشهد بأننا على أبواب عصر جديد ، عصر البناء والتعمير ، عصر تشييد صرح وطن خليق بأهله ، عصر الرخاء الذى وعدتنا به حكومتنا الموقرة ، وتوفير المأوي لكل مواطن .

تعداد سكان البلد قد وصل إلى ٥٨ مليون نسمة ؟ لا بأس .. كل الشواهد تشير إلى أنه فى بحر سبعين عاما ، أو ستين ، أو ربما أقل ، سيكون لكل مواطن غرفة كاملة خاصة به .. فإن خفت سرعة تزايد النسل ، ونجحت دعايات تنظيم الأسرة ، وأفلحت كريمة مختار فى إقناع مشاهدى التليفزيون باستخدام وسائل منع الحمل ، وأباح القانون الإجهاض ، ونشبت حروب تقضى على عدد غفير من السكان ، وانتشرت أوبئة تنقل ثلث أهل البلد للسكنى فى العالم الآخر ، فربما أصبح لكل مصرى خلال مدة لن تزيد

بأى حال من الأحوال على قرن واحد ، غرفتان .. أو حتى ثلاث .. .. ثلاث غرف لكل مواطن ! وحمام .. ينام فى غرفة ، ويستقبل ضيوفه فى الثانية ، وشىء آخر فى الثالثة ، ويقضى حاجته فى الحمام .. أهناك ماهو أروع من ذلك ؟ حينئذ يتفرغ صاحبنا للإنتاج دون عائق ، وبذهن رائق ، ويسهم مساهمة إيجابية فى بناء صرح الحضارة المصرية الحديثة .. أى حلم سعيد هذا! وأية فرحة أيها المواطنون هى أعظم من هذه الفرحة بالكنوز التى يخبئها لنا المستقبل فى طياته !

* * *

هذا عن المستقبل ... أما عن الحاضر فلا بد من الإقرار بأن الأوضاع فيه مختلفة بعض الشىء .. صعبة إلى حد ما .. ربما بسبب ارتفاع الخلو وأسعار التمليك..

وأنا واحد من أولئك الذين يعانون من صعوبة الوضع الراهن ، وإن كان إدراكى للطابع الوقتى العارض لهذه الأزمة ،واطمئنانى التام إلى المستقبل ، (فأنا متفائل بطبعى) ، يخففان كثيرا من هذه المعاناة ...

٢

وصلت إلى القاهرة قادما من كفر الحصافة بعد أن تلقيت إخطارا بتعيينى فى وظيفة بوزارة الأوقاف .. وكان علىّ أن أبدأ بالبحث عن مسكن .. ظللت لمدة أسبوعين أو ثلاثة أجوب شوارع شبرا وبولاق وامبابه ومصر القديمة والحسين ، حاملا حقيبتين أودعتهما كل ما أملك من متاع الدنيا، وتاركا لحيتى تطول .. غير أن الجو ، لحسن الحظ ، وبفضل من الله ، كان

رائعا ، مما سمح لى بالمبيت على دكة خشبية فى حديقة عامة .. استيقظت يوما فاكتشفت سرقة احدى الحقيبتين أثناء نومى . غير أنى لم أجزع كثيرا . فالمشى أسهل حيث تخف الحمولة ... صحيح أنى أبلغت أحد أقسام الشرطة بواقعة السرقة ، غير أن ما تعرضت له يومها فى القسم من البهدلة ، جعلنى أقرر ألا ألجأ فى حياتى إلى الشرطة لمساعدتى ، حتى ولو سرقت الحقيبة الأخرى .

المهم أننى عثرت فى النهاية على مسكن .. فى بولاق الدكرور .. توقفت عند احدى العمارات لأسأل البواب ، عم بدوى ، عما إذا كان فيها شقة للإيجار .. وإذ ظل يتأملنى بعض الوقت دون أن يجيب ، انتعش فى صدرى الأمل ، وشجعنى صمته على أن أبرز له بطاقة تحقيق الشخصية وأن أتلو عليه قرار التعيين بوزارة الأوقاف .

قال وهو يهرش مؤخرة رأسه من تحت عمامته :

ـ شقه مفيش .. غير أن باستطاعتى أن أؤجر لك حمام الخدم فوق سطح العمارة .. ولن تجد فى المنطقة كلها مسكنا أفضل من ذلك .. المياه فيه متوافرة دائما وتحت أمرك ، وكذا التواليت وبانيو من الصاج ... صحيح أنه لا نافذة فيه ، غير أن هناك بابا تفتحه إن شئت التهوية ... وبوسعك كلما رغبت أن تملأ البانيو إلى آخره ، وأن تغطس فيه ، وتقضى فيه يومك بأكمله إن أحببت.

قلت :

ـ يا عم بدوى ، أنا لست سمكة فأكون فى حاجة إلى الغطس فى الماء طوال اليوم ... والحقيقة أنى (بينى وبينك وماخبيش عليك) أفضل العيش على البر .. ماعلينا .. كم الإيجار فى الشهر ؟

ـ ثلاثون جنيها .

ـ ألا يمكن تخفيض المبلغ بسبب الرطوبة ؟

ـ مستحيل .. كان بودى أستاذ حسين ، ولكن الأمر ليس بيدى .. صاحب العمارة مصمم .. وعلى أى حال فإنه يمكنك أن تعتبر نفسك محظوظا أن عثرت على هذا المسكن وبهذا السعر .. فالواضح أنك رجل أمير ونيتك طيبة .. ولو كنت مكانك لقبلت يدى وجها لظهر.

ـ وهو كذلك .. ما فى اليد حيلة .

ـ والدفع مقدما .

ـ تفضل ... ثلاثون جنيها .. مضت علىّ ثلاثة أسابيع وأنا أجوب شوارع القاهرة على قدمى ، وأخشى أن أتعب فى نهاية الأمر .

٣

سكنت حمام الخدم بسطح العمارة ، وتسلمت العمل بوزارة الأوقاف ، وشرعت فى ترتيب شؤون حياتي الجديدة فى القاهرة .. والواقع أنى وجدت المسكن ممتازا حقا ، لا بأس به على الإطلاق ، وقضا أخف من قضا ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .. بانيو ، حوض ، تواليت ، ماء متوافر معظم الوقت ، حنفيات .. ممتاز حقا ... قد يكون ضيقا بعض الشيء ولا مكان فيه للجلوس إلا على حافة البانيو أو على المرتبة التى فرشتها بينه وبين التواليت ، غير أنه ـ فيما عدا ذلك ـ كان مريحا إلى حد معقول ، خاصة بعد تركيب بعض الألواح الخشبية لوضع حاجياتى وآنيتى وأطعمتى ووابور الجاز عليه.

بعد شهرين أو ثلاثة من سكناى بالحمام تزوجت .. بكرا في الثانية

والثلاثين، قد يكون من الصعب وصفها بالجمال ، غير أن روحها حلوة ، ودمها خفيف ، متواضعة ، وشديدة التحمس مثلى لإنجازات حكومة الحزب الوطنى...كنت أخشى حين عرضت عليها فكرة الزواج أن ترفض متى علمت أنى أسكن فى حمام الخدم بسطح إحدى العمارات .. غير أنها لم ترفض .. فهى فقيرة ، تكاد أن تكون معدمة ، وتخشى مع سنها أن يفوتها قطار الزواج ، ثم ماهو فوق أى اعتبار آخر ، ما جمع بين قلبينا من توجهات حزبية .

قطبت جبينها بعض الوقت حين أخبرتها بأمر الحمام ، غير أنها سرعان ماقالت :

ـ ولم لا ؟ الألوف المؤلفة تسكن بين قبور سفح المقطم ، والكثيرون سيحسدوننا على مسكننا وعش حبنا .. أتعلم أن الأثرياء الأمريكيين يسكنون عادة فوق أسطح العمارات ، فى شقق يسمونها « بنت هاوس » ؟ على أى حال ، فالمهم ـ كما يقولون فى أغانى الإذاعة والتليفزيون ـ هو الحب .. ولكن .. ألا يمكن تقسيم الحمام بإقامة حواجز خشبية فيه ، فنجعل موضعا منه مكانا للنوم ، وآخر حجرة للطعام ، إلى آخره؟

قلت :

ـ ربما .. وقد فكرت بالفعل فى ذلك وقت أن سكنت فيه .. غير أن المشكلة هى أن الخدم الملاعين بشقق العمارة ـ وهم لعلمك يستخدمون الحمام من آن لآخر ـ يرفضون إدخالى أى تغييرات فيه .

أجابت فى حزم:

ـ وهو كذلك .. نقبل الأمور إذن على ماهى عليه .

٤

بعد عشرة أشهر من الزواج رزقنا بصبى أسميناه « كمال » تيمنا بكمال الشاذلى الأمين العام المساعد للحزب الوطنى ... كنا نحميه فى البانيو كل يوم دون أن يصاب ولو بمرة واحدة ببرد وزكام .. بل وأحيانا مرتين فى اليوم الواحد .. وهو امتياز لا يتمتع به الكثيرون غيرنا حتى من بين الأغنياء .. إذ من ذا الذي يحمى ولده مرتين فى اليوم ؟ غير أننا أردنا استغلال وضعنا المتميز إلى أقصى حد ممكن .

مشكلة واحدة فحسب كانت تنغص علينا ـ إلى حد ما ـ سعادتنا فى عش حبنا ، ألا وهى استخدام خدم العمارة للحمام بعد انتهاء ساعات عملهم فى المساء ... كان عددهم اثنين وثلاثين ... كلما احتاج أحدهم إلى استخدام الحمام اضطررت أنا وزوجتى وابنى كمال إلى إخلائه والخروج إلى السطح للإنتظار ريثما يخرج فنعود ، تاركين الباب مفتوحا بعض الوقت لتهوية المكان من الرائحة ... وأحيانا كان البعض يوقظنا ونحن نيام ، أو يعكر علينا صفو حالة عاطفية معينة ، فنترك الفراش ونخرج إلى السطح، وهو أمر لا بد من أن أعترف بأنه كان مزعجا بعض الشىء فى أيام الشتاء والبرد . وكثيرا ما طلبت من هؤلاء الخدم ـ بكل أدب ورقة ـ أن يقدروا موقفنا ووضعنا ، وأن يقللوا قدر الإمكان من التردد على مسكننا باستخدام حمام البواب فى البدرون مثلا ، أو حمامات الشقق التى يعملون بها .. غير أن معظمهم رفض ، بل وكان البعض من الوقاحة وقلة الأدب بحيث انهال علينا بالسب وهددنا بالضرب .. فما عساى أن أصنع إذن غير أن آخذ

بنصيحة زوجتى الحكيمة ، و « أقبل الأمور على ماهى عليه » ؟

٥

بعد بضعة أسابيع من ولادة « كمال » فوجئت بحماتى وقد جاءت من منوف لزيارتنا .

قالت لى :

ـ كنت دائما أحلم بأن يكون لى حفيدا أهشكه وأدلله وأضمه إلى صدرى .. فهل تأذنون لى بالإقامة معكم بعض الوقت ، أتمتع به وأكحل به عينى ؟

أجبتها وقد انشغلت زوجتى بفرش مرتبة صغيرة لها إلى جانب مرتبتنا :

ـ وما المانع ؟ أهلا وسهلا بك .. هشكيه ودلليه وضميه إلى صدرك كما تحبين .. بل ويمكنك أثناء غيابى فى الوزارة أن تملأى البانيو وتغطسى فيه مع حفيدك ساعة أو ساعتين .

غير أنى بعد وصولها بشهرين أو ثلاثة لم أملك إلا أن أنحنى على أذن زوجتى لأهمس فيها :

ـ خبرينى .. هل لديك أقارب آخرون ينوون زيارتنا فى المستقبل القريب؟ إن كان هناك منهم من ينوى الزيارة فخبّرينى من الآن حتى أجرى الإستعدادات المناسبة .

قالت :

- ليس لدى غير أخى الأصغر صلاح الذى ينوى زيارتنا فى العيد الكبير...

* * *

وإذ لم أكن على علم بأن لها أخا أصغر إسمه صلاح ، وبأنه يعتزم المجيء إلينا لقضاء إجازة العيد ، فقد خرجت فى صباح اليوم التالى من مسكنى ، وركبت الأتوبيس من فورى من ميدان التحرير إلى كفر الحصافة ، حيث أقيم الآن وحدى منذ عامين أو ثلاثة .

يا دار ميمى

● سيادة العقيد ، أود أولا أن أهنئكم على تعيينكم وزيرا للثقافة فى التعديل الوزارى الأخير .

** الله يبارك فيك .

● وأن أعبر عن إعجابى الشديد بروايتكم الجديدة « فاطمة الغلبانة» التى سمعنا أمس أنه سيجرى إعدادها للسينما .

** نعم . . وسأكتب لها السيناريو بنفسى .

● سيادة الوزير ، أبدأ بسؤالكم عما إذا كان قرار تعيينكم فى هذا المنصب الخطير قد جاء مفاجئا لكم .

** لم يجىء مفاجأة على الإطلاق .. لقد كنت دائما ، ومنذ صباى ، أومن بأن مستقبلى الحقيقى سيكون فى عالم الأدب والثقافة . وما كان التحاقى بالكلية الحربية إلا لضمان تعيينى فى المنصب الخليق بى فى الميدان الثقافى ، وضمان توزيع كتبى التوزيع الذى هى أهل له ، وإعداد رواياتى للسينما والمسرح .

● هل لى أن أسأل عن سر هذا الإيمان الذى تقول إنه رافقك منذ صباك؟

** سأخبرك .. فى يوم من الأيام ، وأنا بعد طالب فى السنة الأولى من الدراسة الثانوية ، وأثناء انتظارى لعودة أبى إلى البيت كى أخرج معه ليشترى لى حذاء جديدا ، وقع فى يدى بمحض الصدفة (والحكمة من القدر) ترجمة حافظ إبراهيم للرواية الخالدة « البؤساء» للشاعروالروائى الفرنسى فيكتور هيجو . فإذا بى ألتهم الصفحات التهاما ، حتى سمعت والدى ينادينى .. وقد حزنت جدا إذ عاد مبكرا فقطع علىّ قراءتى ، لدرجة أنى تمنيت أنى لم أطلب منه شراء حذاء جديد .

● لهذه الدرجة ؟

** نعم .. وبوسعك أن تقول إن شعورى الواعى فى تلك اللحظة ـ لحظة سماع والدى ينادينى ـ بتفضيلى التلقائى لفيكتور هيجو على الحذاء الذى كنت فى حاجة ماسة إليه ، هو العامل الحاسم الذى جعلنى أدرك طبيعة رسالتى الحقيقية فى الحياة .. أسبوعان كاملان ظللت ألح أثناءهما على والدى أن أشترى حذاء جديدا ، ثم يأتى الأدب فيرفعنى فوق مستوى الإحتياجات المادية الأرضية .

● لهذه الدرجة ؟!

** نعم .. وكانت هذه هى نقطة التحول فى حياتى .. مجرد صدفة .. بمعنى أنه لو كان أبى يومئذ عاد مبكرا نصف ساعة لكان لى تاريخ غير هذا التاريخ .

● ثم واظبت على القراءة منذ ذلك الحين ؟

** بكل تأكيد .. ليس هناك فى الدنيا ماهو أحلى من المعرفة والاطلاع... أتممت الجزء الأول من « البؤساء» ، ثم قرأت « يوميات نائب فى

الأرياف » ومسرحية « أهل الكهف » لتوفيق الحكيم، و « الأيام» لطه حسين ، و «مجدولين» للمنفلوطى» ، وأقرأ الآن بعض القصص القصيرة لسمرست موم باللغة الإنجليزية ... آه ، نسيت ! وقرأت أيضا الترجمة العربية لرواية أوسكار وايلد « صورة دوريان جراى» ، كما شاهدت الفيلم الأمريكى «الأخوة كارامازوف» للكاتب الروسى العظيم ليو تولستوى .

● أي كتاب من بين هذه المجموعة الضخمة من الكتب يمكنك القول بأن أدبك قد تأثر به أكثر من غيره ؟

** مجدولين للمنفلوطى بدون أدنى شك .. كان الطلبة يسخرون منى إذ يروننى أحضر هذه الكتب إلى المدرسة وهى غير مقررة علينا ولم نكن مجبرين على قراءتها . وكان أستاذ اللغة العربية يسمينى « القرّاءة» ، وينصح زملائى من التلاميذ بأن يحذوا حذوى .. فما أن التحقت بالكليه الحربية حتى شعرت بأن الوقت قد حان للانتاج بعد أن أتممت إعداد الأساس اللازم .

● فما هو أول إنتاجكم ؟

** جربت قلمى فى الشعر فى بداية الأمر . فكتبت قصيدة فى وصف الدبابة ، مدحها وقتها اللواء سعد عبد الدايم مدحا رفعها به إلى السماء ، وقال لى إن نظرته إلى الدبابات تغيرت منذ ذلك الحين ، وبات ينظر إليها نظرة أكثر إنسانية ، بينما كان يعتبرها قبل ذلك مجرد سلاح حربى ... شبهتها بكوخ من فولاذ تحركه قوى خفية غير منظورة ..

● رائع !

** ثم كتبت فى الغزل .. كنت وقتئذ مغرما بفتاة تسكن فى مواجهة منزلنا وتدعى ميمى ... حب مراهقين لا شك ، غير أن قصائدى فيها ـ رغم

عدم نضجها ـ لا تزال حتى اليوم أقرب أعمالى إلى قلبى، أقرب إلى قلبى حتى من روايتى « وداعا ياشهيرة » ، وروايتى « سأبكى حتى تعودى يا ليلى».. هل قرأتها ؟

● بالتأكيد .

** نعم .. هى أقرب إلى قلبي بالنظر إلى صدق العاطفة فيها ، ثم لأنها تذكرنى ـ كما تعلم ـ بشبابى الأول .

● هل تذكر بعض أبيات منها ؟

** دعنى أتذكر .. كنت قد نظمتها على وزن معلقة أمرىء القيس «قفا نبك».. نعم تبدأ هكذا :

يـــاعين فابكـــى بللـــى قلبـــا ذوى

فالدمع يشفى من جراح القاتل

وابكى حزينا هدّه رشف الهوى

قتـــل الســـرور وحزنـــه لـــم يقتل

لاحظ أثر مهنة الإنسان فى شعره وتردد كلمة « القتل» ... ها ها !

عجبـــا لقلبـــى ! كيـف يبقـــى سابحـــا

وسط الدموع ؟ أفى السعادة يأمل ؟

لا يـــادموعـــى ، فاحفـــرى قبـــرا لـــه

إن السعـــــادة فـــــى الزمـــــان الأول

تستطيع أيضا أن تقول : « فى الزمان الزائل ».

فينـــوس ويحـــك !

كنت وقتها أقرأ في الأساطير اليونانية لأطعم شعرى بالتشبيهات الأدبية.

فينوس ويحك ! قد خجلت أمامها

ونزلت عن عرش الجمـــال الأفضـل

ثم استعنت بخيال الشاعر لتفسير إحدى الظواهر الطبيعية الغامضة ، وهى ظاهرة كبر حجم القمر تدريجيا ثم تضاؤله :

والبدر يكبر فى السماء ويزدهى

حتـــى يـــرى نـــور الحبيب فيأفـل

ثم أحذو حذو النمط الكلاسيكى فى البكاء على الأطلال :

يادار ميمى ، فانظرى ذاك الذى

يـــرنو إليـــك بقلبـــه المتأمـــل

مهما صنعت من القصائد سلما

سأرى الحبيب إلىّ ينظر من علِ

إلى آخره ..

● روعة !

** كان طلبة الكلية الحربية ينقلون القصيدة فى كراريسهم ويرددونها على مسامع حبيباتهم على أنها من نظمهم هم ! ها ها ! هذا طبعا بعد أن يستبدلوا بميمى أسماء صديقاتهم : يادار فيفى فانظرى ! أو ، يادار شوشو فانظرى ذاك الذى .. أذكر مرة أن أحدهم ظل مبتئساً لأن صديقته كان

اسمها خديجة مما يكسر البيت بطبيعة الحال إن استخدمنا هذا الإسم فيه . فجاء إلىّ يرجونى أن أغير من البيت ليلائم الإسم .. وبالفعل ، غيرته إلى :

أفيا خديجة فانظرى ذاك الذى ..

ها ها ! لا يمكن أن تتصور مدى فرحته وسعادته .. هل أخبرك بسر ليس للنشر ؟ أتعرف من هو هذا الشخص صاحب خديجة ؟ هو حاليا رئيس تحرير مجلة « الثقافة الجديدة ».. ها ها ها ! وكلما قابلته الآن فى نادى الجزيرة تذاكرنا الماضى ، وكيف صفعته خديجة هذه على وجهه عندما حاول أن يقدم القصيدة إليها فى مظروف وهى فى طريقها إلى المدرسة مع خادمتها ... ها ها ها ! نعم ... هذه القصيدة هى أحب أعمالى إلى قلبى .. هل أخبرك بسر آخر ليس للنشر ؟ رئيس تحرير « الثقافة الجديدة » هذا كان شديد الأمل قبل التعديل الوزارى الأخير فى أن يصبح هو وزيرا للثقافة ... عبده بك مشتاق! ها ها ها ! وقد رأى أن يمهد لهذا التعيين فكتب على مدى عدة أسابيع قبل اجراء التعديل - وبمناسبة ذكرى مرور عشر سنوات على تولى السيد الرئيس للحكم - سلسلة من المقالات فى مجلته عن فضل السيد الرئيس على الثقافة المصرية ، وصفه فيها بأنه راعى الآداب ، وحامى حمى الفنون ، وعاشق الأوبرا ، وراهب الباليه ، وعابد الموسيقى ، إلى آخر هذه الأوصاف . ثم جاء التعديل الوزارى بتعيينى أنا دونه ، فتوقفت السلسلة فجأة رغم إشارته فى ختام مقالته « عابد الموسيقى» إلى أن المقال القادم سيتناول غرام السيد الرئيس بالرسم والنحت .

المهم فى كل هذا هو أنه فى نهاية الأمر لا يصح إلا الصحيح ، وأنه مما يبعث على الطمأنينة والتفاؤل حرص السيد الرئيس على إعطاء كل إنسان

حقه ، وأن يكون الرجل المناسب فى المكان المناسب .. وقد رأى سيادته أننى الرجل المناسب فى هذا الموقع .

● بعض جرائد المعارضة المقززة ـ وللأسف الشديد ـ ذكر أن السبب الحقيقى فى ترشيحكم للوزارة هو أنكم تلعبون الطاولة يوميا مع السيد رئيس الوزراء ...

مارد سيادتكم على هذا الافتراء ؟

** هو كما ذكرت هذا الصباح لمراسل صحيفة « التايمز » اللندية محض افتراء . صحيح أننى ألعب الطاولة مع السيد رئيس الوزراء يوميا من السابعة مساء إلى العاشرة أو الحادية عشرة ، غير أن هذا بالتأكيد ليس هو السبب فى اختيارى ، وإنما السبب الحقيقى هو مؤهلاتى الثقافية رفيعة المستوى .

● سيادة الوزير . هل تعتقدون سيادتكم أن ثورة يوليو ـ بوجه عام ـ أدت خدمات جليلة للحياة الثقافية فى مصر ؟

** لا ينكر هذا إلا جاهل أو خبيث .. قارن بين أفراد جيل ما قبل الثورة وبين جيل أمثالى ممن تلقى تعليمه فى مدارس الثورة فى ظل المناهج التى اختطها رجال الثورة الأفاضل من أمثال الصاغ كمال الدين حسين ، وسيخفق قلبك طرباً وزهوا إذ تتخيل مايبشر به المستقبل من كنوز روحية وخلقية لأبناء هذا الجيل الجديد .. كل شىء تغير مع الثورة : القيم ، الأخلاق ، العلاقات بين الناس ، مفهوم الحياة العقلية ، الفنون ومهمتها ، حتى عند أفراد الجيل القديم .. خذ مثلا أم كلثوم .. بعد أن كانت فى عهد جاهليتها تغنى لفاروق :

الملـك بين يديـك فـى إقباله

عـوذت ملكـك بالنبى وآلـه

أصبحت بعد الثورة من شدة الإيمان بمبادئها بحيث باتت تغنى :

ياجمـال يامثـال الوطنيـة

عبد الوهاب .. بعد أن كانت عقليته من الإظلام والضيق بحيث يغنى لفاروق:

وهى أعيادك بميعاد ؟ دى كل أيامك أعياد

أصبح من الوعي الفكرى ، والنضج العقلى ، والإلهام الفنى ، والتحليق الإبداعى، والإلمام بتيارات التاريخ ، بحيث بات يغنى :

يا جمـال يا جمـال يا جمـال

ثم أى دليل يمكننى أن أسوقه على هذه النهضة وهذا الوعى ، هو أفضل من تحول أغانينا عن طابع الميوعة وعن موضوعاتها الأزلية ، العشق والغرام ، والشوق والهيام ، إلى موضوعات جادة مثل موضوع أغنية عبد الحليم حافظ:

ثورتنـا القوميـة أغراضها الأساسية

إنعـاش الحريـة وعـدالـة إجتماعيـة

ثورتنا ثورتنا

نعم . لم يعد فى بلدنا مكان للأبراج العاجية التى يعيش فيها أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم وأحمد أمين والعقاد ، وبات على الفنان أن ينزل إلى الشعب يشاركه حياته وآماله ، وبالتالى أصبحت ميزة الفن المصرى فى عهد

الثورة أنه ليس بالفن المنعزل عن الجماهير ، وإنما هو فن منبثق من أدنى طبقات الشعب إجتماعيا وثقافيا .

●سيادة الوزير : ماهى المشروعات التى تنوى وزارة الثقافة تنفيذها فى عهدكم ؟

** مشروعات ؟ ماذا تعنى ؟

●أقصد ماهى تصوراتكم وأفكاركم بالنسبة لعمل وزارتكم فى الفترة القادمة ؟

** شوف ياسيدى .. الشعب المصرى هو من حسن الحظ بحيث لا يجد أبدا داعيا لأن يفكر ، لأن الله سبحانه وتعالى أنعم علينا بمن يفكر نيابة عنا، ويعفينا من هذه المهمة الشاقة ... وأقصد بطبيعة الحال السيد الرئيس حسنى مبارك الذى نكتفى جميعا بتنفيذ تعليماته والاسترشاد بتوجيهاته .. أو كما الشاعر العربى القديم ، ولعله المتنبى :

قول مابدا لك   إحنا رجالك

● هذا صحيح . ولكن ، ألم تكن لديكم قبل توليكم الوزارة خطط وأحلام بالنسبة للعمل الثقافى المصرى ؟

** بالطبع ، بالطبع .. أحلام ، نعم .. أولا : السماح بإعداد رواياتى للسينما والمسرح ، وهى كما تعلم روايات أشاد بها النقاد (ومنهم سيادتك) فى صحيفة « مايو» ، واعتبرها فى قمة الثقافة المصرية الرفيعة ، وجديرة بأن تجلب لى فى يوم من الأيام جائزة نوبل للآداب .

ثانيا : السفر إلى الخارج للتعاقد مع الفرق التمثيلية وفرق الباليه والأوبرا

الأجنبية ، ولحضور المهرجانات الثقافية والسينمائية المختلفة ، خاصة فى أوروبا.

وثالثا : التوسع فى بناء المسارح الجديدة من أجل خدمة الممثلين .

● تقصد سيادتكم خدمة الجمهور .

** لا ياسيدى . بل خدمة الممثلين . هل سمعت بأن هناك جمهوراً متعطلاعن العمل ؟ الممثلون هم الذين فى حاجة إلى مسارح جديدة لا الجمهور .

رابعا : وكما نبهتنا السيدة زوجة الرئيس ، أقصد قرينة الرئيس ، ضرورة تشجيع الناس على القراءة .

● سيدى الوزير .. بعض الحاقدين من الكتاب يعجبون من هذه الدعوة إلى القراءة فى الوقت الذى أدت فيه سياسة الدولة الإقتصادية إلى ارتفاع فى أسعار السلع كافة أصبح الناس معه عاجزين عن شراء الكتب (بل والصحف والمجلات) ، وأصبحوا يعتبرونها من الكماليات التى هى خارج حدود إمكانياتهم المالية .. وهم يشبّهون الوضع بوضع رجل يلقى بكومة من القمامة على طفل مار فى الطريق ، ثم تأتى زوجة الرجل لتعاتب الطفل على قذارة هيئته، وتوصيه بالعناية بنظافه ملابسه.

** هؤلاء - كما تكرمت ووصفتهم - قوم من الحاقدين الذين لا يعجبهم العجب .. أية أزمة إقتصادية يعنون ؟ البلد الآن فى وضع اقتصادى هو أفضل منه فى أى وقت من الأوقات ، وأسعار السلع والكتب فى متناول الجميع ، وأرخص من أى بلد من بلدان العالم .. هل تعلم كم بلغ سعر الفواجرا فى انجلترا مثلا ؟ ... يكفى أن تنظر إلى هذا الحشد الرهيب من

السيارات الفخمة فى شوارعنا) وإلى مطاعم الشيراتون والهيلتون والميرديان وهى مكتظة بالرواد ، وإلى الفيلات والقصور التى تقام الآن على شواطىء سيدى كرير وأبو يوسف ومارينا وغيرها ، حتى يهتز قلبك فرحا بهذه الحالة من الرخاء والنعيم التى يعيش فيها الشعب المصرى اليوم ، وحتى تدرك كذب الدعوى بأننا نعيش فى ظل أزمة خانقة خطيرة .. هل هؤلاء الذين تحدثت عنهم الآن عاجزون عن شراء الكتب ؟ إن فى مقدروهم شراء دور نشر بأكملها لا الكتب وحدها .. ها ها ها !

● سيادتكم إذن راضون عن حالة الثقافة فى مصر الآن؟

** بالتأكيد .. وأستطيع أن أجزم بأنه أفضل بكثير من وضع الثقافة فى معظم أقطار العالم ، على حد تعبير الأستاذ مصطفى التهامى فى صحيفة «مايو» وذلك بفضل السياسة الرشيدة الحكيمة التى تنتجها الدولة . وحيث أن الأمور هى الآن على خير ما يرام ، وليس بالإمكان أبدع مما كان ، فإن مهمتى كوزير للثقافة ستكون مهمة يسيرة ، ويكفينى أن أحتفظ بالوضع الراهن على ماهو عليه .

● ألف شكر ياسيادة الوزير على هذا الحديث الممتع ، وبالتوفيق إن شاء الله ...

●● الشكر لله .



غداء عمل غربيّ
وعشاء عمل عربيّ

أتيح لى فى يوليو ١٩٩٠، فى العاصمة الجزائرية ، أن أشهد غداء عمل غربيا، وعشاء عمل عربيا، فى يوم واحد...

* * *

فأما الغداء فكان فى دار السفير الإيطالى، دُعى إليه كافة سفراء دول المجموعة الأوربية، وسفير واحد من كل منطقة أخرى من مناطق العالم، (اختارنى ممثلا للمجموعة العربية)، بالإضافة إلى الأمين العام لوزارة الخارجية الجزائرية (ضيف شرف). وكان الغرض من غداء العمل هذا الاستماع أولا إلى عرض من الأمين العام لنتائج الانتخابات البلدية والولائية الجزائرية التى أحرزت فيها الجبهة الاسلامية للإنقاذ نصرا عظيما لم يكن يتوقعه أحد، ثم مناقشة السفراء للوضع الناجم فى الجزائر عن فوز الأصوليين الاسلاميين، واحتمالات وصولهم إلى الحكم بعد حل المجلس الشعبى الوطنى وإجراء انتخابات عامة، وتأثير ذلك فى علاقات دول المجموعه الأوربية بالجزائر، وفى حجم استثماراتها بها، والقيود التى من المحتمل أن تفرضها من الآن على هجرة الجزائريين إليها.

وقفنا فى حلقات بالصالة قرابة ربع ساعة ريثما يلتئم الجمع، بينما طاف الجارسونات على الحاضرين بكؤوس البيرة والويسكى والكامبارى وعصير

الفواكه.. وإذ لمحنى سفير السويد اقترب منى ليسألنى:

– أيهما العيد القومى للجزائر: ٥ يوليو أم أول نوفمبر؟

قلت: كلاهما فيما أعتقد: الأول عيد استقلال الجزائر ، والثانى ذكرى نشوب الثورة.

– أيّهما أهمّ عند الجزائريين؟

– فى الحقيقة لا أدرى. ربما كانا فى مرتبة واحدة.

– آه ! مشكلة !

– أية مشكلة؟

– بعثَتْ إلىّ حكومتى يوم أمس بهذا السؤال حيث أنه غير مصرّح لملك السويد ــ اقتصادا للنفقات ــ بأن يبعث إلى رئيس أية دولة إلا ببرقية تهنئة واحدة فى العام الواحد. وعلينا الآن ــ إن كان العيدان فى منزلة واحدة ــ أن نختار بين ٥ يوليو وأول نوفمبر.. أيهما أهمّ فى رأيك؟

قلت فى نفسى وأنا الضاحك الباكى: ملك دولة غنية كالسويد ممنوع عليه أن ينفق من مال الشعب إلا على برقية واحدة، ورؤساء دولنا ذوات الاقتصاد المتداعى يرسلون إلى إخوانهم من رؤساء العرب والمسلمين فى العام الواحد برقيات تهنئة بعيد الاستقلال، وعيد الثورة المجيدة، وعيد الفطر المبارك، وعيد الأضحى ، وذكرى المولد النبوى الشريف، وحلول شهر رمضان المعظم، ومطلع العام الهجرى، ورأس السنة الميلادى... ولولا أن «كُثر السلام يقلّ المعرفة» لأرسلوا التهانى بمنتصف شعبان، وليلة القدر، وعيد ميلاد الرئيس، وذكرى مرور عشر سنوات على تولّيه الحكم، وخمس

عشرة سنة على نجاته من حادث سيارة، وسبعة أعوام على شفائه من زكام أصابه، وثلاث سنوات على استئصال كيس دهنى تحت إبطه .

* * *

دلفنا إلى حجرة الطعام، وأخذنا أماكننا حول المائدة الطويلة التى جلس فى مكان الصدارة منها أمين وزارة الخارجية الجزائرية. وقُدّم إلينا الحساء فاحتسيناه. فما وُضِعت أمامنا أطباق الكانيلّونى وانسحب الخدم، حتى وقف الأمين العام ليدلِى بعرضه للموقف، تاركا الطعام أمامه دون أن يمسّه؛ بينما أعرناه أسماعنا فى أنتباه ونحن نأكل متباطئين.

كان ملخص خطابه أن البعض خارج الجزائر وداخلها يحاول تشويه صورة الأوضاع الجزائرية الراهنة بعد انتخابات ١٢ يونيو، فيدعى أن البلاد على شفا حرب أهلية، أو أنها مقبلة على نظام كنظام الخمينى.

وبإمكانه أن يؤكد أن الجزائر لن تكون إيران أخرى، وأن الوضع لا يعدو أن يكون ممارسة حرّة لإرادة الشعب الجزائرى فى ظل من الديمقراطية التامة.

«وفى ظننا أن الديموقراطية كل لا يتجزّأ، وأنه لا يجوز تطبيق بعض مقتضياتها دون البعض. وقد كان ثمة من رأى عدم السماح لأىّ حزب دينى بالظهور أو بالاشتراك فى الانتخابات. غير أن هذا الموقف منافٍ للديموقراطية الكاملة. ولذا رأينا أن يشكّل الإسلاميون حزبهم، وأن يدخل هذا الحزب المعركة الأنتخابية».

وقال إن البعض متخوّف من وصول الإسلاميين إلى السلطة. غير أن الجزائر بلد مسلم منذ أربعة عشر قرنا، والاسلام جزء لا يتجزأ من هوية شعبه، وكان دائما عنصرا أساسيا فى نضاله ضد المستعمر.. وعلى أى حال

فإن الانتخابات التى جرت انتخابات محلية (بلدية وولائية)، وليست سياسية فى المقام الأول. أما الانتخابات التى ستنعكس نتائجها حقا على الوضع السياسى فهى انتخابات المجلس الشعبى الوطنى.

«لقد ظهر للقيادة الجزائرية منذ عام ١٩٨٠ ضرورة إجراء إصلاحات سياسية واقتصادية عميقة فى النظام. غير أن افتقار الجزائر إلى الكوادر أخّر الإجراءات السياسية، كما أن الرخاء الناجم عن ارتفاع أسعار النفط أخّر من ضرورة الإجراءات الاقتصادية. ثم ظهرت حتمية الإصلاح علي نحو ملحّ عام ١٩٨٥. غير أنه لأسباب معينة تأخّر مرة أخرى حتي سنة ١٩٨٨.. والكثيرون يعتقدون خطأ أن اضطرابات أكتوبر ٨٨ هى التى دفعت النظام فى طريق الإصلاح الدستورى والسياسى والاجتماعى والاقتصادى. فالواقع أننا كنا نعتزم قبل هذه الأحداث أن نشرع فيه فور انعقاد الاجتماع الموسّع لجبهة التحرير الوطنى فى نهاية ٨٨.»

وختم الأمين العام حديثه بقوله: إن الشعب الجزائرى أظهر إرادته فى انتخابات يونيو ٩٠. فإن كانت قد حدثت بعض التجاوزات والممارسات الخاطئة، فإن سببها هو حداثة عهد الجزائر بالنظام الديموقراطى. غير أن الدولة تملك من الإمكانات ما يجعلها قادرة على الحيلولة دون قيام أى حزب أو شخص بتجاوزات خطيرة تتعدّى الخط الأحمر. أما التجاوزات الهيّنة فليس بوسع الدولة أن تحيط بها جميعا .

ثم جلس الأمين العام. وإذ سمع الجارسونات فى الخارج تصفيق السفراء له، دخلوا يرفعون أطباق الكانيلّونى، ويقدّمون لكل منا طبقا جديدا به

قطعة صغيرة من اللحم وبعض الخضراوات المسلوقة والسلطة. فما فرغوا حتى عادوا إلى الا نسحاب من الحجرة من جديد. ووقف السفير الإيطالى ليتكلم، تاركا بدوره الطعام أمامه دون أن يمسّه، بينما شرعنا نحن نأكل فى بطء، ونسمع ما يقول.

بدأ بشكر الأمين العام على حديثه. ثم قال: إنه بالرغم من اتفاقه معه على أن الشعب الجزائرى عبرّ فى هذه الانتخابات عن إرادته (وهو ما تُهنأ الجزائر عليه)، فإن لدى دول المجموعة الأوروبية التى يتحدّث الآن نيابة عن سفرائها فى الجزائر عدة تساؤلات ومخاوف، تتطلب الأولى ردودا عليها، والثانية محاولة لتهدئتها، خاصة وقد قررت حكومة إيطاليا على ضوء النتائج وقف استثمار رءوس أموالها ونشاطها المصرفى فى الجزائر، (مع الاقتصار حاليا على التعاون الفنى) إلى حين تبلور الأوضاع واتّضاح مدى احترام الإسلاميين للتعدّدية السياسية وحقوق الإنسان. وأضاف أنه يتوقع أن تحذو حكومات دول المجموعة الأوروبية الأخرى حذو إيطاليا فى هذا الصدد.

ثم قال: إن المجموعة الأوروبية تخشى أن يؤدّى فوز الأصوليين الإسلاميين إلى نشوء حالة من الذعر الشديد لدى غير الأصوليين من المثقفين والتكنوقراط وأنصار الديموقراطية والنساء المستنيرات، مما قد يدفع بالكثير منهم إلى الهجرة إلى أوروبا الغربية التى هى على غير استعداد البتّة لقبولهم..

كذلك فإن البعض يتساءل عن الخطوة القادمة للجيش واحتمال قيام قياداته المعادية للأصوليين بانقلاب ضد نظام الرئيس الشاذلى بن جديد،

يعقبه قمع دموى للحركة الإسلامية وهو ما يهدّد بالتأكيد بنشوب فتن وخلق أوضاع خطيرة غير مستقرة فى جنوب البحر المتوسط، لا يمكن لجيران الجزائرالأوروبيين فى الشمال أن يشعروا بالاطمئنان إزاءها.. كذلك فإنه ليس هناك أدنى شك فى أن فوز الإسلاميين فى الجزائر لن يؤثر فى الأوضاع الداخلية فى تونس والمغرب فحسب، بل وسيمتدّ تأثيره إلى الأوضاع فى دول إسلامية عديدة، من بينها مصر مثلا، التى سينتهز الأصوليون فيها (شأنهم وقت نجاح ثورة الخمينى) فرصة فوز إخوانهم فى الجزائر لتصعيد نشاطهم ضد نظام الحكم، والتهليل للديموقراطية الجزائرية التى أتاحت «للشعب» أن يفرض إرادته، واعتبار تجربة الرئيس الشاذلى «الديموقراطية» مثلا لابدّ من احتذائه فى سائر الأقطار الإسلامية.

ثم تحدّث السفير الفرنسى فقال: إنه بالرغم من وصف الأمين العام للانتخابات بأنها مجرد انتخابات محلّية لا دلالة سياسية لها، وقوله إن فوز الأصوليين إنما جاء نتيجة للوعود التى كالوها للناخبين بتوفير المسكن والعمل وزيادة الأجور وصرف المرتبات للنساء العاملات اللواتى يفضّلن البقاء فى دورهن، إلى آخره، (وهى وعودٌ لن يستطيعوا أبدا الوفاء بها مما قد يؤدى عن قريب إلى انتكاس شعبيتهم، وهزيمتهم فى الانتخابات العامة المقبلة)، بالرغم من ذلك فإنه يعتقد أن بوسع الأصوليين الآن الاعتماد على فوزهم فى هذه الانتخابات المحلية فى القيام قريبا بحركة شعبية من أجل تولّى الحكم، أو فرض موعد مبكر جدا لإجراء انتخابات عامة.

وتبعه سفير ألمانيا الاتحادية الذى عبّر عن شكّه فى نقطتين وردتا فى حديث الأمين العام ، الأولى قوله : أنه ليس فى نية النظام الجزائرى تصدير

التجربة الجزائرية إلي دول أخرى، فى حين أن تصدير الثورة الإسلامية قد بدأ بالفعل فور إعلان النتائج، وأن هذا التصدير لا يتوقف على إرادة النظام أو على قرارٍ منه. والثانية: تركيز الأمين العام على أن عدم السماح للأحزاب الدينية بالتكون أو بالاشتراك فى الانتخابات منافٍ للديموقراطية الكاملة، فى حين أن تجربة ألمانيا مع النازيين الذين وصلوا إلى الحكم فى انتخابات سنة ١٩٣٣ تؤكد أنه من الضرورى جدا، ومن المصلحة، حرمان أعداء الديموقراطية من مزايا الديمقراطية وإلا فإنهم بفاشيتهم سيلتهمون الديمقراطية التهاما وينسفونها نسفا بعد وصولهم إلى الحكم. وفى ظنّه أن فوز الإسلاميين فى الانتخابات الأخيرة نهاية مأساوية للتجربة الديموقراطية الجزائرية التى لم يمض على بدايتها غير عام ونصف العام.

وتبعه السفيرالبلجيكى الذى قال: إن فى تقديره أن فوز الجبهة الإسلامية لن يهضمه البربر والقبائليون فى يُسر وبساطة، وأن حكما إسلاميا فى الجزائر قد يتمخّض فى المستقبل القريب عن تقوية النزعة الإنفصالية القبائلية، خاصة فى ولاية تيزى أوزو حيث لم يفز الإسلاميون فى غير بلديتين، فى حين فاز حزب التجمع من أجل الثقافة والديموقراطية (وهو أمازيغىّ الاتجاه) فى ٤٤ بلدية.

ثم أعقب ذلك ــ أثناء تناول الفاكهة ــ عشرات من الأسئلة حول مستقبل جبهة التحرير الوطنى، ومسئوليتها عن نتائج الانتخابات بسبب عجزها عن تطهير صفوفها من الحرس القديم، وعن تقديم بديل أيديولوجى يستهوي الجماهير، وحول مصادر تمويل الحركات الإسلامية، وموقف بن بيلا من الأحداث الجارية، وحول ما إذا كان الجيش لا يزال يرى نفسه حاميا للدستور من أى اعتداء عليه (كما يرى أمين عام وزارة الدفاع)، أم أن

مهمته مقصورة على حماية الحدود الجغرافية، وأن مهمة حماية الدستور هى من شأن رئيس الدولة والمجلس الشعبى الوطنى وحدهما (كما يرى الرئيس الشاذلى)، وعما إذا كانت نتائج الأنتخابات تنطوى على نسف للاتحاد المغاربى بالنظر إلى ما سينجم عنها حتما من تهديد خطير للأوضاع فى تونس والمغرب... إلى آخره. وهي أسئلة حاول الأمين العام لوزارة الخارجية الجزائرية الإجابة عنها جميعا، مختتما غداء العمل بكلمة فى طول كلمته الافتتاحية جاء فيها:

«إن الرأي قد استقر لدى السلطات الجزائرية خلال عام ٨٩ على أن سياسة القمع إن كانت مجدية فى مواجهة العشرات أو المئات من الأصوليين، فهى غير مجدية فى مواجهة الآلاف المؤلفة بل والملايين. وقد أثبتت التجربة الجزائرية أن دفع الاسلاميين إلى العمل فى الخفاء من شأنه أن يزيد من تعاطف الجماهير معهم، خاصة أن أحد أسباب انتصار جبهة التحرير الوطنى نفسها على الاحتلال الفرنسى كان عملها فى الخفاء. فكان لابدّ من السماح لهم بالظهور إلى السطح وتكوين الأحزاب. وقد اشترطت السلطة عليهم أن يكون لديهم برامج سياسية واجتماعية واقتصادية كاملة، وألا يقتصروا على الجانب الدينى. والسلطة مطمئنة ـ إزاء ضعف حصيلة قيادات الأصوليين من الثقافة السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى أن هذه البرامج المتكاملة لن تقنع الكثيرين بفاعليتها.. كذلك فإن إلتزام الإسلاميين ـ بعد السماح لهم بتكوين الأحزاب ـ باحترام قوانين البلاد، سيسهّل على السلطات قمع المخالفين لهذه القوانين دون أن يثير هذا القمع تعاطف الجمهور معهم. وبالتالي فهم سيظلون دائما خاضعين لأصرم مراقبة.. أضف إلى ذلك أن السماح بقيام أحزاب أخرى قوية من العلمانيين والاشتراكيين

والبربر إلى آخره، سيضطر الإسلاميين إلى توزيع جهودهم في ميادين شتى لمقاومة تيارات متعددة، ولن ينحصر جهادهم فى مقاومة نظام الحكم وحده».

«أما فيما يتصل بتونس، فقد كان الرئيس زين العابدين غير مدرك لاحتمال سماح الجزائر بتكوين أحزاب إسلامية فيها، وكان يتوهّم أن الجزائر ستنتهج إزاء الإسلاميين نفس سياسته، غير أن الأوضاع فى الجزائر غيرها فى تونس ، أولا من ناحية القلّة النسبية للأصوليين فى تونس وضخامة اعدادهم فى الجزائر، وثانيا بحكم تعدد الطبقات فى تونس الذى يسمح باعتماد السلطة فى ضربها للأصوليين (ومعظمهم من البرجوازية الصغيرة) على الطبقات الأخرى المعادية لهم، فى حين أن غياب الطبقية فى الجزائر لا يتيح للسلطات الجزائرية مثل هذه الميزة».

وانتهى غداء العمل الغربى بكلمة من المضيف الإيطالى، أكّد فيها شكره للأمين العام على صراحته ورحابة صدره، وللحاضرين على مشاركتهم الإيجابية فى هذا النقاش المفيد.

* * *

فى مساء اليوم نفسه كنت مدعوا إلى عشاء عمل فى دار سفير دولة الكويت مع سائر السفراء العرب لمناقشة موضوع عمادة السلك الدبلوماسى العربى فى الجزائر.. فأما الدار فهى بدون أدنى شك أفخر مساكن السفراء فى العاصمة الجزائرية ، فرغ مهندسوها وعمالها الإيطاليون من بنائهامنذ نحو عام، وجيء بأثاثها كله ـ بما في ذلك الستائر ـ من ميلانو . وأما الصالون فطوله ثلاثون متراً وعرضه عشرة، وكذا صالة الطعام المحاذية له والتي لا

تقل في اتساعها عن سعة صالات الطعام في أفخر الفنادق اللندنية أو الباريسية . وأماالطعام الذى صُفَّت أطباقه علي بوفيه بطول الصالة تقريباً (لتسعة عشر سفيراً فقط) فحدِّث ولا حرج !

أجّلنا الحديث في موضوع اجتماعنا الي ما بعد تناول الحلوى .وقد كان عشاؤنا علي أربع موائد مستديرة، راعى المضيف في توزيعنا عليهاألا تجمع مائدة واحدة بين سفيرى العراق وسوريا المتخاصمتين ، أو سفيرى ليبياوالأردن المتنافرتين، أو سفيرى المغرب والجمهورية الصحراوية المتعاديتين، وهلم جرا .. غير أن هذا التخاصم والتنافر والتعادى لم يحل دون أن يكون موضوع الحديث على الموائد العربية الأربع موضوعاً واحداً في مثل وحدة الصف العربى : الجنس . وقد كان الضحك للنكات الجنسية التى أطلقها السفراء واحدة إثر أخرى عاما في الموائد جميعاً ، بحيث تلاشت معه الخلافات ، واندثرت الأحقاد، وانحسرت العداوات، وخيّمت علي الكافة ـ إلي حين ـ روح عذبة من الألفة والتضامن والمشاركة الوجدانية .

انتقلنا بعد تناول الحلوى إلي طاولة مستديرة كبيرة جمعت التسعة عشر سفيراً ، وتنقّل الخدم بيننا يصبّون في أقداحناالقهوة أو الشاى ...

بدأ الاجتماع بكلمة من السفير السعودى الذى هو عميد السلك الدبلوماسى الأجنبي في الجزائر .وكان السفير الأردنى طوال حديث السعودى ينظر إلي نقوش سقف الصالة، أو يمازح الجالس عن يمينه أو عن يساره، وذلك بسبب عداوة مريرة بينه وبين السعودى، نجمت عن خصومة رهيبة بين زوجتيهما، نشبت عن عراك خطير فى المدرسة بين أولادهما .

كان ملخص حديث السعودى أن انشغاله بالأعباء الثقيلة لعمادة السلك

الدبلوماسى الأجنبى (باعتباره أقدم السفراء بالجزائر) يحول دون تولّيه أيضاً لعمادة السلك الدبلوماسي العربى الذى كان يشكل في الماضي رابطة انفرط عقدها منذ ثلاث سنوات لأسباب لا داعى للخوض فيها، والذى حان الوقت في اعتقاده لإعادة تشكيلهاأسوة بالرابطة الأوروبية ، والرابطة الأفريقية ، ورابطة أمريكا اللاتينية، إلي آخره. وأضاف قوله إنه حتى لو لم يكن مثقلاً بالأعباء، فهو علي غير استعداد لأن يصدّع رأسه بترأس المجموعة العربية « بعَبَلهاوقرفها، وصراعاتها وخلافاتها، وكثرة القيل والقال بين أفرادها، بالإضافة إلى الصعوبة القصوى فى إقناع أفرادها بالإنتظام في الحضور أو في دفع الاشتراكات السنوية في صندوق الجماعة » .

هنا قاطعه فى برود سفير دولة الإمارات (وهو أيضاً من المبغضين للسفير السعودى بسبب غطرسة الأخير وإدعائه وتعاليه ـ وذلك بالرغم من أن دولتى الإثنين تجمعهما عضوية مجلس التعاون الخليجى)، فقال: إنه يجدر بالأخ السعودى التزام الحيطة فى كلامه، وتجنّب توجه الإهانات للسفراء الحاضرين، وأن عمادته للسلك الأجنبى لا تعطيه الحق فى الخروج عن قواعد اللياقة..ردّ السعودي بأنه أدرى منه بقواعد اللياقة، وأنه ـ بكل تأكيد ـ ليس فى حاجة إلى من يعلّمه الأدب.. وهنا توقّف الأردنى فجأة عن محادثة جاره السورى، وابتسم ابتسامة تشجيع لسفير دولة الإمارات..

وإذ تكهرب الجوّ سارع سفير قطر بأخذ الكلمة، فقال: إنه بالرغم من أنه يلى السعودى فى الأقدمية بين السفراء العرب، فهو غير قادر على تولّى أعباء عمادة السلك العربى، بالنظر إلى أن نجله البالغ من العمر أربعة عشر عاما انقلبت به سيارته المرسيدس مؤخرا وهو يقودها بسرعة ١٨٠ كيلو متراً فى الساعة فى أحد شوارع الدّوحة، ويعالج الآن فى باريس من إصاباته

الخطيرة، وسيضطر السفير فى الشهور القادمة إلى قضاء معظم وقته فى العاصمة الفرنسية للاطمئنان على ولده، مما سيحول دون أدائه لواجبات العمادة. واقترح فى النهاية أن يتولى منصب العميد السفير اليمنى الذى يليه فى الأقدمية.

عقّب السعودى بقوله (وهو ينظر إلى نقوش سقف الصالة) إنه مع احترامه للسفير اليمنى يرى أن منصب العميد لا ينبغى أن يتولاّه كل من هبّ ودبّ، وإنما القادر على النهوض بالتزامات المنصب (كإقامة الولائم للسفراء الجدد أوالراحلين، وتقديم الهدايا المناسبة، إلى آخره) مثلما ينهض هو بالتزامات عمادة السلك الأجنبى.. وسأله اليمنى وعلى وجهه علامات الغضب والاشمئزاز عما إذا كان يعنيه بقوله «كل من هبّ ودبّ». فأجابه السعودى دون أن ينظر إليه بقوله إنه كان يتحدّث حديثا عاما لا يقصد أحداً بعينه، وأنه من الغريب حقا أن بعض الناس يأخذ كل جملة تقال مأخذاً شخصيا.

وإذ تكهرب الجوّ مرة أخرى، بادر سفير تونس فقال إن سفير اليمن على أىّ حال سيرحل نهائيا عن الجزائر بعد فترة قصيرة، وأنه حيث أن أهمّ قضية تشغل فكر العالم العربى حاليا هى قضية فلسطين، فقد يكون من المناسب أن يتولّى سفير دولة فلسطين عمادة السلك العربى. وكاد اقتراحه أن يلقى قبولا عاما لولا أن تدخّل سفير الصومال بحجة وجيهة، مؤدّاها أنه سيكون من بين واجبات عميد المجموعة العربية الاتصال بسفراء المجموعات الأخري، وأن الكثير من دول هذه المجموعات لا يعترف بدولة فلسطين، ولا بسفيرها فى الجزائر، وهو ما من شأنه أن يشلّ حركته، ويحول بينه وبين أداء شطر هام من مهامه.

واقترح سفير لبنان أن يتولّى العمادة سفير المغرب (وهو من أحبّ الدبلوماسيين إلى قلوب السفراء العرب وغير العرب على سواء)، فاعترض سفير الجمهورية الصحراوية غاضبا، وهدّد بالانسحاب من المجموعة العربية إن حدث أن اختارت المغربى.. عندئذ اقترح العُمانى سفير سوريا فانبرى السفير العراقى يقول فى هدوء إنه ـ مع احترامه لشخص السفير السورى ـ ينصح بالإحجام عن اختيار سفير دولة علاقاتها الدبلوماسية مقطوعة مع دولة أو أكثر من الدول العربية الأخرى، مما سيؤدى بالتأكيد إلى خلل فى سير أعمال المجموعة. وإذ عرض العراقى أن يتولاها السفير السودانى، اعتذر الأخير بحجة أنه لم يصل إلى الجزائر إلا منذ أسبوعين فقط، ولا يزال فى طور تلمّس الأحوال والأوضاع فيها، وزيارة السفراء القدامى للتعرّف بهم. وعندما اقترح أن يختاروا السفير الليبى للمنصب، تبادل الحاضرون الابتسامات فيما بينهم، لعلمهم أن السفير الليبى ـ مع احترامهم له ـ يقضى معظم أيام العام فى أوروبا الغربية، طالبا من أعضاء سفارته الاتصال به تليفونيا فى حالة حدوث أمر جلل، أو وصول تعليمات عاجلة إليه من حكومته، وأنه لا أحد بالجزائر يكاد يراه أو يعرفه.

وتحدّث السفير العُمانى قائلا إنه لولا أن السفير المصرى سيغادر الجزائر نهائيا بعد أشهر ثلاثة لاقترح انتخابه، وأنه ربما كان من الأفضل ـ إزاء الصعوبة التى لمسناها فى الاتفاق على عميد ـ تأجيل الأنتخابات إلى حين وصول سفير مصر الجديد.. وكان أن وافق الحاضرون. غير أنهم إذ لمحوا ابتسامة عريضة ترتسم على وجه زميلهم السعودى عند ذكر اسم مصر، سألوه فى ابتسام أيضا عن سرّ ابتسامته. وتمنّع السعودى بعض الوقت حتى إذا ما ألحّوا عليه حالفين بالطلاق، قال:

ـ مع احترامى لمصر، قفز إلى ذهنى حين ذكرها الأخ العُمانى فحوى مقال قرأته مؤخرا للصحافى المصرى موسى صبرى فى «الأخبار»، يقول فيه: إن هدية القمح التى قدمها جلالة الملك السعودى فهد لمصر لإنقاذها من ورطتها الغذائية تعتبر صفعة فى وجه مصر. إذ من ذا الذى كان يتخيّل فى يوم من الأيام أن تنتج صحراء بلاده من القمح ما يتبقى منه فائض يُصدَّر إلى وادى النيل الخصيب!

وكان أن حملقتُ فيه دون تعليق. فانبرى اللبنانى معترضا نيابة عنى، يصف الحديث عن «صفعة فى وجه مصر» بأنه كلام لا يليق أن يصدر عن سفير. فأجابه السعودى:

ـ وأنا مالى؟ هذا كلام صحافى مصرى لا كلامى أنا.. أرجوك ألا تخلط بين الأمور. إنه كلام موسى صبرى لا كلامى. وناقل الكفر ليس بكافر.

ثم قهقة قهقهة طويلة عالية.. قال اللبنانى عابسا:

ـ على أى الأحوال، ومع احترامى لك، فهو كلام لا يليق. ولو كنتُ مكان السفير المصرى الصامت لذكرتُ لك حادث مصرع ١٤٢٦ من الحجاج في نَفَق المعيصم، وكيف اعتبرته إيران صفعة فى وجه السلطات السعودية التي قصّرت فى تأمين سلامة الحجاج.

ـ احترم نفسك من فضلك.

ـ هذا كلام إيران يا سيدى لا كلامى.. أرجوك ألا تخلط بين الأمور.

وإذ تكهرب الجوّ مرة أخرى، اقترح السفير الموريتانى ـ ما دمنا قد اتفقنا على تأجيل الانتخابات إلى حين وصول سفير مصر الجديد بعد ثلاثة أشهر ـ أن نقضى بقية السهرة فى لعب الورق.

قال العُمانى :

ــ لا مانع، بشرط ألا يكون لعب الورق مستقبلا هو الهدف الأول من لقاءات سفراء المجموعة العربية شأن لقاءاتنا قبل انفراط عقدها منذ ثلاث سنوات.

قال السعودى وهو لا يزال يغالب غضبه من حديث اللبنانى:

ــ كنا نلعب الورق فقط حين نلاحظ عدم اكتمال النصاب القانونى وغياب أكثرية السفراء.

ردّ العُمانى ضاحكا:

ــ وهل اكتمل النصاب القانونى فى اجتماعاتنا مرة واحدة يا سيادة السفير؟ وأضاف الفلسطينى وهو يضحك أيضا:

ــ وما الضرر فى لعبنا الورق؟ ألم يقل الشاعر:

وإذا سُئلتَ عن العروبة قل لهم

هى أمةٌ تلهو وشعبٌ يلعب؟

وانفجر الباقون مقهقهين، شارعين فى احتلال مقاعدهم حول طاولات اللعب، ومراعين ألا تجمع الطاولة الواحدة بين السورى والعراقى، أو بين الصحراوى والمغربى، أو بين الأردنى والليبى.. إلى آخره.

* * *

بقى أن أذكر أنه لم تقدّم لنا خلال الأمسية من المشروبات غير عصير الفواكه والمياه المعدنية. ذلك لأن المشروبات الروحية عند المسلمين حرام، شأن الميتة والدم ولحم الخنزير.



بـائيـةُ العـرب

ــ هل استمعتَ يوم أمس إلى تفسير الشيخ الشَّبراوى للحديث النبوىّ «لا تجتمع أمتى على ضلالة»؟

ــ سيدى الفاضل، أمتنا لا تجتمع أبدا، لا على ضلالة ولا على غير ضلالة.

ــ أهو قَدَرٌ إذن؟ ألم يحدث قط فى أية لحظة من تاريخنا أن اجتمع العرب على قضية ما، أو على شخص ما؟

ــ مرة واحدة فقط خلال أربعة عشر قرنا.

ــ على عداوة إسرائيل؟

ــ إن كنت تقصد التصريحات الرسمية، والأناشيد الإذاعية، وخطب الزعماء ومقالات الصحف، نعم. أما غير ذلك فلا.

ــ فعلى عبد الناصر إذن؟

ــ أعداء عبد الناصر، سواء وقت حياته أو بعد مماته، كانوا دائما أكثر عددا من محبّيه.

ــ صلاح الدين الأيوبى؟

ــ أنسيتَ عداوة دولة الأتابكة له، وفلول الفاطميين، والحشاشين الذين

حاولوا اغتياله، وحسد الخليفة العباسى؟.. حتى مُعاصره المؤرخ العظيم عزّ الدين بن الأثير كان يمقته.

ــ فعلى من إذن؟

ــ أم كلثوم.

ــ أم كلثوم؟!!!

ــ نعم. وفى هذه الحقيقة بالضبط يكمُن الحلّ.

ــ أم كلثوم ؟!

ــ هو ذاك.

ــ وكيف يمكن لأم كلثوم أو لأمثالها حلّ مشكلة الخلافات العربية المزمنة؟

ــ سيدى العزيز، مصيبة أمّتنا فى هذا الزمان هى أننا باستمرار، ودون استثناء ، نتبنى حلولا غريبة نخال أنها مفتاح معضلاتنا العربية.. ومن ثم الفشل .. ألم تقرأ فى تاريخ الخديو إسماعيل كيف أنه حين أراد التشبه بأوروبا فأنشأ مجلسا نيابيا عام ١٨٦٦ ، وقف شريف باشا وزير داخليته يشرح للنواب أن المجالس النيابة الأوروبية منقسمة دائما إلى قسمين : حزب مع الحكومة ، وأحزاب تعارضها، وأنه يجدر بالنواب المصريين أيضا أن ينقسموا إلى قسمين : حزب مع الحكومة وحزب عليها ، فيجلس رجال حزب الحكومة على مقاعد اليمين، ورجال حزب المعارضين لها على مقاعد اليسار. فإذا بالنواب المصريين يهبوّن هبّة رجل واحد، ويتسابق جميعهم إلى مقاعد اليمين هاتفين:

«إننا كلنا عبيد أفندينا، فكيف نكون معارضين لحكومته!»

هى يا صديقى ردود فعل طبيعية لمحاولاتنا المضحكة تقليد الغرب فى كل شىء. وما فشل الجامعة العربية وغيرها من المؤسسات والتنظيمات الحديثة، وأحزابنا السياسية، ونظمنا الإدارية، إلا لأننا أقمناها على مثال غربى، ولم نتوخّ فيها تقاليدنا، أو نستلهم طبيعتنا وأخلاقنا وعاداتنا الإسلامية أو الشرقية.

ـــ فاشرح لى إذن كيف كانت أم كلثوم عنصرا فعالا فى توحيد كلمة العرب.

ـــ لم أقل هذا. وإنما قصدت أنه كان بوسعنا بسهولة ـــ لولا سفاهتنا المعهودة ـــ أن نستغل أم كلثوم فى خلق إجماع عربى على أىّ أمر من الأمور. غير أننا لم نستغلّها الاستغلال الإيجابى الكافى.. كان العرب قاطبة يعبدونها. وكانوا يقصدون القاهرة من كل صوب وحدب، بطائراتهم أو بسياراتهم، لحضور حفلها فى الخميس الأول من كل شهر، وقد ألّف بين قلوبهم أجمعين غرامهم بصوت «السّتّ». غير أن حكومتنا رأت فى ذلك الكفاية، ولم تحاول دفع عجلة الأمور إلى ما هو أبعد من ذلك، وما هو فيه الخير لقضايانا العربية.

ـــ كيف؟ كيف؟

ـــ سيدى، أنا أضمن لك لو أن حكومتنا، أو مخابراتنا ، أو وزارة الثقافة عندنا، أو ما شئت من الأجهزة، تولّت فى صبر وعناية وإحكام إعداد مطربة ممتازة لتكون خليفة لأم كلثوم، (نفس الصبر والعناية والإحكام التى أعددنا بها رأفت الهجان)، ثم وجّهتها التوجيه الذكى الأريب الذى سأشرحه لك الآن، أن نحصل فى دقائق معدودات على اجماع عربى بشأن أية مشكلة عربية مهما كانت عويصة ، ودون حاجة إلى اجتماع لمجلس دول الجامعة

العربية، أو مؤتمر قمة للرؤساء العرب، عاديا كان أو استثنائيا.

ــ فاشرح إذن.

ــ أذكرلى أولا أية مشكلة تريد تحقيق إجماع عربى بشأنها.

ــ مشكلة الساعة: وهى غزو العراق للكويت،وضرورة إجماع سائر العرب على إجبار صدام حسين على الانسحاب.

ــ عظيم ! افتراضى بالطبع هو أنه قد تمّ بالفعل إعداد مثل هذه المطربة (ولنسمّها سومة أو نوسة أو بوسى أو لوسى أو ماشئت)، وأنها خلفت أم كلثوم، وباتت تتمتع بإعجاب العرب كافة.. عظيم! نعلن فى الجرائد عن موعد حفلها الشهرى ، ويرسل الرئيس حسنى مبارك دعوات إلى الملوك وأمراء ورؤساء الدول العربية لحضور ذلك الحفل... يُراعى فى ترتيب الجلوس فى صالة المسرح أن يجلس مسئول مصرى كبير إلى جانب كل رئيس عربى، وفى جيبه ورقة بها نصّ الأغنية.. الرئيس مبارك وعلى يمينه الملك فهد.. عصمت عبد المجيد على يسار الملك حسين.. بطرس غالى إلى جوار الشاذلى بن جديد.. أسامة الباز على يمين الملك حسين.. مصطفى الفقى بجانب حافظ الأسد.. وهكذا.

ـ ثم ؟

ـ ثم تشرع «الست» فى الغناء.

ـ حسنا؟

ـ لتكن الأبيات الأولي من الأغنية فى تعظيم الضيوف الكبار، ووصف محاسنهم ومفاتنهم وعظمتهم ورفعة شأنهم.. شىء على مثال الأبيات الآتية:

زَهــرُ الرّبيــع يــُرَى ، أم ســادةٌ نُجُبُ

وروْضــةٌ أَيْنَعَــت ، أم حفلةٌ عَجبُ

تجمــّع الــشّرق فيها فهــو مُؤْتَلِــقٌ

كالعِقْدِ يلمعُ فيه الدُّرُّ والذّهَــبُ

أبيات بعدها تسترخى الأعصاب، وتطمئن القلوب، وتنضح الوجوه بالراحة والسرور، وترتسم على شفاه الرؤساء ابتسامات الرضا عن النفس.

خمسة أبيات أو ستة على هذا المنوال، ثم تدخل «الستّ» رأسا فى الموضوع:

صدّامُ إنّ جيوشَ الغَرْبِ قادِمةٌ

يَشُدُّ من أَزْرها الأتراكُ والعربُ

بُوشْ ثائرٌ مكفهرُّ الوجهِ من قلق

وقد استبدّ بمرجريت ثاتشرِ الغضبُ

غَزَوْتَ جــارا كريما دونَ ما سببٍ

وسوف نغفر هذا حين تنسحبُ

فإن أَبيْتَ فإنّ الحربَ آتيةٌ

وساعةُ الصفرِ يا صدامّ تقترب

وعندها لن ترى شعبا يساندُكمْ

ولن يكون بوُسْعِ جُيوشِك الهربُ

نُعطيك مهلة شهرٍ إن مضتْ عبثا

أصابكم من لَدُنْ أبنائنا العَطَبُ

هنا سيصيح فهد، والحسن، والحسين، والأسد، والشاذلى، وزين العابدين بن على، إلى آخره: الله ياست! الله الله! زين والله زين! «وساعة الصفر يا صدامّ تقترب» !، إى والله يا سومة! (أو نوسة أو بوسى، أو لوسى).

حينئذ، وبسرعة يُخرج أسامة الباز، والفقى، وعصمت، وكل المسئولين المصريين، من جيوبهم قلم حبر، والورقة التى فيها نص الأغنية، ويلتفت كلّ منهم إلى الزعيم العربى المجاور له هامسا فى ابتسام:

ـ فخامتك (أو سموك، أو جلالتك، أو جنابك) موافق؟

ـ معلوم ! إى والله! زين والله زين! هادا والله هو المطلوب.. والله هو الفعل المطلوب!

ـ فهل تسمح فخامتك (أو سموّك، أو جلالتك، أو جنابك) بالتوقيع بالموافقة أمام هذه الأبيات؟

فى هذه اللحظة تكون «الست» قد عادت تعصر منديلها وتشدّه إشارة إلى أنها على وشك مواصلة الغناء، فيسرع الزعيم العربى بالتقاط القلم، ويوقّع بإمضائه أمام الأبيات السابقة حتى يتفرّغ بعدها للإصغاء.. ويعيد القلم والورقة إلى أسامة ، أو بطرس ، أو الفقى، إلى آخره.

تريد إجماعا على موضوع معقّد آخر، فى نفس السهرة، وأثناء نفس الأغنية، كسبا للوقت؟

ـ نعم.. الاتفاق على سعر موحّد لبرميل النفط.

ـ وهو كذلك.. تعصر «الست» منديلها ثم تواصل:

بنى العروبة، سعرُ النفطِ مضطربٌ

فيم الخلافُ؟ وفيم الحقدُ والغضبُ؟

وُفُودُنا في «الأوبيكْ» جاءت مخالفةً

بعضُ لبعضٍ فَخِلْنا أنها عُصَبُ

ما بال بترولنا يا قومُ ليس له

سعرٌ يوحّدُه ؟ كــلٌّ له أَرَبُ

عشرون دولارَ للبرميل كافيةٌ

يُمْليه ـ في رأينا ـ العَرضُ والطلبُ

هاذى يدى عن بنى مصرٍ تصافحكم

فصافحوها تصافحْ نفسَها العربُ

هنا ، وبسرعة، يمدّ كل من المسئولين المصريين يده إلى الزعيم الجالس إلى جواره يصافحه، ثم يخرج الورقة والقلم للحصول على إمضائه أمام السعر الجديد للبرميل.. فهل بوسعك أن تتخيل أن يرفض أحدُهم مصافحة اليد الممدودة إليه، حتى لو كان من رأيه أن يكون سعر البرميل الواحد ثمانية وثلاثين دولارا؟

ثمة موضوع آخر تريد إجماعا حوله؟

ـ نعم.. نقل مقرّ الجامعة العربية إلى مصر.

ـ فاسمع بقية الأغنية:

بنى العروبة هذا القُطْرُ كعبتُنا

وليس فيه من الحُجّاج مُغْتَرِبُ

حسنى المباركُ قد جدّت عزيمتُه
فيما يريد، وما فى جِدّه لَعِبُ
حيّاكمُ وهو جذلان ، وقال لكم
إن العروبة فيما بيننا نسبُ
ومصرُنا قلبُها، إن قال حاسدُها
نمضى لتونسَ قلنا أنت مغتصبُ
فأكْسَفَ اللهُ بالَ الكاشحين على
وعدٍ، وأبطل ما قالوا وما كذبوا

هنا سيهلل الملوك والرؤساء للست: «إى والله! مصر أم الدنيا بك يا سومة (أو نوسة...).. تونس؟ من ذا الذى اقترح نقل الجامعة إلى تونس؟!» وإذ يسرع المسئولون المصريون بالحصول على توقيعاتهم أمام هذه الأبيات، تختتم «الست» أغنيتها بالأبيات التالية:

أرضى الزمانُ نفوسا طالما سخطتْ
وأعتب الدهرُ قوما طالما عتبوا
وربما كان مكروهُ الأمور إلى
محبوبها سببا ما مثلهُ سببُ
فالحمد لله حمدا تمّ واجبُه

ونشكر اللهَ شكرا مثلَ ما يجِبُ

هذا ما لم تكن لديك موضوعات أخرى تريد إجماعا عربيا بصددها.

ــ تكفى هذه الموضوعات الثلاثة.

ــ ثلاثة موضوعات رئيسية حصلنا على إجماع حولها فى أقل من نصف ساعة.. تصوّر لو أنها كانت معروضة على اجتماع لمجلس جامعة الدول العربية!



حشيش
«أم المعارك»

فى خبر منشور بصحيفة «الاخبار» منذ بضعة أيام:

«تم ضبط عشر طرب حشيش ماركة «أم المعارك» مع تاجر مخدرات بالاسكندرية جاء يبيعها فى المنصورة... وقد قرر وكيل أول نيابة المنصورة حبس المتهم الذى اتضح أنه يعرض كمية كبيرة للبيع فى المدينة».

فكرت عند قراءة الخبر:

أهناك ــ بعد كل ما سمعنا وشهدنا خلال الأشهر العشرة الأخيرة ــ تسمية للحشيش أكثر مناسبة ومطابقة للغرض من هذه التسمية؟

شهور طويلة سبقت الاندحار الكامل الذى منيت به الجبهة العراقية وقواتها المسلحة فى حرب الأسابيع الستة سمع خلالها الناس فى كل مكان صنوفا لا حصر لها من الجعجعةوالطنطنة، والوعد والوعيد، والزهو المقيت بالنفس، والاصرار على الدفاع عن «المحافظة التاسعة عشرة» حتى الموت، وتأكيد نية عدم الانسحاب منها، ثم وصفا للمعركة المقبلة بأنها ستكون«أم المعارك»، واشادة بالقدرات القتالية الهائلة لجيش العراق، واعلانا من صدام بأنه سيلقن الدول المعادية له درسا لن تنساه طيلة العمر، إلى آخر ما سمعناه وصدقه البعض من اعلان نوايا لم تنفذ، ونبوءات لم تتحقق، وتهديدات لم يصب الكثيرون من جرائها بسوء.

ثم قفز إلى ذهنى منظر فى مسرحية جان بول سارتر «نكراسوف» يذكّر فيه أحد المحررين بالصحيفة رئيس التحرير بأن ما ذكره فى مقاله الافتتاحى ذلك الأسبوع يتناقض تناقضا صريحا مع ما ذكره فى مقاله فى الأسبوع الفائت، فيرد عليه رئيس التحرير بقوله:

«يا هذا ! أتظن قراءنا يتذكرون ما نكتبه فى الصحيفة من يوم إلى آخر ؟ لو كانت لهم مثل هذه الذاكرة لما كان فى وسعنا أن نكتب شيئا على الاطلاق، ولا أن ننشر حتى تنبؤات مصلحة الأرصاد الجوية»!!

وانتقلت إلى التفكير في مدى حاجة شعبنا العربى الملحة إلى إعادة النظر فى حاله المائل، وفيما إذا كان العرب فى واقع الأمر شعبا لا يحسن غير التشدق بالكلمات. وما إذا كنا سنظل الى آخر الدهر نعرف القول دون الفعل، ونسمع جعجعة ولا نرى طحنا، ونحسب كما تحسب جهلة العامة أن مجرد رشق الدبابيس فى دمية صنعناها على هيئة عدو لنا كاف للقضاء عليه، وإزالة شره.

انني لا أزال أذكر إلى اليوم ما أصابنى وأنا بعد صبى من صدمة وذهول إذ أخبرنى والدى وأنا أراجع معه معلقة عمرو بن كلثوم (وكان مدرس اللغة العربية بالمدرسة الثانوية قد كلفنا بحفظ ابيات منها)، أن شعراء الجاهلية فى قصائدهم التى تصف الحروب بين القبائل، والأنتصار الرائع الذى حققته قبيلة هذا الشاعر أو ذاك على القبيلة المعادية لها، كانوا فى غالب الأحيان لا يصفون معارك جرت، ولا انتصارات أحرزت، وإنما كانوا ينظمون تلك القصائد قبل نشوب الحرب، للتعبير عن أمانيهم وآمالهم فيما سيأتى به الغد، وماسيسفر عنه سير القتال، ولكن بصيغة الماضى ، وكأنما التعبير عن هذه الأمانى بصيغة الماضى كفيل وحده بأن يحقق بالفعل كل ما وصفه الشاعر

فى قصيدته من إنجازات لقبيلته... فهو هنا بمثابة الساحر الذى يسعى إلى التأثير فى الارادة الإلهية ، أو فى قوانين الطبيعة، عن طريق ما يردده من عبارات وهمهمات .

فقدت من وقتها الثقة فى دلالة قصائد الجاهليين (وربما الكثيرين أيضا بعدهم) على ما وقع من أحداث ، ولم يعد يخامرنى ما كان يخامرنى قبل ذلك من مشاعر الاعجاب بالبطولة والروح القتالية اللتين يتحدث الشاعر عنهما، مادام الأمر لا يعدو التعبير عن أمنيات قد تتحقق وقد تخيب.. كذلك خطر فى ذهنى أن صياغة العرب للدعاء فى صيغة الماضى، على نحو قولنا لمن أغضبنا «لعنك الله»، وللمريض «شفاك الله» وللمسافر «صحبتك السلامة»، والجندى «نصرك الله على أعدائك»، هى أيضا قد لا تخلو من أثر لمسلك السحرة فى سحرهم، وأن استخدام صيغة الماضى هنا من شأنه أن يؤكد أن المرض هو بالفعل فى طريقه إلى الزوال، وأن المسافر قد بات قاب قوسين أو أدنى من الوصول سالما إلى بلدته، وأنه لن يبقى غير ساعات قلائل على انهيار أعداء الجندى وفرارهم من ميدان المعركة!!

* * *

إنه لمن المؤكد أن الشعب العربى شعب انفعالى تتحكم فيه العواطف أكثر مما تتحكم فيه الاعتبارات العقلية والمنطقية... واللغة العربية ــ بوضعها القديم والراهن ــ هى لغة خطابية فى المقام الأول، وعلى نحو لاتدانيه فيه أى من اللغات الأخرى . فهى كالموسيقى تتجه بالخطاب إلى العاطفة، واستجابة العربى لها هى كاستجابته للموسيقى إن لم تكن اشد قوة، فهو يتأثر بالكلمات أكثر مما يتأثر بالافكار ، وبالافكار المطلقة أكثر مما يتأثر بالحقائق الواقعة، وقد تهتز نفس العربى لسماع آيات أو قصائد لا يفهم

معانيها أو يفهم القليل من معانيها، فكل ما يهمه منها هو جرس الالفاظ والجزالة والوزن والقافية والموسيقى، وهو ما يسميه بالسحر الحلال.

وهذا العشق للكلمات والتعبيرات المدوية هو ما جعل العرب أكثر تعلقا بفنى الشعر والخطابة منهم بالفنون الأخرى، فهم يرون فى القصائد الطنانة والخطب البطولية التى لا غنى فيها عن التهويل والمبالغة بديلا كافيا للافعال، ومتى ما صور الشاعر أو الخطيب كل ما يتمناه وتتمناه قبيلته أو أمته باعتباره أمرا واقعا قد تحقق بالفعل، أو فى سبيله المؤكد إلى أن يتحقق ، هدأت النفوس وارتاحت خواطر سامعيه، وخفت حدة توترهم بما تحقق لهم من تنفيس عن غضب أو غيره فيخفت بالتالى كل حافز لديهم على العمل من أجل تحقيق مطمحهم، وبلوغ أربهم.

وأغلب ظنى أن جمال اللغة العربية وما تتمتع به من سحر خاص كانا فى واقع الأمر نقمة فى قالب نعمة. وشرا مستطيرا على الناطقين بها . فجمال التعبير عن النوايا كثيرا ما يوحى للمرء بأن العمل المعتزم قد أنجز، وأن ما تحدث عنه الشاعر أو الأديب أو الخطيب قد تحقق . فإذا بالقارىء أو السامع وقد رأى الكفاية فى هذا التعبير عن نية العمل، أو في مجرد الخطوة الأولى من خطوات تنفيذ مشروع كان من المعتزم إنجازه... إن قيل له إن المعركة المقبلة لا شك فى أنها ستكون «أم المعارك»، زال عنه الشك واطمأن، ولم يرفع بعد ذلك إصبعا من أجل المساهمة فى جعلها أم المعارك، وإن قيل له إن صداما سيلقن أعداءه درسا لن ينسوه طيلة العمر ، وصيغ له هذا القول فى عبارة رصينة بليغة، فالدرس قد تم تلقينه بالفعل ، سواء انتصرت القوات العراقية بعد ذلك أم منيت بهزيمة نكراء!

كذا حالنا فى حياتنا العامة والخاصة، وكذا مسلكنا فى ميدان العلاقات

الدولية أو في الطرق والأزقّة. ولست فى حاجة إلى إشارة مسهبة إلى ما يتبادله المتشاجرون عندنا فى الشوارع من تهديدات كلامية عنيفة تشيب لها رؤوس مصدّقيها، مثل «والله لأقطعنك إربا إربا» أو «والله لأمسحن بك الأرض» أو «والله لأشربن من دمك» ،ثم لا ينجم عن هذه التهديدات سوى تخفيف حدة الميل العداونى، وضعف العزم عن الدخول فى عراك!

* * *

لقد كان العرب فى اليمن يطلقون على رئيسهم فى الجاهلية لفظ «القيل» (مفرد أقيال). والمعنى الأصلى للكلمة هو القائل والمتكلم. فهم بذلك يربطون بين الرئيس وبين القول والكلام، لأن الشرط الأكبر للرئاسة عندهم هو الطلاقة الظاهرة فى الحديث.

ولايزال هذا الشرط قائما عند العرب إلى يومنا هذا!



سحابة صيف

حاولتُ على مدى ساعة كاملة – ولكن دون جدوى ـ أن أهدّىء من ثائرة سموُ الأمير.

كان وجهه السمين المحتقن، ذو اللحية والشارب ، فى حمرة الطماطم . وكان يذرع فى عباءته وعقاله صالة مكتبه الفاخرة جيئة وذهابا دون توقف، كالفهد فى قفص، غير ملق بالا أو سمعا لما أقوله له.. وأخيرا توقف عند المكتب فجأة، وضغط على أحد الأزرار الذهبية العديدة فوقه:

ـ استدعوا لى الدكتور ماجد حسنين رئيس مركز الدراسات المستقبلية للشرق الأوسط، وسهيل البعلبكى كبير المعلقين السياسيين، ورعاية الله خان كبير العرّافين بالقصر... بسرعة.

بعد أقل من ثلث ساعة كان ثلاثتهم يدلفون إلى الصالة.. الدكتور ماجد فى هيئته الأكاديمية الوقور، وسهيل البعلبكى بقامته القصيرة الرشيقة، وحلته الرمادية الأنيقة، ورعاية الله فى عمامته البيضاء الضخمة، ولحيته الشعثاء وسحنته السمراء... وانحنى الثلاثة عند الباب فى وقت واحد ـ تجاه مكان الأمير الذى ظل بضع دقائق يتفحّصهم شزرا من موقعه بركن الغرفة، وكأنما يريد أن يفتك بهم جميعا.. ولا هو ردّ على تحيتهم ودعائهم له بطول العمر.

ـ إجلسوا لا جلستم!

وأشار لهم الى طاولة الاجتماعات.

جلس الدكتور ماجد ووضع أمامه ملفا ضخما يحوى أحدث ما أعدّه مركزه من الدراسات الميدانية والجداول الإحصائية، وأخرج سهيل البعلبكى من جيب سترته الداخلى نوتة صغيرة وقلم حبر جاف، وفتح الشيخ رعاية الله صندوقا فضيا أنيقا كان يحمله، وأخرج منه كرة متلألئة من الكريستال فى حجم البطيخة الصغيرة وضعها على الطاولة أمامه إلى حين الحاجة. ثم اتخذ سموّ الأمير مكانه فى صدر الطاولة.

ـ أريد منكم جميعا أن تفسروا لى، وباختصار، هذه الظاهرة الفريدة: كيف حدث أنه ما من أحد منكم، بالرغم من كل ما أنفقه من أموال طائلة عليكم، وعلى معاونيكم ومساعديكم، وعلى دراساتكم وبحوثكم وتحليلاتكم وندواتكم ومؤتمراتكم وحلقاتكم الدراسية ومعدّاتكم الفلكية؛ أقول، ما من أحد منكم تمكن من أن يتنبأ بالغزو العراقى للكويت قبل وقوعه؟ هَه؟

ـ سموّ الأمير..

ـ سموّ الأمير فى عينك وعين اللى خلّفوك.. خبّرونى أىّ شىء حصدته من وراء كل ما أنفقته عليكم؟ أىّ فائدة جنيتها من جراء استدعائى لمدير مركز الدراسات المستقبلية للشرق الأوسط من مصر، وكبير المعلقين السياسيين العرب من لبنان، وكبير العرّافين والمنجمين من باكستان، للعمل فى إمارتى، إن كان جميعهم قد فشل فى التنبؤ بأهم حدث يمكن أن يمسّ مستقبل دولتى وأمنها ومصيرها؟... نبدأ بك يا دكتور ماجد.

ـ الحقيقة يا سموّ الأمير.. الواقع... أعتقد أنني... إن سمحتم لى سموّكم... إن كان لى أتكلم بصراحة...

ـ نعم.

ـ أعتقد أنني في الحلقة الدراسية التى نظّمتها فى مدينة الزعران ، أواخر يوليو الماضى قلت......

ـ فى الحلقة الدراسية التى نظمتها سيادتك فى مدينة الزعران فى أواخر يوليو الماضى، قلت ـ ومازلت أذكر كلماتك وكأنما نطقتَ بها لتوّك ـ إن التهديد العراقى للكويت لا يعدو أن يكون سحابة صيف عما قريب تقشّع ، وأنه لا يمكن للمرء أن يتخيل حدوث مواجهة بين دولتين عربيتين شقيقتين.

ـ ولكن يا سمو الأمير..

ـ نعم؟

ـ ولكن جاءت بعد ذلك ضبابة يا طويل العمر ....

ـ ضبابة فى .... أبيك.. كل ما تفعله سيادتك هو طلب تعيين المزيد فالمزيد من المساعدين من بين محاسيبك وأقاربك فى مصر، وطلب تذاكر طيران لك ولهم لزيارة مواقع الأحداث ومعاينتها على الطبيعة، ثم تعقد ندوات ومؤتمرات تكلفنى الألوف المؤلفة تتنبأ فيها بنبوءات لا تتحقق، ثم تعقد ندوات ومؤتمرات أخرى تكلفنى ألوفا مؤلفة أخرى لتفسير وعرض وشرح أسباب ومبررات ودواعى عدم تحقق نبوءات [illegible] والمؤتمرات السابقة !!.. وأنت يا أستاذ سهيل.

ـ فى خدمة مولاى الأمير.

ـ لو كنت حقا فى خدمة مولاك الأميرلتعطفت وتكرمت وتصدّقت على مولاك الأمير من حين لآخر ـ مقابل المرتب الضخم الذى تتقاضاه منى، بكتابةتحليل سياسى ذكى واحد تثبت الأيام فيما بعد ما تضمّنه من نظرات ثاقبة إلى المستقبل.

ـ ألم أفعل ذلك؟

ـ بطبيعة الحال!! سننظر لتوّنا في الملف! أستاذ حسين! ناولنى أرجوك هذا الملف الأخضر على المكتب.

ناولته الملف ففتحه، ثم أخرج نظّارته المذهّبة من جيبه فلبسها وبدأ يقرأ:

ـ فى الأسبوع الأول من يوليو ٩٠ : مقال افتتاحى بقلمك عن اتفاقية التعاون العربي بين مصر والعراق والأردن واليمن، وكيف أنها ـ فى تقديرك ـ باقية على مدى الأيام والعصور، وتتابع القرون والدهور، وتعدّد فيه ما ستجلبه على العالم العربى، وعلى قضية الوحدة العربية والقضية الفلسطينية، من خير عميم، ورخاء عظيم، وفضل وفير، وسعد كبير.. بعد شهر واحد، انهارت الاتفاقية!

ـ سمو الأمير..

ـ فى الأسبوع الثاني من يوليو: مقال من صفحة ونصف الصفحة كله مديح فى القائد المحنك ، والرئيس المعلم، والسياسى الجهبذ، والاستراتيجى الملهم صدام حسين، وتصفه فيه بأنه أمل العروبة جمعاء، والصخرة التى ستتحطم عليها دولة إسرائيل، وتثنى على إهتمامه بتسليح جيشه بأحدث الأسلحة، وتصديه البطولى لحملات الكراهية التى تشنها عليه الصحافة فى الولايات المتحدة وأوربا ... بعد شهر واحد، مقال آخر تصفه فيه بالوحش

الكاسر ، المجرم الفاجر ، عميل إسرائيل ، وعدو العروبة والإسلام ، والصخرة التى تحطمت عليها آمال الشعوب العربية فى الوحدة !!

ـ طويل العمر ..

ـ فى الأسبوع الثالث من يوليو : مقال من صفحتين تشرح فيه أسانيد اعتقادك القوى الراسخ بأن العراق لن يهجم على الكويت رغم كل ماصدر عنه من تهديدات وشتائم للأسرة الحاكمة الكويتية ، وتسخر فيه من كل من يصف الوضع بأنه خطير وينذر بالشر .. بعد عشرة أيام بالضبط جاء الغزو العراقى للكويت !!

ـ سمو الأمير..

ـ فى الأسبوع الأول من أغسطس : مقال من صفحة ونصف الصفحة تقول فيه: إن الحرب لا محالة واقعة فى غضون أيام معدودة ، بل ربما فى ظرف ساعات ، وأن ساعة الصفر تقترب بسرعة مخيفة، وبررت اعتقادك الراسخ هذا بأنه مالم تبادر الولايات المتحدة لتوها بالهجوم على العراق وتحرير الكويت ، فقدت مصداقيتها ليس فقط حيال شعوب العالم الثالث والنظم الحليفة لها فيه ، بل وفى أوروبا الغربية والعالم أجمع .

ـ ولكن هذا هو بالضبط يا طويل العمر ماكتبه هنرى كيسنجر وقتها فى صحيفة « الهرالد تريبيون » . ولا أدعى ، مع كل مواهبى الصحفية ، أن لدىّ من بعد النظر مايفوق بعد نظر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق .

ـ لا ياشيخ ؟! ماكل هذا التواضع المفاجىء ياأستاذ سهيل ؟! ولكن لماذا لم تقع الحرب فى أغسطس كما توقعت ؟

ـ لأن الولايات المتحدة كانت لا تزال تبحث عن مخرج سلمى للأزمة .

ـ وعندما أصر العراق بعد ذلك على أنه لن ينسحب على أى حال من الكويت، لماذا لم تقع الحرب فى سبتمبر؟

ـ لأن حرارة الجو الفظيعة فى المنطقة خلال ذلك الشهر كان يمكن أن تؤثر فى القدرات القتالية الأمريكية .

ـ ولماذا لم تقع الحرب فى أكتوبر ؟

ـ لأن الولايات المتحدة كانت تواصل فيه إرسال قواتها إلى الخليج ، كما أنها كانت تريد إعطاء فرصة للعرب من أجل الوصول إلى حل عربى للأزمة.

ـ ولماذا لم تقع الحرب فى نوفمبر ؟

ـ لأن الولايات المتحدة كانت تنتظر صدور قرار من مجلس الأمن يوفر لها سندا شرعيا من أجل شن الهجوم .. وقد صدر هذا القرار بالفعل معطيا العراق مهلة للإنسحاب تنتهى فى ١٥ يناير .

ـ أسكت لا أسمع الله لك حسا ! .. وماذا عنك أنت يا كبير العرافين ، ورئيس المنجمين ، وسيد الفلكيين ، رعاية الله خان ؟!

ـ سمو الأمير المعظم ..

ـ كل شهر تطالبنى بمئات الآلاف من الدولارات لشراء المعدات الفلكية التى تلزمك وتلزم معاونيك من أجل رصد منازل القمر ، وحركة المريخ ومواعيد دخول الزهرة فى مدار زحل ، واحتمالات ظهور المذنبات وسقوط الشهب واحتراق النيازك .. خبرنى بالضبط : لماذا لم تر فى كرة الكريستال هذه أمامك تحركات القوات العراقية صوب الحدود الكويتية ؟ .

ـ قد رأيتها ياطويل العمر .. أقسم بالله العظيم ولحية أبويا أننى رأيتها..

ـ ولماذا لم تخبرنى فى حينه ؟

ـ لأنى فى نفس الصباح الذى رأيتها تتحرك فى كرة الكريستال ، قرأت فى أكثرمن عشرين صحيفة من صحف الدول العربية تصريحات لأكثر من عشرة من الرؤساء العرب الأصدقاء لصدام حسين ، القريبين منه ، المطلعين على سره، وبعد مشاورات ومحادثات صريحة وودية ومكثفة أجروها معه فى بغداد ، يؤكدون فيها أن الحرب لن تقع ، وأن الرئيس صدام رجل محب للسلام، مولع به ، شديد التمسك بميثاق الجامعة العربية ، عظيم التعلق بميثاق الأمم المتحدة ، وأنه لانية لديه ولا رغبة ولا استعداد لأن يسفك دم مواطن عربى واحد ...

ـ ثم ؟

ـ هذه التصريحات الصادرة عن رؤساء مسئولين ، على دراية واسعة ببواطن الأمور ، حيرتنى ، وأربكت حساباتى ، وشككتنى فى صحة ما رأيته بعينى رأسى فى كرة الكريستال .. وعلى أى حال ، فلا أشك فى أن سموك تذكر أننى أخبرتك يومها أننى أرى فى الأفق سحابة تتحرك .

ـ سحابة فى .. أبيك .. السحابة يمكن أن تكون سحابة مطر ، أو سحابة من عادم السيارات ودخان المصانع ، أو السحابة التى تغلف عقولكم أنتم الثلاثة .. ما أدرانى أنها سحابة الجيوش العراقية الغازية ؟

ـ سمو الأمير ..

ـ قل لى : لماذا لم تتنبأ باستقالة شفرنادزه ؟

ـ لم أشأ إزعاجك بمثل هذه الأمور التافهة .. استقالته لا تعنى شيئا على الإطلاق ، والاتحاد السوفيتى نفسه لم تعد له أهميه تذكر .

ـ لماذا لم تتنبأ بسقوط مسز ثاتشر ؟

ـ قد رأيت سقوطها فى كرة الكريستال . غير أنى فكرت فى أنه قد يكون من الأفضل أن أنتظر حتى أتأكد من استقالتها .

ـ لماذا لم تتنبأ بفوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ فى انتخابات الجزائر فى يونيو الماضى ؟

ـ تنبأت به ، وكنت على وشك أن أخبرك ، لولا أن رئيس الحكومة الجزائرية أصدر تأكيدا قاطعا قبلها أن جبهة التحرير الوطنى هى التى ستفوز ، وبأغلبية عظيمة.

ـ لماذا لم تتنبأ بالاضطرابات العمالية فى المغرب ؟

ـ لأنها حدثت على نحو مفاجىء.. فاجأتنا جميعا.. وسموك أول من فوجىء.

ـ سيدى الجليل ، أنا أدفع مرتباتك ومرتبات معاونيك حتى لا أفاجأ بالأحداث .

ـ هذا حق .

ـ فقل لى الآن نبوءة واحدة تبرر المرتب الذى تتقاضاه منى ؟

ـ الحزب الوطنى سيفوز فى الإنتخابات العامة فى مصر .

ـ لقد فاز بالفعل منذ عدة أسابيع .

ـ حقا ؟! غريبة !!

ـ فخبرنى بنبوءة واحدة استطلعتها فى الماضى بفضل أجهزتك الفلكية وأحطتنى علما بها ثم تحققت.

ـ أخبرت سموك أن الحركة الانفصالية فى جمهورية سلوفينيا بيوغوسلافيا قد تشتد قوتها .

ـ نعم . وهو بالضبط ما تنبأت به صحيفة الأوبزرفر اللندية قبل أن تخبرنى بالأمر بأربعة أيام ... ثلاثتكم تتصرفون معى وتعرضون علىّ تحليلاتكم وتنبؤاتكم مفترضين أنى لا أقرأ الصحافة الأجنبية .

ـ وأخبرتك أن الشرطة فى مصر قد تلقى القبض قريبا على الذين سطوا على سيارة البنك التجارى الدولى بطريق القاهرة ـ الإسماعلية الصحراوى .

ـ يافرحتى !

ـ وأخبرتك أن الولايات المتحدة ستتعرض هذا الشتاء لموجة من البرد والأعاصير لم تعرفها لأكثر من ثلاث سنوات ، وبالأخص فى ولايتى تينيسى ونورث داكوتا .

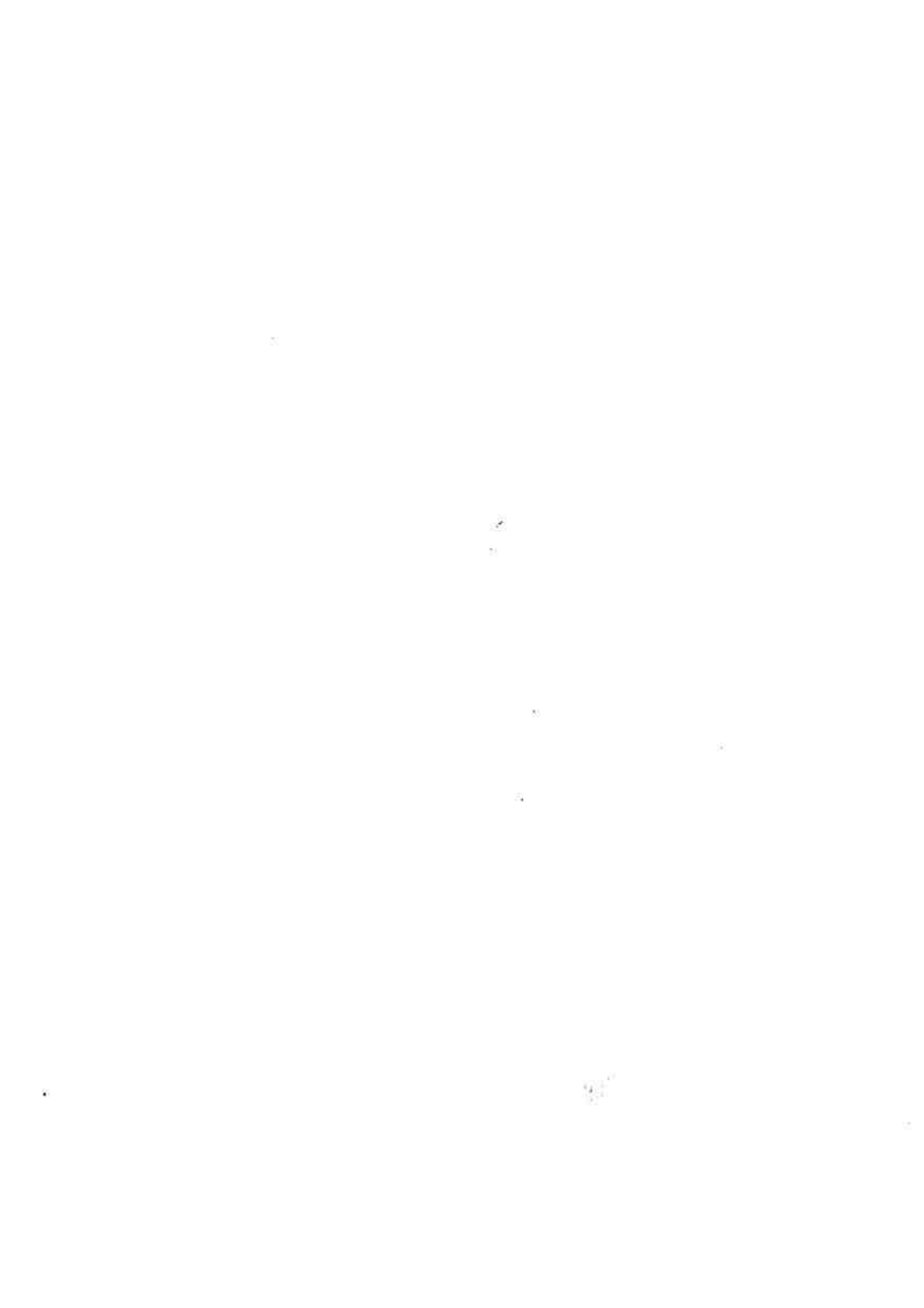
ـ نعم .. وأخبرتنى أن قطتى الحامل « بوسى» قد تنجب قريبا أربع قطط صغيرة أو خمسا .. وأخبرتنى أن صيف هذا العام سيكون حارا .. وأخبرتنى أنك تنتظر منى فى أول الشهر شيكا بمرتبك ... وهذا يا سادة هو بالضبط نموذج لما حصلت عليه منكم من نبوءات خطيرة طوال عملكم فى إمارتى .. هل تودون أن أخبركم أنا بأمر أكيد واحد لم تستطيعوا التنبؤ به ؟

ـ نعم يا سمو الأمير.

ـ أخبركم به رغم أنى لست أستاذا جامعيا ، ولا محللا سياسيا ، ولا عرافا فلكيا ؟

ـ ماهو يا طويل العمر ؟

ـ إنكم جميعا مفصولون من الخدمة اعتبارا من اليوم .



« صوت الحق »

سألنى صديقى الصحفى المعروف « أديب مرزوق » عما إذا كان فى نيتى أن أقضى صيف هذا العام فى لندن أسوة بالأعوام الماضية. وحين أجبته بأنى أعتزم البقاء فى القاهرة نظرا لضيق ذات اليد ، هتف فى استغراب:

ـ ضيق ذات اليد ؟! وما دخل ضيق ذات اليد فى قضاء الصيف فى لندن؟

قلت : ألا ترى أيه علاقة بين الأمرين ؟

أجاب بقوله : بالتأكيد لا .. إما أنك ساذج أو تتظاهر بالسذاجة ... أفلم يصل إلى علمك أن هناك الآن فى لندن خمسا وسبعين صحيفة ومجلة تصدر باللغة العربية ، وأنها جميعا فى أشد الحاجة إلى كتاب معروفين مثلك يكتبون لها ويملأون صفحاتها اليومية أو الأسبوعية بأى كلام ؟ .. سافر يا صديقى على بركة الله ولا تحمل هما ، ولتكن إقامتك فى أحد فنادق النجوم الخمسة حتى لا يستهينوا بشأنك ويخفضوا من أجرك ، ثم فلتتصل بعد وصولك بعدد من رؤساء التحرير العرب هناك لإعلامهم بوجودك فى لندن ، وسترى من فورك النتيجة .. إنهم يدفعون مالايقل عن خمسمائة جنيه استرلينى مقابل المقال الواحد بقلم أديب فى مثل شهرتك . فإن كتبت لهم

خلال زيارتك عشر مقالات أو عشرين أمكنك سداد كافة نفقات الإقامة ، والتردد على ماشئت من المسارح والملاهى ، وشراء كل ما تحتاج إليه وتحتاج إليه زوجتك من ملابس للسنة القادمة .

ـ أواثق أنت مما تقول ؟

ـ سيدى ، كلنا نفعل ذلك . وأخبرك لكى يطمئن قلبك أننى أعتزم أيضا السفر إلى لندن هذا الصيف ، ولن آخذ معى أكثر من أجرة التاكسى من مطار هيثرو إلى الفندق !

* * *

توكلت على الله وعلى نصيحة أديب مرزوق وسافرت إلى لندن متوجها فور وصولى إلى فندق « تشرشل » الشهير الفاخر . فما أن قادونى إلى غرفتى ، وصعدوا إليها بحقائبى ، وأغلقوا الباب وراءهم ، حتى رفعت سماعة التليفون أطلب عدنان الشربتلى رئيس تحرير صحيفة « صوت الحق » السعودية ، أخبره أنى فى مهمة فى لندن منذ أسبوعين أو ثلاثة ، وأنى رأيت أنه من قلة الذوق أن أكون فيها أو أن أغادرها دون أن أتصل به لأحييه .

وكان أن أصر الشربتلى على أن أنتهز فرصة وجودى فى لندن فأكتب بعض المقالات لـ « صوت الحق » مقابل سبعمائة جنيه استرلينى عن كل مقال يشغل نصف صفحة من الجريدة .. وقد بدأت بالاعتذار اليه بسبب كثرة مشاغلى فى لندن ، ثم انتقلت إلى وعده إزاء الحاحه الشديد بأن أفكر فى الأمر ، وأن أبذل كل ماق وسعى من أجل تحقيق رغبته ، وانتهيت بالموافقة على طلبه وإخطاره بأنى سأحضر بالمقال إلى مكتبه بعد يومين ، ثم أوافيه على مدى شهر مايو بأكمله بمقال كل ثلاثة أيام .

وسألته فى ختام المحادثة عن الموضوعات التى يفضل أن أكتب فيها، فأجاب بأن كل مايخرج من قلمى يرحبون به .

قلت : ما رأيك فى موضوع « أثر العرب فى تقدم صناعه السجاد فى الأندلس فى القرن الثالث عشر » ؟

تردد الشربتلى بعض الوقت ثم قال :ـ الحقيقة أننا نفضل المقالات السياسية . خاصة فى الظروف الراهنة . ماقولك فى موضوع « أثر نظام صدام حسين فى تدهور الصناعة والزراعة والتجارة فى العراق فى الثمانينات من هذا القرن » ؟

قلت : وهو كذلك .

* * *

أخذت المقال ظهر يوم الثلاثاء إلى مقر الجريدة فى حي «نايتسبريدج » ، وسألت فى الصالة الخارجية عن الأستاذ عدنان الشربتلى .

ـ الأستاذ عدنان الشربتلى تعيش أنت .. اغتاله شاب يمنى مساء أول أمس وهو جالس فى حديقة منزله .. هل تريد مقابلة رئيس التحرير الجديد؟

ـ أتم بالفعل تعيين رئيس تحرير جديد ؟

ـ نعم .. الأستاذ منصور التكريتى .

ـ عراقى ؟!!

ـ أجل . لقد اشترت الحكومة العراقية الجريدة وتولت إدارتها منذ ظهر أمس .

ـ هل غيرتم إسم الجريدة ؟

ـ لا . إنه كما هو : « صوت الحق » .. تفضل بالدخول . سيكون السيد التكريتى سعيدا بمقابلتك .

دسست المظروف الذى بداخله المقال فى جيب سترتى ، ودخلت على الأستاذ التكريتى الذى هب لمقابلتى مرحبا :

ـ فرصة سعيدة جدا يا أستاذ حسين. وإن شاء الله يكون هناك تعاون دائم فيما بيننا . هل لنا أن نطمع فى مقالات منك ؟

ـ هناك موضوعات معينة تفضلون أن أتناولها ؟

ـ كل ماتجود به علينا نرحب به .

ـ مارأيك فى موضوع :« موقف أبى العلاء المعرى من المظالم السياسية فى المجتمع فى عصره » ؟

تردد التكريتى بعض الوقت ثم قال :

ـ الحقيقة أننا نفضل المقالات السياسية ، خاصة فى الظروف الحالية .. ماقولك فى موضوع « المظالم الإجتماعية والسياسية » فى سوريا فى عهد حافظ الأسد ؟

قلت : وهو كذلك ... سيكون المقال عندك خلال يومين .

* * *

توجهت إلى الجريدة ظهر الخميس حاملا المقال فى يدى . وعندما طلبت مقابلة السيد التكريتى أصابنى الفزع إذ أخبرنى السكرتير أن العراق قد عدل فى اللحظة الأخيرة عن إتمام صفقة شراء « صوت الحق » ، وأن حزب البعث السورى هو الذى اشترى الجريدة .

وأصر السكرتير على أن أدخل لمقابلة رئيس التحرير الجديد السيد فاضل الحلبى . أخفيت المقال فى جيب سترتى ودخلت مكتب الأستاذ الحلبى .

ـ هناك موضوعات معينة تريدوننى أن أكتب فيها ؟ .. ترحبون بأى موضوع ؟ .. مارأيك إذن فى موضوع : « أثر نشأة المتنبى فى مدينة الكوفة فى شعره » ؟

ـ الحقيقة أننا فى « صوت الحق » نفضل الموضوعات السياسية .. مارأيك أنت فى موضوع : « المذبحة التى دبرها النظام العراقى ضد ثوار الشيعة فى الكوفة والنجف وكربلاء » ؟

ووعدته بأن أعود إليه بالمقال فى ظرف يومين على الأكثر .

* * *

وتكرر الأمر نفسه معى طوال شهر مايو .. الجريدة لاتزال باسم « صوت الحق»، وملكيتها تنتقل مع ذلك كل يومين من دولة عربية إلى دولة عربية معادية ، والمقالات أكتبها ولا أسلمها ، وحسابى فى فندق « تشرشل» يتضخم ويتضخم ويتضخم ...

وفى يوم ٣١ مايو ، حين توجهت إلى « صوت الحق » لأسلّم لإدارتها المغربية المقال الذى طلبته منى عن فضائح جبهة البوليساريو ، إذا بكافة الوجوه فى الصالة الخارجية من مقر الجريدة قد تغيرت ، وحلت محلها وجوه يابانية !

وعلمت منهم أن اليابان قد اشترت مقر الجريدة ومطبعتها العربية ، وغيرت إسمها إلى « مجلة الدراسات العربية واليابانية» .. وعندما علموا منى أنى كاتب من مصر وأن تخصصى هو فى الإسلاميات ، أدخلونى على رئيس

التحرير الياباني « يوتاكا تازاوا» ، الذى طلب منى أن أكتب للمجلة .

قلت : هناك موضوعات معينة تريدوننى أن أكتب فيها ؟

ـ نعم.. نريد موضوعات فى الحضارة الإسلامية .. ما رأيك لو بدأت بموضوع : « أثر العرب فى تقدم صناعة السجاد فى الأندلس فى القرن الثالث عشر»؟

مارلبـــورو !

تناولت ، وأنا راقد فى الفراش ، عدد ١٠ مارس ٩١ من صحيفة «الأوروبى » ، أقرأ مقالا عن القلاقل التى أثارها عمال مناجم الفحم فى جمهوريتى روسيا وأوكرانيا السوفيتيتين ، مطالبين بزيادة أجورهم بنسبة ٢٥٠٪ وتحسين أحوالهم المعيشية ، ويحتجون على عدم تنفيذ جورباتشوف لوعوده لهم عام ١٩٨٩ . وقد لفت نظرى بالأخص فقرة تذكر أن عضوا بلجنة تنظيم الإضراب بمنجم « أكتوبر » بأوكرانيا(واسمه سيرجى يفشين) صرح بقوله : « إننا نعمل فى ظل ظروف بالغة الصعوبة والخطورة ، ونتقاضى مرتبات ضئيلة إلى درجة مضحكة . وقد كنا معشر العمال نرقب فى التليفزيون ـ وقد أكل قلوبنا الحسد ـ منظر الجنود الأمريكيين فى حرب الخليج وهم يوزعون علب سجائر المارلبورو على سجناء الحرب العراقيين ... فالكثيرون منا عليهم أن يقضوا نوبات عمل كاملة تحت الأرض ليتمكنوا من كسب مايعادل ثمن علبة مارلبورو واحدة .. ونحن الآن نتطلع إلى أن نسلم أنفسنا للأمريكيين كى نتمتع بنفس المزايا التى يتمتع بها الأسرى العراقيون المحظوظون ..»

* * *

ثم غلب علىّ النعاس فنحيت الجريدة جانبا ونمت .. فإذا بى أرى فى منامى الجنرال نورمان شوارتزكوف متجها فى عجلة إلى مكتب المدير

الأمريكى لمخزن بيع الأطعمة والمشروبات والسجائر لجنود قوات الحلفاء فى بلدة الخافجى بالمملكة السعودية .

قال شوارتزكوف للرجل :

ـ أعطنى بسرعة ألف خرطوشة سجائر مارلبورو .

ـ الرفوف خالية من السجائر يا جنرال .. آخر دفعة فرقناها على الجنود العراقيين الذين وقعوا فى أسرنا منذ أسبوع .

ـ لا أصدق .

ـ تعال فانظر بنفسك .

ـ ولكنهم يسلمون أنفسهم لنا من أجل سجائر المارلبورو يارجل .. وقد سلم هذا الصباح ثلاثة آلاف جندى عراقى أنفسهم ، وكاميرات السى . إن. إن جاهزة لتصويرنا ونحن نفرق علب السجائر عليهم .

ـ هو شىء مؤسف حقا ياجنرال ، ولكن هذا هوالوضع .. ماعليكم إلا أن تأمروا الطائرات بإسقاط منشورات على مواقع الحشود العراقية تذكر أن توزيع المارلبورو متوقف فى الوقت الراهن إلى حين وصول المزيد من الشحنات من الولايات المتحدة ، وأنه على الجنود العراقيين الراغبين فى تسليم أنفسهم الأنتظار حتى نخطرهم بوصولها .

ـ لا أستطيع أن أفعل ذلك .. إننا نريدهم أن يسلموا أنفسهم حتى تنهار جبهتهم العسكرية فى أقصر وقت ممكن ، ونضطر صدام حسين إلى الاستسلام وقبول شروط قوات التحالف .

ـ آسف ياجنرال . عليك إذن إرسال تليكس إلى وزارة الدفاع الأمريكية للإسراع بإرسال كميات جديدة من الذخيرة .. أقصد من السجائر .

ـ قد يستغرق ذلك أربعة أو خمسة أيام كان يمكن فيها أن يستسلم نحو ستين ألف جندى عراقى أضاف على الأقل .. وكنا قد وعدنا الجنود العراقيين بأنهم متى استسلموا لصالح بناء صرح الديمقراطية فى بلادهم ، فسنزودهم بكل مايحتاجون إليه من أجل هذا البناء .

ـ ولا غنى عن المارلبورو من أجل بناء صرح الديموقراطية ؟

ـ أفى شك أنت من ذلك ؟ بالتأكيد .. أنظر إلى ألمانيا الشرقية، بولندا، المجر، بلغاريا، رومانيا، الاتحاد السوفييتى نفسه .

ـ إسمع ياجنرال ! أنا مجرد خازن للسلع ولا أصنعها . والرفوف خالية كما ترى . وعلى القوات المتحالفة قبل أن تدعو العراقيين إلى الاستسلام من أجل بناء صرح الديمقراطية ، أن تسألنى أولا عن عدد خراطيش المارلبورو المتبقية فى المخزن .

ـ يا للداهية ! الحقيقة أننا لم نكن نتوقع كل هذا العدد من الأسرى .. كنا نتوقع عشرة آلاف أو عشرين على الأكثر ، فزاد العدد على أربعين ألف رجل حتى اليوم .. ثم هل تعلم أن المئات من المدنيين الإيرانيين يعبرون الحدود الآن إلينا متظاهرين بأنهم جنود عراقيون يستسلمون لقواتنا حتى يحصلوا على سجائر المارلبورو ؟

ـ ما شاء الله ! وربما اتاكم غدا أيضا مؤيدو بنازير بوتو فى باكستان، ومعارضو جورباتشوف فى الاتحاد السوفييتى يقولون إنهم قرروا محاربة النظام القائم فيهما من أجل بناء صرح نظام ديموقراطى .. ماذا ستفعل عندئذ ؟

ـ سنقول لهم إن لكل بلد وقتا ، وأن عليهم الالتزام حاليا بالهدوء والانتظار إلى مابعد إنتهاء حرب الخليج .

ـ وإلى حين وصول شحنات جديدة من المارلبورو .

ـ بالضبط .

ـ ولكن ألا تذكر ماحدث فى أوروبا الشرقية عام ١٩٨٩ ؟ كنا نظنها بولندا فقط، فإذا بسائر دولة الكتلة تنهار واحدة إثر واحدة فى ظرف أسابيع قليلة ، ولم تستطع كل مصانع المارلبورو فى الولايات المتحدة أن توفى باحتياجاتها جميعا ، واضطررنا إلى إخبار الثوار أن عليهم ألا يتوقعوا أن تتحسن أحوالهم المعيشية دفعة واحدة بعد سقوط النظام الشيوعى فى بلادهم.

ـ هذا حق .. من كان يتوقع انهيار كل تلك الأنظمة فى مثل ذلك الزمن القصير ؟

ـ تصور ياجنرال لو أن التمرد فى الصين كان قد نجح أيضا فى نفس الوقت الذي إنهارت فيه الأنظمة الشيوعية فى أوروبا الشرقية .. كيف كان يمكن لشركة مارلبورو أن تتصدى لمثل ذلك الوضع ؟

ـ نحمد الله أن التمرد قد أخمد .

ـ طيب إسمع ! لماذا لا تصدرون سندات للجنود الأسرى تعدونهم فيها بصرف كذا وكذا خرطوشة مارلبورو فور وصول الشحنات ؟

ـ همممم ! ممكن، شرط أن تكون لدى الجنود العراقيين ثقة فى السندات الأمريكية ..

ـ وفى النوايا الأمريكية .

ـ صحيح .

فى هذه اللحظة دخلت جندية أمريكية أدت التحية العسكرية للجنرال شوارتزكوف :

ـ سيدى ! مندوب من حركة مجاهدى خلق الإيرانية يريد التحدث إليكم .

صاح شوارتزكوف :

ـ قولى له لا سجائر مارلبورو للحركة حتى تنتهى الحرب مع العراق. وهذا هو آخر كلام .. ياناس ! ياهو ! إفهمونى ! حتى الولايات المتحدة الأمريكية ليس بوسعها توزيع المارلبورو على جبهتين من جبهات القتال فى وقت واحد .

قالت الجندية :

ـ هو يزعم أن جيمس بيكر وعده فى يوليو الماضى أثناء لقاء بينهما فى واشنجطون بإمداد الحركة بسبعين ألف خرطوشة مارلبورو إن هى صعدت مقاومتها للنظام الإسلامى فى إيران .. وهو يسأل عما إذا كان باستطاعته تسلم نصف هذه الكمية الآن مادامت القوات الأريكية قد أضحت قريبة من الحدود الإيرانية .

ـ كذاب ! لقد كنت حاضرا فى هذا اللقاء ، ولم يعده جيمس بيكر بأى شىء من هذا القبيل .. وعلى أى حال فليست لدينا الآن ذخيرة تكفى الأسرى العراقيين أنفسهم .

وتنهد الجنرال شوارتزكوف حين خرجت الجندية ثم قال :

ـ ما السبب فى أنه كلما أشعل المناضلون من أجل الديموقراطية ثورتهم فى أى مكان ، جاءوا إلى الولايات المتحدة يطالبونها بالخيرات ؟

ـ خبروهم إذن أن عليهم من الآن فصاعدا الاعتماد على أنفسهم ،

والاكتفاء ببناء صرح الديموقراطية .

ـ أتظنهم كانوا يثورون ضد أنظمتهم الفاشية لولا عشمهم فينا ؟

ـ على أى حال ، فالرفوف كما أخبرتك خالية كفؤاد أم موسى .

ـ يادى الداهية ! ماذا عساى أن أقوله أمام كاميرات السى.إن.إن؟ سيوبخنى الرئيس بوش لأنى لم أتوقع سلفا هذا العدد الكبير من الأسرى فأطلب كميات كافية من المارلبورو فى الوقت المناسب .. أتعلم عواقب ماتقوله لى الآن ؟ عمال مناجم الفحم فى جمهوريتى روسيا وأوكرانيا قد يوقفون إضرابهم متى علموا أننا توقفنا عن توزيع المارلبوو على الأسرى العراقيين ! وسأكون أنا المسئول أمام البيت الأبيض عن تأخر انفصال هاتين الجمهوريتين عن الاتحاد السوفييتى! .. أيرضيك هذا ؟

ـ بالطبع لا .

ـ فما العمل ؟

ـ توزع على الأسرى الجدد بطاقات كتب عليها « التدخين ضار جدا بالصحة ! »

ـ ها ها ! وأفرّجهم على أشرطة فيديو توضح علاقة التدخين بالسرطان ! .. هم ياسيدى الفاضل يريدون المارلبورو ، ولا شيء غير المارلبورو ، وهم بدون المارلبورو على استعداد للدفاع عن حق العراق فى الكويت حتى آخر قطرة من دمائهم .

ـ أوكى ! فليحاربوا إذن وسنريهم .. أردنا الديموقراطية وأرادوا المارلبورو. ولا بد للديموقراطية فى نهاية المطاف من أن تنتصر كما قال الرئيس توماس جيفرسون عام ١٨٠٨ فى خطابه إلى الأمة .

أقــواس

دعتنى جمعية البحوث والدراسات السياسية لإلقاء كلمة فيها مساء الأربعاء الماضى فى ندوة عن أزمة الخليج .. والواقع أنى تسرعت إذ قبلت الدعوة . فقد كانت الأيام السابقة على موعد المحاضرة حافلة بالمشاغل والارتباطات مما لم يتح لى فرصة لإعدادها .. فما أن حل مساء الثلاثاء دون أن أكتب كلمة واحدة منها ،حتى اتصلت بصديقى بليغ السياب لأرجوه ـ كما هى عادتى فى مثل تلك الظروف ـ أن يتولى نيابة عنى إعداد المحاضرة، ثم أمر عليه فى مكتبه لآخذها منه وأنا فى طريقى إلى جمعية البحوث والدراسات.

وبالفعل ، مررت على بليغ فى نحو الخامسة والنصف من مساء الأربعاء . فما أن رآنى حتى فتح درج مكتبه ، وأخرج منه المحاضرة مكتوبة على الآلة الكاتبة ، وناولنى إياها . وإذ شكرته وهممت بالإنصراف، صاح بى :

ـ على فكرة ، لقد نسيت أن تخبرنى أثناء مكالمتك التليفونية مساء أمس عما إذا كانت مشاعرك إزاء حرب الخليج هى مع العراق، أم مع الكويت وقوات التحالف .

ـ يا نهار أسود ! فكيف كتبتها إذن ؟ ولماذا لم تتصل بى تليفونيا لسؤالى ؟

ـ اتصلت بك صباح اليوم فلم أجدك ... على كل الأحوال لا تقلق . فقد كتبتها بطريقة تصلح لكلتا الحالتين .. ماعليك إن كانت عواطفك مع

الكويت وقوات التحالف إلا أن تشطب الكلمات الموضوعة بين قوسين ، وإن كانت عواطفك مع العراق إلا أن تقرأ مابين القوسين وتشطب الكلمات السابقة مباشرة عليها .

- برافو!

- فإن لم تكن مشاعرك الحقيقية مع هذا الجانب أو ذاك ، فإنى أنصحك أن تقف بعض الوقت قبل المحاضرة مع جمهور الحاضرين لتعرف اتجاه الأغلبية منهم : إن كانت من الرسميين أو الوفديين أو رجال الصحف القومية شطبت الكلمات بين الأقواس ، وإن كانت من أصحاب اللحى أو حزب العمل شطبت ماقبل الأقواس .. مفهوم ؟

- مفهوم .

ثم تركته إلى الجمعية لألقى الكلمة التى أورد فى ما يلى نصها:

* * *

أيها الإخوة والأخوات :

إنه حقا لمن دواعى غبطتى (تعاستى) الزائدة، أن أتحدث إليكم فى هذه الظروف المجيدة (العصيبة) التى نحياها اليوم .. ولا شك فى أنكم جميعا توافقوننى على أن منطقتنا العربية ، بل والعالم كله ، يمران بمرحلة من أدق وأزهى (أحلك) المراحل فى التاريخ بأسره : مرحلة انتصار الحق على الباطل (الباطل على الحق) ، والإيمان على القوة الغاشمة (القوة الغاشمة على الإيمان) ، والعدل على الظلم (الظلم على العدل) والديموقراطية على الفاشية) (الفاشية على الديموقراطية).. وهى مرحلة لا شك فى أنها تبشر

(تنذر) بأن يسود النظام العالمى الجديد الذى نشهد الآن فجره مبدأ سيادة القانون (قانون الغابة)، وغلبته على كل ماعداه.

إننى إذ أراقب من فوق هذه المنصة وجوهكم المتهللة (العابسة)، وطلعتكم الباسمة (البائسة) لأشارككم الإحساس بالبهجة والفخار (بالخزى والعار) إذ تتناهى إلينا أخبار ذلك الهجوم الرائع (العدوان الشرس) الذى شنته القوات الحليفة على العراق (العراق الشقيق)، وتلك الانتصارات (الإعتداءات) المدوية على (من جانب) قوى الخيانة والغدر، بعد أشهر طويلة من الاستعدادات الضخمة من أجل تحرير (استئصال) الكويت من ربقة الاستعمار العراقى (وحدته مع الشعب العراقى)، وإعادة الحكومة الشرعية (غير الشرعية) إليه.

وليس عندى أدنى شك فى أن الشعب الكويتى (العراقى) العظيم يواجه الآن مهمة لم يواجه مثلها فى تاريخه قط، مهمة عظيمة خليقة بأمجاده السالفة، وهى إعادة بناء الكويت (العراق) بعد الخراب الهائل الذى لحقه على يد المعتدين الآثمين من العراقيين (القوات المتحالفة). غير أننا كلنا ثقة فى أن شعب الكويت (العراق) سينهض بمسئولياته الجسيمة باقتدار وعلى خير وجه،بزعامة سمو الأمير جابر الأحمد (الرئيس صدام) حفظه الله، ونصره على أعدائه، ليعيد إلى الكويت (العراق) مجده القديم.

إن التعتيم الاعلامى الذى فرضه قادة النظام العراقى(قادة التحالف الدولى) طوال أسابيع النضال، كان المقصود به إخفاء الجرائم التى اقترفوها داخل الكويت (العراق) على يد حثالة من الجنود باعوا ضمائرهم للشيطان الأكبر صدام حسين (جورج بوش)، وداروا فى البلاد يقتلون الشيوخ والنساء والأطفال من الأهالى المدنيين العزل .. غير أن الله سبحانه وتعالى الذى

نؤمن به ، ونصدق كتابه ، ويشمل شعبنا بعطفه ورضاه، لم (لن) يقبل لنا المهانة والمذلة . فهو يقول فى كتابه العزيز « وكان حقا علينا نصر المؤمنين» («وهم من بعد غلبهم سيغلبون ») .. إنه عز وجل قد كلل (سيكلل) جهودنا وعزائمنا بالظفر ، وألحق (سيلحق) بقوى الظلم والطغيان الهزيمة ، وسيدخل الشهداء منا الجنة ،ويدخل قتلاهم النار خالدين فيها أبدا ... إنه على كل شىء قدير .

* * *

أيها الإخوة والأخوات :

فى هذه المناسبة السعيدة (المؤلمة) لا يسعنى إلا أن أعبر عما أشعر وتشعرون جميعا به من تقدير واعتزاز (من مرارة وأسف) للدور البطولى (الإجرامى) الذى لعبته بعض الدول العربية (التى تدعى الانتساب إلى العروبة) فى أزمة الخليج ، ومبادرتها بإرسال قواتها إلى الكويت (المحافظة التاسعة عشرة) لتحريرها (لاقتطاعها) من العراق، وهو مانرى فيه تعبيرا أكيداً (انتهاكا صريحا) لرغبة ومشاعر الرأى العام فيها الذى هبت جموعه وحشوده هبة رجل واحد لتناصر قضية الكويت (العراق) العادلة ، وتدعو إلى مقاومة قوى البغى، خاصة بعد أن اطلعت على مانقلته وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة من مناظر وأخبار وقصص عن الجرائم الرهيبة التى ارتكبتها القوات العراقية (المتحالفة) فى الكويت (فى العراق) . وهى جرائم تكشف عن بشاعة (النظام العراقى) (النظام العالمى الجديد) الذى يجلس على قمته صدام حسين (جورج بوش) وتكتوى الأمة العراقية

(الإنسانية) المغلوبة على أمرها بناره ، والذى تقع عليه مسئولية ما أريق من دماء ، وما أزهق من أرواح ، وخرب من ديار .

كذلك فإنى أكون مقصرا لو لم أذكر ذلك التأييد المخزى (النبيل) الذى لقيه العراق من جانب منظمة التحرير الفلسطينية وبعض الدول التى تدعى الانتساب إلى العروبة (وبعض الدول العربية الشقيقة) كالسودان والجزائر والأردن، وبعض الجماعات الإسلامية الضالة المضلة (المؤمنة الطاهرة)، التى زعمت بحمقها (رأت بحكمتها) أن احتلال (ضم) العراق للكويت هو الطريق الأنسب لتحرير فلسطين المحتلة من أيدى الصهاينة . ولا أدل على حماقة(حكمة) هذه النظرة من أن القضية الفلسطينية قد أخذت طريقها بعد أحداث الأشهر السبعة الماضية ، ونتيجة لسياسة العراق ، إلى سلة المهملات الدولية (إلى قمة المشاغل الدولية)

* * *

أيها السيدات والسادة:

فلنتضرع جميعا إلى الله عزت قدرته أن يحمى الكويت (العراق) من المؤامرات التى يحيكها أعداؤه، وأن يتمكن أبناؤه البررة، بمعاونة الدول الصديقة ، من أن يعيدوا فى القريب العاجل بناءه ، حتى يحتل من جديد مكانته الرفيعة المرموقة بين الدول ، ويسهم فى بناء (مقاومة) النظام العالمى الجديد .

وشكرا لجميل استماعكم.

لحظة من فضلك

حين استُدعى ابن خالتى أبو المعاطى الشيخ (الشهير فى قريتنا بالأهبل) للخدمة فى القوات المصرية المتجهة لحرب العراق ، أرسلوه أولا للكشف الطبى ، فنظر الطبيب فى حلقه ، وخبط ثلاث مرات على صدره وأمره بخلع سرواله ، ثم سجل فى الورقة أمامه انه لائق بدنيا .. ثم أدخلوه الحمام وألبسوه البزة العسكرية ، وسلموه بندقية .

قال الضابط له :

- أنت الآن على أهبة الاستعداد

- الاستعداد لماذا ؟

- للذهاب الى الميدان والاشتراك فى المعركة .

سأله أبو المعاطى فى سذاجة :

- أية معركة؟ معركة ضد من؟

- ضد العدو.

- إسمح لى أن أسأل من هو ذلك العدو ؟ صحيح أنه كان بينى وبين الشيخ حسنين أبو طبق خلاف حول حدود أرضنا ، غير أننا سوينا ذلك الخلاف فى الأسبوع الماضى .

- العدو العراقى يا أهبل !

- العدو العراقى ؟ إسمح لى أن أذكر لسيادتك أنه لو كان من المحتم ، أومن المصلحة ، أن أطلق النار على أحد ، فسأطلق النار بلا تردد . ولكنى أجد من الضرورى أن أعرف جيدا هوية هذا الذى سأطلق النار عليه . من هو ؟ وما اسمه ؟ هل هو متزوج أم أعزب ؟ ألديه أطفال ؟ ما مهنته ؟ ما سنّه ؟ وأى صنف من الناس هو ؟ .. ليس لدىّ اعتراض على إطلاق النار عليه ، ولكن لا أظننى أستطيع أن أقتل إنسانا لا أعرف عنه شيئا .

قال الضابط :

- كلام منطقى ومعقول ، وسنلبى رغبتك .. لدينا ملفات تحوى معلومات عن كل أفراد القوات العراقية فى الكويت ، وسنعطيك ملف أحدهم لتدرسه الليلة ، ثم تأتى إلينا صباح غد فنرسلك لقتله .. هاك الملف! ملف الجاويش عدنان عبد الحسين، وفيه أيضا صورة فوتوغرافية له .

وعاد أبو المعاطى إلى الضابط فى اليوم التالى ، فألقى الملف على مكتبه وهو يقول :

- لا ياسيدى .. لا أستطيع قتل هذا الرجل . فهو إنسان فاضل . بل إننى حين درست حالته وجدت نفسى أحبه حبى لأخى عبد الرحمن .. إنه نجّار ، متزوج وله أربعة أطفال يعبدهم ويعبدونه ، وهوايته فى أوقات فراغه الغناء وكتابة الأزجال .. أزجال الوزن فيها معيب ، غير أنها مؤثرة . وهو ليس بعثيا ، بل هو يكره نظام صدام حسين . وإنما أخذوه إلى الكويت قسراً ودون إرادته، ووضعوه فى الصفوف الأولى لأنه شيعى ويهمّ النظام أن يتخلص منه .

قال الضابط (وكان رجلا متزنا عاقلا) :

- وهو كذلك .. سنعطيك ملف جندى عراقى آخر لكى تدرسه هذا المساء، ثم تعود إلينا فى الصباح فنرسلك إلى الميدان وتقتله .

وتوجه الضابط إلى صوان الملفات ، وقضى وقتا طويلا عنده يبحث عن عدو لائق من بين الجنود العراقيين .. وأخيرا وجد الرجل المناسب .

- خذ ملف هذا الجندى . إنه رجل سيسعد أىّ إنسان منا أن يقتله .. أدرس حالته الليلة ، فإن اقتنعت بأنه يستأهل القتل فتعال إلينا لنرسلك لإطلاق النار عليه .

أخذ ابن خالتى الملف ، ودرسه بعناية شديدة طوال الليل .. كان هذا الجندى حقيرا حقا ، اسمه سالم الأعظمى ، سكير عربيد ، يقضى جلّ أمسياته فى الحانات يشرب الخمر ، ثم يعود الى داره فيضرب زوجته وأطفاله . وهو بالإضافة الى ذلك رجل منحرف ، لص ، كسول ، وبخيل ، قذر الهيئة ، بذىء اللسان .

وعاد ابن خالتى إلى الضابط فى الصباح ، وقال بعد أن وضع الملف على مكتبه :

- نعم ! هذا الشخص لا شك فى أنه دنىء قذر ، وما من سبب هناك يحول بينى وبين أن أقتله .. إنه فى الواقع أحقر إنسان سمعت به فى حياتى .

انفرجت أسارير الضابط وتنفس الصعداء :

- كنت واثقا من أنك ستقول هذا ..والآن خذ بندقيتك واذهب الى الميدان لقتله .

قال أبو المعاطى :

- لحظة من فضلك .. فحتى أسوأ الناس خلقا من حقه أن يعطى

فرصة.. وقد قضيت ساعتين بعد صلاة الفجر فى كتابة هذا الخطاب اليه أدعوه فيه الى مراجعة نفسه والتوبة عن مسلكه الشائن وأعطيه مهلة ثلاثة أشهر إن لم ينصلح خلالها حاله توجهت إلى ميدان الحرب لأقتله .

ومرة أخرى وجد الضابط كلام ابن خالتى منطقيا مقنعا، فسمح له بالعودة الى داره والانتظار فيها ثلاثة أشهر .

غير ان الذى حدث هو انه خلال الشهر الثالث من الانتظار، أصيب الجندى العراقى سالم الأعظمى بتسمم وإسهال شديد نتيجة أكلة فاسدة تناولها فى الجبهة الكويتية، ثم مات .. وعندما عاد ابن خالتى الى الضابط ليأخذ ملف جندى عراقى ثالث، كانت الحرب مع العراق قد انتهت ولم تعد ثمة حاجة إلى تجنيده .

الاتجار بالدين

... وبعد أسبوع من منع عرض مسرحية « طرطوف »، مثلوا فى القصر مسرحية أخرى هى «سكاراموش الراهب » . وإذ تهيأ الملك للانصراف بعد انتهائها التفت الى أحد كبار النبلاء قائلاً له : « أولئك الذين أغضبتهم مسرحية موليير، لِمَ لَمْ ينبسوا بكلمة واحدة ضد مسرحية سكاراموش؟» فأجاب النبيل «السبب هو أن مسرحية سكاراموش» تسخر من الدين، وهؤلاء السادة المتاجرون بالدين لا يهمهم الدين فى شىء. أما مسرحية «طرطوف » فتسخر منهم هم، وهو ما ليس بوسعهم أن يقبلوه » .

– من مقدمة موليير لطبعة عام ١٦٦٩ لمسرحية « طرطوف »

● ● ●

طيران طويل الأمد فوق مساحات شاسعة من الصحارى الجرداء . ثم نتطلع من شباك الطائرة فإذا الصحراء القاحلة تنتهى فجأة عند دائرة عظيمة خضراء هى مدينة لوس أنجلوس، تبدو من الجو كبقعة كبيرة من الحبر الأخضر على ورقة غبراء . والتفت الى جارتى الأمريكية أسألها كيف عجزت الصحراء عن ابتلاع هذه الخضرة .

– ستكتشف السر بنفسك بعد يوم واحد أو يومين من تجوالك با لمدينة . سترى فيها الحدائق الخضراء متتالية دون انقطاع . خضراء صيف شتاء . وقد تلحظ مرشات الماء فى كل منها ترش الماء بحركة دائرية في كل اتجاه صباحا

ومساء وبغير توقف . غير أن الغالب أنك ستنسى أمرها فتحسب الخضرة نتاجا طبيعيا للأمطار . ثم تدهش حين تعلم أن المنطقة لا تكاد تعرف المطر فى أى من فصول السنة، وأن هذه الخضرة المترامية كلها هى بفضل رى الانسان الدائم الدائب لها . ويظهر لك الدليل بعد ذلك حين تمر بأرض مهجورة دون بناء أو زرع، قد تركها صاحبها على حالها على أمل ارتفاع سعرها فيبيعها، فإذا هى قطعة من الصحراء فى جفاف الموت، لا نبت فيها غير أشواك وأعشاب مدببه كالأبر . حينئذ تدرك مصير هذه الخضرة العظيمة لولا جهد الانسان، وتدرك أن الصحراء إنما تحيط بها متربّصة فى انتظار بادرة غفلة أو إهمال، حتى تطيح بها كما يطيح قرنا الثور بمصارعه الذى أدار له ظهره كى يرد تحية الجمهور .

هذه الكلمات القليلة التى سمعتها من جارتى الأمريكية كان المقدر لها أن تكون أوفى تلخيص وأبلغه لما رأيته من حال الإسلام فى ولاية كاليفورنيا خلال إقامتى بها التى امتدت ثلاثة أسابيع .

ولمعت عينا المرأة وقد خطرت فجأة فى ذهنها فكرة :

– ألا ترى معى كيف ينطبق هذا المثل على علاقة عقل الانسان بغرائزه، وعلى علاقة المدنية الحديثة بالطبيعة الأصلية للإنسان ؟ إنه مهما بلغ العقل وبلغت المدنية من رفعة الشأن، فهما مجرد قشرة رقيقة هشة فوق بركان عظيم يتأهب لأن يقذف بحممه . فإذا القشرة وغير القشرة وقد أطاحت بهما الحمم وجرفتهما أمامها فى مثل لمح البصر .

أليس هذا بالضبط هو ما حدث فى ألمانيا المتحضرة وقت هتلر ؟ وفى الولايات المتحدة خلال الحرب الأهلية وفى فتنة المكارثية ؟ وعندكم ؟ ألم يحدث شيء من هذا القبيل فى بلادكم أيضاً ؟

وحاولت أن أفكر فى قشرة تغطى عندنا فوهة البركان فلم أوفق . غير أنى هززت رأسى مؤمنا على كلامها، ولم أخبرها أن الحمم فى بلادنا متواترة لا تنقطع، ولا يعترض سبيلها شيء.

- من أى بلد أنت ؟

- من مصر .

- أقادم أنت إلى لوس أنجلوس فى عمل ؟

- لإلقاء محاضرات فى الإسلام بدعوة من المراكز الاسلامية بولاية كاليفورنيا .

- آه ! فأنت إذن واحد من هؤلاء !

- واحد من هؤلاء؟!

قالت وهى تضحك :

- لا تؤاخذنى، إنما أنا أمزح . فالاتجار بالدين قد أضحى اليوم من أكثر المهن إدراراً للربح فى الولايات المتحدة، والكثيرون من الأمريكيين قد أداروا ظهورهم لأعمال المقاولات والانشاءات ومضاربات البورصة وغيرها إذ رأوها غير مجزية، واتجهوا الى الاتجار بالدين سعيا وراء تكوين الثروات الطائلة .. لابد أنك قد سمعت عن صن ميونج مون وكنيسته . هو رجل أعمال من كوريا الجنوبية، كان على علاقة وثيقة وهو بعد فى كوريا بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية . ثم جاء الى الولايات المتحدة عام ١٩٧٣ ليؤسس فيها دينا جديدا يعرف باسم « كنيسة التوحيد »، وطلع على الناس بكتاب زعم أنه سماوى، هو « المبدأ الإلهى » . هذا المبدأ هو أن الله نجم عن اتحاد قوى الذكورة والأنوثة، وأن المسيح قد فشل فى رسالته اذ مات قبل أن يتزوج،

وبالتالى فقد صار من المحتم إرسال مسيح آخر . وسيأتى المسيح هذه المرة من كوريا، إسرائيل الجديدة، ويكون عام مولده هو ١٩٢٠، (وهو بالمصادفة العام الذى ولد فيه صن ميونج مون !)، وما تقسيم كوريا الى دولتين متصارعتين غير تعبير عن الفرقة بين عالمين : عالم الظلام والشر وعالم النور والخير .

لهذا الرجل من الأتباع اليوم حوالى مليونين ، وله من الدولارات أضعاف أضعاف هذا العدد، جمعها من ريع كتبه الهزيلة التى يقبل عليها المؤمنون إقبالا نهما على شرائها، ومن فوائد المبالغ التى يودعها البنوك ، ومن أرباح شركاته التجارية ومطاعم « البيتزا » التى يمتلكها والمنتشرة فى جميع أنحاء الولايات المتحدة . وقد شجع نجاحه ونجاح جيم جونز فى جيانا الغير على أن يحذوا حذوهما . ذلك أنه من السهل على المرء فى الولايات المتحدة إن ظهر بدين جديد، أى دين مهما كانت سخافة تعاليمه، أن يجمع حوله ما لا يقل عن عشرة آلاف نسمة . أُدْعُ إلى عبادة النمل، أو عبادة النّحل، واشهد بعظمة الخنازير، أو حكمة العصافير، أو قل إنك يوشع قد بعثت من الموت، أو يوحنا المعمدان موفد من الله فى مهمة، وستصدقك فى أمريكا الألوف . حينئذ تعفى ويعفى أتباعك من التجنيد إن قلت إن عبادة النمل تأباه، ويعفى دخلك من الضرائب إن ذكرت أنه مخصص لنشر تعاليم الإله . وحينئذ يكون بوسعك استغلال الدخل فى أوجه النشاط التجارى بدعوى الرغبة فى الاستفادة من هذا الاستثمار من أجل اطعام الخنازير، أو تربية العصافير، فتعفى أرباحك أيضا من الضرائب . فإن التف حولك ما لا يقل عن ألفين من الأتباع، (وهو أمر يسير بالنظر الى تهافت الأرامل بالذات على الانضمام الى مثل هذه الجماعات)، صرت قوة مؤثرة فى الحياة السياسية

الأمريكية : تخطب الأحزاب ودّك، وتسعى الحكومة الى كسب رضاك بمنحك الامتيازات، ومساعدتك على إنجاز مصالحك، حرصا منها على أن يصوت أتباعك فى جانبها فى الانتخابات المقبلة، فإذا بك وقد غدوت مليونيرا فى مثل لمح البصر . فإن ساءك تصرف من قبل الحكومة أو إحدى الهيئات فاصرخ مدعيا الاضطهاد الدينى، وارفع شكواك من الظلم والتمييز الى القضاء وسترى الكافة يتهافتون على ترضيتك ومنحك كل ما ترنو إليه وأكثر .الشىء الوحيد المطلوب لتحقيق كل هذا هو أن تجتذب من الاتباع ألفين . كم عدد أتباعك فى مصر ؟

- عدد أتباعى ؟ !! هممم .. خمسة .

- حاول أن توصل العدد إلى ألفين، وستصبح قوة مؤثرة فى السياسة المصرية، يعمل حسابك الرئيس مبارك، وتعفى من الضرائب ... أم أنه ليس عندكم مثل هذا الاتجار بالدين ؟

- ليس عندنا اتجار بالدين ؟ !! ليس عندنا شىء إن لم يكن عندنا اتجار بالدين !

- جميل . ولكن حاول أن تبتدع ديانة من النوع الذى يستهوى مخيلة الجماهير، وأنت أدرى بطبيعة الشعب عندكم .

- من الصعب إقناع الشعب عندنا باتباع دين جديد غير الإسلام .

- فماذا يصنع المتاجرون بالدين إذن ؟

- وسائلهم شتى . أكثر فى الواقع من أن تقع تحت حصر . ولكن كلها فى إطار الاسلام .

- مثل ؟

– بعضهم يلجأ الى التظاهر ردحاً من الزمان باعتناق الماركسية، يناصر الإلحاد، ويهاجم الأديان كلها باعتبارها أفيوناً للشعوب . وفجأة، يعلن على الملأ اهتداءه الى الحق (ودقى يامزيكة !) وأنه بعد حلم رآه، أو مرض خطير اعتراه، تعمق فى القراءة عن الإسلام، فبددت قراءته ما اكتنف عقله من أوهام، فإذا بالحقيقة تبدو سافرة جلية أمام عينيه، وبهاتف يدعوه الى التوبة يملأ أذنيه، ثم إذا به ينشر الكتاب تلو الكتاب عن تجربته الفريدة، وعما عاناه من اضطراب فكرى حتى اهتدى الى أكمل عقيدة . وهو أمر كفيل وحده بأن يضمن رواج كتاباته، ويجمع حوله الآلاف من الشباب الراغب فى الاستفادة من خبراته .

ـ فكرة ممتازة حقا . لماذا لا تحاولها أنت ؟

– باتت حيلة قديمة بعض الشىء، وأضحى من الصعب أن تنطلى على أحد .

– معك حق . لقد حاولها أناس فى الولايات المتحدة أيضا من أمثال هاورد فاست وريتشاد رايت، فحققت كتاباتهم بعد إعلانهم تحولهم عن الشيوعية أضعاف ما حققته قبله من مكاسب . غير أن حماس الأمريكيين لمثل هذا التحول من الظلام الى الحق قد فتر .. فثمة وسائل أخرى ؟

– نعم . فعلى ضوء انتشار التعليم وإدراك عبث التصدى بالإنكار للحقائق العلمية الثابتة مثل نظريات دارون ونيوتون وكوبرنيكوس وأينشتاين، ارتفع عدد المتاجرين بالدين عن طريق الإدعاء بأنه ما من حقيقة كشف عنها العلم الحديث الا وقد تضمنها القرآن أو ألمح اليها الحديث . فالجاذبية الأرضية ذكرها القران فى آية (الله الذى رفع السماوات

بغير عمد ترونها) . ونظرية النسبية ذكرها القرآن فى آية (فلا أقسم بمواقع النجوم) . وتفجير الذرة مذكور فى آية (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين). ونظرية براون الخاصة بالحركة الدائمة للأجسام الدقيقة فى الماء مذكورة فى آية (وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

والأفضل بطبيعة الحال لو كان قائل هذا الكلام عالما أو طبيباً . عندئذ يعظم امتنان العامة له إذ تراه وقد انبرى ليثبت بعلمه الواسع إعجاز القرآن ويقدم على دعواه أقوى برهان . وتظن العامة أن هذا العالم أو الطبيب طلع يدلل على أن العلم يدعو الى الايمان، غيرة منه على الاسلام، ونتيجة لتفقهه وتعمقه فى كل من العلم والقرآن فيعظم إقبالها على شراء مؤلفاته إن كان من المؤلفين، وتتهافت الإذاعة والتليفزيون عليه يطلبان منه إلقاء الأحاديث فى هذا الموضوع المحبب الى قلوب السامعين، وإذا بنفوس السذج وقد مالت إليه ، وبالشهرة والأموال الطائلة وقد تدفقت عليه .

قالت جارتى :

– كلامك ليس غريبا على . فعندنا أيضا فى العالم المسيحى من المذاهب ما يزعم أن الكتاب المقدس يحوى كافة الأسرار العلمية، وأنه تنبأ بكل الأحداث التاريخية .

قلت :

– المصيبة أن هؤلاء القوم مطمئنون إلى أنه ما من أحد سيجرؤ على فضح سخافاتهم، إذ سيتهمونه عندئذ ويتهمه الناس بأنه يشكك فى إعجاز القرآن، ويزعزع من إيمان المسلمين، وكأن القرآن الكريم فى حاجة إلى ان

يشير الى نظرية براون، أو إلى الحديث عن الجاذبية الأرضية والذرة، حتى يطمئن الناس إلى مصدره الإلهى . فإن سألناهم عما عساهم يصنعون لو أن العلماء طلعوا بنظريات جديدة تنقض النظريات الأولى التى زعموا أن القرآن قد أوردها، ردوا بأن تفسيرهم القديم للآيات يكون إذن فاسداً، وإن كان من المؤكد أن ثمة آيات أخرى تشير الى فحوى النظريات الجديدة .

عندكم فى الولايات المتحدة لا يؤمن بمثل هذه الأقوال الحمقاء غير أتباع مذاهب معينة، اتبعوها لأسباب وبواعث معينة . أما عندنا فى العالم الإسلامى، فإن تصديقها غير مقصور على طائفة أو مذهب، وإنما تتقبلها العامة، بل وبعض المسمين بالمثقفين، باعتبارها خير دليل على صحة الإسلام، وتتعلق بها تعلق الغريق بطوق النجاة، وتتهم كل من رفض قبولها بالكفر والإلحاد . وعلى أى حال فقد صدق الله سبحانه وتعالى إذ ما رضى أن يسوى العامة بالانعام حتى جعلها أضل سبيلا.. إذ قال فى كتابه المبين : «أم تحسب أن اكثرهم يسمعون أو يعقلون.. إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلاً».

قالت جارتى :

– ألا تعتقد أنه كثيراً ما يكون المعارض لدين العامة أصدق إيمانا واعظم تقوى من أتباع ذلك الدين ؟ لقد وصف أحد رؤساء الجمهورية السابقين عندنا، وهو تيودور روزفلت، المفكر الكبير توم بين بأنه « ملحد قذر » . ومع ذلك فقد كان « توم بين » أصدق إيمانا وورعا من هذا الذى كفّره . كل ما هناك هو ان تيودور روزفلت لم ينبس فى حياته بكلمة ضد الدين أو الكنيسة، مما دعا الناس الى احترامه، فى حين هاجم توم بين فى كتاباته مفاسد الكنيسة، مما شكك العامة فى إيمانه . ومع هذا فهو نفسه تيودور روزفلت الذى سولت

له نفسه وأخلاقياته «المسيحية» الاستيلاء على باناما وقناتها دون وجه حق .

فأى رياء يمكن أن يفوق هذا الرياء ؟

هل قرأت مسرحية « طرطوف » لموليير ؟ لقد هاجم رجال الدين المسرحية وأثاروا حولها ضجة عظيمة، وأفلحوا فى منع نشرها وتمثيلها أمداً طويلا، مدللين بذلك على أنه قد كان لهم من النفوذ فى فرنسا أكثر مما لسائر الجماعات التى سخر منها موليير من قبل . فأما النبلاء والأطباء والنساء العالمات والمتحذلقات فقد تقبلوا تناوله لهم فى مسرحياته بالتندر والسخرية، وتظاهروا بالضحك كما يضحك غيرهم . وأما المنافقون المتاجرون بالدين فلم يقبلوا التندر عليهم، بل انزعجوا واعتبروه أمراً غريبا أن يجد أحد فى نفسه الجرأة على أن يسخر من فعالهم، ويدين طائفة كبيرة محترمة كطائفتهم .

رأوا فعلة موليير جريمة لا تغتفر، ووحدوا صفوفهم من أجل شن هجمات ضارية على مسرحيته . وقد حرصوا كل الحرص على ألا يردوا على النقاط التى مستهم فى الصميم، فهم أذكى من أن يفعلوا هذا، وأحكم من أن يفضحوا مشاعرهم الحقيقية . وإنما التزموا بسنتهم المألوفة فلجأوا الى قضية التقوى حتى يخفوا وراءها مصالحهم، ووصفوا «طرطوف» بأنها مسرحية ضد الدين . وأنه كفر من بدايتها الى نهايتها، لا تصلح إلا لإلقائها طعمة للنيران، وأن كل حرف فيها زندقة، وكل حركة جريمة، وأن مجرد الغمزة أو هزة الرأس تخفى مغزى غامضا فسروه تفسيرا يستهدف الإضرار بموليير .

كل من يرى الأمور بوضوح وعلى حقيقتها هو عندهم زنديق . وكل من يأبى أن ينخدع لريائهم ونفاقهم لا يحترم الدين .. لا ياسيدى . إن بوسع الإنسان أن يتظاهر بالتقوى تظاهره بالشجاعة أو بأى شىء آخر.. وكما أن الشجاع حقا لا يلجأ إلى الصراخ والضجيج لإثبات شجاعته، فإن المتدين

حقا لا يلجأ الى التلويح بدينه أمام الكافة وفى كل مناسبة لإثبات تقواه .

قلت :

- بل إنه حتى المتّعلمين أنفسهم إنما يحكمون على مدى تدين المرء من ظاهر ألفاظه وأقواله لا من مضمون كلماته وحقيقة أفعاله . فهم يعتبرون سبينوزا رجلا مؤمناً « مشغولاً بالله » لمجرد أنه يستخدم كلمة « الله » عادة لا « الطبيعة » . أما الذين اتبعوا جوهر تعاليمه، وعارضوا فكرة التجسيم الذى هو أساس دين العامة فقد اعتبروهم من الملاحدة .

وكذلك عندنا فى العالم الإسلامى . لقد كفرنى البعض لمجرد أنى أنكرت أن يكون نبينا محمد هو قائل أحاديث مثل : « الباذنجان شفاء من كل داء»، أو « إذا وقعت ذبابة فى شراب أحدكم فليغمسها ثلاثاً، فإن فى أحد جناحيها سما وفى الاخر شفاء » . أما مردّدو هذه الأحاديث والمدافعون عن نسبتها الى رسول الله فهم عند العامة المناصرون لدين الله وسنة نبيه، لمجرد أنهم يرفعون أبصارهم إلى السماء فيما يشبه الخشوع والتقوى كلما تحدثوا فى مثل هذه الأمور . ولو أن العامة أنصفت ودققت فى الأمر لوجدت أن مثل هذه الأحاديث عن الباذنجان وغيره تهدم الإسلام أكثر مما تخدمه، وتنفر منه أولئك المثقفين الذين يزداد عددهم عندنا يوما بعد يوم، والذين لا يصدقون زعم هؤلاء الوعاظ والقصاص وتأكيدهم أن رسول الله هو قائل هذه الأحاديث . خبرنى بالله عليك : من منا الذى يدافع عن الإسلام وعن النبى وعن السنة : أنا أم هم ؟

لقد كان علماء الدين والعامة فى مصر فى عصر من العصور، يخرجون إذا تأخر فيضان النيل أو ظهر وباء الطاعون لتلاوة صحيح البخارى بأكمله فى

الصحراء خارج القلعة، على أمل أن تؤدى هذه التلاوة الى انكشاف الغمة بمجيء الفيضان أو انحسار خطر الوباء . ومع ذلك فقد كانوا دائما ولا يزالون يكفرون السحرة الذين لا يفعلون فى الواقع أكثر مما يفعله المشايخ، والذين يرددون أقوالا غريبة حتى يغيروا من قوانين الطبيعة . قد يعتقد الساحر ان عصا معينة أو حجراً معينا له خواص سحرية . وكذا العامة من المسيحيين والمسلمين : عامة المسيحيين ترى أن الماء المقدس يطرد الشياطين، وعامة المسلمين ترى أن الحجر الأسود هو يد الله فى الأرض . والجميع مع ذلك لا يرون تناقضا بين تكفيرهم للسحر، وبين إيمانهم بمثل هذه المعتقدات .

قالت جارتى :

– قد خرجنا عن الموضوع ياصاح، ولم تذكر غير وسيلتين فحسب من وسائل الاتجار بالدين عندكم .

قلت :

– هناك أيضا من ارتآها وسيلة ممتازة لتعزيز نفوذه وهيلمانه، وفرض إرهابه حتي على كبار المفكرين فى بلده، اللجوء إلى سلاح التكفير، والطعن فى دين كل من يخالفه فى الرأى، واتهامه بأنه من عملاء الشيوعية، أو مأجورى الصهيونية، أو من خدمة الحكومة والسلطان . فلأنهم هم أنفسهم أناس إما مأجورون وإما خبيثو الأغراض، لا يتصورون أن يكون مخالفوهم إلا مأجورين أو خبيثى الأغراض . والمدهش فى الأمر حقا شيوع ظاهرة التكفير هذه فى أمة الإسلام منذ عهد الخليفة الثالث عثمان . عثمان كفروه، وعلى كفروه، ، ومعاوية كفروه، والغزالى حجة الإسلام ومحجة الدين كفروه

والباقلانى صاحب أجل الكتب فى اعجاز القرآن كفروه ، والطبرى صاحب أعظم تفسير للقرآن كفروه، وابـن تيمية الـذى بـاتت تعاليمه أساس المذهب الوهابى السائـد الآن فى المملكة العربية السعودية وفى قـطر كفروه، والشيخ محمد عبده كفروه . بل لقد كفروا الإمام البخارى فى زمنه وهو الذى أصبح التردد الآن فى قبول صحة أحد الأحاديث الواردة فى كتابه من دواعى التكفير !

أما فى زماننا هذا فقد جعل هؤلاء القوم من جماعتهم كنيسة، بوسعها أن تقضى بالحرمان، وتوزع صكوك الغفران . إن طلع أمرؤ برأى جديد فهو مبتدع ضال، وأن استند فى تعزيزه لحجته الى كتب الطبرى أو الشوكانى أو ابن قيم الجوزية قالوا: إنه انما يستند الى روايات ضعيفة . كل ما لا يعجبهم هو من الروايات الضعيفة ! وكل ما يخالف وجهة نظرهم مما ورد فى كتب أجلة الفقهاء والمحدثين والمؤرخين الأقدمين هو من الإسرائيليات التى دسها اليهود أعداء الإسلام فى تلك الكتب !

كذلك فإنه لمن المدهش حقا إذعان كبار الكتاب وقادة الفكر عندنا لهذا الإرهاب . هذا يوقف سلسلة من المقالات بدأها، أو يغير من مجراها وعنوانها، وهذا يسارع من أجل دحض التهمة الى أداء العمرة أو الحج، ويعود مهرولا ليكتب فى كبريات الصحف عن مشاعر التقوى التى غمرته أثناء وقوفه عند الكعبة، وثالث يبادر أصدقاؤه بنشر شهادة موثقة عليها توقيعاتهم يقسمون فيها أنهم قد رأوه بأعينهم يؤدى الصلوات الخمس، وفى أوقاتها ! حتى إذا ما رضيت الكنيسة عن هذا الموقف الجديد، واطمأنت إلى خضوع هؤلاء المفكرين الكبار لسلطانها، نشرت بيانا صحفيا مقتضبا تذكر فيه أنه لم يحدث قط أنها كفرتهم، وإنما أساء البعض فهم بعض عباراتها ،

وأن دين هؤلاء فى الواقع، وفى حقيقة الأمر، وبعد النظر والتقصى، لا بأس به، وإن كانوا قد أخطأوا فى كذا، وكان الأجدر بهم كذا، وكان من المصلحة حذف كذا، وعدم الإشارة الى كذا. ثم يتعهد هؤلاء الكتاب بألا يستندوا من الآن فصاعداً الى الروايات الضعيفة، فى مقابل تعهد الكنيسة بالإحجام عن مهاجمتهم . ويقّبل بعضهم رؤوس بعض، ودقى يامزيكة !

- والوسيلة الرابعة ؟

- الوسيلة الرابعة ظهرت نتيجة اكتشاف البترول.

- اكتشاف البترول ؟!!

- نعم، واكتشاف علاقة بروتونات ونيوترونات الذرة بالإسلام .

- كيف ؟ كيف ؟

- نعم : اكتشاف البترول أدى الى تضخم ثروة بعض الدول الإسلامية . بعض هذه الدول رأى من المصلحة القومية، وفى سبيل توطيد زعامته فى المنطقة، (وهو هدف مشروع)، أن يتخذ من الدين سلاحا لخدمة هذه المصلحة، (وهو أمر غير مشروع) . وعند هذه الدول من المال ما يمكنها من شراء الكفاءات والعقول والذمم والأقلام، خاصة فى الدول المتحضرة الفقيرة مثل مصر التى ظلت لأكثر من قرن رائدة الفكر الحر فى العالم الإسلامى . وإحدى السبل إلى ذلك تأسيس المجلات والجرائد الدينية الأنيقة فاخرة الطباعة فى هذه الدول، واستدعاء مفكرين مصريين أكفاء للكتابة فيها، بأجور تزيد على عشرة أضعاف ما كانوا يتقاضونه فى بلدهم . فإذا بهؤلاء وقد غدوا يحرصون الحرص كله على أن تكون كتاباتهم فى الإسلام متمشية مع الخط الذى تحدده لهم الدولة التى تستخدمهم وتدفع أجورهم، وإذا هم

يئدون آراءهم التقدمية المستنيرة وأدا، ويدافعون عن رجعية ما كانوا فى الماضى يحلمون بأنه سيجىء اليوم الذى يدافعون فيه عنها ، ويكفرون من الكتاب الإسلاميين الباقين فى مصر من لا يرضى مستخدموهم عنه.

وفيما يتعلق بالنيوترونات: فإنه إزاء فقر أغلب الدول الإسلامية، ووفرة المال فى تلك المجموعة من الدول التى أتحدث عنها، مال الكثيرون من العلماء والاقتصاديين والأطباء وغيرهم من فئات المثقفين فى الدول الأولى، من أجل الحصول على مبالغ تعينهم على مواصلة تجارب، أو إجراء بحوث، أو عقد مؤتمرات، أو شراء أجهزة ومعدات، إلى أن يلجأوا إلى الدول الثانية بطلبات يثبتون فيها الصلة بين ما يريدون صنعه وبين الإسلام . فمؤتمر علماء الذرة الذى يريدون عقده سيكون موضوعه « الذرة والإسلام » . وذلك النوع من الجذام المعروف باسم « الجذام الأسدى » والذى يحتاجون إلى المال من أجل مواصلة البحوث فيه، ستثبت بحوثهم فيه أن أمر النبى لأصحابه بأن يفروا من المجذومين فرارهم من « الأسد »، قد تنبأ بكل ما وصل إليه العلم الحديث فى هذا الصدد. كذلك فإن دراستهم التى يريدون تمويلها عن قانون العرض والطلب مبعثها والغرض منها رغبتهم فى تفسير قول الرسول عليه الصلاة والسلام حين شكا إليه أهل المدينة ارتفاع الأسعار فيها وطلبوا منه فرض تسعيرة جبرية : « الله المسعر » .. الى آخره .

– والوسيلة الخامسة ؟ ولكن أسرع فقد أوشكت الطائرة على الهبوط !

– الخامسة، أن يدرك بعض الكتاب « الاسلاميين » الخبثاء مدى جزع بعض الحكومات فى الدول الإسلامية من ازدياد قوة التيار الدينى المتطرف فيها، فيرونها فرصة عظيمة للدخول فى تجارة رابحة كفيلة بنيل رضاء السلطة، وهى الكتابة عن إسلام معتدل لا يعرف التطرف، بل يستنكره ويدينه

ويستفظعه ويكفره وينهى عنه، ويكرس وقته وجهده لاستخراج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والقصص عن الصحابة والتابعين، التى تدل على ضرورة الاعتدال، وتحض على طاعة أولى الأمر، وتبين أن السلطان الغشوم خير من فتنه تدوم، وتأمر بالانصياع للسلطان براً كان أو فاجرا، وتنصح بالصبر والرضا بقضاء الله وحكمه، وتفسير الضائقة الاقتصادية والمظالم الاجتماعية بأنها اختبار من الله عز وجل، أو عقاب عادل منه على ارتكاب الشعب للمعاصى، وتبشر الصابرين بالجنة التى لن يكون فيها أزمة مواصلات، ولا صعوبة أمام الرجل وحوريته فى العثور على مسكن، ولن تنهار القصور فيها على قاطنيها، وستضمن أنهارها الجارية وعيونها استمرار توافر مياه الشرب فى كل زمان ومكان .

- والسادسة ؟ أسرع من فضلك !

- والسادسة هى الاتجاه الأخبث الى استغلال حاجة المسلمين الكسالى المتواكلين غير المبدعين وغير المنتجين الى من يتغزل فى محاسنهم، ويعدد لهم فضائلهم، ويعزز ثقتهم فى أنفسهم، وذلك بالتحدث إليهم والكتابة لهم عن روحانية الشرق ومادية الغرب، وعن أنه فى منطقتهم كان ظهور كافة الأديان السماوية، ومن حضارتهم الإسلامية بزغ نور العلوم والفنون، وعن أسلافهم استقى الأوروبيون فكرهم، واقتبسوا مخترعاتهم، واغترفوا من مناهل معارفهم. فكل ما ينعم به الغربيون اليوم ما هو الا بفضل المسلمين، وكل ما يزعمون اكتشافه سبقهم إليه العرب من مئات السنين . إذ من من شعرائهم أعظم من المتنبى وأبى نواس ؟ وهل كانوا يفلحون فى اختراع الطائرة لولا عباس ابن فرناس ؟ ومن فى الفقه عندهم أعظم من محمد بن إدريس ؟ وهل كان هارفى فى اكتشافه الدورة الدموية غير عالة على ابن النفيس ؟ وقد نهب

بيتهوفن فى كل سيمفونياته ألحان اسحاق الموصلى، وأخذ مونتنى أفكار مقالاته عن بدر الدين الإربلى . وكذلك سبق فرويد فى تفسير الأحلام ابن سيرين، وسرق نظرية ابن حزم فى ميتافيزيقا العشق شوبنهاور اللعين .

ثم يتبعون هذا بالحديث عن تدهور الحضارة الغربية ومفاسدها وأهوالها، وعن تفسخ القيم وانحلال الأخلاق فيها، وعن نسائها اللواتى يغبطن نساء المسلمين على وضعهن، وفلاسفتها من أمثال شبنجلر الذى تنبأ بقرب انهيارها، ومفكريها من أمثال جارودى الذى اهتدي فى ختام رحلة حياته الى الدين الحق، أو لوبون وكارلايل اللذين أشادا بعظمة المسلمين .

عندئذ يفرح المسلمون ويهدأ بالهم وتثلج صدورهم ويطمئن خاطرهم، بعد أن كانوا على وشك الإحساس بأن حالهم مائل، وتصديق الخبثاء الهدامين الذين يزعمون أن أمورهم ليست بالضبط علي خير ما يرام، وأن عليهم أن يضغطوا على أنفسهم ويبذلوا بعض الجهد فى سبيل الإصلاح .

ـ قد هبطت الطائرة ولا مفر من قطع الحديث . هل بقيت وسائل اخرى لم تتحدث عنها ؟

ـ ثمة أربعمائة وأربع وخمسون وسيلة .

مدّت يدها بسرعة لتصافحنى مودّعة وقالت :

ـ فرصة سعيدا جداً . إسمى آن . آن جوردان . فما اسمك ؟

ـ ....

هذا من فضل ربى

كان الفيلم المصرى «العار» أول ما نبّهنى إلى حقيقة جدّ غريبة، صعبة التفسير: وهى احتمال أن يجتمع فى الشخص الواحد نقيضان: التديّن المخلص، والاتجار بالمخدرات . وأؤكد هنا اقتران التديّن بالإخلاص، مع علمى بأن ثمة الكثيرين من تجار المخدرات، وغيرهم من الآثمين فى مختلف المجالات، يتخذون من التدين قناعا من قبيل التمويه والخداع، ومن أجل صرف الشبهات عنهم.

فالنفاق قد يكون قائما لدى البعض، يظهرون خلاف ما يبطنون، ويحرصون الحرص كله أن يكون ثمة جمهور من المراقبين لمظاهر «ورعهم وتقواهم»؛ لا يقومون لصلاة إلا إن رأى قيامهم حاضر، ولا يتمتمون بآية أو تسبيح إلا إن سمعهم جليس، ولا يقدمون صدقة إلا على رؤوس الأشهاد، ولا يرفضون الخمر إلا بمحضر القوم. حتى إذا ما خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم، إنما نحن مستهزئون.

غير أن هناك إلى جانب هؤلاء فريقا من تجار المخدرات، أو مهربى السلع، أو المديرين المرتشين، أو أصحاب بيوت القمار والدعارة، ممن يصلّى والناس نيام، ويصوم ويتصدّق دون إعلان عن صومه وصدقته، ويحج إلى بيت الله صادق النية فى حجه، ويسبّح بحمد الله كثيرا فى خلوته، قد أسدل حجابا كثيفا بين إيمانه المخلص بالله وبين طبيعة نشاطه وما يتعيش منه.

كان هذا هو حال الأب التاجر فى فيلم «العار» وحال «نواب المخدرات» الذين كنا نراهم على شاشة التليفزيون يغادرون قاعة اجتماعات مجلس الشعب لأداء فريضة الظهر أو المغرب، وحال المديرين المرتشين ممن نسمعهم يستشهدون فى كل مناسبة وبغير مناسبة بآيات من كتاب الله وبأحاديث النبى.

فأما تفسير مسلك المنافق فأمره هينّ.. غير انى قضيت أياما أحاول جاهدا تفسير مسلك المتدين المخلص من بين هؤلاء المجرمين، حتى وجدت مفتاحه فى نظرة العامة إلى طبيعة المعجزة:

طبيعة المعجزة

فقد دأبت العامة منذ قديم الأزل، كلما أعجزها فهم ظاهرة، وعميت عن أسبابها، أو كلما هالتها ضخامة شىء، أو جلال أمر، أو بهاء منظر، أو روعة موهبة، على نسبة هذا أو ذاك إلى الله.. فأشجار الأرز الضخمة فى لبنان وصفت فى الكتاب المقدس بأنها «أرز الله» والجبل الشاهق «جبل الله»، ونوم النائم شديد العمق هو «نوم الله»، والناقة المتفرّدة أو غريبة المنظر هى «ناقة الله»، والحجر الأسود غير مألوف الهيئة الذى لم يعرف أهل مكة مصدره هو «يد الله فى الأرض»، والقوانين التى أوحى بها عن طريق الأنبياء والرسل، ولم يستنها بشر هى «شرع الله». فإن أهلك الفيضان قوما أو دمّرت عاصفة أو صاعقة قرية فإن هؤلاء القوم وأهل تلك القرية هم أعداء الله، قد باءوا بغضب ومقت من الله، وحلت عليهم لعنة الله، وذاقوا عذاب الله...

أما ما يصيب بعض الناس من خير من «خزائن الله»، فرزق من الله، ومن ألاء الله ومن فضل الله.. ذلك أنهم «أولياء الله، قد آمنوا بكتاب الله،

وأرادوا وجه الله، وعمروا مساجد الله.. فإن هالنا جمال امرأة، أو أدهشنا ذكاء طفل، أو راعتنا فخامة مسكن،، عبرّنا عن إعجابنا أو دهشتنا بقولنا: «ماشاء الله!».

وما أحسب أحد سيعترض على القول بأن الطالب الذى قضى سنته الدراسية من أولها إلى آخرها فى دراسة جادة، وإقبال نهم على المذاكرة وقراءة المراجع، لن يدهش حين يعلم بنجاحه وقت ظهور النتيجة، عكس الطالب المستهتر الخائب الذى سيدهشه حتما أن يقرأ اسمه فى كشوف الناجحين، بل قد لا يصدق عينيه، وهو الذى يعلم أنه لم يكرس لمذاكرة دروسه غير ساعات قلائل على مدار العام، وأن ما سطره فى أوراق الإجابة كان محض هراء. ولا شك فى أن أباه وأمه سيدقان كفّا بكف إزاء هذه النتيجة غير المتوقعة وغير المفهومة، وسيخبران معارفهما عند إطلاعهم على الخبر أن الولد «نجح بمعجزة».

ويتكرر هذا الوضع فى أحوال كثيرة.. فالتاجر الأمين الذكى النشيط هو أقل دهشة إزاء نجاح تجارته من التاجر الذى يدرك افتقاره إلى شروط النجاح.. والموظف المخلص الجاد لن يعجب لترقيته مثلما سيعجب لها الموظف الخامل.. كذلك فلا شك فى أن الجيش الأمريكى كان قليل الزهو بنفسه لانتصاره على العراق، فى حين أنه لو كان النصر حليف العراقيين فى حرب الخليج لوصفه صدام حسين بأنه بكل تأكيد «نصر من الله»، أو «معجزة من السماء»، تماما كما وصف القرآن نصر المسلمين قليلى العدد على الكفار، وهم ثلاثة أضعافهم، فى موقعة بدر، وهو ما فسره القرآن نفسه بأن حشدا من الملائكة كان يقاتل فى جانب المسلمين دون أن يروه.

* * *

نجاح الطالب المجد إذن أمر متوقع ، ونجاح الطالب الفاشل معجزة».. وشفاؤنا من وعكة ألمت بنا أمر مألوف، وشفاؤنا من مرض استعصى على الأطباء علاجه «معجزة».. وإصابتنا بخدش نتيجة سقوط بالدراجة أمر عاديّ، ونجاتنا من حادث سقوط طيارة «معجزة».. وحصاد الفلاح لما زرعه فى ارضه أمر طبيعى، وعثور قوم موسى على نبات المنّ والسلوى فى الصحراء الجرداء «معجزة»...

فإن عدنا بعد ذلك كله إلى تاجر المخدرات أو المدير المرتشى أو صاحب بيت الدعارة، فأغلب الظن أن ثمة إحساسا دفينا لديه بالدهشة إزاء «ما فتح الله عليه به»، وما أنعم عليه من «فضل»، وما أفاء من «رزق»،، ورغم ما ارتكبه ولا يزال يرتكبه من اثم.. ويزداد عجبه إذ ينظر حوله فيرى الشرفاء وقد أثقلت كاهلهم أعباء الحياة، ويرى الأمناء فى فاقة وبؤس، ويرى الجادين المثابرين لم يجنوا من وراء كدهم طول الحياة جزءا بسيطاً مما يحققه هو من ثروة فى صفقة واحدة، أو فى شهر واحد، ويرى احترام الناس له واستخفافهم بغيره... فكيف عساه يفسر كل ذلك تفسيرا يقنع عقله ويرضى قلبه فى أن واحد؟..

سيبدأ بالقول بأنها إرادة الله التى لا رادّ لها، وحكمته التى لا يمكن للخلق أن يسبروا غورها.. ثم ينتقل إلى الظن بأنه قد يكون من الظلم لنفسه أن يسيء الظن بنفسه، وبأنه كما أن الله قد «يضع سرّه فى أضعف خلقه»، وأنه يختار رسله من بين أناس قد يتوهمّ بعض معاصريهم أنهم أحقّ منهم بالاختيار وبأداء الرسالة، وأنه يحرم من الرزق من يشاء ويرزق من يشاء بغير حساب، فمن الجائز جدا أن تكون به مزية على غيره، وفضل يراه الله فيه ولا يراه هو.. وقد أدى به أحساسه القوى بالذنب والنقيصة إلى تمتعه بتواضع

حلو، وأداء الزكاة عما رزقه الله من فضله، والإحسان إلى الفقراء، والحرص على أداء كل ما فرضه الشرع من فرائض... فإن كانت به نقائص أكيدة فعلى النقص والخطيئة جبل البشر، وما من كامل غير محمد عليه الصلاة والسلام، أو معصوم من الخطأ غير الأنبياء.. وسيغفر الله الذنوب جميعا يوم القيامة إلا الشرك به، ومعاذ الله أن يشرك بالله شيئا.

ثم تكون نتيجة مثل هذا التفكير ألا يرى تاجر المخدرات بأسا من أن يعلق على بوابة قصره الذى بناه من إيراد تجارته لوحة عليها آية «هذا من فضل ربى»، وأن يضع القواد أو المدير المرتشى على زجاج سيارته الفاخرة ملصقا عليه آية «وكان فضل الله عليك عظيما».

إنا فضّلنا كم على العالمين

وهذا القول منا قد ينطبق على الأمم كما ينطبق على الأفراد.. فثمة من الأمم من يتمتع أفرادها بهمة تفوق همة غيرهم، وبنشاط وافر فى مختلف الميادين، وقدرة فائقة على مواجهة التحديات وتذليل الطبيعية والتغلب على ما يجابههم من صعوبات، وحرص على الحرية ومقومات الكرامة البشرية، وعناية باختيار حكامها وممثليها.. مثل هذه الأمم لن ترى فى نجاحها شيئا غير مألوف أو غير متوقع، ولا فى توسعها ورخائها وأمنها معجزة... غير أن هناك أيضا من الأمم من تفتقر إلى شروط الارتقاء ودواعى النجاح. ومع ذلك فإن بعض هذه الأمم الأخيرة قد تصادف فى تاريخها بمحض الصدفة البحتة، أو الظروف العارضة، أو مجرد حسن الحظ، من النجاح المادى، والانتصارات الباهرة على أعدائها، وتجاوز العقبات الكأداء، ما يثير عجب غيرهم بل وعجبهم هم أنفسهم. فإذا بهؤلاء وأولئك يصفون النتائج المخالفة لكل التوقعات بأنها معجزة، ويعزون انتصاراتهم الحربية إلى رضا الله

وفضله، ورخاءهم المادى إلى رعاية من الله لهم دون غيرهم، وأنه لابد قد فضلهم على العالمين.

فإن كان المرء منا فى حال الشدة نراه يقلب وجهه لا يدرى إلى من يتوجه بشكواه، هائما حائرا يطلب النصيحة من كل من هبّ ودبّ، فإن معظم الناس والأمم فى حال الرخاء يتملكهم الصلف والإيمان بحكمتهم ورجاحة عقولهم وسلامة قراراتهم، مهما قلت بضاعتهم من هذه الحكمة، ويرون فى كل نصح يسدى إليهم إهانة شخصية لهم، وتدخلا مرفوضا فى شؤونهم الخاصة.. فهم فى السراء عن أنفسهم راضون، وإلى رعاية الله مطمئنون، إن انتصروا على عدو لهم قالوا إن الله أيدهم بروح من عنده، وإن ربحت تجارتهم قالوا إن الله أنعم عليهم، وإن تعلقت قلوبهم بأمر قالوا إن الله شرح صدورهم له، وإن اعتقدوا شيئا قالوا إن الله أنبأهم به.

نعم قد كان لبنى إسرائيل فى معظم مراحل تاريخهم فضل التماسك والتضامن فيما بينهم، وموهبة التنظيم الاجتماعى الدقيق. وكان لدولتهم التى اسسوها فى فلسطين عام ١٩٤٨ فضل التمسك بأهداب الديمقراطية، والاهتمام بالعلوم الحديثة، والالتزام بقدر من العدالة الاجتماعية. غير أن الكافة تشهد أن نجاحهم الباهر فى تاريخنا المعاصر يرجع فى المقام الأول إلى المساعدات السخية والأسلحة المتطورة التى تقدمها إليهم أغنى دول العالم قاطبة وأقواها سلاحا، وإلى ضعف مزمن وتفكك وتخاذل فى صفوف أعدائهم من العرب، وإلى ظروف عارضة وسعود طالع حالفهم دون خصومهم.. وكلها اعتبارات لا يمكن الوثوق فى استمرارها إلى الأبد.. كذلك فإن التفكير الموضوعى لابد أن يقودنا إلى الإيمان بأننا لو فحصنا أمر الفرد اليهودى، دون اعتبار لانتمائه القومى أو السياسى، لما وجدناه أكثر أو

أقل من غيره فضيلة أو ورعا، أو عقلا أو حكمة، أو علما أو موهبة. فإن كانت حكومته تتمتع بقدر كبير من الكفاءةوالحنكة فثمة الكثير من الأمم من تفوق كفاءة حكوماتها كفاءة الإسرائيليين، وإن كان قد برز من بين اليهود العشرات والمئات من العباقرة والنابغين، فكذا قد برزت المئات والآلاف من العباقرة والنابغين بين سائر الشعوب. بل إننا قد نرى أن الكثير من المعتقدات اليهودية الخاصة بالله والكون والطبيعة هو دون معتقدات غيرهم، وأنهم ليسوا بدون غيرهم تصديقا وقبولا للخرافات. فأما عن الخلق فالمؤكد أن تاريخهم وكتابهم المقدس ليسا بأقل حفولا بالفضائح الخلقية من تاريخ الأمم الأخرى وقد كان موسى أدرى الناس بهم حين خاطب ربه بقوله: «إن كانت قد باتت لى حظوة عندك يارب فلتسر فى وسطنا، فإن هذا الشعب شعب متصلب الرأى عنيد». (سفر الخروج ٩:٣٤).

فما العلة إذن فى اعتقادهم أنهم شعب الله المختار؟

* * *

إننا لنجد فى الكتاب المقدس بين أيدينا أن موسى كان يقر بوجود آلهة غير الله، فوض الله إليها سلطة إدارة الأمم ورعايتها. غير أن الله هو رئيسها وكبيرها، أو على حد تعبير سفر التثنية ١٧:١٠ «هو إله الآلهة ورب الأرباب». فموسى فى سفر الخروج ١١:١٥ يخاطب الله بقوله: «من مثلك بين الآلهة يارب!»، فى حين يقول حموه يثرون كاهن مدين: «الآن قد عرفت أن الرب أعظم من جميع الآلهة» (سفر الخروج ١١:١٨). بل إننا لا نعلم من التوارة ما إذا كان موسى يعتقد أن هذه الآلهة من خلق الله أم لا، فهو لم يتحدث فيها عن أصلها. أما ما نعلمه فهو أنه كان يؤمن بأن الله عند توزيع الاختصاصات بين الآلهة اختار لنفسه أمة العبرانيين ومساحة معينة من

الأرض هي فلسطين، وفوض إلى الآلهة الأخري مهمة رعاية غير ذلك من الأمم والأقطار. لذلك سمى الله برب إسرائيل ورب أورشليم، وآمن اليهود بأن تلك الأرض التى اختارها إلههم لنفسه تتطلب عبادة مختلفة عن عبادات الآخرين، وأن الله لن يقبل من اليهود عبادة الآلهة الأخرى خارج حدود فلسطين.

وقد كان من دواعى سعادة اليهود وزهوهم على مر العصور أن يجدوا فى كتابهم المقدس أن الرب قد اختارهم لنفسه وأحبهم ورفعهم فوق جميع الشعوب (سفر التثنية ١٠:١٥). فهم أقرب إليه من أية أمة أخرى، قد أعطاهم وحدهم، ودون غيرهم، شريعة قويمة عادلة (التثنية ٤: ٧ ,٨).. وإزاء هذا الأمر يحق لنا أن نتساءل عما إذا كانت سعادة الإنسان هي فى الاستمتاع بكل ما هو طيب، أم فى إحساسه بالفخر والاعتزاز بأنه هو وحده يستمتع بأطايب العيش دون الآخرين. ففى ظننا أن الإنسان الذى يرى نفسه مباركا لأنه يتمتع بامتيازات ليست لسائر الخلق، ولأنه أسعد حظا من غيره، إنسان جاهل بماهية السعادة الحقة ، قد نبع سروره إما عن صبيانية أو مجرد حقد. فهو سرور أشبه ما يكون بالفرح إزاء مآسى الآخرين، وهو بالتالى إنسان سيىء. فسعادة الإنسان هى فى الحكمة والاقتراب من معرفة الحقيقة، لا فى أنه أكثر حكمة من غيره أو فى جهل الآخرين بالحقيقة، لأن بعد الغير عن الحكمة والحقيقة لايمكن أن يزيد من حكمته، أو يقربه من الحقيقة، أو يدعم من سعادته.. كذلك فإنه من المؤكد أن اليهود لن تكون سعادتهم أقل، وحكمتهم أخفى، لو أن الله شمل الناس جميعا بدعوته إلى الهدى. ولن يكون الله أبعد عنهم باقترابه من غيرهم، ولا قوانينه أقل عدلا لو أنه شرعها لكافة البشر، ولا هم سيكونون فى حل من طاعته وعبادته لو أنه أسبغ من

فضله ونعمه على الناس أجمعين.. وكيف يمكن أن يسر سليمان بقول الله له (فى سفر الملوك الأول ٣:١٢) إنه لن يكون هناك أبدا من هو أكثر حكمة منه؟ أو كيف يمكن أن يزيد ذلك من قدر حكمته، وأسباب سعادته؟

* * *

غير ان كل هذه المعتقدات اليهودية إنما نجمت فى رأينا عن مجرد حسن الحظ الذي صادف اليهود بعد خروج موسى بهم من مصر إلى أرض المعاد، وحسن الحظ الذى صادف دولة إسرائيل منذ إعادة تأسيسها عام ١٩٤٨، مما اعتبره اليهود فى ذلك العصر، وفى زمننا الراهن، من قبيل المعجزات، وأنه لابد أن تكون عناية الرب مركزة عليهم هم بالذات ودون غيرهم، لأسباب يعلمها هو ولا يعلمونها، ولفضل يراه الله فيهم ولا يرونه هم، متجاهلين حقيقة أن العقل والفضيلة هما فى كل الأمم سواء، وأن الله لا يمكن أن يفضل أمة بالذات على سائر الأمم.

* * *

إن كلا من الإسرائيلى العنصرى الورع، وتاجر المخدرات الثرى التقى، يعتقد أن الله إلهه وحده، وأن آلهة الغير دون إلهه، ويسره ويزهيه أن يرى نفسه يتمتع بميزات لا يتمتع بها الكثيرون غيره، وأن المعجزة تتمثل فى أن فضل الله كان عليه عظيما.



حسين ومرقص وكوهين ! (١)

هتف بى صاحبى فجأة وقد حانت منه التفاتة الى الزجاج الخلفى لسيارتى :

- ما هذا ؟! أمجنون أنت ؟

وسرت إلىّ عدوى فزعه، فأوقفت السيارة فجأة لأستطلع أى خطأ بدر منى أو حادث تسببت فيه .

- ماذا صنعت ؟

- زجاج سيارتك .. أمجنون أنت ؟ أين الملصقات ؟

- أية ملصقات ؟ .

- ملصقات « لا اله الا الله محمد رسول الله » .

- أمن اللازم لشخص يشهد أن لا اله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله أن يلصق هذه الشهادة على زجاج سيارته ؟ .

- بالتأكيد ! .

- لم أجد هذا لا فى قرآن ولا فى سنة .

---

(١) كتب هذا المقال فى ٢٧ مايو ١٩٨٥ على ضوء انتشار ظاهرة الملصقات الدينية على السيارات فى مصر . ونشر فى مجلة « المصور » فى عدد ٦ يونيو ١٩٨٥ . وفى ٣٠ يونيو أمرت السلطات المصرية بازالة هذه الملصقات على التو .

ـ أعرف أنها ليست في القرآن والسنة . ولكنها باتت الآن أمرا حيويا .. جوهريا .. مسألة حياة أو موت .. أعني بالنسبة للسيارة .

ـ كيف ؟ كيف يمكن أن تفيد الملصقات السيارة ؟ .

ـ لا تمزح أرجوك . ألم تسمع الشائعة القائلة بأن أفراد الجماعات الدينية المتطرفة تنوى بعد تاريخ معين أن تحرق أو تهشم كل سيارة لا تحمل مثل هذه الملصقات ؟ .

ـ أجاد أنت ؟ .

ـ بكل تأكيد . وقد لصقتها أنا شخصيا لا على الزجاج الخلفى فحسب، بل وعلى الزجاج الأمامى وأبواب السيارة الأربعة، زيادة فى الاحتياط والتحصين .

ـ وحسنا فعلت ! .

ـ فلتسرع اذن، خاصة أننا لا نعرف بالضبط الأجل الذى حددوه .

ـ ومن اين أشتريها ؟

ـ ما يغيظنى منك هو أنك تتكلم وكأنك لست من أهل هذا البلد . «من أين اشتريها؟!» . أنه لمن الصعب الآن يا صاحبى ألا تشتريها ! ألا تسير فى شوارع البلد ؟ ألا تدخل أيا من متاجرها ؟ ألا تمون سيارتك بالوقود من محطات البنزين ؟ « من أين اشتريها ؟ !! » غير أنك ان أحببت فسأدلك على متجر فيه عينات مختلفة متنوعة بوسعك أن تختار منها ما يناسبك .

* * *

دلفت الى المحل الذى دلنى صديقى عليه، فاستقبلنى صاحبه مرحبا بابتسامة :

ـ في خدمتك .

ـ أريد واحدة من تلك الأوراق المصمغة التي تلصق على زجاج السيارة والمكتوب عليها « لا اله الا الله » .

ـ نعم . بارك الله فيك وبارك فى دينك .. سيارتك، أى لون هي ؟

ـ بيضاء .

ـ عظيم . البيضاء تناسبها كافة ألوان الملصقات . وليس عليك الا أن تختار .

ومد يده الى رف وراءه وأنزل منه مجموعة هائلة متنوعة من الأوراق .

ـ ذهبى . أسود . بنى . أبيض علي خلفية سوداء . ذهبى على خلفية خضراء. فضى . أزرق غامق على خلفية لبنية .. تحت أمرك .

ـ هذه لا بأس بها . صغيرة شفافة لن تحجب الرؤية .

ـ أستغفرالله العظيم . مثل هذه الملصقات لا تحجب الرؤية ياسيدى . إنها تشحذ الرؤية .. الروحية .

– طبيعى. وانما كنت أقصد الرؤية الأخري : رؤية السيارات خلفي .

– مفهوم . نعم . هذه شفافة، لا تحجب رؤية السيارات خلفك ، وهى بالفعل رقيقة اللون . أتعرف صلاح بك المنياوى مدير بنك « ف » ؟ لقد اشترى هذا الصباح من هذا اللون نفسه عشرة . أتريد ان تنتقى من موديلات أخرى أم تشتريها كلها من هذا الموديل ؟

ـ ماذا تعنى ؟ لا أريد غير واحدة فحسب للزجاج الخلفى .

– وماذا عن الزجاج الأمامى ؟ .

- لا ياسيدى . على الزجاج الأمامي ستحجب الملصقات الرؤيتين : المادية والروحية معا ! يكفى الزجاج الخلفى .

- ولكن الجميع قد باتوا الآن يلصقون أكثر من ورقة على الزجاج الخلفى. أحديث العهد أنت بالعودة من الخارج ؟

- نعم .

- قد حزرت ذلك من طريقة كلامك . نعم . لم يعد أحد يكتفى بلصق «لا اله لا الله» . هناك العديد من الملصقات التي تحمل عبارت أخرى. هذه مثلا تحمل آية (ان الدين عند الله الاسلام)، زيادة في الكيد للأقباط . وهذه تحمل آية (أفغير دين الله يبغون ؟) وهذه (ولا تأخذكم بها رأفة فى دين الله) . وستصلني بعد أسبوع تشكيلة كبيرة من الشعارات الأخري التى يجرى طبعها الآن، يمكنك المرور فى نهاية الأسبوع القادم للاختيار منها .

- سأكتفى الآن بملصق واحد. وقد أمر عليك فيما بعد .

- كما تشاء.

- بكم هذا ؟

- غيري يبيعه بثلاثين قرشا . غير أنى سأبيعك الواحد بخمسة وعشرين ان أخذت عشرة أو اكثر .. هناك ملصقات أرخص تحوي اعلانات .. هذه مثلا: (والسابقون السابقون . أولئك المقربون . في جنات النعيم) مع تحيات فندق سونيستا، أفخر فنادق الشرق الأوسط ..بعشرين قرشا . وهذه : (ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون) مع أطيب تمنيات شركة اير فرانس بسلامة الوصول .. بعشرين قرشا هي الأخري .

وفتح باب المحل، ودخله رجل سمين فى نحو الخمسين يحمل حقيبة صغيرة، رآه التاجر فاتجه نحوه يصافحه وعلى وجهه ابتسامة عريضة :

- أهلا بالأستاذ مرقص .. نورت المحل .. طلباتك يا أستاذ مرقص .

- الملصق الذى بعته لى فى الأسبوع الماضى لا يكاد يكون فيه صمغ على الاطلاق . كلما حاولت لصقه على زجاج السيارة لم يثبت الا لبضع ثوان . وقد جئتك به لأرده وأختار آخر .

ـ حسنا فعلت . على عينى ورأسى يا مرقص بك .. أى ملصق ذاك الذى اشتريته ؟

ـ (نعمة يسوع المسيح مع جميعكم) .

ـ نعم . كل الملصقات التي وصلتنا من المطبعة وتحمل هذا الشعار صمغها بالغ الرداءة . لم تعد هناك في البلد ذمة أو أخلاق .. ولكن عندى عشرات غيرها جيدة التصميغ .. هل عندك صورة الأنبا كيرلس ؟

ـ لا .

ـ سأريك إياها، مع مجموعة من الملصقات الأخرى التى وصلتني هذا الصباح .. هل رأيت ملصق (الرب راعي فلا يعوزنى شىء) ؟ أو (طوبى للذين يطيعون وصاياه) ؟ ستكون سيارتك أول سيارة تحمل هذا الملصق الجديد .. صدقنى .

واتجه التاجر الى رف فى ناحية أخري من الدكان، فى حين شرع الأخ مرقص يفتح حقيبته ليعيد البضاعة المغشوشة .

وفجأة، خطرت في ذهنى فكرة :

- لا مؤاخذة يا أستاذ مرقص .. اسمى حسين أمين . وكنت قد أتيت

هنا لأشترى شعارا اسلاميا لسيارتي . غير أني حين سمعتك تطلب شعارا مسيحيا لسيارتك، خطرت بذهني فكرة ملصق ثالث لسيارتك وسيارتي معا.

ورأيت يد التاجر تتوقف عند رف علوى، ووجهه وقد تطلع اليّ يستمع فى انتباه شديد :

- ملصق ثالث ؟ وما عساه يكون ؟

- فكرت فى أنه بدلا من هذه الملصقات التى توحى بشىء كالتنافس بين فريقى الاهلى والزمالك للكرة، أو بأغنية أحمد زكى وسعاد حسنى : « هوه أعظم من هى .. وهى أذكى من هوه »، نضع ملصقا جديدا عـــليه شعار (لا تجعلوا من مصر لبنان آخر) . ما رأيك ؟ .

صاح التاجر وقد أنزل يده فارغة من الرف المسيحى :

ـ بارك الله فيك يا أستاذ حسين .. بارك الله فيك. تصور أن هذه الفكرة قد راودتني أنا منذ أسبوعين، وشرعت على الفور فى طلب تنفيذ كمية ضخمة من هذا الشعار من المطبعة ؟ ! .

ـ لا أصدق ! .

ـ لا تصدق ؟ ولكنك ربما قد تصدق عينيك اذا رأيت الملصق مطبوعا بالفعل .

واتجه بسرعة الى رف ثالث في ناحية أخري من المحل ، فأنزل منه نسخا من الملصق الجديد بنفس العبارات التي كنت قد اقترحتها .

ـ ما قولك الآن؟ صدقتني ؟ .

ومكثت أرمقه فى ذهول وصمت قال:

- أعتقد أن مثل هذا الشعار سيروج رواجا لا بأس به على الاطلاق ، خصوصا عند أولئك الذين يخشون الفتنة الطائفية فى مصر . غير أنى لا أتوقع بالطبع أن أبيع منه نفس الكميات التي أبيعها من الملصقات الأخري. والآن .. تريدان نسخا من (لا تجعلوا من مصر لبنان آخر) ؟ .

قلنا فى صوت واحد : نعم .

قال للأستاذ مرقص :

- ولا داعي اذن لصورة قداسة الأنبا كيرلس ، أم تريد الملصقين ؟ .

- يكفى هذا الملصق الأخير .

- جميل ..عندى منه ألوان : فضى . ذهبى على خلفية بنية . أحمر على خلفية سوداء . برتقالى .. أعتقد أن الأحمر هو اللون الأنسب لما فيه من تلميح الى بحر الدماء التي تراق فى لبنان . ما رأيكم ؟ آه! خطرت لى فكرة جهنمية. ما رأيكم فى ملصق «لا اله إلا الله» على يمين زجاج السيارة ، وملصق « الله محبة » على اليسار ، وملصق « لا تجعلوا من مصر لبنان آخر » في الوسط من قبيل التوفيق بين الطائفتين ؟ رائعة ، أليس كذلك ؟ هل آتى لكل منكما بالثلاثة معا ؟ سأحاسبكم على الثالثة بسعر اثنين فحسب ، ورزقى علي الله.

وازداد ذهولى اذ أسمع حديثه .. كدت أن أسأله عما اذا كان يعرف مصدر الشائعة عن نية تهشيم السيارات التي لا تحمل الملصقات بعد تاريخ معين ، غير أنى لم أر حاجة الى السؤال . ثم خطر لى أن أسأله عن اسمه هو. غير أنه تجاهل سؤالى ولم يجب .

إمبابــة

(لــوحتــان)

اللوحة الأولى :

إمـبابـة ١٨٠٧

واستهل شهر جمادى الثانية بيوم الخميس سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧م .) فى ثانيه (وهو يوم الجمعة) ، ركب الباشا (محمد على) إلى بولاق ، وعدي الى ناحية برّ إمبابة ، فنصب خيمته هناك ، وأرسل بعض العسكر إلى شط النيل ليأتوا إليه بالشيخ سليمان الإمبابى . ثم رقد بالخيمة ليأخذ له راحة ، ونام . ونام . فلما استيقظ ، دخل عليه العسكر وأخبروه أن الشيخ سليمان رجل كسيح مقعد ، يقيم منذ مدة طويلة فى عشة بالغيط على النيل ، لا يفارقها أبدا ، ويقف على بابها رجل طويل القامة عريض المنكبين ، ذو لحية سوداء كثّة ، اسمه إسماعيل الفرارجي ، يزعم أنه خادم الشيخ ، ولا يسمح لمخلوق بالدخول اليه .. فلما سمع الباشا ذلك أصدر الأمر بالارتحال ، ثم ركب قرب الزوال وعاد إلي ناحية بولاق ..

والشيخ سليمان الأمبابى هذا رجل صالح ، اعتقد فيه الناس الولاية والسلوك والجذب ، وأقبلت أهالي إمبابة وبولاق والقاهرة والقرى المجاورة يحملون الى عشته النذور والهدايا ، ويلتمسون منه البركة والدعاء .. غير ان الرجل ـ كما قلنا ـ لم يكن يظهر لأحد ، ولا رآه مخلوق ربما سوى إسماعيل الفرارجى الذى نصب لنفسه ولعدد من أتباعه خياما حول عشة الشيخ يستقبلون الزوار فيها ويتسلمون هداياهم ويستمعون إلى ضراعاتهم

وشكاواهم .. وكان معظم هؤلاء الزوار من النساء والأحداث.

وبمرور الوقت صار إسماعيل الفرارجى هذا يكتب الى النواحى والقرى أوراقا باسم الشيخ سليمان الإمبابى يستدعي منهم القمح والدقيق والدجاج والبطاطس والأرز ويرسلها مع الأتباع والمريدين يقول فيها : " الذى نعلم به أهل القرية الفلانية ، أو الناحية الفلانية ، حال وصول الورقة إليكم ، أن تدفعوا لحاملها خمسة أرادب قمح ، وعشرة أقفاص من الدجاج وثلاثين جوالا من الأرز ، برسم طعام الفقراء ، وكذا مائة رغيف للمريدين . ولا تتأخروا عن إرسال المطلوب فى الحال حتي لا يدعو الشيخ عليكم ، فتنهدم عليكم بيوتكم ، وتسحقون تحتها كما تسحق النمل .. كما نعلمكم أنه قد حرم عليكم أن تعطوا الظلمة من أعوان الباشا وعساكره شيئا من الكلف أو الفرض التي يفرضونها عليكم ، ويطلبونها منكم .. ومن أتاكم من العسكر لجمعها فاطردوه ، وإن عاند فاقتلوه .. وكان الله سميعا بصيرا .

وكان أن ثقل أمر إسماعيل الفرارجي علي الكشاف والعسكر ولم يعد فى مقدورهم تأديبه أو التصدى له .. وكان قد اجتمع لدى اسماعيل هذا من الغلمان المردان نحو المائة وستين أمرد ، وغالبهم من أولاد مشايخ البلاد. وكان إذا بلغه أن بالبلد الفلانية غلاما وسيم الصورة أرسل فى طلبه فيحضرونه .. وقد عمل للمردان عقودا من الخرز الملون فى أعناقهم ، ولبعضهم أقراطا فى آذانهم .. أما أعوانه فكانوا يفجرون نهارا وجهارا بالنساء الزائرات ، ويفعلون بهن ما يشنع الحديث به . أوكما قيل فى هذا المعني :

وكنـــا نستطـــب إذا مرضنـــا

فصـار الـداءُ من قِبَلِ الطبيبِ!

وهؤلاء الأعوان كانوا ينسبون أنفسهم الى طريقة سيدنا عمر بن الخطاب

ويلبسون على رءوسهم الطراطير السود المصنوعة من جلود الغنم الصغار، طول الطرطور نحو ذراع. وإذا دخل الشخص منهم الكنيف نزع الطرطور من على رأسه ووضعه علي عتبه الكنيف ، لا أدرى أذلك تعظيم له عن مصاحبته معه في الكنيف ، أم لخوف من سقوطه فى صحن المرحاض إن هو أصطدم بأسكفة الباب .

٢

واستمر الحال علي هذا المنوال حتى يوم السبت ١٢ ربيع الأول ، الذى عُمل فيه المولد النبوى . وفيه حدثت الواقعة التالية :

وقف إسماعيل الفرارجى فى الصباح الباكر أمام باب خيمته على الساحل فى إمبابة ، وخطب فى الأحداث والنساء وغيرهم من المحتشدين للاحتفال بهذه المناسبة فقال :

– يقول لكم الشيخ سليمان الإمبابى إنه رأى فى منامه ليلة أمس السيد أحمد البدوى بالشرق ، والسيد ابراهيم الدسوقى بالغرب ، يقتلان كل من يمر عليهما من النصارى ، ثم إنهما التفتا الى الشيخ سليمان وقالا له : قل لأتباعك ومريديك ومحبيك ، من كان سامعا مطيعا لأمر الله سبحانه جل شأنه فليصنع صنيعنا اليوم ، وله قصر فى الجنة . فما سمع الجعيدية كلامه حتي تركوا المكان ، وتفرقوا جماعات فى نواحى امبابة ، فترصدت جماعة منهم لمن يمر عليهم من النصارى ومن لم يجدوه بثيابه الملونة المفروض لبسها عليهم ضربوه بالهراوات ، وشجّوا رأسه ، وأخذوا طربوشه ومداسه الأحمر، وتركوا له الطاقية والشد الأزرق . وتوجهت طائفة أخري الى الكنيسة بحارة

الناصرية فأضرموا النار فيها حتي خرج للحريق صوت هائل ودخان عظيم، واحترقت الكنيسة برمّتها ، واستمرت النار فى سقفها بطول النهار ، واحترق خمسة من القسس داخلها . كما قصدت طائفة ثالثة الى متاجر النصاري ينهبون ما فيها ، والى مساكنهم فقتلوا أو ضربوا أصحابها ، وألقوا ببعضهم - ومنهم الأطفال - من شرفاتها .

ثم ان النصارى صرخوا الى عظمائهم . فتوجه هولاء بشكواهم الى القلعة لمقابلة الباشا ، فاكتفى الباشا بالأمر بأن ينادى فى نواحى امبابة بعدم التعرض للنصارى ، وأن كل فريق يمشى على طريقته المعتادة . غير أن الجعيدية لم تلق بالا لهذا النداء ، واستمرت أعمال النهب والقتل والحرائق حتى يوم ١٦ من ربيع الأول ، وفيه ركب كتخدا بك مع حشد كبير من العسكر الى مكان إسماعيل الفرارجي ، ثم أمر أشخاصا من العسكر بالهجوم علي خيمته فأخذوه ، وذهبوا به الى بولاق ، وأنزلوه فى مركب ، وانحدروا به فى النيل ، وغابوا حصة ثم انقلبوا راجعين ، وأخبروا كتخدا بك أنهم أغرقوه فى النيل .. إلا أنه اتضح بعد ذلك أن إسماعيل الفرارجى سبح فى الماء وطلع الى البر وهرب ، وانفض أمره .

٣

وتبين أثناء التحقيقات التي أجراها كتخدابك أن أصل الموضوع هو أن اسماعيل الفرارجى (وله دكان كبير فى السوق لبيع الدجاج) كان حاقدا على منافس له فى التجارة هو بائع فراخ نصراني ، فكان يشيع عنه فى الحى أنه يغش فى الميزان وأنه لا يذبح الدجاج حسب الشريعة الإسلامية ، ويسلط أعوانا له عليه لمضايقته . فلما لم يفلح فى تعطيل تجارته ، افتعل دعوى منام

السيد البدوى والسيد إبراهيم الدسوقى ، ونسبه الى الشيخ سليمان الإمبابى.

* * *

غير أن الأغرب من كل ذلك ، هو أنه فى يوم ١٨ من ربيع الأول ، حين أمر الباشا عسكره باقتحام عشة سليمان الأمبابى وبأن يحملوه اليه فى القلعة ، دخل العسكر العشة ، فإذا هي خالية تماما لا إنس فيها ولا أثاث .

* * *

اللوحة الثانية

إمبابة : ١٩٩١

١

تتناهى الى سمعي ـ وأنا جالس أقرأ فى غرفتى ـ أصوات عراك فى الطريق... صياح وضرب وسباب .. هم صبية حارتنا فى حى امبابة .. وتتردد على ألسن المتصايحين عبارة : ياقبطى يا إبن الـ ...

أتوجه الى النافذة للنظر ، فإذا بى ألمح ابني خالد فى مقدمة الجمع .. يصيح ويلكم ، ويسب ويركل.

أعود الي مقعدى والى النظر في الكتاب ، في انتظار عودته . بعد عشر دقائق يدخل الصبى .

يدخل فيقف كعادته الى جوارى دون أن يفتح فمه بكلمة . وأنظر اليه من طرف عينى فإذا هو متهيج أحمر الوجه ، وقد بدا عليه الفخر والسرور كمن أدى واجبه في شجاعة وهمة عظيمتين .

أقول له : هل استمتعت باللعب هذا الصباح ؟

فيجيبنى فى تواضع حلو :

- لم نلعب هذا الصباح .. كنا نضرب صبيا قبطيا .

وأقفز من مقعدى بسرعة فيسقط الكرسي خلفى نتيجة حركتى المفاجئة .

- صبى قبطى ؟ كنتم تضربونه ؟ لماذا ؟ماذا فعل ؟

- لا شىء.

فى صوته هذه المرة بعض التردد والهيبة ، خاصة إذ يرى منظرى غريبا.. وتزداد دهشته ووجومه حين يرانى ألبس حذائى بسرعة وأهرع خارجا من الباب وأنا أصيح :

- تعال معى .. تعال .. لابد من أن نجد الصبى حتى تطلب منه الصفح. ويهرع خالد خلفى فننزل راكضين إلى الطريق.

لم يفهم كلمة مما قلت ، ولا فهم سبب اهتمامى وهلعى وركضي .. غير أنه يجرى كما أجري فى اهتمام وهلع مماثلين .. ننظر فى الحارة يمينا ويسارا ، ونصيح وننادى ونسأل الناس .. حتى إذا ما بلغنا آخر الحارة انحرفنا جهة اليمين ، محاولين اللحاق بالصبي الذى لا ندرى أين ذهب .. ونسأل ثلاثة من المارة لاهثين عما إذا كانوا قد شاهدوا في طريقهم صبيا في الخامسة يعدو باكيا.. ولكن دون جدوى .. فقد اختفى الصبى .

نعود الى شقتنا بخطوات بطيئة فنجلس مرة أخري فى الغرفة .. قد بدا على وجهى الاضطراب والحزن ، وأناملى تدق المنضدة أمامى فى عصبية واضحة.. وتظل عينا خالد مثبتتين على وجهى تراقبان كل خلجة فيه . ثم أقول :

ـليس بوسعنا أن نفعل شيئا الآن .. من يدرى ، لعلك تقابل هذا الصبى القبطى غدا أو بعد غد فتمد اليه يدك تطلب الصفح منه .. إن حدث وقابلته فأخبره أنك انما فعلت مافعلت لأنك غبى أحمق .. غير أن كل أملى هو أنك إن قابلته ورأيت شخصا يضربه أو يضايقه لأنه قبطى ، ساعدته ضد المعتدى ، ووقفت فى صفه لتحميه بكل ما أوتيت من قوة .

وأرى بوضوح من وجه خالد أنه قد قرر بالفعل أن ينفذ ما أشرت به عليه.. إنه لا يزال صغيرا ، جنديا مرتزقا لا يهمه الا الاشتراك فى أى عراك دون أن يسأل حتى عن سبب العراك .. وواجبى هو أن أعلمه أن يكون جنديا شجاعا ، شرط أن يكون واثقا من عدالة القضية التي يدخل العراك من أجلها ..

أقول له :

- بالمناسبة ، أريدك ياخالد أن تعلم أن المسيحيين أناس عظام حقا .. أنت تعرف السيد المسيح الذى أريتك صورته فى الأسبوع الماضى .. لقد مدحه القرآن فى آيات كثيرة .. كما أنك شاهدت معى منذ أشهر فيلم المخرج الإيطالي زيفيريلى عن حياة القديس فرانسيس الذى أعجبك منه شدة حبه للحيوانات والطير .. فرانسيس هذا مسيحى أيضا ..

وأراه يستمع الي فى انتباه متزايد وقد أسند ذراعيه الى ركبتىّ .

- وأنا أعلم أنك معجب بتمثيل سناء جميل .. هى مسيحية أيضا .. والفيلم الذى شاهدته أنا ووالدتك يوم أمس ولم نصحبك إليه هو " يوم حلو ويوم مرّ " ، فيلم أعتبره أحسن فيلم مصرى علي الإطلاق . إنه من إخراج مسيحى يدعى خيرى بشارة .. وعازف البيانو الرائع فى الأسطوانة

التي سنسمعها بعد قليل هو رمزى يسى ، مسيحى أيضا ، ولعلمك فإن امه وأخته ايضا عازفتان رائعتان ، ومسيحيتان بطبيعة الحال ..وهناك مؤلف من أعظم المؤلفين المصريين فى نصف القرن الأخير لا شك في أنك ستقرأ كتبه حين تكبر ، إسمه لويس عوض ، هو مسيحى أيضا .. وهذه الصورة المعلقة أمامنا الآن ، والتي عبرت لى يوما عن إعجابك الشديد بها ، هى من رسم إيهاب شاكر ، وهو مسيحى أيضا .. وفيليب جلاب رئيس تحرير الصحيفة المصرية الوحيدة التي هى من الشجاعة والجرأة بحيث تنشر لى مقالاتى دون تغيير أو حذف ، هو مسيحى أيضا .. وعشرات وعشرات غير هؤلاء ياخالد من المسيحيين المصريين الذين نسميهم الأقباط ممن تفخر مصر بهم ، وتدين لهم بفضل عظيم .

- هل عدد الأقباط كبير ؟

- بالتأكيد .. ولكن حادثا كالحادث الذى وقع منذ قليل فى حارتنا يدفع الكثيرين منهم الى مغادرة مصر الى بلاد أخرى ، فتخسرهم مصر ، وتستفيد الدول الأخري من مواهبهم .. هل يرضيك أن يحدث هذا ؟

- بالطبع لا .

وترتعش شفتاه وهو يجيبنى على سؤالى ، فأعلم أنه على وشك البكاء .. عندئذ أقوم من مقعدى ، وآخذه من يده إلى رف الكتب ورائى لأريه الكتاب الضخم بقلم السيدة أ . ل . بوتشر عن " قصة الكنيسة المصرية " :

- ربما قرأت هذا الكتاب الرائع فى يوم ما فتعرف قصص البطولات الخارقة التي أبداها الأقباط على مر القرون ، ومواجهتهم الشجاعة لاضطهاد حكام مصر من الرومان .. إنه كتاب سيشعرك وأنت المسلم ، بالفخر والاعتزاز إذ تنتمى أنت وهؤلاء الأقباط الى وطن واحد ..

٢

وحين يستسلم خالد للنوم ذلك المساء ، يبدو وجهه محتقنا ، وأراه وأمه يتقلب كل ثانية فى فراشه ويتكلم ويهذى أثناء نومه . واذ تنحنى عليه والدته لتلمس بخدها جبهته ، تلاحظ سخونتها فينتابها بعض القلق .. فأقول لها:

– ليس هذا مستغربا ، فقد تلقى اليوم تطعيما ضد أخبث وأبشع مرض فى الوجود .. مرض التعصب الدينى ... المحزن في الأمر أنه لم يعد الآن ملكنا وحدنا .. فقد سلّمناه منذ أن بلغ سن الدراسة الى المجتمع المصري .. الى عبد الحفيظ أفندى مدرس الدين الذى سيقول لتلاميذ فصله إن المسيحيين كفار .. والى الأستاذ عبد الباسط مدرس التاريخ الذى يتجاهل عن عمد كل اشارة الى تاريخ مصر القبطية ..وسيعود خالد من المدرسة فى صحبة صبيان يهينون ويشتمون ويسخرون من كل قسيس يرونه فى الطريق .. وسيجلس الى تليفزيون صفوت الشريف فيسمع الشيخ الشعراوى يقول إنه لا ينبغى لمسلم أن يتخذ قبطيا صديقا له ، ويسمع الشيخ الغزالى يقول: إن الأقباط كانوا دائما يخونون مصر كلما تهددها أو اجتاحها غزو أجنبى .. وسينظر من النافذة فيرى الغوغاء يحرقون الكنيسة المواجهة لبيتنا ويهتفون أن عملهم لا شك فى أنه سيرضي الله ورسوله .. وسيكون من الصعب علي وعليك أن نحميه ضد كل هؤلاء الأعداء المتكاتفين فى اعتدائهم علي عقل هذا الطفل الصغير ليشوّهوه ... غير أننا سنحاول .. سنحاول ما بقى فى نفوسنا رمق وفى جعبتنا سهم .. أنا لست واثقا من أن الغلبة هى دائما للحق على الباطل .. غير أننا .. سنحاول .



من غير ليه !

لم أتمكن ـ بسبب انقطاع الماء فى مسكنى ـ من حلاقة ذقنى قبل التوجه الى مطار الجزائر لتوديع أمير قطر .. فكان أن بكرت فى الخروج للمرور على الحلاق أولا .

كان الدكان خاليا من الزبائن في هذه الساعة المبكرة من الصباح . وصاحبه الطويل النحيل واقفا عند بابه يحمل المسبحة في يد ، وكوب الشاى فى الأخرى .. لم يرد على تحيتى له (صباح الخير) بغير صوت ساخر من أنفه . وحين سألته الاذن بالدخول من أجل حلاقة الذقن ، أجاب عابسا :

«روح»! ومعناها فى اللهجة الجزائرية «تفضل»! ولولا معرفتى لهذا المعنى الجزائرى لظننته - بسبب عبوسه وعدم رده على تحيتى - يأمرنى بالانصراف وعدم أزعاجه .

أخذت مكانى أمام المرآة ، وبدأ الرجل يعقد الفوطة البيضاء عند قفاي.. كان نحيفا لدرجة أن مسطح وجهه بدا وكأنه بروفيل ، وهو مازاد من إحساسى بحدة طبعه .. وقد توهمت أنه سيؤدى عمله صامتا . غير أنه فاجأنى بقوله دون أن ينظر الىّ وهو يأتى بأدوات الحلاقة :

- مصرى ؟

- نعم .

ـ هممم .... تعبير (صباح الخير) يا أخ تعبير جاهلى قد أكرمنا الله فى الاسلام بخير منه ، لعلك قد تكون سمعت به وهو "السلام عليكم ورحمة الله» .. سمعت به ؟

لم أجب . ولا كان هو يتوقع ردا .. وانهمك فى تقليب الفرشاة فى طاسة الصابون . ثم اذا به يسأل :

- ماذا تم فى موضوع عبد الوهاب ؟

- عبد الوهاب من ؟ أى موضوع ؟

قال ساخرا :

- موضوع القضية المرفوعة أمام القضاء المصرى على المغنى محمد عبد الوهاب بسبب أغنيته " من غير ليه " .

- أعتقد أن القضاء حكم ببراءته.

قال وهو يشرع فى تغطية وجهى بالصابون وقد وضع كفه على رأسى.

- لم نكن ننتظرخلاف ذلك من دولة علمانية كدولتكم .

- أكنت تفضل .. إدانته ؟

سكت دقيقة أو دقيقتين ، ثم بدأ يردد كلمات الأغنية :

- " جايين ما نعرف ليه .. ولا رايحين فين ، ولا عايزين ايه » ؛ أهذه تساؤلات تصدر عن رجل مسلم ؟ ألم يقرأ السيد عبد الوهاب فى القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنس والجن ليعبدوه ، وأننا جئنا الى هذه الحياة الدنيا لهذا السبب وحده ، وأن السيد عبد الوهاب وأمثاله "رائحون " الى جهنم بإذن واحد أحد ؟ غير أن سيادته يتجاهل كل هذه

الإجابات الصريحة الواضحة ، ويضر في بجاحة على مواصلة تساؤله .. لو أن أحد من علماء الدين عندكم نبهه فى الأربعينيات حين طلع بأغنيته المماثلة ؛ « لست أدرى » التى يقول فيها إنه لا يعلم من أين جاء والى أين يسير ، إلى الآيات القرآنية التي ترد ردودا وافية شافية علي كل هذه التساؤلات لما عاد بعد أربعين سنه يكرر نفس الأسئلة والمعاني .

قلت :

– اسمح لى أن أسألك عمن تعنى : عبد الوهاب ، أم مرسي جميل عزيز وايليا أبو ماضى مؤلفى الأغنيتين ، أم الإذاعة التي أذاعتهما ؟

– الجميع ياأخ .. الجميع .. ألم يقل الحديث أن الله لعن شارب الخمر وناقلها وحاملها وساقيها وشاربها ؟ .. الجميع ياأخ .

– ألا يجوز لنا التجاوز بعض الشىء مع الشعراء ، وأن نغض الطرف عن تعبيرهم عن مثل هذه المعاني ؟

– لا ياسيدى . لا مع الشعراء ولا غير الشعراء . الكفر كفر وإن أتى من شاعر . وحكم الشرع فى أمثالهم وفيمن يتبعهم من الغاوين صريح ، لماذا لا يغني السيد عبد الوهاب شيئا فى معني أن الله خلق الإنــس والجن ليعبدوه؟ .. هه ؟

لم ينقطع طوال حديثه عن التنهد فى حرقة . وكانت التنهدات التى تخرج من صدره مرئية حتي قبل أن تظهر على السطح .. وبدا لى الصابون الذى غطى به وجهى وكأنما هو رغوة الغضب .

– ثم انظر الى ام كلثوم هى الأخري..

– ماذا عن أم كلثوم هى الأخرى لافض الله فاك ؟

ـ أليست هي صاحبة أغنية « حاقابله بكرة » .

ـ أفى أغنية « حاقابله بكرة » ما يماثل كفر عبد الوهاب ؟

ـ بالتأكيد .. ألم تلاحظ ؟ ألم تلاحظ أنها لم تضف عبارة « إن شاء الله » بعد قولها " حاقابله بكرة " ؟ ألم يقل الله تعالى فى كتابه الكريم (ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلى أن يشاء الله) ؟ فلماذا إذن لم تضف قولها « إن شاء الله»؟

– ينكسر البيت .

– لا خير فى بيت تكسره عبارة « إن شاء الله » .

ثم أضاف وهو ينفخ أوداجه بغضب متزايد:

– ثم الأدهى من ذلك أنه بدلا من أن تقول «حا قابله بكرة إن شاء الله»، نجدها تقول بكل تبجح : " حاقابله بكرة .. وبعد بكرة " ! أستغفر الله العظيم وأتوب إليه ! أستغفر الله العظيم وأتوب اليه ! .. ثم اسمح لى أن أسألك ، أو بالأصح ، أن أسألها : تقابله ليه؟

ابتسمت ابتسامة صابونية ، وقلت ضاحكا لأخفف من حدة الحديث :

– من غير ليه!

– لا يا سيدى ، أنا جاد لا أهزل .. لماذا تريد مقابلته ؟ هل ستقابله بحضور محرم ؟ الواضح من كلمات الأغنية أنها ستقابله بدون وجود محرم، وبصرف النظر عن الحديث الشريف القائل بأنه مامن رجل يختلي بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما .

وحاولت مرة أخرى :

- ألا يمكن أن يكون الغرض من لقائهما ذكر الله معا ؟

قال بجدية تامة :

- لا يامحترم. لا تحاول تضليلي أو التماس العذر لهما .. واضح كالشمس من كلمات الأغنية أن الغرض من اللقاء شيء آخر هو أبعد ما يكون عن ذكر الله .

ثم أضاف وقد أوقف الموسى عموديا أمام أنفى :

- لايامحترم ! ليس ثمة حل لكل هذه الضلالات غير حل واحد . وتأملت الموسى فى يده المرتعشة وقد أصابنى بعض الذعر ثم قلت بصوت متهدج :

- الحل الإسلامى ؟

لم يجب .. وصمت دون حراك نحو دقيقة مضى بعدها يشحذ الموسي ويجرها جيئة وذهابا على الشريط الجلدى السميك المعلق بجوار المرآة. ثم قال :

- أو اسمع أغنيتها الأخري لا بارك الله فيها المسماة بالفوازير :

القبلة ان كانــت للملهـــوف اللى على ورد الخـــد يطـــوف

ياخدها بدال الواحدة ألوف ولا يسمـــع للنـــاس كـــلام

ولايسمـــع للنـــاس كـــلام

ألا ترى إلى أي حد بلغ الفُجر ؟ والبجاحة ؟ ؛" ولا يسمع للناس كلام " طيب، موافقون. ولكن ماذا عن الله عز وجل ؟ !

كان الآن ينفث في غضب وكأنه المرجل، وقد زاد عمق تنهداته .. أما

عنى فقد ازداد ذعري حين أحسست بالموسى تحلق ذقني عند أعلى العنق، خاصة حين جاءنى صوته كفحيح الأفعى يقول من بين أسنانه :

– آه لو كان عبد الوهاب الآن هنا أمامى بدلا منك، وتحت رحمة هذه الموسى فى يدى .. إذن لكنت ..

وشعرت بيده ترتجف فارتجفت. وأصابتنى الخشية من أن يتخيل فجأة ـ ولسبب من الأسباب – أن عبد الوهاب هو الجالس أمامه لتحلق ذقنه. فبذلت محاولة مستميتة من أجل أن أهدىء من ثائرته :

– لا تبتئس ياصاح .. الاسلام متين وأقوى شأنا من أن تؤثر فيه كل هذه السخافات وكل ألاعيب هؤلاء العلمانيين .

ـ هؤلاء ليسوا علمانيين فحسب. هم عملاء الفرنجة الصليبيين ...

قلت وأنا أحاول النظر الى الموسى وهى ترتع عند عنقى :

ـ صليبيون. نعم بالتأكيد.

ـ وعملاء .

ـ هذا أمر لا شك فيه .

ـ وأوغاد .

ـ أمر لا يختلف فيه اثنان

ـ " ياخدها بدال الواحدة ألوف " ؟!

ـ شيء مقزز ..

ـ " وبعد بكرة " ؟!

ـ حاجة تقرف.

ـ " ولا يسمع للناس كلام " ؟!

ـ آخر صفاقة .. ولكن،

ـ نعم ؟

ـ ولكن ألا يمكنك أن تسرع لو سمحت. وورائي موعد هام .

– أهم من هذا الذى نحن فيه ؟ آه ! نسيت ! يقول عبد الوهاب فى أغنيته إياها : " ياللى زماني نسيني وقال لى انسانى " أتعلم أن كلمات مثل "الزمان" و " والدهر " تعني الله عز وجل، وأن الحديث الشريف ينهانا صراحة عن سب الزمان ؟ فهو إذن يقول إن الله قد نسيه، والله لا ينسى خلقه . بل ويزعم أن الله طلب من الانسان أن ينساه، فى حين أن الله يأمر الخلق فى آياته بأن يذكروه صباح مساء – أفليس هذا إذن بالكفر الصريح ؟

– بكل تأكيد .

– هناك كفر أفدح منه ؟

– أشك .

– أيمكن أن ينسى الله خلقه ؟

– مستبعد .

– أو أن يأمر خلقه بأن ينسوه ؟

– العياذ بالله !

وكان الرجل قد فرغ. فما وضع الموسى على الرف، وأزاح الفوطة عن صدرى، حتي قفزت من المقعد واقفا وكأنما قد كتب لى عمر جديد .

قال وهو يبتسم للمرة الأولى منذ حضورى :

- ولكننا سنتخلص من كافتهم وفى أجل قريب.

- أجبته في حدة وأنا أدس أجره فى يده :

- قل إن شاء الله يارجل ! قل إن شاء الله ! ما هذا ؟! أين إسلامك ياصاح ؟ أعوذ بالله منك يا شيخ .. أعوذ بالله !

وتركته واقفا مشدوها وهو ينظر الىّ فاغراً فاه ..

ياقــوة اللــه !

قد لا تعلم غير قلة قليلة من القراء أننى كنت المسئول عن الأحداث التى وقعت يوم الأربعاء الماضى فى شارع قصر النيل ..

١

وأبدأ فأقول إننى لم أتمكن من الذهاب إلى معرض لوحات صديقى ممدوح الجنبلاطى بشارع قصر النيل إلا فى يومه الرابع. وحين دلفت إليه أدهشنى أنى لم أجد بصالات العرض الثلاث غير الفنان نفسه، وصبيا بجلباب من قهوة مجاورة يصب له قدحا من القهوة، وفتى فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة يتسكع أمام اللوحات دون إهتمام واضح، وينظر إلى ساعته بين الحين والحين، وكأنما هو فى انتظار أن يحين موعد فيتوجه إليه وينصرف عن المعرض الذى قصده لقطع الوقت .

كل اللوحات أو جلها كنت قد شاهدتها من قبل أثناء زياراتى لممدوح فى مرسمه. كانت نحوا من سبعين لوحة، بعضها تجريدى ومعظمها تأثيرى، موزعة على ثلاث صالات كما ذكرت : مناظر من الطبيعة المصرية فى الصالة الخارجية، وبورتريهات فى صالة داخلية أصغر، ثم غرفة ثالثة صغيرة بها أربع لوحات لنساء عرايا وعشر لوحات لمناظر من الطبيعة الصامته ... وبعد

جولة بالمعرض وقفت مع صديقى الفنان الذى بدت عليه علائم البؤس الشديدة .

ـ أربعة أيام ! أربعة أيام لا يزور المعرض فيها غير خمسة أشخاص منهم هذا المتسكع الذى تراه أمامك ينظر إلى ساعته ! أهذا معقول ؟ وأين؟ فى صالة عرض بوسط البلد وفى شارع قصر النيل ! أيمكن أن تكون هناك كارثة أفظع من أن يكون الإنسان فنانا فى هذا البلد ؟ أتعلم كم أنفقت على هذا المعرض الذى لم أبع فيه لوحة واحدة، مابين إيجار الصالة وبروزة الصور ونقلها؟ يبدو جليا أنه لا سبيل لفنان أن يكسب عيشا فى بلادنا إلا أن كان راقصة تهز البطن والردفين والصدر أمام ثرى من دولة خليجية مقابل ثلاثة آلاف دولار للدقيقة الواحدة !

قلت مهدئا :

ـ ولكن اسمح لى يا ممدوح ، ياصديقى، أن أقول لك إنك لا تتقن فن الدعاية لنفسك .

ـ كيف ؟ قد نشرت اعلانا فى كل من جريدتى الأهرام والأخبار عن المعرض ، ووزعت أكثر من خمسمائة بطاقة دعوة على رجال الثقافة والإعلام والأصدقاء .

ـ ليس هذا ما أعنيه. وإنما أعنى شيئا شبيها بما أشار إليه دستويفسكى فى رواية « المراهق» حين يقارن بين إعلانيين فى الصحف، إعلان يذكر أن صاحبته «سيدة فاضلة تحمل شهادة جامعية وتتقن ثلاث لغات أجنبية تضطرها الحاجة إلى البحث عن عمل كمربية أو حتى خادمة لدى أسرة محترمة نظير أجر معتدل ودون حتى إجازة أسبوعية »، وإعلان يذكر أن

صاحبته « فتاة جذابة شقراء ليس لديها مانع من أن تعمل مديرة لمنزل متى كان المرتب مغريا وبشرط اجازة أسبوعية وأخرى سنوية لمدة شهر ». ويعلق دوستويفسكى على الإعلانيين بقوله : إنه من المؤكد أن الطلب على الثانية سيكون أضعاف أضعاف الطلب على الأولى !

ـ فكيف تريدنى إذن أن أعلن عن نفسى ؟ أن أنشر صورتى مع الإعلان مثلا مرتديا المايوه على شاطىء البحر ؟!

ـ شيئا من هذا القبيل .. تعال !

ـ إلى أين ؟

ـ إلى الباب المؤدى إلى الشارع .

وأمسكت بذراعه مصطحبا إياه إلى الطريق خارج القاعة.

ثم شرعت فى الحديث إليه بصوت مرتفع غاضب :

ـ دعنى أخبرك أن هذا عبث .. عبث بتقاليد أمة مسلمة وبالأخلاق الإسلامية وبكل تعاليم الدين .. ماهذا ! صور لنساء عاريات ؟ !! وأين ؟ فى وسط مدينة الألف مئذنة ؟ فى عاصمة العالم الإسلامى وقلبه ؟ أيجوز هذا؟ صور لنساء عاريات ؟! أهذا أمر يمكن للمسلمين السكوت والتغاضى ؟ عنه يا لضيعة الإسلام ! صور لنساء عاريات ؟!

ولمحنا ثلاثة شبان كانوا قد اجتازونا بخطوات فى اتجاه ميدان التحرير يتوقفون فجأه للاستماع إلى حديثى .

قال ممدوح : ولكن ...

– صحت مقاطعا:

ـ ولكن ماذا ؟ أين الدولة ؟ أين السلطات ؟ كيف رخصت الدولة لإقامة هذا المعرض ولعرض هذه الصور للنساء العاريات ؟! أم أنك لست فى حاجة إلى ترخيص فى هذه الدولة العلمانية ؟ هل شاهد أحد من المسئولين هذه الصور قبل عرضها ؟

ورأينا الشبان الثلاثة يعودون أدراجهم فى بطء، ويقفون بجانبنا خارج الصالة يتشاورون فى همس، ثم إذا بهم يدلفون إلى المعرض .

ومضيت وممدوح فى حديثنا:

ـ ولكن ..

ـ ولكن ماذا ؟ أين القيم الإسلامية ؟ صور لنساء عاريات فى قلب مدينة الألف مئذنة ؟! الحديث فى سنن ابن ماجة ينهى عن التصوير أيا كان، وتأتى أنت لتملأ معرضك بصور النساء العاريات ؟! أى عبث هذا، وأى استهتار بمفاهيم الدين ! صور لنساء عاريات ؟!

ونظرت من طرف عينى فرأيت خمسة رجال ملتحين يرتدون الجلابيب البيضاء والصنادل يبطئون من خطاهم قبالتنا ليستمعوا إلى الحديث . وإذ شرعت أكمل كلامى إذا بشاب من الثلاثة الذين دخلوا المعرض يخرج متوجها إلىّ ليسألنى فى أدب :

ـ لا مؤاخذة يا أستاذ ! أين صور الـ .. الـ .. النساء العرايا التى كنت تتحدث عنها الآن ؟

قلت له :

ـ فى الغرفة الداخلية إلى اليسار .. تعبر الصالة الأولى، حتى إذا دلفت إلى الثانية، اتجه إلى أول باب إلى اليسار .

ـ ألف شكر.

ثم أسرع بالدخول ليخبر زميليه .

ـ لا ياسيدى الفاضل .. ليس هذا فنا وإنما مجرد إثارة رخيصة لأدنأ الغرائز .. صور لنساء عاريات ؟! تريد أن تكسب مالا حراما وتكون لنفسك الثروة من وراء إثارة الغريزة الجنسية ؟ أهذا أمر يقبله الشرع ؟ أهو أمر ترضي عنه السلطات فى هذا البلد البائس ؟ صور لنساء عاريات !

ودلف الرجال الخمسة الملتحون إلى المعرض بعد أن تلفتوا حولهم يمنة ويسرة ليتأكدوا من أن أحدا لم يلحظهم .

ـ لا ياسيدى الفاضل .. هذا أمر غير مقبول ! إلى أين تسير بلادنا ياصاح؟ صور لنساء عاريات ؟ !! دون أدنى خرقة يسترن بها عوراتهن ؟ أتسمى هذا معرضا أم بيتا من بيوت الدعارة ؟ إسمح لى أن أقول إن إقامة مثل هذا المعرض على بعد خطوات من مسجد عمر مكرم ..

ـ اسمح لى يا أخ (قالها لى أحد الرجال الملتحين وقد عاد إلينا من المعرض) السلام عليكم ورحمة الله .. أين بالله عليك تلك الصور القذرة؟.

ـ الصور القذرة ؟

ـ صور الـ .. الـ .. النساء العرايا التى تتحدث عنها ؟

ـ فى الغرفة الداخلية إلى اليسار .. تعبر الصالة الأولى، حتى إذا دلفت إلى الثانية، اتجه إلى أول باب إلى اليسار .

ـ جزاك الله خيرا .

ثم أسرع بالدخول ليخبر رفاقه .

ـ لا ياسيدى الفاضل .. صور لنساء عاريات ؟! إسمح لى أن أقول لك إننى سأتصل الآن بالسلطات من أجل مصادرتها. وسيكون اليوم آخر يوم تعرض فيه هذه الصور لنساء عاريات، وآخر فرصة للجمهور لمشاهدتها ...

٢

بعد ثلاثين دقيقة أو أقل كانت صالات المعرض الثلاث قد امتلأت بالزوار.

ـ إسمح لى أن أقول لك ...

ومر بنا فى الطريق رجل وامرأة من الطبقة العليا يبدو أنهما كانا فى طريقهما إلى نادى السيارات المجاور لصالة العرض .. وتطلع الإثنان إلى الحشود داخل الصالة .

قالت المرأة : ماهذا ؟

قرأ الرجل اللوحة خارج الصالة ثم قال :

ـ معرض لوحات الفنان ممدوح الجنبلاطى .. فنان ممتاز .

ـ شاهدت له شيئا من قبل ؟

ـ لا، ولكن ألا ترين الحشود فى الداخل ؟

ـ تحب أن ندخل ؟ لا يزال أمامنا متسع من الوقت .

ـ هيا .

ودخل الإثنان .

ـ لا ياسيدى الفاضل .. إسمح لى أن أقول لك ...

غير أنى لم أكمل. فقد تعالت فجأة من داخل الصالة صيحات وصريخ.. صيحات غضب وصريخ رعب .. واندفع صديقى يعدو إلى الداخل لينظر ماحدث .. وتبعته على مهل .

كان أحد الرجال الملتحين قد استل من جيب جلبابه مطواة قرن غزال وانهال بها على إحدى صور النساء العاريات طعنا وتمزيقا ، واتجه إلى صورة أخرى ليكرر بها فعلته، حين أمسك بتلابيبه بعض أفراد جمهور الحاضرين يحاولون منعه، وهو يصيح بالعربية الفصحى :

ـ دعونى .. دعونى أمحق الباطل .. دعونى أزيل معالم الكفر وعبث الشياطين .. دعونى ..

غير أنهم لم يدعوه. وبدرت من الملتحى حركة عنيفة ليخلص نفسه فإذا بالمطواة تصيب وجه أحد الملتفين حوله، وإذا بالمصاب يصرخ :

ـ النجدة ! بوليس!

وهرع ممدوح إلى الشارع يستنجد بالشرطة . ووصل شرطيان إلى المعرض فشقا طريقهما وسط الزحام فيه، وتبعهما بعد لحظات شرطيان آخران. استخدم أحدهما الووكى توكى عند سماعه صراخا، ليطلب النجدة من سيارة الشرطة المتربصة فى ميدان طلعت حرب. وفى ظرف ثوان كانت السيارة تسرع إلينا وهى تملأ شارع قصر النيل بصوت سارينتها والأضواء الزرقاء تدور وتسطع فوقها .

واحتشد المارة على جانبى الطريق أمام المعرض تراقب الشرطة وهى تجر الرجل الملتحى بمطواته لتدفعه دفعا فى اتجاه السيارة وهو يهلل «الله أكبر ! الله أكبر !» ويصب لعناته على نظام الحكم .. وكانت دار سينما قصر النيل

وقتها تفرغ جمهورها بعد انتهاء الفيلم، فاتجه الجمهور بأسره عند سماع الضجة إلى الموقع الذى تنبعث منه .. وحاولت العشرات أن تدلف إلى صالة المعرض بعد سماعها بالقصة كاملة لترى اللوحة الممزقة، واللوحات المجاورة التى كانت مهددة بنفس المصير. غير أن الشرطة، وقد رأت امتلاء القاعات عن آخرها، انبرت لتنظيم حركة الدخول، فلم تمسح بالدخول إلا لمجموعة إثر مجموعة بعد خروج ما يماثلها عددا من الصالة .. وحين ألقيت نظرة عند خروجى على طابور المنتظرين فى الطريق، إذا هو قد وصل إلى محل جروبي فى ميدان طلعت حرب، وانعطف يسارا فى اتجاه شارع البستان .

* * *

واتصل بى ممدوح تليفونيا فى منتصف الليل :

- ياقوة الله ! أتعلم إلى كم وصلت مبيعاتى من اللوحات ؟خمسة وثلاثين ألف جنيه ! خمسة وثلاثين ألف جنيه ! أتسمع ؟! عشرة آلاف جنيه للصورة الممزقة وحدها !

﴿ قال ربِّ السجنُ أحبُّ إلَيّ مما يدعوننى إليه ، وإلاّ تَصرِفْ عنّى كيدَهنّ أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدَهنّ ، إنه هو السميع العليم ﴾ .

(سورة يوسف ٣٣ ـ ٣٤)

البيان العاشر لقائد الثورة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وصحبه وأزواجه أجمعين .

أيها الإخوة المسلمون :

أما وقد مضت ثلاثة أشهر على قيام ثورتنا الإسلامية المباركة، ثورة الرابع من شوال سنة ألف وأربعمائة و ... من هجرة نبينا صلى الله عليه وسلم، وعلى الإطاحة بقوى الشر والظلام وعهد الجاهلية، وبولاة السوء وعبدة الطاغوت، فقد رأينا أن نقدم لهذه الأمة التى هى خير أمة أخرجت للناس، كشف حساب عما قدمته أيدينا خلال تلك الأشهر، ، وما أنجزناه ونعتزم إنجازه فيما نستقبل من الأيام، بإذن من الله جل وعلا، وهو القائل فى كتابه العزيز (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) صدق الله العظيم. فإن كنا قد نسينا أو أخطأنا، فما على الناصحين الأبرار من أبناء هذه الأمة إلا أن ينبهونا ويقوموا خطانا، وهو ما كان الصديق أبو بكر وصاحبه الفاروق عمر

رضى الله عنهما يوصيان الرعية به، ويحثانها عليه. وإنا لعلى نهج العمرين وسنة الصحابة والسلف الصالح سائرون بإذن الله وتوفيقه، وعلى الله فليتوكل المتوكلون.

غير أنى بادىء بالقول إن الفتنة التى أطحنا بالآلاف من رؤوسها خلال الشهر الأول من ثورتنا المباركة، قد عادت مؤخرا تطل بوجهها الكئيب من جديد. وإنى والله لأرى رؤوسا أخرى قد أينعت وحان قطافها، وإنى لصاحبها. (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين). فإن كنا قد أفلحنا بتوفيق من الله وفضله فى أن نستأصل فى الأسابيع الأولى شأفة العلمانيين والدنيويين ورؤساء أهل الذمة والفنانين والملاحدة والشيوعيين والاشتراكيين والناصريين والوفديين وغيرهم من أتباع المذاهب الضالة الهدامة، فاسترحنا بذلك وأرحنا، فقد بدأت تظهر مؤخرا وجوه كئيبة كثيرة من طوائف أخرى لأناس كنا نحسبهم من أنصار هذا العهد، ومن أتباع هذا الدين القويم، بل وكانوا من أقرب المقربين إلينا وتولوا فى ظلنا وبرضانا رفيع المناصب، وأسندنا إليهم جليل المسئوليات، فإذا الأقنعة بحمد الله تسقط، والحقيقة برحمته تستبين، وإذا هم من أشرس أصحاب البدع، وأخطر القائلين بالضلالات والترهات، ، وأحرص الناس على حياة، وعلى السلطان والجاه، دون حقيقة الإسلام، ومصالح هذا النظام. (وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين)، (يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون).

وقد تطرق الظن إلى بعضكم، بل وأعلم علم اليقين أن أفرادا منكم قد شرعوا يتهامسون فيما بينهم، بأن تصدعا قد طرأ على قيادة الثورة الإسلامية المباركة وبأن الخلاف والشقاق قد دبا بين أفرادها، وذلك لمجرد أننا قمنا

خلال الأسبوع الفائت بإعدام حفنة أخرى من المارقين العصاة فى هذه القيادات، فى حين أن عددهم لا يتجاوز ألفين وثمانمائة فى جميع محافظات القطر. (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) .وأحب أن أطمئن المسلمين الأبرار من المستمعين إلى أن قيادة هذه الأمة فى خير، وعلى ما تحبون وتشتهون، وأن المحنة الأخيره التى اجتازتها قد زادتها صلابة وقوة، وتضامنا وعزيمة، وإلى أننا قد لا نلجأ إلى المزيد من التطهير على مدى الأسابيع الثلاثة أو الأربعة القادمة .

وقد بلغنى من جهاز مباحث أمن الدولة أن بعضكم قد استفظع بالأخص إعدام الشيخ صالح الفرماوى من بين من أعدموا فى الأسبوع الماضى، رغم ما يزعمونه عن اضطلاعه بدور هام فى سبيل إنجاح الثورة الإسلامية، ورغم توليه لمنصب رئيس الوزراء مدة شهر كامل من عهدنا، وما بدا من تمتعه بثقتنا. وسيأتى عن قريب الوقت الذى نشرح فيه لهذه الأمة الطيبة طبيعة ذلك الدور « الهام » المزعوم، ونضع أمامها كافة الحقائق مدعمة بالوثائق والمستندات والتسجيلات السمعية والبصرية. (فلا تأس على القوم الفاسقين).

ويكفينى الآن أن أذكر أنه قد ثبت فى التحقيق الذى دام يوما كاملا سابقا على إعدامه، أنه كان عميلا لدولة أجنبية من حزب الشيطان ليس من المصلحة أن أدلى الآن باسمها، وأن جنود الشرطة الإسلامية حين دهموا داره ليلة القبض عليه عثرت فيها على إيصالات بالمبالغ التى كان يتقاضاها من تلك الدولة، (وتحت يدى هذه الإيصالات التى ستنشر الصحف صورا لها صباح غد بإذن الله تعالى) كما عثروا من بين ماعثروا عليه، ويا للخزى والحسرة، على زجاجات خمر وأشرطة فيديو لأفلام جنسية فاضحة، وغير ذلك

من الأشياء التى تحمر الوجوه لذكرها، ويندى لها الجبين، وتأنف الألسنة أن تتحدث بها، وقانا الله شر الزيغ والجحود، وأعاننا على فضح النفاق وأهله، إنه سميع مجيب. (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون). صدق الله العظيم..... وقد أبى الشيخ - لا رحمه الله - أن يعترف بما اقترف حتى حملناه حملا، وبوسائل ضغط معينة، على الإدلاء باعتراف كامل قبل إعدامه. وهو اعتراف مسجل بصوته، أو بصوت قريب من صوته، وسيذاع عليكم خلال أيام بإذن الله جل شأنه، حتى تكون الحقائق كاملة أمام هذه الأمة الطيبة. (وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم، والله عليم حكيم) .

أما عن خلافنا مع طـه البديعى نائب الرئيس الذى أعدمناه هو أيضا عقب صلاة يوم الجمعة الماضى فى ميدان الفاروق عمر، فيرجع فى الحقيقة إلى اختلافه فى الرأى معنا حول موضوعات حيوية شتى هى لصيقة بجوهر الدين ومن أركانه. فقد أفتى هذا الفاسق الفاسد المبتدع، خلال الأسابيع الأخيرة من حياته، بأن صبغة اليود لا تنقض الوضوء، وبأن ظهر قدم المرأة ليس بعورة، وبأن اقتناء الصور الشمسية لآدميين لا غبار عليه (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم، إن الله لا يهدى القوم الظالمين) . وإنى لأصارحكم بكل هذا لكى يدرك إخواننا إلى أى حد قد بلغت بهذا الأستاذ جرأته على الله وعلى هذا الدين، رغم كل ماورد فى الأحاديث الشريفة وأقوال الأئمة والسلف الصالح في هذه الأمور وغيرها من نصوص صريحة لا تقبل التبديل، ولا تحتمل التجريح والتعديل. (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) صدق الله العظيم.

على أى حال فقد أراحنا الله وأراحكم من هذين المارقين وأمثالهما (إنا كفيناك المستهزئين). وما دام منطقنا فى الحكم هو إطاعة أحكام الله والالتزام بالشريعة الغراء فإن ضميرنا هادىء مطمئن، وسريرتنا نقية طاهرة، وعزمنا أكيد وطيد، على اجتثاث جذور كل معارضة لهذه الأحكام، وكل انحراف عن هذا الالتزام. ولن يزعجنا أن ينزعج الكثيرون منكم لشنق بعض المسمين ظلما وجهلا با لمفكرين الإسلاميين من أمثال طارق العشرى وفاضل حسين وغيرهما، ممن يظن الغافلون أنهم كانوا يدعون قبل ثورتنا المباركة فى حماسة إلى تطبيق أحكام الشريعة، وإرساء دعائم نظام إسلامى. فقد اتضح لنا على نحو قاطع لا يقبل الشك أنهم كانوا يتسربلون بزى الدين، وينتحلون سمت المؤمنين المتقين، وهو ما يجعلهم فى الواقع أخطر على هذا الدين المتين من أولئك العلمانيين الذين أعدمناهم فى ميدان الخلفاء الراشدين خلال الأيام الأولى لثورتنا البيضاء، من أمثال توفيق الحكيم، وزكى نجيب محمود، ويوسف أدريس، وفؤاد زكريا، ولويس عوض، والفريد فرج، وفرج فودة، وحسين أحمد أمين، لعنة الله عليهم أجمعين. (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون).

ولن أخفى عليكم أن بعض هؤلاء المسمين بالتراثيين الجدد الذين أعدمناهم مؤخرا بلغت به القحة حد المطالبة ببعض حقوق الإنسان للذميين من أقباط مصر، وأن البعض الآخر كان يتفوه فى مجالسه الخاصة بأقوال توحى بأنه لا يقيم وزنا كبيرا لإطلاق اللحية، ويلمح من بعيد إلى أنه من غير المصلحة الانشغال فى الظروف الراهنة بطول الجلباب، وأنه يحل للمرأة أن تظهر من نقابها عينين اثنتين لا عينا واحدة !! (أنظر كيف يفترون

على الله الكذب وكفى به إثما مبينا). ثم أترك لكم بعد ذلك يا إخوانى تقدير ما إذا كان من مصلحة هذا المجتمع الإسلامى الجديد، أم من غير مصلحته، أن أحميه وأقيه من الفتنة بالقضاء قضاء مبرما على هؤلاء الذين يبغونها عوجا.

يطالب بعضهم بحقوق الإنسان !!! وكأن للإنسان ـ والعياذ بالله ـ حقوقا فى مواجهة خالقه !! وكأن للإنسان حقا فى حرية أن تكون له آراء تخالف ما أجمعت عليه هذه الأمة التى لا تجتمع على باطل، فى أن يتبنى عقيدة تستنكرها عقيدتنا، وفى أن يعبر عما يراه مما لا نراه نحن ! هى حقوق مزعومة لا أصل لها غير بدع الفرنجة وأوهامها وأباطيلها، قد آمن بها بعض المضللين السفهاء منكم ممن بهرته الحضارة الغربية التى هى من حبائل الشيطان ومصائده، ومن مؤامرات الغرب ومكائده، واغتر بها كما اغتر من قبل بمفاهيم الديمقراطية والحرية والمساواة والحياة النيابية والحزبية، وكلها أمور ما أنزل الله بها من سلطان، ولا أساس لها من الشريعة، وبالتالى فإنه على الأبرار المتقين من أبناء هذه الأمه أن ينسوها، وأن يضعوها دبر آذانهم وتحت أقدامهم، رغم غوايات الغاوين، والاعيب العلمانيين الملحدين المتفرنجين، وألا يعودوا إلى ذكرها والتفوه بها .(يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين) .

خلاصة القول أننا لن نسمح لأحد بأن يعطل من مسيرتنا، وأن يحولنا عن طريقنا وكعبتنا. وقد أغنانا الإسلام عن اقتباس النظم من الأمم حولنا، ووجدنا فى القرآن الكريم والسنة الشريفة كل ما بوسعه أن ينظم شؤوننا، وكافة تفاصيل حياتنا وأمورنا. ولن يجعلنا حديثهم الأجوف عن الديموقراطية وحرية الصحافة وحق تكوين الأحزاب وما شابه ذلك، (وكأن بوسعنا أن

نسمح فى دولتنا بقيام حزب غير حزب الله !!) نحل ما حرمه الله، أو نحرم ما أحله. أعاذنا الله وإياكم من هذا الشر، وأسعدنا جميعا بطاعته ورضاه.

وقد تمادت ببعض الماكرين الخبثاء من رعيتنا الجرأة حتى همسوا بأننا فى عهد الجاهلية، وأثناء اشتغالنا بالجهاد الأكبر من أجل إسقاط نظام الحكم السابق، قد أفدنا فى جهادنا من ديموقراطية الجاهلين، ومن حرية الصحافة والتعبير فى ذلك الحين، ومن احتلالنا للمقاعد فى مجالسهم النيابية، ومن حق إصدار الكتب والصحف والمنشورات الإسلامية، فتمكنا بفضل ذلك كله من التغلغل فى صفوف الأحزاب والنقابات والجيش والشرطة والاتحادات الطلابية، ومن نشر دعوتنا على أوسع نطاق، وفى جميع الآفاق. وهم ينعون علينا أننا الآن قد تنكرنا لهذه المبادىء التى كنا نصر عليها، وأدرنا ظهورنا للديموقراطية والحرية، بحلنا للأحزاب، وإغلاق الصحف، وإحراق الكتب، ومصادرة الرأى، وفرض الرقابة، واستئصال المعارضة، وسجن المخالفين لنا فى العقيدة، وإعدام المناوئين للنظام، فى حين كان من واجبنا ـ فى زعمهم ـ أن نسمح لخصومنا فى عهدنا بما سمحوا به لنا فى عهدهم. (قالوا إنما أنت مفتر، بل أكثرهم لا يعلمون) .

غير أنى قائل لكم إن الغدر بأهل الغدر وفاء عند الله، وأن الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله. فإن كان رجال العهد البائد من السذاجة بحيث أتاحوا لنا من الحقوق ما أتاحوا، وأباحوا لنا ما أباحوا، فتمكنا بذلك من قهرهم وقلب نظامهم، وإقامة حكم يرضاه الله، فلسنا من السذاجة أو البلاهة بحيث نتيح لهم نفس الحقوق التى قد تمكنهم من العودة بأمتنا إلى ظلمات الجاهلية .(وماظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) صدق الله العظيم.

والخلاصة أنى قد سئمت من نقد المنتقدين، وهمسات المستائين الساخطين ، وغمزات أعداء الدين. (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين). وإنما تجيء غمزاتهم وهمساتهم فى الوقت الذى نكرس فيه كل طاقاتنا وجهدنا من أجل تحرير فلسطين، وإقامة دعائم نظام يرضى عنه الله وجمهور المؤمنين. فنحن اليوم فى خضم معركة حامية الوطيس، ولن نسمح لأى صوت بأن يعلو فوق صوت المعركة ... (فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) .. ولا أريدكم أن تفهموا من قولى هذا أن نظامى لا يسمح بحرية النقد على إطلاقها. فالحق فيه مقبول، بل ومطلوب ومكفول، ولكن .. ولكن شريطة أن يكون نقدا بناء مهذبا، سليم النية نبيل الهدف، إسلامى المضمون صادرا عمن تتوافر فيه أهلية النقد ونراه أهلا له، لا النقد الحاقدين الهدامين الموتورين البؤساء.(واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا، واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور). ونحن هنا ـ كما سبق القول ـ على سنة الصديق أبى بكر والفاروق عمر رضى الله عنهما، وأحسن إليهما، وجزاهما عن أمة الإسلام خير الجزاء .

ولعله من الخير أن أذكر لكم الآن أمثلة من هذا النقد الخبيث الهدام، حتى تدركوا معنا مدى إجحافه بنا، وافتئاته علينا :

فالبعض – لا رحمه الله ـ كان يذهب قبل إعدامه إلى أن الآمال العريضة التى كانت معقودة بثورتنا قد خابت وتعثرت. (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا). وقالوا إن الوعود التى كنا فى زعمهم، نكيلها كيلا، باستئصال الشرور كافة، وتحقيق الرخاء، وإقامة المجتمع المثالى، لم تتحقق. كما ذهبوا إلى أنهم إنما منحونا تأييدهم، وشاركوا فى الثورة والإطاحة

بالعهد البائد، أملا منهم فى رفع مستوى معيشتهم، ورفع المعاناة عنهم، فإذا هذه الآمال تتبدد، وإذا بالمشاكل والمتاعب والمعاناة هى فى زعمهم قائمةلم تزل، بل وتتفاقم وتتعقد .

وأبادر بالرد على هؤلاء المفترين الجاحدين الكاذبين (رغم أنهم الآن فى العالم الآخر) بأنه لم يحدث قط أن أدليت بمثل هذه الوعود التى يتحدثون عنها، وإنما هى وعود وردت فى كتب لمفكرين سذج كسيد قطب ومحمد قطب، كانوا غافلين عن واقع الأحوال وملابساتها، غير مدركين لمدى تعقد المشكلات وصعوبة حلها، واقتضاء هذا الحل لسنوات طوال. كذلك فقد كان ثمة من الخبثاء سيئى النية والطوية من كان يتظاهر فى زمن الجاهلية بأنه معنا وفى صفوفنا، وهم فى قرارة أنفسهم من أعداء الاسلام ، فكالوا الوعود فى كتاباتهم ، وصوروا للناس أن معاناتهم وكافة المشكلات ستزول فى غمضة عين متى قامت الثورة الإسلامية ، وكان هدفهم الحقيقى الخبيث أن يصاب الشعب بخيبة أمل قاتلة متى رأوا الأمور باقية على حالها بعد تأسيس النظام الإسلامى ، فيدفعهم السخط والاستياء إلى قلب نظام الحكم، أو الاستخفاف بالدين، والشك فى قدرة الجمهورية الإسلامية على تحقيق الرخاء والرفاهية... كذا كان هدفهم أيها الإخوة المؤمنون .(فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) .

وقد أثبتت التحقيقات التى أجرتها أجهزتنا، وأشرفت عليها بنفسى رغم كثرة أعبائى ومشاغلى، أن بعض هؤلاء كانوا عملاء للصهيونية العالمية، فاستأصلناهم واسترحنا من شرهم وفتنتهم. (والله لا يحب المفسدين) ... غير أنى شديد الثقة فى حكمتكم وقدرتكم على أن تروا فى وضوح وجلاء أنه من قبيل البلاهة والغفلة أن يظن امرؤ أنه بالوسع بضربة واحدة، وبين

غمضة عين وانتباهتها، إزالة كافة ما كنا نعانى منه أثناء حكم الجاهلية ، وأن يحل النظام الإسلامى فور قيامه ماورثه عن العهد البائد من تركة ثقيلة، من مشكلات الإسكان والمجارى، والكهرباء والمياه، والصناعة والزراعة، والتعليم والصحة والإدارة والبيروقراطية، والفقر والأمية، والغذاء ونقص السلع الاستهلاكية، إلى آخر ما تعرفون من المشكلات .

فإن كنت فى بعض البيانات الأولى التى أدليت بها بعد الثورة، خاصة البيانات أرقام ١و٢و٣و٤و٥و٩، قد أثرت بعض الآمال فى تحسن بعض الأحوال، ووعدت بإزالة بعض المظالم، وتحقيق بعض الإصلاحات، فإن لدىّ من الشجاعة والصراحة ما يمكنني من أن أعترف الآن بأننى لم أكن فى ذلك الحين، بسبب كثرة مشاغلى وبياناتى إلى الأمة، قد أجريت دراسة وافية دقيقة لهذه الموضوعات، ولم يكن زملائى من الخبثاء الذين استأصلنا شأفتهم قد أطلعونى قبلها على كافة الملابسات والتفصيلات والأرقام والبيانات. أما الآن فهى متناول يدى. وقد أتضح لى، بعد إلقاء نظرة عليها، أن الأمر ليس بهذه السهولة والبساطة التى يتصورها البعض، وأن الحل يحتاج إلى زمن طويل، وجهد جهيد. «ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها » فالصبر الصبر ! والجلد الجلد! قال تعالى : (واصبر وما صبرك إلا بالله)، وقال : (واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)، وقال : (إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون)، وقال : (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) صدق الله العظيم .

غير أنى قائل لكم، رغم كل هذا ،إن الأزمة الاقتصادية زائلة بإذن الله، والمعاناة سترفع عن كاهلنا بعون منه وتوفيقه، متى صبرنا وصابرنا وثابرنا. إذ أنه من المحال ومن غير المعقول أن يترك الله عباده المخلصين، ومجتمعنا

الإسلامى الرشيد، فى كرب وضائقة دون أن يجعل لنا منهما مخرجا. (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا). وبوسعه جلت قدرته، متى رآنا قضينا قضاء مبرما على أعداء الإسلام، ولم يعد بين ظهرانينا غير المؤمنين الصادقين، أن يمدنا بجنود من عنده، وأن يكشف لنا فى أرضنا عن حقول نفط دونها حقول نفط دول الخليج، وعن كنوز قارون وكل مالا عين رأت ولا أذن سمعت، فنباهى بهذه النعمة الأمم، ونقيمها دليلا أكيدا على رضوان الله ورحمته، فتبادر الأمم والشعوب بالدخول فى الإسلام أفواجا، إذ رأوا البرهان المكين على صحة هذا الدين .

ثم ثمة أفراد تعساء فى هذا البلد الأمين قد ساءهم - ويا للمهزلة ! - أننا قد أغلقنا المسارح والمتاحف، ودور السينما والملاهى، وكافة أوكار الموبقات والفواحش ، وبلغ بهم السفه والقحة حد التعبير عن الاستياء إذ قصرنا برامج الاذاعة والتليفزيون وأعمدة الصحف والمجلات على المواد الدينية، ومنعنا التغنى بغير التواشيح، والكتابة إلا عما يعزز الإيمان، والحديث إلا فيما يزلزل الباطل . وهم يدعون أنهم رغم إيمانهم وتقواهم فى حاجة إلى ساعة للقلب حاجتهم إلى ساعة للرب... وانى أرد على هؤلاء السفهاء بجملة واحدة لا غير ، فأقول : إن كل الساعات للرب لا شريك له. (وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب). أما الأغانى التى هى مفتاح الزنا، والرقص الذى لا يفيد غير إثارة الشهوات، والتمثيليات التى هى من حبائل الشيطان، والأفلام التى هى من مكائد الفرنجة، والقصص والروايات والمسرحيات التى تلهى عن ذكر الله، فإنا لها لقامعون، ولشأفتها لمستأصلون، ولجذورها لمجتثون، ولرجالها ونسائها لرادعون كابحون وكابتون.

وقد كان بفضل الله من عواقب قرارنا هذا الذى لم نبتغ باتخاذه غير وجه الرحمن وحده، آثار جانبية عادت على مجتمعنا بالخير من حيث لا نقصد .. ذلك أنه اذ عزف الكفرة الملحدون عن الاستماع إلى الإذاعة ومشاهدة التليفزيون ، وإذ بات الكثيرون يأوون إلى فراشهم فى ساعة مبكرة من المساء لضيقهم ببرامجنا الدينية الرشيدة، خف الضغط على استهلاك الكهرباء ، وهو إحدى المشكلات المستعصية التى كنا نعانى منها فى العهد البائد. كذلك فإن إغلاق المسارح ودور السينما واللهو، والكازيونوهات والمراقص والمقاهى، ومحلات تصفيف الشعر، وعدد كبير من المتاجر والمكتبات وبيوت الأزياء ، إلى آخره، كان من شأنه أن يخفف الضغط على استخدام وسائل المواصلات ، إذ لم يعد لدى الغالبية من أفراد الشعب أدنى رغبة فى الخروج من ديارهم .. وكلنا يعلم كيف كان حال المواصلات فى زمن الجاهلية، وكلكم يلمس ما طرأ عليها من تحسن ملحوظ، وهو ما أعتبره إنجازا من أعظم إنجازات الثورة المباركة، إن لم يكن أعظمها طرا. (فاعمل إننا عاملون) صدق الله العظيم .

والبعض ينعى علينا أننا بعنا لدول أجنبية آثار الفراعنة الجاهلين ، وتماثيلهم ومعابدهم وهياكلهم، ويتكلفون الحزن والأسى، ويتباكون على تراث يدعونه بالمجيد .. مجيد حقا !! الأصنام التى أمرنا الله تعالى بهدمها تراث مجيد ! والمعابد التى أقاموها ليعبدوا فيها الشيطان تراث مجيد ! وصور النساء عاريات الصدور والرجال مكشوفى العورات تراث مجيد ! نعم ! غير أنى سائل هؤلاء الباكين المحزونين : هل ترك المسلمون أصنام الجاهلين قائمة بعد فتح مكة حرصا منهم على الإبقاء على تراث الأقدمين ؟ ألم يسمعوا بقوله صلى الله عليه وسلم الوارد فى سنن ابن ماجه « لا تدخل

الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة » ؟ ... فكما أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه تمثال أو صورة، فإنها لا تحل ببلد فيه صور أو تماثيل .. وقد اقتضت حكمتنا ألا نكسرها أو نحرقها ،. وأن نبيعها بدلا من ذلك إلى دول كافرة لا ترى بأسا فى اقتنائها، (وأكثرهم لا يعقلون) لتعرضها فى متاحفها، وتزين بها ميادينها، فتزيد رؤيتها أبناءها غواية على غوايتهم ، وضلالا على ضلالهم، ونشيد نحن بالأموال التى بعناها بها المساجد التى يعمرها جمهور المصلين، ودور السكن اللائقة بقادة الثورة العاكفين على خدمة وحماية هذا الدين .

ويقودنا ذكر دور السكن هذه إلى الحديث عن شكوى بعض الخبثاء من أن قادة الثورة يوسعون على أنفسهم، فاتخذوا من قصور رجال العهد البائد سكنا لهم، واقتنوا السيارات الأنيقة، والتحف الثمينة، ولبسوا اللين من الثياب. وهم فى اتهامهم هذا لنا يستشهدون بآية (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب).

وإنى أرد عليهم بأن الشيطان بوسعه أن يقتبس ويستشهد بما شاء من الكتاب المقدس لإثبات حجته . ثم إنى لسائلهم : ألم يسمعوا فى حياتهم تلك الآية الكريمة (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) ؟ ثم إنى لسائلهم ومفحمهم : أليس أنيق الثياب والمسكن والمركب والمأكل والمشرب من الطيبات من الرزق ؟ ثم يكفينى أن أذكر أن هذه الأموال التى ننفقها على أنفسنا ليست من أموال الشعب كما يدعون، وبالتالى فإنه ليس لأحد من أبناء رعيتنا فيها نصيب. فهى من الأموال التى يرسلها إلينا شخصيا بعض الأكارم الفضلاء من بعض دول الخليج كى نستعين بها فى حياتنا التى كرسناها لنشر تعاليم الإسلام وإعلاء صوته ومكانته في الدنيا بأسرها. وهى ليست كأموال هؤلاء الطاعنين فينا والمؤلبين

علينا مما توافيهم بها الدول الملحدة، أموال كرست لهدم الإسلام كما كرست أموال دول الخليج لخدمته. (وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون. فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين)

ويدعى هؤلاء الماركسيون الشيوعيون والاشتراكيون والناصريون أن مذهبنا نحن، لا مذهبهم هم، هو الهدام الضال. وقالوا إننا هدمنا نظم التعليم، ومنعنا تدريس اللغات الأجنبية، وقتلنا السياحة إلى بلادنا، وأحرقنا الكتب، وقضينا على حقوق القبط ، ودفعنا المثقفين إلى الهجرة من ديارنا، وأهدرنا آدمية المرأة، إلى آخر افتراءاتهم وأكاذيبهم وضلالاتهم. (يريديون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون). صدق الله العظيم .

وإنى لمجيبهم : أجل هدمنا نظم تعليم الجاهلية التى كانت تنفث سمومها وترهاتها فى عقول أبنائنا، وتلقنهم نظريات دارون وكوبر نيكوس وجاليليو ونيوتن وأنيشتاين ، مما يخالف ما أتى به القرآن ، ويشغل العقول بعلوم لا يرضى عنها الرسول، وأقمنا نظم تعليم تحل فيها مكان الصدارة كتب القسطلانى ومتولى الشعراوى، وابن تيمية وعمر عبد الرحمن، وابن حزم وعبد الحميد كشك ... أجل منعنا تدريس اللغات الأجنبية واستيراد كتب الفرنجة، وأحرقنا الآلاف المؤلفة من المجلدات. غير أننا إنما فعلنا ذلك وقاية وحفظا لعقول أبناء هذه الأمة من أباطيل خصوم الإسلام. فإن كان نظامنا قد أبعد السياح الأجانب عنا، فإنما ذلك فضل من الله ورحمة، إذ وقانا شر أجانب لاحياء لديهم ولاخلاق لهم، يسيرون بالشورت فى طرقاتنا، وتكشف نساؤهم عوراتهن على شواطئنا، ويتعاطى جميعهم المنكر جهرة وعيانا،

فيفسدون بذلك من أخلاق شبابنا، ويطأون بأقدامهم تقاليدنا ومقدساتنا. فإن كنا قد حرمنا بابتعادهم من دخل تأتى به السياحة ، فليست الإيرادات وزيادة الدخل القومى بالغرض من هذه الحياة الدنيا الفانية. (وماهذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الاخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون). وإنما غرض الحياة وهدفها طاعة الرحمن، لا السير فى طريق الغواية والشيطان. ولسنا بأية حال من الأحوال، ومهما عانينا من الفقر وتدهور الاقتصاد وانخفاض الدخل بهاجرى ديننا من أجل حفنة من الدولارات !

(ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون).

فأما عن القبط وشكواهم من إعادة فرض الجزية عليهم، وحرمانهم من حق الدفاع عن الوطن، ومنعهم من تولى المناصب الرئاسية فى أى من الميادين، ومن بناء الكنائس الجديدة وترميم القديم منها، فأمور أمر بها الدين ولا نملك إلا الإنصياع لها وإن كره الكافرون .(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولىّ ولا نصير) . صدق الله العظيم. كذلك فقد أمر المرأة بأن تقر فى بيتها. فإن كره البعض قرارنا بحرمان النساء من الحقوق السياسية ومن حق العمل، وقال إن نصف أفراد المجتمع قد أخرجوا بذلك من ميادين الإنتاج، قلنا إن هذا هو تفسيرنا لمعنى الآية الكريمة، وليس بوسعنا أن نسمح بغير تفسيرنا مما يريد السفهاء الأخذ به ... (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) . وأضيف إلى ذلك أنه وإن كان نصف أفراد المجمع قد أبعدوا بقرارنا هذا عن ميادين الإنتاج، فقد أبعدوا أيضا عن وسائل المواصلات العامة والشوارع، حيث كانت النسوة يزاحمن الرجال، وكلكم

لمس ماطرأ من وقتها على هذه المواصلات من سهولة ويسر، وقلة عدد المارة فى الطرق، وهو ماسبق أن ذكرت أنه من أهم إنجازات الثورة.

وأما عن قولهم إن الآلاف المؤلفة من المثقفين قد اختارت الهجرة من البلاد، وأن العمل بالإدارات الحكومية وغير الحكومية قد تأثر بهجرة «العقول» والكفاءات وتدهورت نوعيته، فإنى ذاكر أنه لا رغبة لدينا فى أن يبقى بين ظهرانينا وفى هذه الأمة المسلمة هؤلاء العلمانيون الملحدون المعارضون المدعوون بالمثقفين.

ويكفينى هنا أيها الأخوة المؤمنون أن أشير إلى أنه ما من دين واحد من بين كافة الأديان السماوية قد وعد بالجنة المثقفين ، أو أورد كتابه المنزل ذكرهم. وإنما ذكرت الكتب السماوية المتقين لا المثقفين، ووعدتهم بجنات النعيم. وعلى أى فإنما نحن أحوج إلى أهل الثقة منا إلى أهل الخبرة. وعلى الله توكلنا وهو خير الحافظين ونعم الوكيل. فإن شاء المزيد منهم الهجرة فهنيئا لهم بها، وبالعيش فى مجتمعات الشياطين وأمم الجاهلين. وليصحبوا معهم من شاءوا من أهل الذمة، والنساء الفواجر، والموسيقيين والممثلين، وكتاب المسرح والروائيين، والرسامين والنحاتين، وكل من ساءه تطبيق أحكام الشريعة الغراء وتوقيع الحدود.

غير أنى محذرهم من أننا متى علمنا أنهم يستغلون إقامتهم فى دول المهجر للإساءة إلى سمعتنا ، والتنديد بنظامنا، والافتراء على شخصنا، فإن لله جنودا بمقدورهم أن يصلوا إليهم، وأن يريحوا الإسلام منهم، ولو كانوا فى أقصى الأرض أو فى بروج مشيدة. وعلى أى حال فإننا لا نقيم وزنا ولا نلقى بالا لما قيل ويقال وسيقال عنا خارج قطرنا.

وقد استنكروا فى الشرق والغرب بالفعل قطعنا ليد السارق والسارقة، وشنق العلمانيين والملاحدة، ووصفوا نظامنا بالهمجية، ورجاله بالوحشية. وإنا والله لا نعبأ بما ينعتوننا به من صفات، ولا نقيم اعتبارا لغير رضا الله وطاعته.(ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون). صدق الله العظيم .

ويشكو البعض من أن أواصر الحياة العائلية فى قطرنا وفى ظل نظامنا قد بدأت تتفكك وتضعف إذ نكرر وصيتنا لشباب حزب الله أن يبادروا بإبلاغ المباحث العامة عما يحاك فى محيط أسرهم من مؤامرات ضد الدين، وعمن يهجر الفروض كالصوم والصلاة من الاباء والأمهات، والإخوة والأخوات، وأبناء الأعمام والأخوال والعمات والخالات. وقالوا إن الشك قد بات يداخل كل فرد من العائلة فى بقية أفرادها، وأننا بتنا نرى الكثير من الزوجات يطلبن الطلاق بدعوى أن أزواجهن، لكفرهم، ليسوا حلا لهن، والكثير من الأبناء يخاصمون أبائهم وأمهاتهم لإصرارهم على اقتناء الصور فى المنازل، أو لتكاسلهم عن أداء الصلاة، أو لتناولهم نظامنا بالتهكم والسخرية، أو لرفضهم التبرع لبناء المساجد.

وأجيب على كل هذا بأننا كنا دائما نتوقع هذا ونشجع عليه، تدعيما للإسلام، وحماية للنظام، وتحقيقا ومصداقا لما بشرنا به الله تعالى جلت قدرته فى القران ، إذ يقول فى سورة عبس(يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه. لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه).

على أى حال فإنى مذكر إياكم بما تعاهدنا عليه وقت قيام ثورتنا الإسلامية المباركة وهو أن نقف جميعا صفا كأننا بنيان مرصوص ، محيطين بأعداء الثورة، متنبهين لمؤامراتهم ودسائسهم وألاعيبهم.(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين). وعلينا

أن نسعى دوما إلى تعزيز إيماننا الذى هو وحده زادنا وطريقنا إلى الله. فإن كنا نشكو هنا من أزمات طاحنة، وضنك وكرب، فقد وعدنا الله فى اليوم الآخر جنة عرضها السماوات والأرض، نسكن فيها القصور الفسيحة، قطوفها دانية، لا تسمع فيها لاغية، فيها عين جارية، وأنهار من عسل مصفى وانهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه،(يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير). والمؤمن منكم من زادته آلامه قوة، ومعاناته تصميما وإرادة.(واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور)... فالصبر الصبر أيها الأخوة والأخوات، ولا تقنطوا من رحمة الله. فوالذى نفسى بيده، إن الصبر لمفتاح الفرج.

ولا أسمعن من الآن فصاعدا أحدكم يشكو من تدهور الأوضاع.(فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله). صدق الله العظيم. ولا أسمعن أحدا يشكو من استمرار طفح المجارى، أو انفجار مواسيرالغاز، أو تكرار انقطاع الماء والكهرباء، أو ارتفاع الأسعار والتضخم، أو انهيار المبانى على ساكنيها، أو أشياء من هذا القبيل.(أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين). فهى أمور وإن كنا استنكرناها وانتقدناها وقت العهد البائد، فقد ثبت لنا الآن بعد دراستها أنها من المتاعب الشائعة فى كل الدول، ومن المشكلات العادية التى لا راد لها، وقدر من الله عز وجل، لحكمة يراها قد لا يكون بوسعنا سبر غورها، ومعرفة كنهها. وكلكم قد قرأ مؤخرا فى الصحف عن انهيار فندق فى سنغافورة، وطفح المجارى فى كلكتا، بل وانقطاع التيار الكهربائى عن نيويورك نفسها. ولنذكر دائما أنه ما من آية واحدة فى القرآن الكريم، ولا حديث شريف واحد، قد أمر المسلمون فيها أو فيه بإصلاح المجارى، أو ضمان استمرار تدفق المياه، وسريان الكهرباء.

بقيت كلمة قصيرة خاصة بالعلاقات الخارجية لجمهوريتنا الإسلامية...وأصارحكم يا إخوانى بأننى حين توليت السلطة فى هذا البلد، لم تكن عندى فكرة كبيرة أو صغيرة عن الأهداف التى ينبغى أن تتوخاها السياسية الخارجية لنظام حكم إسلامى، إذ كنت مشغولا قبل ذلك بتدبير الانقلاب.. غير أنى كنت أدرك أمرا واحدا أساسيا ، قرأته فى كتب المرحوم سيد قطب، ألا وهو أن العالم ينقسم إلى قسمين: دار سلم ودار حرب: دار سلم يسكنها حزب الله، وهو حزبنا نحن، ودار حرب يسكنها حزب الشيطان ، وهو سائر الأمم غيرنا، وأن الدين يقضى علينا بأن نوسع من حدود دار السلم عن طريق الجهاد والغزوات وإشهار الحرب على الكفرة، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وقد رأيت بعد استلام الحكم أنه قد يكون من المصلحة تأجيل الجهاد والغزوات بعض الوقت لعدد من الاعتبارات العملية:

أولها: أن الولايات المتحدة الأمريكية ومؤسسة تدعى صندوق النقد الدولى فى سبيلها إلى أن تزودانا بقرض لتجديد وترميم استراحات رئيس الدولة فى القناطر والهرم والفيوم وأسوان.

وثانيها: أنه تبين لنا من تقارير مخابراتنا فى الخارج أن بعض الدول الداخلة فى حزب الشيطان لديها أسلحة شيطانية، كالقنابل المسماة بالذرية والنووية، تجعل من الحكمة التروى إلى حين أن يمدنا الله من لدنه بأسلحة إلهية.

وثالثها: أن التقارير تأتينا ساعة بعد ساعة، بل لحظة بعد لحظة، عن انتشار الإسلام بين رعايا دول كافرة كهولندا وزامبيا وبوتسوانا، مما يبشر

بدخولها فى مستقبل الأيام فى حزبنا حين يشكل المسلمون الأغلبية فيها ، وبهذا يكون الله قد أراحنا وكفى المؤمنين شر القتال.

فأما عن قرارنا بالدخول مع الولايات المتحدة الأمريكية فى حلف دفاعى لمدة تسعة وتسعين سنة، فقد اتخذناه بعد اقتناعنا بشدة حاجة الأمريكيين إلى الاستعانة بقواتنا وبالقواعد العسكرية فى أرضنا على مقاومة الزحف الشيوعى الإلحادى فى كل اتجاه، وخطر الثورة الايرانية الشيعية الكافرة على أصدقائنا من دول الخليج، وهى مقاومة لا شك عندى أو عندكم فى أن غرضها الأوحد هو حماية الدين من مؤامرات الفاسقين المارقين... قد يذهب بعضكم، وعن حق، إلى أن الولايات المتحدة هى الأخرى فى حزب الشيطان. نعم، غير أنها تمثل الجناح المعتدل منه، والأقرب إلى مراعاة مصالح المسلمين من الاتحاد السوفييتى الذى نصب حربا لا هوادة فيها ضد كل العقائد الدينية. وكلكم يعلم ما يعانيه إخواننا فى الجمهوريات الإسلامية السوفيتية من تعذيب وتنكيل. وكلكم استمع إلى حديث الرئيس الأمريكى فى الكونجرس مؤخرا الذى تحدث فيه بكلمات طيبة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن المذهب السنى الذى نعتنقه. وكلها أمور تبشر بالخير، وتدعو إلى الراحة والاطمئنان إلى النوايا الأمريكية.

وعلى أى حال فإنه باستطاعتنا، ومن حقنا، أن نعيد النظر فى موقفنا من هذا الحلف الدفاعى بعد إنقضاء مدة سريانه، وهى تسع وتسعون سنة كما ذكرت، متى رأيناه قد حاد عن أهدافه، أو بات لا يتفق مع مصالح الإسلام.

ثم كلمة« على الماشى» كما يقال، بخصوص قضية فلسطين:

تعلمون يا إخوانى أن لهذه القضية بالذات وقعا خاصا فى قلوبنا، ومركز الصدارة فى سياستنا ومخططاتنا. فتحرير هذه الأرض المقدسة من مغتصبيها،

وإعادتها إلى أصحابها الشرعيين،هما الهدف الذى سيظل دوما نصب أعيننا ، والشغل الشاغل لنا، ولن نحيد عنه قيد أنملة، كما سبق أن ذكرنا فى كافة منشوراتنا وبياناتنا وكتبنا قبل قيام ثورتنا الرشيدة .

غير أن إجماع أمتنا التى لا تجتمع على باطل، يقضى الآن بتعليق شروعنا فى تنفيذ هذا الهدف الأسمى على شروط ثلاثة:

الشرط الأول: أن تتعهد كل منظمات التحرير الفلسطينية سلفا، ومن الآن، بأن يكون النظام الذى ستقيمه بعد تحرير الأرض نظاما إسلاميا. إذ لا معنى ولا حكمة فى أن نحرر لهؤلاء الفلسطينين أرضهم ثم يقيمون فيها نظاما جاهليا علمانيا أو اشتراكيا أو صديقا للاتحاد السوفيتى، فإذا فلسطين التى حررناها بدمائنا الطاهرة وقد أضحت من حزب الشيطان! ولا يكفينا فى الواقع مجرد التعهد من جانبهم، بل ينبغى أن يثبت لدينا بوضوح، من مراقبة سلوكهم، أن هذا هو عزمهم الصادق ونيتهم الأكيدة،

الشرط الثانى: أن تتحرر كافة دول العالم الإسلامى الأخرى من أنظمتها الجاهلية ، وأن تقوم عقب ذلك الوحدة الإسلامية الكبرى فيما بين هذه الدول، من أجل ضمان نجاح غزونا لفلسطين،

والشرط الثالث: أن يتم تحرير فلسطين بأسلحة من إنتاج الدولة الإسلامية الكبرى بعد تأسيسها.. أسلحة إسلامية لا شرقية ولا غربية. فشراء الأسلحة من دول الكتلة الشرقية يا إخوانى سيعنى تسلل النفوذ الشيوعى إلى دولتنا فى أعقاب إبرام صفقات السلاح، وهو ما نأباه ونرفضه. كما أنه لا يعقل أصلا أن تبيعنا الولايات المتحدة الأمريكية أو دول أوربا الغربية، (رغم مايربط بيننا وبينهم من علاقات ودية)، أسلحة فى مقدورها القضاء على صديقتها العزيزة إسرائيل. غير أنه بالنظر إلى أن إسرائيل المزعومة تتلقى

أفضل صنوف السلاح من دول الغرب وأكثرها تقدما، فإن قدرة دولتنا الإسلامية الكبرى على إنتاج مايوازيها أو يفوقها سيستغرق لا محالة بضع عشرات من السنين. وهى فترة سنكون قد تمكنا خلالها من تربية جيل جديد لم يتلوث بجاهلية العهد البائد، وتشبع بمبادىء الإسلام وروحه منذ نعومة أظافره، فنسلم إليه القيادة، ونلقى على عاتقه القوى مهمة تحرير فلسطين.

وإلى أن يتم هذا كله، وتتحقق هذه الشروط جميعها(وهو كما ذكرت، ماقد يستغرق قرابةنصف قرن)، ورغبة منا فى تجنب عواقب أن تكون إسرائيل هى البادئة بالهجوم والعدوان قبل أن نكون قد أعددنا أنفسنا الإعداد اللازم للمعركة المقدسة، فقد قررنا أن تستمر قائمة بيننا وبينهم، وبصفة مؤقتة، معاهدة السلام التى أبرمها معهم السادات الخائن، عميل الإمبريالية والصهيونية.

أيها الإخوة والأخوات:

هذا بعض ما عنَّ لنا اليوم بصدد الظروف الراهنة، وعدد بسيط من الإنجازات المجيدة لثورتنا الرشيدة. وسألتقى بكم مرة أخرى بإذن الله تعالى هذا المساء، لتسمعوا منى البيان الحادى عشر لقيادة الثورة الإسلامية عن المزيد من إنجازاتنا.

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين).

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مشهد من الحياة فى ظل الحكومة الدينية :

بيت القاضى

[يدخل المؤلف من أمام الستار فى بطء متأملا الجمهور يمنة ويسرة]

المؤلف :

على شمالى التجمع والوفد على اليمين
وأمامى الحزب الوطنى ووارايا لا حزبيين
ده يمجد زغلول باشا وده بيأله لينين
والتالت عنده مبارك ده حبيب المصريين
والرابع عبد الناصر والخامس زفت الطين
داخلين فى خناقة وعركة ومهاترة وسب الدين
والكل يقول عالتانى خونة وانتهازيين
ولا حدش منهم شايف الخطر الاكبر مين
وحش ومتربّص بيهم حا ياكلهم أجمعين
ونهار ما حا يحصل حكم الـ.. اخوان المسلمين
حانكون فى السجن جميعا : والى وسراج الدين

وفرج فودة وشنودة وخالد محيى الدين
وساعتها نقول ياجماعة يا خوانا يا بنى أدمين !
ضيعتم مصر أزاى ؟ سلمتوا بلادنا لمين ؟
موش كان أحسن لو كنتم من بدرى متحدين
ضد الخطر اللى بلعكم وأكلكم أجمعين ؟

* * *

حانشوف مع بعضنا مشهد من حكم رجال الدين
لا حبالغ ولا حاتجنى وحاكون عالحق أمين
وان كنتم بعد ما تخلص عن سياستهم راضيين
مبروك ان شا الله عليكم دولتهم . قولوا آمين !
دولة ريان وشريف والسعد أبو الملايين
بس أنا موش قاعد فيها وحاروح ان شا الله الصين
وحاييجى مؤكد يوم حاتكونوا فيه نادمين
وتقولوا صدق والله حسين احمد أمين

[يخرج]

* * *

[يرفع الستار عن فؤاد وفوزية على وشك الانتهاء من وجبة العشاء... الابن ، محسن ، (١٤ سنة) يجلس فى أحد أركان الغرفة يقرأ فى صحيفة].

فوزية : انت موش طبيعى النهارده !

فــؤاد : لا النهاردة ولا أى يوم تانى .. لو كنت طبيعى كنت انتحرت .

فوزية : اعوذ بالله يا شيخ ! قابلت وزير العدل ؟

فــؤاد : [متنهدا] قابلته!

فوزية : قال لك ايه ؟

فــؤاد : قلت له يا سيادة الوزير القضية واضحه وضوح الشمس، وممكن لطالب فى سنة أولى حقوق أنه يفصل فيها .. وزير الداخلية فى العهد السابق خارج من بيته، ييجوا تلات شبان، أعضاء فى منظمة شباب محمد، يطلقوا النار عليه فى عز الضهر، وأكثر من عشرين شاهد فى الشارع شافوهم واتعرفوا عليهم، واتمسكوا بعد كده ومعاهم الأسلحة اللى أطلقوا النار منها .. عايزين ايه أكثر من كده ؟ قال لى ده شأنك انت وأنا بلغتك تعليمات جاية من فوق .. قلت له لو كان القاضي بيتلقى تعليمات جاية من فوق، يبقى صنعته ايه ؟ فيه حاجه اسمها عدالة ولا مفيش ؟ قال لى العدالة هى ان القاضي يحكم بما يخدم النظام القائم والشريعة . قلت له الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه سلم لقريش راجل مسلم قتل واحد من المشركين بعد صلح الحديبية، يبقى احنا ما نعاقبش مسلم حاول يقتل مسلم!؟

فوزية : هم عندهم ان وزير الداخليه ده ماهواش مسلم .

فؤاد : وهم كانوا ربنا عشان يحكموا على واحد بأنه مسلم أو مش مسلم؟ النبى ماقلش لأسامة بن زيد لما قتل واحد نطق بالشهادة « قتلته بعد ماقال لا اله الا الله ؟ هلا شققت عن قلبه لتنظر أصادق هو أم كاذب؟» القرآن ماقالش (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا)؟ .. اللى مجننى ان كل يوم فى المحكمة دلوقت ألقى أربعين خمسين واحد بالجلابيب والدقون

جايين يحضروا القضية عشان يرهبونى واحكم بالبراءة « لعدم توافر الأدلة».. عدم توافر الأدلة !!

فوزية : وانت تاعب نفسك ليه ؟ مادام قال لك دى تعليهات جاية من فوق، يبقى انت ما لكش ذنب .

فؤاد : واحكم بالبراءة ؟

فوزية : ليه لأ ؟ تفتكر حايسيبوك فى وظيفتك اذا انت ادنت ناس من تنظيماتهم ؟

فؤاد : طبعا لأ .. [صمت] وماتقعشى القضية المهببة دى إلا فى ايدى أنا؟! ده إيه النحس ده ! [يتنهد] حد سأل على ؟

فوزية : مختار الشتيوى اتصل بالتليفون .

فؤاد : وحياتك اذا اتصل تانى أنا موش موجود

فوزية : دى على فكرة رابع مرة يسأل عنك فيها وانت ماتكلموش . أكيد حايفهم .

فــؤاد : يفهم زى ماهو عايز .

فوزية : ايه اللى خلاك تنقلب عليه كده مرة واحدة ؟

فــؤاد : قعدته بقت مملة .

فوزية : ماكنتش بتلاقيها مملة .. زمان كنت بتقول عليه انه أكبر مثقف قابلته فى حياتك .

فــؤاد : وحياة أبوكى ماتفضليش كل شوية تقولى لى زمان ... زمان حاجة ودلوقت حاجة .

فوزية : خليك صريح .. مع نفسك عالأقل .. من ساعة ماجريدة «الهدى النبوى» ابتدت تشتمه وتقول عليه علمانى وملحد، وأنت بقيت تتهرب منه .

فـؤاد : [فى حدة] قصدك تقولى إنى جبان ؟ [صمت] عايزانى أعمل أيه ؟ أنتى عارفه أنهم ممكن يقبضوا عليه فى أى لحظة ويقدموه للمحاكمة بتهمة نشر الالحاد ؟ فى الحالة دى يبقى موقفى أنا ايه اذا اتعرف ان أنا لغاية آخر لحظة كنت بزوره وبيزورنى وأننا صحاب ؟ لا يا ستى ! أنا موش ناقص مشاكل . [صمت . يتنهد مرة أخرى] حتى الصحاب الواحد دلوقت مابقاش له انه يختارهم .. مابقيتش عيشة دى ! دى بلد دى ولا سجن ؟

فوزية : [تحدجه بنظرة ذات معنى] ما تكررش الكلام ده وحياتك.

فـؤاد : أنا أتكلم زى مانا عايز فى بيتى عالأقل.. عايزانى انكتم حتى وأنا فى بيتى؟ عايزانى أنـ...........

[تدخل الخادمة تحمل طبقا من الفاكهة... يصمتان حتى تضعه علي المائدة وتنصرف].

فـؤاد : ومتلاقيش لينا شغالة إلا أبنة أخو عضو فى منظمة الجهاد؟

فوزية: أنت يا راجل موش كنت بتقول من كام يوم ان كون عمها عضو فى منظمة الجهاد له ميزة؟

[تدخل الخادمة مرة أخرى تحمل صنية القهوة].

فوزية : خلاص يا أعتماد تقدرى تروحى دلوقتى.. أنا هابقى أشطف الفناجين بعدين.

الخادمة : تصبحوا على خير.

فوزية : وأنتى من أهله. [تنصرف الخادمة].

فــؤاد : [يلتفت إلى ولده] عامل أيه فى المدرسة يا محسن؟

محسن: كويس.

فــؤاد : وزعوا عليكم الكتب ولا لسه؟

محسن: لسه.. بيقولوا يمكن كمان أسبوعين.

فــؤاد : شهر من ساعة ابتداء الدراسة من غير كتب؟! [لفوزية] امبارح قابلت مدرس التاريخ بتاعهم.. تعرفى قال لى ايه؟ بيقول الكتب لغاية النهارده ما توزعتش، والواحد مش عارف يقول ايه فى الحصة وما يقولشى ايه.. أشتم فى محمد على ولا أمدح فيه؟ أمدح فى سعد زغلول ووطنيته ولا اقول عليه علمانى ومحابى للاقباط؟ ما أقدرشى أدرس إلاّلما تيجى الكتب واشوف مكتوب فيها ايه»!! قلت له ما تسأل الناظر. قال: «سألته، قال ما أعرفشى وقول رأيك لغاية ما الكتب تتوزع. بس أنا موش عبيط ويحصل لى اللى حصل لمدرس الجغرافيا اللى قال للتلامذة من مخه أن الأرض هى اللى بتدور حوالين الشمس والشمس واقفة، فاترفد تانى يوم لان كلامه بيقولوا مخالف للقرآن!» وكل اللى بيعمله دلوقت أنه بيتكلم كلام عايم ما حدش يقدر يأخد عليه حاجة لحد ما الكتب توصل.. حاجة تقرف!

فوزية: كل شوية دلوقت تقول حاجة تقرف.. زمان ما كنتش كده.

فــؤاد: رجعنا تانى نتكلم عن زمان.. قلت لك ألف مرة ما تجيبيليش سيرة زمان.. زمان كانوا بيشوهوا عقول عيالنا بالطريقة اللى بيعملوها دلوقت؟ [صمت] تعرفى أنا بافكر فى ايه؟

فوزية: خير.

فــؤاد: موش امبارح كنت باحكى لك ازاى رجال الصناعة الكبار فى المانيا بعد الحرب الأولى، كروب وبكشتاين وغيرهم، هم اللى جابوا هتلر الحكم ولمعوه ، عشان المانيا تعمل حرب ، وتكسب اسواق جديدة لبضايعهم، ومستعمرات فيها المواد الخام اللى محتاجين لها؟ النهاردة الصبح فكرت وأنا رايح المحكمة: طيب ايه اللى خلاهم فى نفس الوقت ينقلبوا على اليهود، ويثيروا حملة كراهية شعبية ضدهم؟... هل ده كان لازم لتحقيق أغراضهم؟... لقيت أن أيوه كان لازم ... لأنهم كانوا خايفين موت من الصراع الطبقى فى المانيا، ومن الشيوعيين والاشتراكيين والعمال، ولقوها طريقة كويسة يلهوا بيها الشعب الألمانى عن الصراع الطبقى اللى بيهدد مصالحهم وجيوبهم، بأنهم يوجدوا له كبش فدا تكون الطبقات كلها متحدة في كراهيته، وتفتكر انه هوه المسئول عن كل اللى بتعانيه....

محسن: قريت يا بابا اللى...

فؤاد: استنى لحظة ما تقاطعنيش... وبعدين فكرت: مين اللى كان ورا الجماعات الدينية فى مصر وسهل لها الوصول للحكم؟.. قصدى مين الجهة الحقيقية اللى دبرت الانقلاب؟ موش هم جماعة من أصحاب الملايين اللى برضه خايفين من الصراع الطبقى فى مصر، وعلى مصالحهم وجيوبهم، ويكرهوا الاشتراكية عمى، فربوا دقونهم وعملوا نفسهم اسلاميين، واستمالوا ناس من كل الطبقات عشان يلهوهم بفكرة «ضرورة تطبيق الشريعة، واقامة حكم يرضاه الله» وصوروا العهد الماضى بأنه عدو الاسلام، عشان الشعب يتلهى عن اللى ماصص دمه وواكل لقمته؟.. ايه رأيك؟ كلام معقول، ولا

موش معقول؟..... [يلتفت الى ابنه] كنت عايز تقول ايه؟

محسن: قريت اللى كاتبينه عن فرج فودة؟

فــؤاد : انت بتقرا ايه؟

محسن: «راية الاسلام». شفت كاتبين ايه عن فرج فودةوالعلمانيين؟

فــؤاد : [يخطف منه الجريدة] أنا موش عايزك تقرا الجريدة دى تانى.

محسن: مدرس العربى فى المدرسة بيقول لنا لازم نقراها كل يوم لأن موضوعات التعبير حاتيجلنا دايما من المقالات المكتوبة فيها.

فؤاد: مدرس العربى مالوش دعوة بالجرايد اللى لازم تقراها... احنا اللى نقرر نقرا ايه وما نقراش ايه.

فوزية: محسن ! خد الخمسة وعشرين قرش دول وانزل اشترى لك حاجة.

محسن: مش دلوقت عشان بتمطر. [يتجه الى النافذة يتطلع منها الي الخارج].

فــؤاد : نازلين على العلمانيين يلفقوا لهم بلاوى ويلطخوا سمعتهم.. الجريدة دى ما تدخلش بيتنا تانى.

فوزية: ما كل الجرايد بقت زى بعض.

فــؤاد : اذا كانوا كلهم قذرين زى بعض يبقى مش عايزين جرايد خالص.. قال يعنى الواحد بيطلع منها بحاجة وبنفهم اللى بيحصل فى الدنيا!! [يفتح الجريدة ويقرا منها:] «حكم الشرع فى قص شعر المرأة... حقيقة اسلام الجن... فتوى الشيخ المحلاوى فى موضوع من تزوج بالجن

المتشكل بالإنس وما ينشأ عن هذا الزواج من حقوق عائلية... جمهوريتنا الاسلامية حماها الله من مكائد العلمانيين بقلم جلال كشك»... تعرفى جلال كشك ده؟

فوزية : لا.

فـؤاد : ما تسمعيش عن المفكر الاسلامى الخطير جلال كشك مؤلف كتاب «عظمة الحل السعودى » . وكتاب « روعة الحل السعودى » ، وكتاب «عودة الحل السعودى »، و «انتقام الحل السعودى»! كل كتاب منهم اقوى من «سوراج» واعظم من «سنجام»؟.. [يعود الي النظر فى الجريدة] «لااللعلمانيين الملحدين بقلم أحمد بهجت».

فوزية: ده عارفاه.

فـؤاد: ده اللى كان كاتب فى «الأهرام» سنة ٨٥ يقول ان اللى ابتدا المكارثية فى أمريكا هو الجنرال مكارثر بتاع حرب كوريا!! دول يا ستى اللى بيشكلوا الرأى العام وعقول أبناءنا واللى بتيجى من مقالاتهم موضوعات التعبير فى المدارس! [يلقى بالصحيفة جانبا] هل يجوز تلطيخ سمعة العلمانيين وتقويم الناس عليهم بالشكل ده؟

فوزية: على العموم احنا ما لناش دعوة .. الحمد للّه لا احنا علمانيين ولا ملحدين.

فـؤاد: يعنى هم ماشاء اللّه اللى سمعتهم برلنت؟ ده أنا حكوا لى حكايات عنهم وعن نسوانهم واللى بيحصل فى معسكراتهم الأسلامية وزواج المتعة بينهم حاجات تشيب.

فوزية: على كل ما تقدرش تنكر ان فيه صحوة اسلامية.

فــؤاد: صحوة اسلامية؟! لو كانت الصحوة الإسلاميةبالشكل ده أنا أفضل أكون نايم!

فوزية : [تتنبه]هو محسن فين؟

فــؤاد : [يلتفت] مش عارف.

فوزية : أنت شفته خرج؟

فــؤاد : لأ.

فوزية : [تنادى] محسن! محسن! [تتجه الى باب غرفة أبنها وتفتحه] محسن! راح فين دلوقت الولد ده؟

فؤاد : لازم خرج يشترى حاجة.

فوزية : الدنيا بتمطر.. ممكن يكون راح فين؟

فــؤاد : ومالك عصبية كده ان الولد خرج؟

فوزية : انت فاكر كويس انت كنت بتتكلم عن ايه دلوقت؟

فــؤاد : وده دخله ايه بأن الولد خرج؟

فوزية: لا يا فؤاد، انت الأيام دى ما بقتش تاخد بالك من الكلام اللى بتقوله قدام محسن.

فــؤاد : ايه اللى انتي بتقوليه ده؟ كلامي اللى بقوله دخله ايه بأن الولد خرج؟

فوزية : انت عارف كويس قوى انه بيقعد يسمع وياخد باله من اللى احنا بنقوله.

فــؤاد : وبعدين؟

فوزية : وبعدين ممكن يخرج يقول لده أو ده عن اللى احنا بنقوله فى البيت، والنتيجة تبقى موش كويسة... وانت دلوقت دايما بتشتم قدامه وتتريق على منظمة الجهاد، وعارف انهم هناك يشجعوا العيال انهم ينقلوا لهم كل اللى قرايبهم بيقولوه في البيت عن نظام الحكم... حاجة غريبة الطريقة اللى اتسحب بيها من الأودة!

فــؤاد : بس بلاش كلام فارغ.

فوزية : انت ما شفتوش وهو خارج؟

فــؤاد : لا. كان آخر حاجة واقف هنا جنب الشباك.

فوزية : يا ترى سمع ايه وما سمعش ايه من الكلام اللى قلته؟

فــؤاد : [فى حدة] بس هو عارف كويس ايه اللى بيحصل للى بيتبلغ عنه.

فوزية: ورأيك فى الولد اللى كان عبد الخالق بيحكى لنا عنه ؟ بلغ عن أبوه ولسه أبوه معتقل لغاية النهارده... يا ترى خرج قبل ما تتكلم عن جلال كشك ولا بعدها؟

فــؤاد : وحياتك تبطلى الكلام ده.. [يهرع فجأة الى باب غرفة ابنه وينادى] محسن!

فوزية : ويخرج كده من غير ما يقول ولا كلمة ولا هو رايح فين؟

فــؤاد : موش ممكن يكون راح لحد من صحابه؟

فوزية : يبقى عند مصطفى.. حاكلم أم مصطفى فى التليفون [ترفع سماعة التليفون وتطلب رقما] .

فــؤاد : ما تكبريش المسألة اعملى معروف!

فوزية : [فى التليفون] آلو! مدام عبد الغفار؟ أنا فوزية يا رجاء.. الله يسلمك.. يا ترى محسن ابنى عندك مع مصطفى؟ لأ ؟ أمال راح فين الولد ده؟ طيب وحياتك يا رجاء، ما تعرفيش اذا كان مكتب منظمة الجهاد بيبقى فاتح يوم الخميس بالليل ولا لأ؟ فاتح؟ يا دى المصيبة!.. قصدى.. قصدى حاسألهم دلوقت.. مع السلامة.

[تضع السماعة.. فترة صمت طويلة]

فــؤاد : تفتكرى سمع ايه؟

فوزية : كنت الأول بتتكلم عن فكرتك المهببة بتاعة الصراع الطبقى وبعدين عن «راية الاسلام».. ما كانش حقك تقول اللى قلته عن زواج المتعة واللى بيعملوه في المعسكرات الاسلامية. انت عارف انه حساس قوى بالنسبة للموضوع ده.

فــؤاد : وانا قلت ايه عنهم؟

فوزية : انت عارف كويس... ان سمعتهم ما هياش برلنت وانهم بيعملوا اعمال تشيب.

فــؤاد : أنا ما قلتش كده! أنا قلت ان ناس حكوا لى عنهم حاجات تشيب. وممكن الحكايات دى تكون مش صحيحة .. وبعدين كونى قلت ماهياش برلنت ده موش انتقاد.. مين اللى سمعته زى البرلنت؟ كل واحد

فيه عيوب.. والشيخ الطرابيشى نفسه فى خطبة الشهر اللى فات قال أن المعسكرات الاسلامية فيها عيوب لازم نتخلص منها.. قلت أنا ايه أكتر من اللى قاله الشيخ الطرابيشى؟... وكونى قلت ان ناس «حكوا لى» موش معناه ان أنا مصدق كلامهم... وبعدين أنا أعرف منين هم بيعملوا ايه فى المعسكرات بتاعتهم أو اللى بتعمله نسوانهم؟ أعرف منين أنا؟ ولا عمري دخلت معسكر ولا كلمت في حياتى واحدة منقبة...وبعدين كلنا بشر وبنخطىء، ودول بشر زينا وموش معصومين.. يبقى ممكن أؤاخذ على كلامى ازاى؟ أنا قاضى عارف كويس الكلام اللى يؤاخذ عليه واللى ما يؤاخذش عليه... والشيخ الطرابيشى نفسه بينتقدهم ساعات وبكلام أقوى مين اللى أنا قلته.

فوزية : [في ذهول] ايه يا فؤاد اسم اللّه عليك؟ انت بتتكلم معايا موش فى القسم!

فـؤاد : واللّه الواحد ما بقى عارف هو بيتكلم مع مراته وعياله ولا في القسم! حد عارف انتي مع صحابك بتدردشى تقولى ايه عن كلامى معاكى.. ما يمكن بتقوليلهم كل اللى باقولهولك..

فوزية : اسمع يا فؤاد! أضبط أعصابك أرجوك... [لحظة صمت] صلى على النبى...

فـؤاد : ؟؟

فوزية : باقول صلى على النبى.. يا أخى رد قول اللهم صلى عليه، دا انت حاتودينا ان شاء اللّه فى ستين داهية!

فـؤاد : اللهم صلى عليه.

فوزية : دلوقت لما قلت ان العهد ده يقرف...

فـؤاد : [في حدة] أنا ما قلتش العهد ده يقرف.. أنا قلت «حاجة تقرف».

فوزية : ايه يا فؤاد انت فاكرنى البوليس ولا ايه؟ أنا مجرد بافكر في ايه اللى ممكن الولد يكون سمعه.

فـؤاد : أنا ما قلتش العهد ده يقرف.

فوزية : ما قلتش كمان ان جرايدهم كلها كدب، وانك تفضل النوم على الصحوة الإسلامية بالطريقة بتاعتهم؟... طول النهار انت بتتكلم الكلام ده قدام الولد.. حرام عليك يا شيخ.. وأمير الجماعة بتاعهم كل يوم يقول لهم «مستقبل الاسلام فى أيديكم، وأنتم حماة الدين ضد الكفرة والزنادقة»! الولد يعمل ايه؟

فـؤاد : [ساهما] تفتكرى صحيح انه ممكن يبلغ؟

فوزية : [تهز كتفها].

فـؤاد : عن أبوه؟

فوزية : أنا عارفه؟

فـؤاد : هو غضبان منى بقي له مدة.

فوزية : غضبان ليه؟

فـؤاد : علشان ما جبتلوش البسكلتة فى عيد ميلاده.

فوزية : بس دى بقى لها مدة.

فـؤاد : لكن شايلها فى قلبه لغاية النهاردة.

فوزية : وبالذمة ما جبتلوش بسكلته ليه؟

فــؤاد : انتي موش شايفة الشوارع بقت ازاى والمرور شكله ايه ؟ اجيب له بسكلته تدهسه عربية تاني يوم؟.. وعالعموم أجيبها له مفيش مانع.

فوزية : بعد ايه! بس هو ما أثارشى الموضوع ده معاك تانى.

فــؤاد : لأ.. ولسه أول أمبارح مديله خمسة جنيه يجيب قلم حبر. فيه حاجة تانية بيطلبها وباقول لأ؟

فوزية : حايفتكر أن دى رشوة علشان ما يبلغش عنك.

فــؤاد : قصدك ايه؟

فوزية : قصدى انه ابتدا يحس انك بتديله فلوس عشان تراضيه.

فــؤاد : بتقولى «يحس» ؟! يا دى المصيبة! لما الأب يدى ابنه حاجة تبقى رشوة؟! [صمت]

فوزية : تفتكر ممكن يعملوا فيك ايه لو حصل انه بلغ؟

فــؤاد : ممكن يعملوا أى حاجة .. يا رب يا لطيف!

فوزية : هل هم ماسكين عليك حاجة؟

فــؤاد : كل واحد ماسكين عليه حاجة.. كل واحد شكين فيه ومحل شبهة.

فوزية : طيب هل ممكن أنهم يقبلوا شهادة ولد عيل؟ هل شهادةالعيال مقبولة فى الشريعة الاسلامية؟

فؤاد: لأ.. بس من أمتى هم بيحتاجوا لشهود عشان يعتقلوا واحد؟

فوزية : ممكن الأب يكون ضرب ابنه عشان عمل حاجة والولد يشتكيه

ويقول عنه كلام كدب.. يقبلوا كلامه ازاى؟... المهم.. أحسن حاجة نفكر من دلوقتى ايه اللى ممكن ترد بيه لو حققوا معاك عشان تقنعهم ان الولد فهم غلط.

فـؤاد : موش فاكر حتى أنا قلت ايه... انا قلت ايه ؟ أنا عمرى ما هاجمت الشيخ الطرابيشى ولا قلت عنه كلمة وحشة.. وبعدين أنا من سنة ٨٣ وأنا بتنبأ بأن النظام الاسلامى حاييجى مصر، وأيدت الاخوان فى انتخابات ٨٧.

فوزية : اسمع. دلوقت ما بقاش فيه وقت للكلام ده، المهم نفكر بسرعة قبل ما ييجوا ترد بإيه لما يحققوا معاك.

فـؤاد : [ساهما] ما تهيأليش ان محسن ممكن يعمل كده فى أبوه.

فوزية : نبتدى بنظريتك المهببة بتاعة الصراع الطبقى.

فـؤاد : دى مش حايكون فهمها.

فوزية : طيب «راية الاسلام». قلت انها مليانة قذارة وموش عايزها تخش بيتك تانى.

فؤاد : أنا ما قلتش إنها مليانة قذارة .

فوزية : قلت.

فـؤاد : ما قلتش.. أنا قلت هابطل اشتراكى فيها، أنها ما قلتش انها مليانة قذارة.

فوزية : القصد... ممكن ترد ان كان قصدك...

فـؤاد : [ثائرا] لأ يا ستى موش حارد وموش عايز أقول حاجة! عايزانى أرد وأنا فى قفص الاتهام وابنى جايبينه شاهد اثبات ضدى؟!

فوزية : اهدا يا فؤاد وحياتك. [صمت]

فــؤاد : الغلطة انى فضلت مدة بعد الثورة أقابل مختار الشتيوى

فوزية : بس هو ما جري لوش لسه حاجة.

فــؤاد : لسه.. بس الكلام عليه كتير وأكيد حايتمسك.. [صمت]. تفتكرى البواب ممكن يكون زعلان مننا في حاجة؟

فوزية : قصدك لو استدعوه شاهد في التحقيق؟ ما اعتقدش .. أنا لسه فى العيد اللى فات بعتاله لحمة وعيدية خمسة جنيه.

فــؤاد : بس محمود جارنا اداله عشرة جنيه فى العيد.

فوزية : ده علشان شيوعى وخايف يتمسك.. انما انت لا شيوعى ولا بحزنون.

فــؤاد : امبارح البواب بيقول لى: «يعنى يا فؤاد بك ما شفناكشى فى الجامع فى صلاة الجمعة اللى فاتت»! وبيقولها بطريقة معينة عشان يفهمنى انه ملاحظ.. تعرفى؟ أنا قلبى حاسس انهم مسلطينه يقول لى كده من قبيل الضغط علىّ فى قضية وزير الداخلية.

[يدق جرس التليفون]

فــؤاد : التيليفون!

فوزية : أرد؟

فــؤاد : [واجما] موش عارف.

فوزية : ممكن يكون مين؟ [يتوقف الجرس]

فــؤاد : لو دق تاني ردى. [ينتظران... لا شيء] اسمحى لى ! دى ما بقتش عيشه دى! [يهب واقفا فى هياج]

فوزية : فؤاد!

فــؤاد : ما بقتش عيشة دى! ابنى! لحمى ودمى! قاعد يطفح معانا الاكل اللى بنوكلهوله، وهو قاعد يراقب بنقول ايه عشان يبلغ؟!!

فوزية : بس يا فؤاد وحياتك.. أرجوك. [صمت. يعود الى مقعده]

فــؤاد : تفتكرى الواحد يحضر شنطته ولاّ يستنى اما ييجوا ياخدوه؟

فوزية : هو حايجيبهم معاه ولا حاييجوا بعدين لوحدهم؟

فؤاد اعرف منين أنا؟ [صمت] تفتكرى نزود ماهية الشغالة؟

فوزية : اكتر من اللى هى بتاخده؟... زودها اذا حبيت... [فجأة] استنى! انت كنت شلت صورة الشيخ الطرابيشى من الصالون ورميتها فين؟

فــؤاد : فى الفراندة ورا الكنبة.

فوزية : على فكرة الشغالة لاحظت يوم ما شلتها. [تنهض] أروح أجيبها واعلقها تانى قبل ما ييجوا؟

فــؤاد : [مستسلما] على كيفك... وجيبى معاكى سجادة الصلاة أفرشها هنا عشان لما ييجوا يلاقونى باصلى.

فوزية : طيب ولو محسن قال لهم انك كنت شلت الصورة ومارجعتهاش الا لما حسيت انه راح يبلغ عنك؟

فــؤاد : يبقى كلب ابن كلب.

[يسمع صوت الباب الخارجى وهو يفتح]

فــؤاد : [هامسا] الباب؟

فوزية : [هامسة] أيوه.

فــؤاد : [هامسا] فوزية!

فوزية : [هامسة] هدى نفسك يا حبيبى.

فــؤاد : [هامسا] خشى بسرعة وحضرى لى شوية حاجات فى الشنطة.. سجادة الصلاة فين ؟.

[يدخل محسن وفى يده كيس ــ فوزية تمسك بيد زوجها فى قلق.. الاثنان يرقبان محسن فى وجوم اثناء دخوله].

محسن : [يتوقف] مالكم؟ مالكم بتزغرولى كده؟

فــؤاد : كنت فين؟

محسن: [يريهما الكيس] نزلت اشتري شوكولاته.

فوزية : بس؟ تشترى شوكولاته بس؟

محسن: وعلبة لبان.

فوزية : وبعدين؟

محسن: وبعدين جيت.. ايه؟ جرى ايه؟

[يدخل حجرته وهو يقضم قطعة من الشوكولاته ــ يظل والداه يراقبانه حتي يختفى ويغلق الباب].

فــؤاد : تفتكرى بيقول الحق؟

فوزية : ان شاء الله يا رب.. [ثم فى حدة لزوجها] بس وحياة ربنا اذا

انت فتحت بقك بكلمة بعد كده عن النظام، ما انا قاعدة لك فى البيت! سامع؟

فــؤاد : خلاص يا ستى.. قسما بالله العظيم لا حاجيب سيرة النظام تانى، ولا منظمة الجهاد، ولا «راية الاسلام»، ولا الصراع الطبقى، ولا حتي جلال كشك.. وحاحكم فى القضية بأن وزير الداخلية هو اللى حاول الانتحار. «حاول الانتحار وهو يهم بركوب سيارته»...

ستار ــ يدخل المؤلف

المؤلف:

دا مجرد مشهد واحد	م اللى حايجرى يا مساكين
وان كان فيه عمر حاواصل	على شرط تكونوا راضيين
ربنا يحمى لنا بلادنا	من حكم الفاشيين
من شر عصابة غرضها	تحكمنا باسم الدين
ويرد لمصر صوابها	اهتفوا وياى آمين

حطّنا الهباب !

لم اعهد الدكتور فرج فودة غاضبا كما عهدته فى مكالمته التليفونية لى صبيحة ذلك اليوم:

ــ طبعا سمعت الخبر.

ــ أىّ خبر؟

ــ خبر مصادرة خمسة كتب للمستشار سعيد العشماوى فى معرض القاهرة الدولى للكتاب.

ــ نعم. وقد آلمنى الأمر وأحزنني أشدّ الحزن.

ــ آلمك وأحزنك؟! إسمح لى أن أسألك: على من أحزنك الخبر؟

ــ على المستشار سعيد العشماوى بطبيعة الحال.

ــ على المستشار سعيد العشماوى؟! عزيزى الواهم الكبير ، إرفع سماعة تليفونك واتصل بدار سيناء للنشر لتسألها عن حجم مبيعاتها من الكتب الخمسة منذ أذيع خبر مصادرتها.. فى بحر ثلاثة أيام يا عزيزى بيعت سبعة آلاف نسخة من كتاب «معالم الاسلام»، وخمسة آلاف نسخة من كتاب «أصول الشريعة، وستة عشر ألف نسخة من كتاب «الخلافة الإسلامية»، وهلمّ جرّا... كم نسخة بيعت من كتابك «الإمام» حتى الآن؟

ــ ثلاثة آلاف.

ـ إتفرّج يا سيدى.. وأنا لم أبع من كتابى «الحقيقة الغائبة» غير ألفى نسخة!.. كم يدفع ناشرك مقابل إعلان صغير عن كتاب لك في «الأهرام» أو «الأخبار»؟

ـ ستمائة جنيه على أقل تقدير.

ـ والمستشار سعيد العشماوي تتهافت الصحف والمجلات اليوم على نشر الأحاديث معه والمقالات له عن قرار مصادرة كتبه، على ثلاث صفحات أو أربع، (ومع صورة كبيرة له)، دون أن يدفع شيئا.. بل ربما دفعت هذه الصحف والمجلات له المكافآت على هذه الأحاديث والمقالات.. لقد كان جمهور السينما عندنا وقت صباى يهتف للبطل حين يراه يقبّل البطلة «أيوه يا عمّ! تبوس وتاخد فلوس» كذلك سعيد العشماوى: تُنشر الإعلانات الضخمة عن كتبه ويتقاضى عنها مكافأة!

إرفع سماعة تليفونك واتصل به هو نفسه لتدرك مدى تهلّله وسعادته بهذه الهبة التى نزلت عليه من السماء فى صورة قرار بمصادرة كتبه.. وقد كان الرجل في جميع أحاديثه مع الصحف من الدهاء والمكر بحيث تظاهر بالغضب والاستياء الشديدين من هذا القرار وكأنما أضير من جرّائه ضررا بالغا.. بل وهدّد برفع قضية علي مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر!

ـ أجادّ أنت ؟ تقول إنه سعيد بما حدث؟

ـ كلّمه أنت.. أليس صديقك؟.. دار سيناء يا عزيزى بعد أن نفدت نسخ كتبه تستعين بثلاث مطابع فى آن واحد لإعادة طباعة الكتب، والمطابع تعمل ليل نهار كى توفرها فى السوق فى ظرف أسبوع واحد لمواجهة الطلب المتزايد عليها.

ـ هذا خبر سارّ حقا.

ـ سارٌّ حقا؟ اسمح لى أن أسألك: سارّ بالنسبة لمن؟

ـ للمستشار العشماوى بطبيعة الحال.

ـ للمستشار العشماوى؟ وماذا عنى وعنك يا أستاذ حسين؟ ماذا عن كتبى وكتبك؟ لماذا لم يأمر مجمع البحوث الإسلامية فى الأزهر بمصادرتها هى أيضا رغم أنها تحوي من الأفكار ما هو أخطر ألف مرة مما ورد فى كتب سعيد العشماوى؟ «دليل المسلم الحزين» مثلا. أو «الإسلام فى عالم متغير». أو «قبل السقوط». أو «نكون أو لا نكون».. هل هذه الكتب في رأيك أقل خطرا من كتب العشماوى؟ أم هى فى رأى الأزهر لا غبار عليها من الناحية الدينية ككتب الشيخ الغزالى أو الشيخ القرضاوى؟

ـ الحقيقة أننى....

ـ لا يا سيدى الفاضل.. ليس الأمر كما تظن.. بل أكاد أجزم الآن بأن المستشار العشماوى لابدّ قد دفع مبلغا ضخما لجهة ما كى توصي مجمع البحوث الإسلامية بمصادرة كتبه... من المحال أن نجد تفسيرا لما حدث غير هذا التفسير. العشماوى ـ بحكم خبرته وثقافته ـ يعلم أن بعض المؤلفين الأوروبيين والأمريكيين يلجأ اليوم إلى رشوة نقّاد ليقوموا بمهاجمة كتبهم في الصحف والمجلات الأدبية على نحو يثير شوق قراء الصحيفة أو المجلة إلى شراء الكتاب لقراءته، ويعلم أنه لولا مصادرة السلطات فى فرنسا لرواية فلوبير «مدام بوفارى» ورواية زولا «الأرض» لما حظى هذان المؤلفان بما حظيا به من الشهرة والثروة وذيوع الصيت.

ــ ألا يمكن أن يكون أعضاء مجمع البحوث الإسلامية قد أصدروا قرار المصادرة متطوّعين مشكورين غير مأجورين، من تلقاء أنفسهم، ودون سابق اتصال أو معرفة من جانب العشماوى بهم؟

ــ لا يا أستاذنا الكبير! وإلا فلماذا لم يصادروا أيضا كتب فرج فودة وحسين أمين؟ هه؟ جتنا نيلة فى حظنا الهباب!.. الحقيقة أننى قد بدأت أغضب من سعيد العشماوى.. كان من واجبه ــ ونحن الثلاثة نجاهد فى سبيل قضية واحدة ومن خندق واحد ــ أن يستشيرنا قبل إقدامه على الاتصال بمجمع البحوث الإسلامية، أو أن يلفت على الأقل نظر المجمع إلى كتبنا نحن أيضا باعتبارها جديرة مثل كتبه بالمصادرة... أم أن الأمر لا يعدو أن يكون «كل واحد يالله نفسى وبس»؟!

ــ لا يا دكتور فرج .. الأرجح فى رأيى هو إما أن أعضاء المجمع لم يقرأوا كتبنا نحن وقرأوا كتب العشماوى فأمروا بمصادرتها، وإما أنهم قرأوا كتبنا ووجدوها سليمة لا خطر منها.

ــ سليمة لا خطر منها؟! سيدى الجليل، ما كتبه على عبد الرازق فى «الإسلام وأصول الحكم» أو طه حسين فى «الشعر الجاهلى» لا يمكن أن يقارن خطره بخطر فقرة واحدة من كتبى أو كتبك.. كيف يمكن إذن للمجمع أن يجرؤ ويعتبرها سليمة لا خطر منها؟.. أما عن احتمال أن يكون أعضاء المجمع غافلين عنا وجاهلين بكتبنا فما علينا إذن إلا أن ننبّههم إليها.

ــ كيف؟

ــ بالكتابة إليهم.. بتحريض أصدقاء لنا على تقديم الشكاوى من أفكارنا.. أو بأن نطلب نحن مقابلة شيخ الأزهر أو رئيس مجمع البحوث

الإسلامية نفسه لتوضيح الأمور ووضعها فى نصابها وتنبيهه إلى أن فى كتبنا خطراً على المجتمع الإسلامى لا يمكن السكوت عليه... سليمة لا خطر منها؟! يا دى الفضيحة!! هذه إهانة.. إهانة يعاقب عليها القانون.. كيف يمكن أن أرى وجهى للناس ومجمع البحوث الإسلامية يعتبر كتبى سليمة لا خطر منها؟ ما جدواها إذن؟ وما جدوى تعبى فى كتابتها؟... جتنا نيلة فى حظنا الهباب!



Words, Words, Words !

حضرت منذ أسبوع حفل عشاء ضمّ نخبة من المثقفين..

جلست أرقب القوم يتحادثون، أو بتعبير أدق، يتحدث كل منهم بدوره بينما يتظاهر الباقون بالاستماع إليه ريثما تحين الفرصة كى يلتقط أحدهم الخيط فيشرع هو الآخر فى الحديث.. يبدأ الأول فى حديث طويل عن نفسه، حتى إذا ماوصل إلى نقطة معينة قاطعه الثانى قائلا: «دا زىّ اللى حصل لى..»، أو «كلامك صحيح. أنا فاكر مرةّ...»، ثم يمضى فى حديث طويل عن نفسه حتى يتدخل ثالث فيقول: «بالضبط كده. مرّة كنت قاعد..»، ثم يمضى فى حديث طويل عن نفسه حتى يتدخل رابع فيقول: «كلامك ده بيفكرنى لما كنت...»، ثم يمضى فى حديث طويل عن نفسه.

ويخيل إلى المستمع إلى عبارات مثل: «دا زى اللى حصل لى...» أو «كلامك صحيح، أنا فاكر مرّة...» أن المشتركين فى الجلسة متفقون فيما بينهم فى الرأى، وأن كلا منهم يسوق حجة جديدة من وحى تجاربه لتعزيز رأى الآخر. غير أن هذا ليس هو الوضع. وإنما الوضع لايعدو أن تكون مقاطعة الثانى للأول، والثالث للثانى، والرابع للثالث، مجرد ثورة مخنقة ضد قوة غاشمة، أو محاولة من المقاطع لتحرير أذنيه، أو هجوم مباشر يستهدف احتلال آذان الأعداء.

وخرجت من الجلسة مؤمنا بأن الاستماع ليس عكس الكلام، وإنما عكس الكلام هو الانتظار، وأنه ما من أحد مستعد للاستماع إلا أن كان واثقا من أن

دوره فى الكلام آت، وأن حياة الإنسان بين سائر البشر ليست إلا صراعا من أجل احتلال آذان الآخرين، وأن أحب الناس الى الناس هو من استمع إليهم دون أن يقاطعهم بقوله:

«دا زى اللى حصل لى...».

٢

وبالأمس حضرت اجتماعا عقده أحد الأحزاب السياسية، يضم من المثقفين أضعاف مجموع المثقفين فى كافة الأحزاب المصرية الأخرى مجتمعة. وقد كنت أحسب واثقا أن هذا هو مما يفخر الحزب ويعتز به، وأنه من أبرز مزاياه إن لم يكن أبرزها على الإطلاق.. غير أنه تبين لى خلال ذلك الاجتماع أنى كنت واهما، وأن ما كنت أخاله نعمة هو فى حقيقته نقمة.

كانوا يناقشون سياسة جريدة الحزب. وكانت أغلبيتهم حانقة مغضبة على رئيس التحرير الذى لايتيح مساحة كافية لكتاباتهم، ويحجم عن نشر مقالات الكثيرين منهم، فى الوقت الذى يفسح فيه الأعمدة لأدباء ليسوا أعضاء فى الحزب.. فالكل يلمس فى نفسه القدرة على الإبداع، ويخال أن نشر كتاباته فى صحيفة الحزب هو الجهاد الأكبر، لايرى أمامه مجالا للجهاد غيره.. فإن دعاهم رئيس الحزب إلى التشبه بجماعات الأصوليين الإسلاميين والنزول إلى الشارع وإلى المصانع والريف لنشر دعوة الحزب ومبادئه بين العمال والفلاحين وغيرهم، ازوروا بوجوههم عنه، وأبوا الاستماع إليه، وعبسوا وتولوا، رائين أن مكانهم هو وراء مكاتبهم، فى حجراتهم مكيفة الهواء، وأن القلم سلاحهم، ومقالاتهم المنشورة فى صحيفة الحزب هى التى ستأتى بالحزب إلى السلطة.. حتى إذا ما نشر لأحدهم مقال (ويا حبذا لو كان نشره فى الصفحة الأخيرة التى يتقاتل كتاب الجريدة عليها، مرفقا بصورة شمسية

كبيرة له)، لم يقرأ من كل الصحيفة غيره، وربما قرأه أكثر من مرة، وقد داخله إحساس غامر من الرضا عن فاعلية كفاحه من أجل القضية.

٣

فى «الديوان الشرقى الغربى» يقول جوته:

«هل بوسع المرء أن يعيش إن كان غيره يعيشون؟».

وهو قول يعكس رأى صاحبه فى صنعة الكتابة.. فالمؤلف بكتبه إنما يتحول إلى عالم بأسره، وهو ما نعنيه بحديثنا عن «عالم تولستوى»، أو «عالم هيمنجواى»، أو «عالم بلزاك». وحيث أن السمة الرئيسية المميزة للعالم هى تفرده وتوحده، فإن وجود عوالم أخرى يمثل خطرا على عالم كل مؤلف.

بوسع اثنين من الصيادلة أن يعيشا فى وئام تام (متي ما كانت صيدليتاهما فى حيين مختلفين). غير أنهما متى ما شرعا فى تأليف الكتب عن مهنة الصيدلة، ضاقت بهما الأرض، وضاق كل منهما بزميله وتساءل فى نفسه:

«هل بوسع صيدلى أن يعيش إن كان غيره من الصيادلة يعيشون؟».

٤

فما الذى نلمسه اليوم فى مصر، وربما فى غيرها أيضا؟.

كل فرد منا قد خال نفسه فجأة كاتبا، وأنه ليس دون غيره قدرة على التأليف.. فإن لم تكن القصة أوالرواية أو المسرحية فليكن المقال أو المذكرات.. مذكرات اعتماد خورشيد.. مذكرات صلاح نصر.. مذكرات صلاح الشاهد.. مذكرات ممثلة.. مذكرات سياسى.. مذكرات سفير

سابق.. مذكرات وزير سابق.. مذكرات مومس.. مذكرات مدمن مخدرات.. مذكرات رئيس أركان حرب.. مذكرات طبيب.. مذكرات سائق تاكسى.. مذكرات قاتل السردار. كل امرىء يريد أن يكون مؤلفا وأن يبنى عالما من الكلمات.. أن يستأثر بآذان الغير. أن يمسك بأذن جاره ليصرخ فيها بأعلى صوته.

* * *

ضريبة مبيعات قد أثقلت كل كاهل؟ لا بأس مادامت ستتيح لى فرصة الاحتجاج.. والكلام.

إنهاء المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل مقابل التوقف عن بناء مستوطنات جديدة؟ لا بأس مادام سيتيح لي فرصة الاحتجاج.. والكلام.

هيمنة أمريكية سافرة على مقدرات دول العالم؟ لا بأس مادامت ستتيح لى فرصة التعبير عن الفزع.. والكلام.

ولا أحد يريد أن يسمع.

نهم لايعرف حدا إلى الكلام، وفى مقابله صمم عام.

الزوجة

فكّر الزوج فى أنه ربما يكون الوقت قد حان كى يراه الطلبة فى فصل زوجته، حتى يبدّد كل سخف كامن. فمجرد علمهم أنها متزوجة غير كاف. بل قد تضفى عليها هذه المعرفة الغامضة هالة ما.

واتصل بها هاتفيا من مكتبه.

ـ سأمر عليك فى الجامعة فى المساء؛ فى السابعة والنصف.

ـ ولكن الدرس ينتهى فى الثامنة. هل ستنتظر نصف ساعة في السيارة؟

ـ من قال إنى سأنتظر فى السيارة؟ أريد أن أحضر درسا لك، فأرى ما إذا كنت تجيدين الضبط والربط وحفظ النظام، وأقدم لك العون في كبح جماح المشاغبين.

ضحكت ضحكة قصيرة ثم قالت:

ـ بل أمرّ عليك فى مكتبك بعد الدرس، ونتوجه من هناك إلى عشاء عبد القادر.

وأصرّ هو على أن يمرّ عليها فى الجامعة.

ـ مختار ! الحقيقة أني لا أدرى ما إذا كنت سأذهب إلى الجامعة أصلا أم لا. اتصل بى هنا بعد نصف ساعة لأخبرك.

ـ مرفوض شكلا وموضوعا. إلى اللقاء في السابعة والنصف.

ــ فى مكتبك.

ــ فى الجامعة. إلى اللقاء!

قالت لوالدتها ضاحكة وهي تضع السماعة من يدها:

ــ من المؤكد أن شخصيتى ضعيفة؛ لا أعرف كيف أرفض. مع أنى حقيقة لم أكن راغبة في الذهاب إلي الجامعة هذا المساء.

سألتها أختها وهى تبتسم.

ــ كيف كان تعليق مختار على هدية الطالب الأردنى؟

ــ رآنى مخطئة أن قد قبلتها، وأنها تعنى شيئا كالرشوة. ولكن الطالب فى الواقع لم يترك لى فرصة على الإطلاق أن أرفض. تركها على المكتب وخرج هاتفا من الطرقة: هذه لك! قلت له: مستحيل. قال: هذه من أمى وليست منى. أرجعيها إليها إن شئت!

❊ ❊ ❊

وفى السيارة إلى الجامعة، ظلت تفكر فى الزيارة المتوقعة من زوجها، وكذا خلال الدقائق الأولى من الدرس خلال حديثها إلى طلبتها العشرين عن «الأرض الخراب» لإليوت. غير أنها عادت تدريجا إلى طبيعتها ومرحها، واستقرّ صوتها وحديثها.

وارتاح الطلبة.

كان معظمهم يعبدونها، هذه المعيدة الجديدة حديثة التخرج، ذات الابتسامة الدائمة والوجه الصبيح. وبالرغم من شرود أذهانهم أثناء دروسها المسائية، وتفكيرهم الدائب فيها كامرأة، كان يخيّل إليهم ــ ربما بفضل

الصمت والانتباه ـ أنهم يستوعبون ما تقول، فكأنما يحفظون من عينيها مباشرة. وكان ثلاثة أو أربعة على الأقل منهم متيمين بها، يلتهمونها التهاما بنظراتهم، ويكتبون فيها الشعرليلا. خاصة الطالب العراقى.

وكانت هى تحس بهذا الدفء حولها وتستمتع به بكل كيانها، دون أن تعترف به لنفسها، أو تحاول أن تجد عبارات تصوغه فيها.. أضحت ساعات الدرس أحلى ساعات يومها. وقد أكسبها ذلك مع الوقت ثقة في نفسها، وفي قدرتها على التدريس، بعد وجل رهيب فى البداية. فهى ليست بالمجيدة للانجليزية للدرجة التي تؤهلها للتدريس. والأخطاء تتوالى. والكلمات مجهولة المعنى عندها كانت تربكها فى البداية، ثم أصبحت الآن تفسّرها كما تشاء وفق الأرجح في ظنها، ودون أن تلقى معارضة. وكان الطلبة ــ ومنهم من هو أكثر إجادة للإنجليزية منها ــ لا يرون في ذلك أى بأس، على استعداد لتغيير مفاهيمهم اللغوية من أجلها إن اقتضى الأمر.

وقرأت:

«.. مدينة زائفة

يكتنفها الضباب البنيّ لفجر الشتاء

يتدفق الجمع فوق جسر لندن... جمع غفير

ما كنت أحسب أن الموت قد أحاق بكل هذا العدد...»

وفتح الباب فجأة فى ضجة وعنف.

واصفرّ وجهها، ثم ابتسمت فى ارتباك.

ــ هاى هدى!

ـــ أهلا ـــ هكذا قالت ، بينما اتجهت أعين الطلبة المشدوهة إلى المقتحم فى تساؤل.

ـــ تفضل ! وأشارت له تجاه مؤخرة الفصل.

ـــ ألن تعرّفينى لطلبتك؟

ـــ هذا زوجى. مختار عبد العليم. تفضل .. سننتهي بعد قليل.

ـــ خذوا وقتكم.

وجلس فى مؤخرة الفصل يتفحص الطلبة واحدا واحدا.

وعادت إلى كتابها تقرأ.

«... وصدرت تنهدّات، قصيرة ولكن بين الفَينة والفينة

وركّز كل امرىء بصره على قدميه..»

كان صوتها الآن أعلى من المعتاد، مع بّحة طارئة تتجدد كلما حاولت التخلّص منها. غير أن الطلبة كانوا قد كفّوا عن الاستماع، يرمقون الضيف من طرف خفىّ... أيمكن أن يكون هذا زوجها؟ زوجها الذى طا لما رسمنا له فى مخيّلتنا ألف صورة وظنناه أميرا فاتنا؟ هذا الأشيب البدين ذو الأنف الغليظ؟!

«... أيها القارىء المنافق.. أخى، وشبيهى..»

ـــ يكفى هذا اليوم. (رغم أن الساعة لم تكن قد بلغت الثامنة إلا الربع). وجمع الطلبة دفاترهم وكتبهم في هدوء، وانصرفوا.

ـــ برافو يا بروفيسوره! (قالها وهو ينهض متجها إليها) تهانئى !

قالت ضاحكة وهي تجمع أوراقها:

ــ وكيف وجدت الضبط والربط؟

ــ رائعين! ولكن، أين العصا؟

* * *

وفى حفل العشاء العائلى الذى قصداه، التفّ حولها بعض أفراد العائلة يصيحون:

ــ كيف وجدت هدى فى الدرس؟

صاح بصوته العالى:

ــ ممتازة. كانت تحزق وتحزق حتي خشيت أن نسمع صوتا غير مرغوب فيه. غير أنه لم يكن هناك أحد ــ ولله الحمد ــ يقف خلفها!

وقهقه الجميع. وضحكت معهم فى ارتباك.

* * *

ودخلت فصلها فى اليوم التالى دون أن تنظر إلى أحد من الطلبة، بادئة درسها على الفور فى شكلية وصرامة. وللمرة الأولي فى درسها كان بعض الطلبة يتحادثون فيما بينهم فى شؤونهم، بينما بدا الطالب العراقى شديد الانشغال بأمر ما فى دفاتره.

وفكّرت وهي تنظر إليه خلسة:

ــ أيها المراهق الأبله ! ماذا تظن؟

ثم صاحت به فى غير رفق:

ــ عدنان ! ماذا تصنع ؟



زوجة أمير الجماعة

١

كثيرا ما كان يصارح أفراد جماعته بقوله إن تقوى الزوجة فى واقع الأمر ليست شرطا أساسيا للسعادة الزوجية:

«خذوا حالتى مثلا.. لا أظن أحدا يكرس من وقته ما أكرّسه للعبادة والجهاد فى سبيل الله. وقد كان رأيكم جميعا هو أننى لن أوفق فى زواج ما لم أختر لنفسى عروسا تقبل هذا الوضع، ويسعدها أن ترى زوجها يقضى معظم ساعات اليوم فى الصلاة ونشر الدعوة وقراءة الكتب الدينية، ما لم يكن لديها نفس الاهتمامات وقوة العقيدة، وما لم تدرك قيمة الرسالة التى ألهمنى الله عزّ وجلّ أن آخذ على عاتقى مهمة دعوة الناس إليها.. غير أنى كنت دائما أخالفكم فى الرأى، وحين استقر عزمى على إكمال نصف دينى، اخترت فتاة وديعة من أسرة طيبة، لم تتعلم لبس الحجاب إلا على يدى، ولا قرأت من القرآن الكريم غير سوره القصار، ولا هى سمعت فى حياتها قبل الزواج عن الشهيد سيد قطب أو أبى الأعلى المودودى.. وها قد مضى عام على زواجنا.. فكيف وجدت الزواج؟ وجدتنى أتحسّر على كل يوم ضاع من شبابى قبله، وأعتقد أن القليلين من الناس هم الذين فى مثل سعادتى..

«فهل تأثرت عبادتى وقراءاتى ونشاطى فى الدعوة نتيجة للزواج؟ كلا. فما زالت الساعات الطوال التى أكرّسها لهذا النشاط على حالها غير منقوصة، اللهم إلا يوم واحد من أيام كل شهر نقضيه مع عائلتها فى مصر الجديدة

وآخر نقضيه مع عائلتى فى عين شمس... الوداعة وحدها هى أساس السعادة الزوجية، وداعة الزوجة. ومتى أحبّت المرأة زوجها، ستراها راضية بأى نوع من النشاط يُقبل عليه زوجها، موقّرة لهذا النشاط.. وأصارحكم القول يا إخوانى (وليغفر الله لى إن كنت مخطئا فى اعتقادى هذا)، أن تقوى المرأة مجرد زينة وأمر كمالى، لا جدوى وراءها غير أن يقول الناس عنى أن الله منّ علىّ بزوجة ورعة صالحة.. فهل هذا أمر جوهرى يؤخذ بعين الاعتبار وقت انتقاء الزوجة؟ فليقل الناس ما شاءوا.. فليقولوا إن زوجتى لا تحسن الصلاة أو الوضوء، انها لم تسمع بالنووى أو ابن حزم، انها لا تميزّ بين المذهب الشافعى والمذهب المالكى.. المهم هو سعادتى أنا.. وهل تحسبون أن هناك امرأة تتمتع بتقوى حقيقية؟ أبدا ! هبوها قد قرأت صحيحى البخارى ومسلم، وحفظت «رياض الصالحين» عن ظهر قلب، وبإمكانها أن تميز بين قولة للشيبانى وأخرى لأبى يوسف، فستظل معارفها الدينية دائما مجرد قشرة برّاقة لا علاقة لها بالجوهر.. قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «النساء ناقصات عقل ودين»، وقال: «خلقت المرأة من ضلع عوجاء، فدارها تعش بها». وقال سيدنا علىّ رضى الله عنه: «اتقوا شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر. ولا تطيعوهن فى المعروف حتى لايطمعن فى المنكر». وعن سيدنا عمر بن الخطاب أنه قال: «شاوروهن وخالفوهن»... فبماذا ينفعهن علمهن وفقههن بالله عليكم؟

ثم هل تحسبون أن الرجل يحادث امرأته فى مسند الإمام ابن حنبل، أو مناقب الصحابة، أو هو يسألها ماذا أعدت له من طعام، وما إذا كانت غسلت ثيابه، وما إذا كان طفله الرضيع قد تجشأ؟ اسألوا أى فرد من جماعتنا عن نسبة أحاديثه مع زوجته فى السيرة أو السنة أو الفقه حين ينفردان...

الوداعة يا إخوانى هى العامل الحاسم.. قد تسألون عن كيفية قضاء زوجتى للساعات الطوال التى أكرسها للقراءة والعبادة.. أجيبكم: إما فى أعمال البيت وأو رعاية الصغير. وقد كاد الشيطان أن يغرينى بالاستجابة لتوسلها فأشترى لها جهاز تليفزيون يلهيها عنى، ويستغرق معظم أوقات فراغها فتتركنى لمشاغلى. غير أن الله سبحانه هدانى إلى الوقوف ضد إرادتها، وضد دخول هذه الأداة الشيطانية بيتنا الطاهر. أو على حد قول الشاعر.

ففى غير بيتٍ كان بالأمس مسجدًا

ليس من المهم إطلاقا أن تشارك المرأة زوجها ميوله ونشاطه.. يكفى أن تكنّ الاحترام لهذه الميول وهذا النشاط. ثم فليكن لكل عالمه الخاص.. ومع ذلك، فهل تظنون أن زوجتى لم تتأثر قط باتجهاتى الفكرية والدينية، وأنها باقية على ما كانت عليه قبل الزواج من جاهلية دون تغيير؟ لا يا إخوانى. لقد كانت قبل زواجنا شغوفة بأغانى عبد الحليم حافظ، وقصص الكافر يوسف إدريس، وبأفلام النصرانى خيرى بشارة وأفلام عادل إمام وفساد حسنى الشهيرة بسعاد حسنى، إلى آخر هذه الموبقات.. غير أنها بتكرر نظرها معى فى كتب ابن تيمية وابن حزم وابن قيم الجوزية والذهبى وغيرهم، أصبحت الآن ترى أوجه العظمة فى هذه الكتب، وأصبحت تعبر لى عن اشمئزازها مما كانت قد شاهدته من أفلام، أو قرأته من كتب، أو سمعته من موسيقى وغناء.. إن ذوقها وحسها الدينيين ينموان تدريجيا، وأصبحت تخجل وترتبك حين أفاجئها تقرأ قصة أو تمثيلية، أو تستمع إلى أغنية فى الراديو..

غير أن هذا فى حقيقة الأمر لا يهمنى كثيرا.. فلتعجب بزكى نجيب محمود

كيفما شاءت، أو حتى بعبد الحليم حافظ، طالما ظلت على وداعتها ولم تؤثر فى عالمى الخاص.

وما ذكرت ذلك إلا لأثبت لكم إمكان تحويل فتاة جاهلة إلى امرأة متدينة مثقفة متى كانت خامتها طيبة، وأنه ليس من الضرورى أن تكون الفتاة تقية ملتزمة وقت زواجها. بالعكس. فالخامة الطيبة أفضل، إذ يمكنكم حينئذ تشكيلها وفق إرادتكم وميولكم، بينما تكون الزوجة الملتزمة المثقفة سلفا قد اكتسبت ميولا وعادات مختلفة عن ميول زوجها وعاداته ونمط تفكيره، مما قد يصبح عاملا من عوامل التنافر.......»

٢

كان عبد الرءوف - المتحدث - يؤمن إيمانا صادقا بما يقول، ولا يهمه حقا ميل زوجته إلى تبنى اهتماماته ومشاركة نشاطه. غير أن هذا لم يمنعه فى بعض الأحيان من التحدث إليها على النحو التالى:

«إننى أومن بك كزوجة. ولو خُيِّرت من جديد لاخترتك أنت. غير أنه يبدو لى أحيانا أنك قد رضيت بحياة المرأة العادية حياة، وأنك لا تبذلين الجهد الكافى من أجل نيل رضا الله سبحانه.. خذى هذه القاعدة دوما بعين الاعتبار: أن اليوم الذى لا تتقربين فيه إلى الله تتأخرين فيه، وأن الحياة كفاح مستمر فى عين من أراد النجاة بنفسه من النار. ذلك أنى أعتقد أن كل ما حولنا فى مصر، للأسف الشديد، يدفع بنا صوب الهاوية: الأغانى الخليعة، والصحافة العلمانية، حشود الآدميين الذين لايفكرون لحظة فى يوم الحساب. وعلى الفرد منا، وإن كان امرأة، أن يبذل جهدا ضخما إن هو أراد ألا يضلّ السبيل، وجهدا مضاعفا إن شاء النجاة.. حاولى السعى إلى تنمية حسك

الدينى.. أقنعى نفسك بأنك إن قرأت كتابا لابن تيمية سجلت نقطة،وإن استمعت إلى أغنية عاطفية خليعة للمدعو عبد الحليم حافظ خسرت نقطتين، ولا تدعى يوما يمرّ دون أن تكونى فيه الرابحة.. ليس من الضرورى أن تشتركي فى الحديث حين تجلسين مع زوجات افراد الجماعة ولاداعى للشعور بالنقص إذ لا تجدين فى نفسك القدرة على المشاركة.. مجرد الاستماع الآن منهن سيفيدك. وسيكون بوسعك مستقبلا الاشتراك فى الحديث حين يكون لديك شىء ذو قيمة يمكنك أن تقوليه.. إننى إذ أحدّثك على هذا النحو لا أقصد معاتبتك. وما كنت لأقول قولى هذا لولا ثقتى فى قدرتك على أن تصبحى، بإذن الله، فى مستقبل الأيام، سيدة صالحة.

إننى لا ألومك إطلاقا على ضعف ثقافتك الدينية.. لقد أصبحت وأصبح إخوتى كما ترين لأننا نشأنا فى أسرة محافظة متدينة لا تعرف أسمى من العبادة شيئا، بينما تفضل عائلتك التزاور والتسامر ومخالطة الناس.. لعلك تقولين فى نفسك: ما الذى أوقعنى فى هذه العائلة الغريبة التى لا يعرف أفرادها غير الحديث فى الفقه والشريعة، وقد يقضون الليل بأسره فى مناقشة فقرة فى كتاب لابن حجر العسقلانى.. قد تشعرين الآن بالملل والضيق أثناء مثل هذه الأحاديث، شأن أخى سعيد (وهو الأخ الوحيد العادى فى العائلة) الذى لا يجد لنفسه مكانا بيننا، ولا يهمه من الحياة غير وظيفته وهواياته الرياضية والنساء. غير أنك ستعتادين الحال. والشىء الوحيد الذى يهمنى الآن هو أن تدركى أن لهذه الموضوعات قيمة عظمى...".

٣

وكانت زوجته تنصت إلى مثل هذا الحديث منه والدمع يسيل من عينيها.

وكان يرى فى هذا دلالة على أسفها لتخلّفها وضعف ثقافتها الدينية، وبداية تيقظ روحى لديها.

ومع ذلك، فالواقع أنه لم يكن يعنيه الكثير مما كان يقوله لها. فهو سعيد بها كما هى. ولم يكن يهمه فى كثير أو قليل جهلها بابن حجر العسقلانى.. غير أن أمراً ما بدأ يسبب له قلقا متزايدا بعد مرور عامين على زواجه: وهو تزايد التفاهم المتبادل بين زوجته وبين أخيه سعيد، وارتياح كل منهما إلى الآخر.

٤

وعندما مرضت وزارها مع ابنها فى المستشفى كان يقول لها: «إسمحى لى ألا أعترف بمرضك.. الأطباء يقولون إنهم عاجزون عن تشخيص مرض بعينه. غير أنى - بعد إذنك - أشخص الداء لك.. داؤك هو حاجتك إلى اهتمام الناس بك. وهذه الحاجة - كما قرأنا فى الكتب - قد تتخذ المرض سبيلا لإشباعها. وإنما أقول لك ذلك صراحة لأنى أريدك أن تكونى امرأة قوية لا تهاب مواجهة الواقع والتصدى له دون مواربة. وها قد بدأت تظهر الآن أولى عواقب كسلك وعجزك عن الاستجابة لإلحاحى عليك بالعمل على الارتقاء بذاتك.. إنك لا تشعرين لنفسك بقيمة فى الوسط الذى أتحرك فيه، أو حتى فى بيتك. والنتيجة يا سيدتى؟ مرض زائف يبعدنى قسرا عن دراساتى وتعبدى ونشاطى فى الجماعة. فكفى بالله إضاعة لوقت ثمين فيما لا طائل وراءه..... صدقينى: لو كان مرضك حقيقيا لأبديت من الشفقة عليك ما أنت أهل له.. غير أننى - بكل صراحة - ليس بمقدورى أن أتعاطف مع هذه النزوات والأمراض النفسية التى كان بوسعك - ببعض الجهد - تجنبها...

«ثم اسمحى لى أيضا أن أطرق موضوعا لم أطرقه من قبل.. ولولا إيمانى بأن العلاقة الزوجية ينبغى أن تقوم على أساس من الصراحة التامة ما ذكرته... ما هذا العزوف الغريب الذى طرأ عليك عن النوم معى؟ لا.. هذه حقيقة وليسَ بوسعك إنكارها.. مرضك ؟ لا ياسيدتى! فإن كان ثمة مرض فقد قرأنا عن حالات تصاب فيها الزوجة بنزف مستمر لا لسبب غير بغضها لمعاشرة الزوج لها.. وهى من حقوقه الشرعية.. فلتعترفى على الأقل بأننى رجل لا يهاب مواجهة الواقع.. إننى أقربك أثناء نومنا، أو تلمس قدمى قدمك، فإذا بك تركلينني بقدمك وأنت نائمة لتردّينى عنك.. أنا أعلم أنك لا تركلينني عمدا، وأن كل هذا إنما يحدث دون إرادة منك. ولكن، ما الذى يعنيه هذا بالله عليك؟ أيمكن أن يكون حبّك لى قد فتر؟»

٥

وعندما ماتت كان يقول لأفراد جماعته:

«إننى أعترف أمامكم صراحة بأنى كنت مخطئا فى اعتقادى أن تقوى الزوجة وثقافتها الدينية ليستا شرطين أساسيين للسعادة الزوجية.. أدركت خطئى بالتجربة.. والواضح لى الآن أن الشخص الذى يريد أن يكرّس حياته للدعوة والعبادة ينبغى أن يعيش بمفرده دون زواج ... لقد كانت ـ رحمة الله عليها ـ وديعة وداعة الحمام. غير أنها كانت عبئا علىّ، وعائقا دون مطامحى ونجاة روحى. وقد حان الآن يا إخوانى وقت العمل الجاد... نعم. العمل الجاد.. ذلك أنى أعتقد ....



عن وسائل منع الحمل

كنت جالسا فى مقهى الفيشاوى بالحسين حين أقبل علىّ صديقى الأديب نجيب الأنصارى وهتف بى :

ـ أسمعت الخبر ؟ نعيم الإبراشى ينتظر حادثا سعيدا .. سيرزق فى الخريف القادم برواية جديدة !

ـ موش معقول !

ـ هذا هو الوضع . كنت معه صباح اليوم فى « در الفارابى للنشر والتوزيع »، وأخبره الناشر أن كتابه قد أرسل بالأمس إلى المطبعة ، وأنه يترقب صدوره إما فى أواخر سبتمبر وإما فى أوائل أكتوبر .

ـ المسكين ! ألم تصدر له فى الشهر الماضى روايتان ؟

ـ بلى . وستكون هذه الرواية الجديدة روايته السابعة والثلاثين .. كان مترددا بين أن يسميها « أزهار» أو « إيناس » ثم استقر رأيه على «أزهار» .

ـ يا قوة الله ! ولكن ، أما كان بإمكانه أن يتخلص منها بطريقة ماقبل أن يدفع بها إلى الناشر؟

ـ ماذا تعنى ؟ كيف؟.

ـ بإحراقها مثلا.

ـ أعوذ بالله يا شيخ! يحرق بنات أفكاره بعد إنجابهن؟

ـ ومافى ذاك ؟ أما كان الناس فى الجاهلية يئدون بناتهم بعد إنجابهن مباشرة خشية العار ؟

ـ وما العار فى أن ينجب نعيم الإبراشى رواية جديدة ؟

ـ سيدى الجليل . نعيم الإبراشى على عينى ورأسى . كانت لديه فى البداية موهبة قصصية لا شك فيها . ورواياته الثلاث الأولى هى فى رأيى من أهم الأعمال الروائية فى الأدب المصرى الحديث . ولكن ، ماذا حدث بعد ذلك ؟ ظل يطلع على الناس برواية إثر رواية إثر رواية ، كل رواية منها أضعف وأسخف من سابقتها . وهاهو ذا الآن وقد بات له حديث أسبوعى فى الإذاعة ، وتمثيليات مسلسلة فى التليفزيون ، وعمود يومى فى كبرى الجرائد المصرية، ومقالات «على قفا من يشيل» فى المجلات الخليجية ، هذا بالإضافة إلى ما يشترك فيه من ندوات ، وما يلقيه من محاضرات ، وماتجرى معه من مقابلات صحفية يسألونه فيها عن ألوان الطعام التى يفضلها ، والأغانى التى يهواها ، وعلة غرامة بالقطط ، وسبب كراهته لارتداء رباط العنق !

بلع نجيب الأنصارى ريقه وتردد لحظات قبل أن يقول :

ـ ماشعورك لو أنى أخبرتك أننى .. أننى أيضا أنتظر حادثا سعيدا ؟

ـ ماذا ؟ رواية أخرى ؟!

ـ نعم .

ـ كان المفروض أن أخمن هذا من شحوب وجهك .. خذها إذن على الفور إلى حديقتك وأضرم النار فيها .

ـ اليس فى هذا خطيئة وظلم فى حق الرواية ؟ أما من حقها أن تتاح لها فرصة ؟

ـ لا ... الجمهور أيضا يا أخى من حقه أن تتاح له فرصة .

ـ فرصة ماذا ؟

ـ فرصة أن يلتقط أنفاسه.. ولكن ، هل أنت واثق ؟ كيف عرفت ؟

– قال لى الناشر منذ ساعتين أنه أمر مؤكد لا شك فيه ، وستكون الرواية جاهزة قبل معرض الكتاب الدولى فى يناير القادم .

ـ أستاذ نجيب ، يا حبيبى ، لقد أنجبت حتى الآن خمسا وعشرين رواية ، ولم تعد قويا كما كنت فى الماضى ، والسن قد تقدمت بك . ألا ترى كيف أن رواياتك العشر الأخيرة ولدت جميعها ميتة ؟

ـ أنا بالفعل متعب ، وكثيرا ما ينتابنى الآن إغماء أو رغبة فى التقيؤ .. ولكن ماذا عساى أن أصنع ؟ أتخلص منها ؟ حتى لو أنى أردت ذلك فلا أظن أنى أستطيع . لقد فات الآوان والكتاب الآن فى المطبعة فى شهره الثانى، وسيطالبنى الناشر بتعويض لو أنى فكرت فى إجهاضه .

ـ إدفع له التعويض وتخلص منه . لقد أجهدت نفسك بالكتابة ياعزيزى فى السنوات الماضية ، كل سنة رواية ، بل وفى بعض السنين توائم. الكتابة تضعفك ، وضعفك يضعف كتاباتك .. فهلا اتعظت بصديقنا رشيد أبو الغيط الذى لم يكن ليقبل تحديد نسله ، فمات وهو يلد روايته الأخيرة ؟ ولو أنه كان يمارس تحديد النسل لكان اليوم على قيد الحياة .

ـ ولكنك تنسى يا أستاذ حسين مانعانيه الآن فى مصر من تضخم وارتفاع

جنونى فى الأسعار ... كيف يعيش الأديب منا إذن ؟ الكاتب منا فى حاجة إلى نشر ثلاثة كتب له على الأقل فى السنة الواحدة ، وأن يكتب مابين ثلاثين وأربعين مقالة فى مجلات خليجية ، حتى يحتفظ بمستوى معيشته كما هو .

ـ نعم . ولكن ماذا عن مستوى أدبنا القومى ؟ ألا يقلقك مستوى أدبنا القومى كما يقلقك مستوى معيشة الأديب ؟ لا ياسيدى . كتابنا فى حاجة إلى وسائل تحديد الإنتاج حاجة شعبنا إلى وسائل تحديد النسل ، خاصة وقد غمرت التفاهات سوق الكتاب ، وطردت العملة الرديئة فيها العملة الجيدة، فإذا بالموهوبين حقا لا ينجبون ، والأغبياء الرعاع يسدّون بنسلهم الضعيف الآفاق.

ـ ألا ترى فى ممارسة تحديد الإنتاج انتهاكا لقدسية الإلهام ، وإحباطا للغريزة الفنية الخلاقة ؟

ـ العكس هو الصحيح يا أستاذ . وسيكون من شأن هذا التحديد حماية سمعة الكاتب نفسه .. فمعدل الإنسال الفكرى الراهن الشبيه بمعدل إنسال الأرانب ، يودى بحياة عشرات المؤلفين كل عام ، وينسف سمعة المئات ، ويخرج إلى النور آلافا من الكتب والمقالات والقصص البلهاء الشوهاء العرجاء التى ما كان لها أن ترى النور أصلا ... بعضها يموت فور ولادته ، وبعضها يمتد به العمر بعض الوقت فى ظل فقر مدقع ، وصحة مضعضعة، يرتعد من البرد فى غلافه الورقى ، أو يتزاوج مع الإذاعة والتليفزيون فينتج عن هذا التزواج مسلسلات مصابة بتخلف عقلى ، وكلها مما يهدد بتدهور مستوى سلالة الأدب المصرى كما أشار بحق زميلنا محمود جمعة فى مقاله الأخير فى مجلة « الفن والمجتمع » .

ـ زميلنا محمود جمعه هذا مجرد حاقد على غيره من الأدباء لأنه لم يحرز ما أحرزوه من شهرة ، وعلى النقاد إذ لم يعيروا كتاباته انتباها .

ـ قد تكون مصيبا. غير أنه صاحب موهبة حقيقية لا شك فيها . وفى اعتقادى أيضا أنه ما من أدنى شك فى أن الشهرة ستكون من نصيبه ومن نصيب أصحاب المواهب الحقيقية إن عاجلا أو آجلا ، وأنها ستلازمهم بالضرورة ملازمة الظل للإنسان . كل ماهناك هو أنها ، كالظل ، تسبق الإنسان أحيانا وأحيانا تتبعه ، وقديما قيل إن معبد الشهرة يحوى أمواتا لم يدخلوه حتى ماتوا ، وأحياء سيطردون منه فور وفاتهم . فالكاتب المتميز الفحل ـ كالمتنبى وشوبنهاور ـ لا مفر من أن يستثير عند الكتاب من أصحاب المواهب الزائفة مشاعر الحسد والغيرة والخوف والكراهية . فهو كالشمس إذا طلعت «لم يبد منهن كوكب» على حد تعبير النابغة الذبيانى . وإذ تصفر وجوههم وتنقبض صدورهم إزاء كل كتاب أو مقال ممتاز يصدر من قلمه ، يرون السلامة فى التحالف والتآزر من أجل هدمه، والتضافر على تحقيره وإخماده صيته . وقد يلجأون إلى سلاح الصمت للحيلولة دون نيله للشهرة التى ستودى بشهرتهم ، فلا يذكرون كتبه بكلمة ، ويحرصون على ألا يرد اسمه على ألسنتهم ، فى الوقت الذى يشيدون فيه بكل مقال أو كتاب يصدر عن أمثالهم من أصحاب القرائح العقيمة الجدبة ، ويمسح بعضهم جوخ بعض كما تتهارش الحمير ، مطمئنين إلى أنه لا خطر على شهرتهم من شهرة التافهين الأراذل .

ـ فما اقتراحك إذن حتى نوقف تدهور مستوى سلالة الأدب عندنا ؟

ـ هو إما أن يتوقف ناشرو الكتب ورؤساء تحرير المجلات والصحف عن

النشر للكتاب حماية لسمعتهم ، ولجمهورهم ، وأما أن يخترع العلماء حبوبا لمنع النسل الفكرى ، أو وسائل لإجهاض الأجنة الضعيفة .. تأمل حالة شاكر الرفاعى . بعد أن أنجب روايته العظيمة « إحباط » ، وروايته « هل سمعنا أحد ؟ » أغرق السوق بروايات عبيطة هزيلة راجت بفضل سمعة اختيها ، ولو كان يعرف تحديد النسل ويمارسه لكان خيراً له . وهو الآن بعد كل هذا التجريف لعقله حطام ، بدنيا وعقليا ونفسيا على سواء . وحتى عموده اليومى فى « الأهرام » هو فى معظم الأحيان عبارة عن رسائل وصلته من قرائه ، أو تلخيص لبعض فصول من كتب أهديت إليه .

ـ ولكن النقاد لا يزالون يقرظون مؤلفاته .

ـ لا تحدثنى عن النقاد ، أرجوك . أناس تعرّف بهم بفضل شهرته وأنشأ معهم علاقات شخصية ، وغمرهم بالدعوات إلى المآدب أو بالهدايا ، فباتوا مضطرين اضطرارا إلى امتداح كل كتاب جديد له ، أو الإحجام على الأقل عن بيان نقائصه وعيوبه ، فيزيده مديحهم الذى يحسبه مخلصا غرورا واطمئنانا إلى استمرار موهبته . أو كما قال الشاعر :

وَعَدَّ النـاسُ ضَرْطتَـهُ غنـاءً

وقالوا إن فَسـا: قد فاح طِيبُ !

ـ فلماذا تتهافت دور النشر والصحف والمجلات إلى يومنا هذا على نشر مؤلفاته ؟

ـ لأن المجلات والصحف ودور النشر وسائر وسائل الإعلام يهمها شهرة الكاتب قبل جودة مايكتبه . وهى تظل على إلحافها فى طلب إنتاجه إلحافا يوهمه أنه لا سبب وراءه غير عبقريته . فإذا عموده اليومى فى الصحيفة يملأ،

ومقاله الأسبوعى فى المجلة يكتب ، وإن لم يكن قد بقى فى عقله أفكار جديدة . والبئر لا بد من استخراج الماء منها ولو كانت فارغة .... لا يا صديقى . الكاتب الحق ليس ثمة ما يستحثه ويدفعه إلى أن يمسك بالقلم مالم تجل بخاطره فكرة جديدة ذات قيمة . وهو إنما يكتب لإرضاء حافز داخلى قوى يحفزه على التعبير عن ذاته ، ويدرك أن النائحة الثكلى ليست كالنائحة المستأجرة ، وأن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب ، وإن خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان . لذلك فهو حريص كل الحرص على كمال الأداء وإتقان الصنعة ، ليس ثمة أمامه عمود يومى عليه أن يملأ سطوره بأى كلام ، ولا وراءه رئيس تحرير مجلة يستحثه الإنجاز كى يلحق بالعدد الأسبوعى ، أو مدير إذاعة يستعجل حلقات التمثيلية لتسجيلها قبل ظهور هلال رمضان .. وقد قضى جوته فى كتابة « فاوست » اثنين وستين عاما . ولو أنه كان ينشرها فى حلقات فى مجلة ، أو استعجله مدير التليفزيون لتسجيل المسلسل ، لكان من المؤكد أن يحرم الأدب العالمى من إحدى روائعه ...آه لو أن جوته كان يعيش فى زمننا هذا وأراد التليفزيون أن يحول «فاوست » إلى مسلسل يعقب « ضمير أبله حكمت » في النصف الثانى من رمضان ! ياله من محظوظ !!

ـ ولكن اسم المؤلف لكى يظل فى ذاكرة الناس ينبغى أن يتردد من حين لآخر على ألسنة الناس . ولا سبيل إلى ذلك إلا بالنشر المستمر فى الصحف والمجلات ، وبأن يظهر بين الفينة والفينة صوته فى الراديو ، وصورته فى التيليفزيون .. صدقنى ، لو أن مؤلفا مشهورا اعتزل الناس فى زمننا هذا مدة عامين أو ثلاثة لتأليف كتاب جاد ، ولو كان فى مستوي «الإلياذة» ، لتبددت شهرته ... واختصارا أقول لك إنى قد بدأت أومن بأن الشهرة فى أيامنا هذه

لا تتوقف إطلاقا على نوعية مايكتبه الكاتب قدر ما تتوقف على كميته المنشورة أو المذاعة ، وكثرة المرات التى يتردد فيها اسمه ، حتى لو لم يقرأ الناس له حرفا .

ـ وأنا معك فى هذا يا عزيزي نجيب ، وقد لمسته بنفسى . فمنذ أن بدأت أنشر مقالاتى فى صحيفة « الأهالى » والناس تعاملنى بالاحترام الواجب لأديب معروف ، دون أن تصدر عن واحد منهم كلمة واحدة تدل على أنه قرأ لى مقالا واحدا ... كل مافى الأمر هو أنهم يجدون مساحة من الجريدة مخصصة لى ، وصورتى تتصدر المقال .. مرة واحدة فحسب اتصل بى فيها أحد القراء ليعبر عن إعجابه الشديد بمقال معين هو مقال « عزيزى الأستاذ بهاء» ، وهو لعلمك مقال بقلم أخى الدكتور جلال أمين وليس بقلمى.

سيمونيان ! أين أنت؟!

وهو كذلك ! موافق. هناك تقدم مذهل فى كافة الميادين، من ذا الذى بوسعه أن ينكر هذا؟.. غير أنى وأنا المخضرم الذى شهد الزمانين، وعاصر التخلّف والتقدم فى بلاد العرب والفرنجة ، قد يؤذن لى أن يكون لدىّ بعض التحفظات، وأن أورد بعض الذكريات والملاحظات.

فلأتحدث مثلا ــ بصفتى عاشقا للكتب وللتردد على المكتبات منذ صباى ــ عما طرأ على هذه المكتبات من... «تقدم».. كنت أتعامل فى الأربعينيات مع مكتبة فى شارع شريف بالقاهرة، يمتلكها كهل أرمينى قصير القامة طيب القلب، يدعى سيمونيان، يعمل وحده بالمكتبة دون معاونين..

كنت أدلف إلى مكتبته وأنا بعد فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، فيحييّنى وأصافحه، ويسألنى عن أخبارى وأخبار دراستى وأجيبه، ثم يشرع وهو يصبّ الشاى فى قدح لى من ثيرموس بجانبه، فى ذكر ماوصله مؤخرا من كتب جديدة تهمّنى. فهو يتذكر جيدا ما اشتريته منه، ويعرف جيدا ميادين اهتماماتى، وما ينقص مجموعات الكتب عندى من مؤلفات لم تكن قد صدرت بعد.. «آه ! عندى مفاجأة سارة لك اليوم يا سيد حسين!».. هكذا كان يصيح بى أحيانا إذ أدخل المكتبة.. «ترجمة كونستانس جارنيت

الإنجليزية لرواية دوستويفسكى «الشياطين».. وصلتنى من لندن هذا الصباح». ويلمح دلائل السرور فى وجهى فتتّسع ابتسامته. ويتجه من فوره إلى الرفّ لإحضار الكتاب.

وهو دائما يُجرى لى خصما على أسعار الكتب. خمسة فى المائة أو عشرة. فهو يعلم أنى وأنا الطالب بعد فى المدرسة الثانوية محدود القدرة الشرائية. وكثيرا ما يعطينى الكتب على أن أدفع ثمنها في أول الشهر التالى حين أتسلم من والدى مصروف الشهر عن طيب خاطر ودون تردّد. فإن كان الكتاب باهظ الثمن (كتاب في فَنَّىْ التصوير والنحت، أو كتاب من عدة مجلدات)، وافق على أن يكون الدفع على أقساط.

غير أنه كان أحيانا حين يقع بصرى على كتاب على رف من الرفوف، وأتقدم به إليه لدفع الثمن، يهز رأسه آسفا ويقول: «هذا كتاب أظن أن لطفى الخولى (أو محمد سيد أحمد أو غيرهما) أكثر إهتماما بموضوعه منك، وسيسعده أن يأخذه. فإن كنت مخطئا فى ظنى فسأحتفظ به لك. وإن أخذه فسأطلب لك من لندن نسخة أخرى، إذ ليس عندى منه الآن غير نسخة واحدة».

ثم ها هو ذا إن سألته عن كتاب فى موضوع معين، كتاريخ الهند، أو مذاهب فن التصوير، أو ترجمة لحياة تولستوى، يقترح الكتب، ويقرّظ البعض منها ويقدح فى البعض.. فهو قارىء ممتاز وليس مجرد تاجر كتب. وإذ بدأ مثلا يلحظ إقبالى على قراءة المؤلفات الكلاسيكية فى الأدب الروسى، أوصانى بأن أقتنى كتابَىْ الأمير د. س. ميرسكى «تاريخ الأدب الروسى» و«الأدب الروسى المعاصر»، وأن أجعلهما دوما فى متناول يدى، وأن أرجع إلى أحكامه فيهما عند اختيار ما أقرأه فى هذا الأدب.. وهو الذى نبّهنى إلى أهمية

أدباء من الروس لم أكن فى ذلك الحين قد سمعت بهم، مثل سالتيكوف شدرين، ونيقولاى ليسكوف، وإيفان جونشاروف.. فإن خاب ظنى فى كتاب كان قد أوصانى بقراءته، أبدى أسفه، وسألنى أن أردّه فيردّ إلىّ ثمنه.

وقد ظل تعاملى مع هذا الإنسان قائما حتى فأجانى عام ١٩٥٣ بنبأ اعتزامه الهجرة إلى أستراليا، ونبأ بيعه المتجر إلى من سيحوّله إلى محل لبيع سندوتشات الفلافل والفول.. وقد ودّعته وقتها والدموع فى عينى، وأنا واثق من أنى سأظل أذكر له حتى آخر العمر فضل تيسيره لشرائى الكتب وقت ضيق ذات اليد، وتوجيهه لقراءاتى، ومساعدته لى فى الحصول على ما أطلب من الكتب ، أو على نسخ قديمة من كتب نفذت ولم تتجدد طباعتها

* * *

ثم انتقل بعد هذا النموذج للكتبىّ الذى لم يكن بالنموذج النادر وقت صباى وشبابى، إلى مكتبات اليوم وأصحابها، وبعد ما أحرزه العالم من «تقدم» وبعد الاستعانة بسبل الإدارة الحديثة وبأجهزة الكومبيوتر فى كافة المكتبات الكبرى فى العالم الغربى على الأقل.

كان معظم معاملاتى منذ ١٩٦٣ ــ وإلى اليوم ــ مع مكتبة هيفرز بمدينة كمبريدج بإنجلترا. فكمبريدج هى أحبّ مدن العالم قاطبة إلى قلبى ، ولا يكاد يمر عام دون أن أزورها مرة أو مرتين، سواء كان محل عملى هو موسكو، أو بون، أو لاجوس، أو ريودى جانيرو، أو أوتاوا، أو الجزائر.. أما مكتبة هيفرز فكثيرا ما تذكرنى بقولة عربىّ قديم لأحد الولاة أو الأمراء: «الناس تبنى الدور فى الدنيا، وأراك قد بنيت الدنيا فى دارك»! فقد كنت حين أُوصيتُ لأول مرة بالتعامل معها، وقبل أن تطأ قدماى كمبريدج، أظنها مجرد

مكتبة فى مدينة، فإذا بى أتبين عند أول زيارة لها أنها تكاد تكون المدينة ذاتها، وأنه قد يمكن القول ــ مع بعض المبالغة ــ بأن كمبريدج هى هيفرز! إذ لا يكاد حيّ من المدينة يخلو من أحد فروعها: فهنا المبنى الرئيسى فى شارع ترينيتى، وهنا فرع للكتب ورقية الغلاف، وفرع للكتب النادرة، وفرع للكتب القديمة، وفرع لكتب الفن، وفرع للأدوات الكتابية، وفرع للملصقات الحائط، وفرع لمستلزمات الرسم، وفرع للأسطوانات وشرائط الفيديو، وفروع أخرى قد لا تخطر للمرء ببال...

ممتاز! فماذا عن تعامل قارىء مثلى مع هذه المكتبة التى قد لا ينافسها فى السمعة غير حفنة من مكتبات نيويورك؟ وماذا عن مقارنة هذه المعاملة بمعاملة الأخ سيمونيان فى شارع شريف، رحمة الله عليه؟

الموظفون فى المكتبة (وهناك العشرات منهم فى كل فرع) شديدو الانشغال، دائبو الحركة والتنقل.. هذا يحرر فاتورة ، وثان يعيد ترتيب الكتب على بعض الرفوف، وثالث جالس إلى آلته الكاتبة يدق عليها، ورابع يجرّ عربة تحمل العشرات من كتب جديدة قد وصلت، وخامس مشغول بتغليف طلبيات، وسادس بتدوين الاشتراكات، وسابع بمراسلات العملاء، وثامن بالحسابات، وتاسع بالكمبيوتر، وعاشر بمراقبة الداخلين والخارجين خشية السرقة... ما من أحد منهم على استعداد لأكثر من إجابة قصيرة على سؤالك عن كتاب، أو أن يضيع أكثر من دقيقة فى تلبية طلبك، وما من أحد يبدو كأنه قد سمع من قبل بالكتاب الذى تريده، أو بمؤلف هذا الكتاب، وما من أحد منهم يوحى إليك بأنه قارىء مطلع، أو بأنه أكثر من بائع فى محل تجارى، أو بأنه يكنٌّ التوقير لمهنته.. هو موظف قد ألجأته الظروف إلى العمل بهذه المكتبة، ولو عُرض عليه أجر أكبر قليلا لقبل أن يكون بائعا فى مخبز، أو

بائعا فى متجر للعب الأطفال، أو صبيا لجزار... لا تسأل واحدا منهم عن كتاب وبدا أنه قد رآه من قبل ويعرف مكانه، وإنما هو يسـألك فى أى فرع من فروع المعرفة هذا الكتاب، ثم يتوجه إلى القسم الخاص بهذا الفرع، ويستعين بالأبجدية للعثور على كتب المؤلف الذى ذكرته... ثم لا هو يدخل فى دردشة معك، ولا بالذى يهمه معرفة اسمك، ولا بالذى يوصيك بقراءة كاتب، ولا بالذى يقترح كتابا بدل كتاب، ولا بالذى يُجرى خصما إن لمس فيك ضيق ذات اليد، ولا بالذى يدعوك إلى قدح من القهوة أو الشاى، ولا بالذى ستظل تذكر إلى آخر العمر فضله فى توجيه قراءاتك.

تقول إنه قد كان لابد من هذا التطور، ومن التضحية بالصلات الشخصية مع العملاء فى زماننا هذا، إزاء تزايد حجم المعاملات، ومن أجل ضمان كفاية أكبر فى الأداء؟ حسنا، وأنا أقول إنني ما لمست فى حياتى اضطرابا فى حسابات لدى المكتبات، ولا ضعف كفاءة فى تلبية احتياجاتى من الكتب، قدر ما لمستها منذ أن استعانت المكتبات بالكومبيوتر، ومنذ أن كثر عدد العاملين بها، وأدخلوا فيها أحدث نظم الإدارة. ولو أنى أوردت هنا موجزا لما ارتكبته مكتبة هيفرز معى أنا وحدى من أخطاء خلال عام واحد من التعامل، لشغل هذا الموجز صفحات وصفحات.. ولا أرانى سأقتنع تماما بالرد بأن مثل هذه الأخطاء كان من شأنها أن تتضاعف لولا إدخال النظم والأساليب الحديثة!

أما عن ضياع «العامل الشخصى» فى الصلات مع الزبائن، فلا شك أن المؤسسات الحديثة قد باتت تدرك أهمية هذا العامل وضرورة إحيائه. فكيف ترونها بالله عليكم قد أحيته؟ بوسيلة حديثة أخرى هى أدعى إلى التقزز والغثيان من ضياع العامـل الشخصى نفسه! يكفى أن أذكر مثلا أو مثلين

لابد أن أى مشترك من قرائى فى صحيفة أو مجلة أوروبية أو أمريكية قد خبرهما.. الأول: أن يصلك خطاب من مجلة لم تسمع بها، ويتصدر الخطاب اسمك مطبوعا بنفس الحروف التى طبع بها سائر الخطاب حتي تتوهم (ولن تتوهم!) أنه مرسل إليك «شخصيا»، وأنه ليس بالخطاب الدورى الذى تطبع منه آلاف النسخ. والخطاب يذكر أن الاختيار قد وقع عليك «شخصيا» كى تتلقى هديتين «مجانيتين» متى قررت الاشتراك فى المجلة، وأنهم إنما أرسلوا إليك «بالذات» لأن شخصك «العزيز»، بمركزك «المرموق»، ووضعك الاجتماعى «البارز»، لابدّ مدرك أهمية الأشتراك فى مجلة جادة كهذه، ولابد ستستشعر النقص وعدم الارتياح فى عملك مادمت لا تقرأها... أو أن يصلك خطاب من مدير تحرير مجلة «تايم» أو «نيوزويك» التى قارب اشتراكك السنوى فيها على الانتهاء، يذكرك بضرورة الإسراع بالتجديد.. يعقبه بعد أسبوعين أو ثلاثة خطاب يعاتبك المدير فيه عتابا رقيقا على تأخرك فى الرد، وقد طبع اسمك فى الخطاب بالطريقة المشار إليها آنفا.. يعقبه بعد أسبوعين أو ثلاثة خطاب كتب على مظروفه «إننا نكره أن نبعث إليك بهذا الخطاب!»، يعبر فيه عن دهشته لظنّك أن بوسعك الاستغناء عن المجلة.. يعقبه بعد أسبوعين أو ثلاثة خطاب كتب على مظروفه «لقد خاب أملنا!» يطلب فيه من «معالى السفير العزيز حسين أمين «أن يجيب بلا أو نعم، ولكن لابد من إجابة على أى الأحوال، فإن كانت بلا، فسيكونون مدينين لى إذا ما خبرّتهم بسبب إحجامى عن التجديد رغم سعيهم وبذلهم أقصى جهدهم لإرضائى «شخصيا» وحرصهم فى تحريرهم للمجلة على خدمة «مركزى المرموق»، «ووضعى الاجتماعى البارز»، مع رجائهم فى الختام أن يصلهم الصك المالى فى موعد أقصاه ٢٨ فبراير! مع تحياتهم «الشخصية».

هذا إذن هو النحو الذى ارتأوه كفيلا باستعادة العلاقات الشخصية الدافئة مع الزبائن مع الأحتفاظ فى نفس الوقت بالكفاءة الإدارية... ولا أحسب أن هناك قارئا واحدا هو من السذاجة بحيث يمكن أن ينخدع بهذا الأسلوب، أو أن يستجيب له إيجابيا، أو أن يحسب بالإمكان إقامة صلة شخصية «دفيئة» مع كومبيوتر أو إنسان آلى.. بالعكس! كان رد الفعل التلقائى عندى لقراءة هذه الخطابات هو أن أقرر عدم الاشتراك فى المجلة الأولى، وعدم تجديد اشتراكى فى المجلة الثانية، مع إحساس غامر بالغثيان والاشمئزاز إزاء الأساليب « الحديثة » فى الإدارة.

سيمونيان ! أين أنت ؟!



قصة امرأة

نعم.. هى قطعا أصعب سنوات الزواج، السنة الأولى منه. وشهر العسل كان أسوأ الشهور التى مرت بى...

لم أكن أعلم بالضبط ما يُتوقّع مني ليلة الزفاف، ولا ذكرت لى أمى شيئا على الإطلاق فى هذا الصدد. والأدهى من ذلك أننى واثقة من أنى لن أستطيع أن أحدّث بناتي بشيء فى مثل هذه الموضوعات.

آه لو علمت بحالى يوم جاءنى الحيض لأول مرة. كنت أتنقل فى البيت من غرفة إلى غرفة كالمجنونة، أريد أن أخفى نفسى، غير عالمة ما أصنع بها. ظننت شيئا رهيبا قد حدث، شيئا فظيعا لابد من إخفائه. وإذ اضطررت فى النهاية إلى أن أفاتح الخادمة فى المطبخ، انتابتنى دهشة بالغة أن رأيت من وجهها أنها لم تستفظع الأمر. فهدأت قليلا ثم شرحت لى. وقامت تخبر والدتى.

وما عساك تقول حين تعلم بفرحى إذ يصاب أنيس بالحمى يوم الزفاف. كنت أبدو قلقة بطبيعة الحال، غير أنى فرحت لمرضه. كنت أدرك أنه سيحاول شيئا بغيضا فظيعا ليلة الزفاف، وشعرت بالامتنان إذ ستحول الحمى بينه وبين غرضه بعض الوقت. أما هو فقد بدا عليه الأسف الشديد، ولابدّ أن ضميره أنبه إذ اضطر إلى أن «يخيّب آمالى» فى الليلة الأولى! وقد حاول بالفعل رغم مرضه أن يقربنى إحساسا منه بواجبه غير أني رددته.

رددته دون أن أذكر أنى أردّه إشفاقا عليه، خشية أن يظن متى شفى أنى لن أردّه. وكنت أقوم بتمريضه فى الأيام التالية فى إخلاص شديد، لا أكاد أذوق طعم النوم... داعية الله أن يستمرّ المرض.

فهل تصدقنى إذا قلت لك إنه ظل مدة أشهر لا ينال منى شيئا؟ لن أخبرك كم شهرا صمدت.. كان طيّبا للغاية. مرة واحدة فحسب نفد صبره فيها وحاول استخدام القوة. غير أنه عاد فاعتذر، ولم يلجأ بعدها إلاّ إلى محاولات الاقناع: «ألا تحبيننى؟ ألا تريدين أطفالا؟ أما كنت تتوقعين ذلك؟ أتعتقدين أنك وحدك بين الزوجات من يُطلب إليها ذلك؟»... ثم ترك حتي هذا الحديث. وبدا مكتئبا. لم يحاول أن يخرج فى المساء دونى. كان يمكث بالبيت. مكتئبا. ثم لاحظتُ أنه بدأ يكثر من شرب الخمر. ربّما عمدا لإثارة شفقتى. وهو فعلا ما جعلني أقرر في النهاية أن أمكّنه من نفسى.

كل هذا ووالدتى لا علم لها بالأمر. ولا عائلته.

أنا أعلم أنه كان ينبغي أن يكون هناك تمهيد أثناء فترة الخطوبة، خاصة أنها دامت نحو ثلاث سنوات. غير أنه لم يكن خلالها شىء من هذا القبيل. ربما قبلة مختلسة من حين لحين. غير أن أهلى ما كانوا يسمحون لنا بالخروج بمفردنا، أو حتى بالبقاء في غرفة بالبيت وحدنا لأكثر من دقيقتين. أتعجب لهذا؟ نعم. لقد لاحظت أن كثيرا من المسلمين يظنّون الأقباط أقرب فى عاداتهم وطريقة معيشتهم إلى الأوربيين. غير أن الواقع أننا أكثر تزّمتا فيما يتعلق بالجنس منكم. خاصة بين أهل الصعيد منا.

ولا كانت لى علاقات برجال قبل الخطوبة. حاول مرة رئيس لى فى عملى السابق ــ وكان كنديا ــ أن يتودّد إلىّ. دعانى إلى الذهاب معه إلى السينما فرفضت.. فسألنى أن أدعوه إلى تناول الشاى معى وعائلتي فرفضت.

وكانت له خطيبة فى كندا. فكان يستدعينى ليملى علىّ خطابات غرامية إليها، كان وجهى يحمرّ لها. ثم بدأ يورد فى هذه الخطابات وصفا لى، ويطيل الوصف والإطراء إطالة أيقنت منها أن الخطابات لا ترسل، وأننى المقصودة بالاطلاع على مضمونها، وذهبت فى النهاية إلى مدير الشركة أطلب منه نقلى إلى قسم آخر.

لقد كان الجنس دائما بغيضا لدىّ. وما أنا بالقادرة عليه أو القابلة له ما لم أكن وزوجى في ظلام دامس، لا أرى منه شيئا ولا يرى منى شيئا، وما لم يكن الهدوء تاما فى البيت، قد نام الأطفال والخادمة، وأحكمنا إغلاق الباب. أتعلم أنى لا أخلع أو أرتدى ملابسى أمامه، وأنى حين أغيرّها أغلق الباب علىّ بالمفتاح إن كان بالبيت؟.. حتى بناتى لم يريننى عارية، وخجلى يثير دهشتهن فيسألننى: لماذا ونحن من جنس واحد؟.. لا أطيق أن يرانى أحد عارية. بل حتى فى الظلام لا أنزع من ثيابى إلا ما يتحتم نزعه حتى يتمكّن زوجى منى .. إنه يصفنى بأنى لا أزال عذراء فى واقع الأمر. عذراء وأم لأربعة!.. كان فى السنة الأولي من زواجنا يريدنى أن أستحم معه. وكان يجرى ورائى فى جميع أنحاء البيت ليجبرنى على ذلك. فإن أمسك بى وشعرت بأنه سيتغلّب علىّ، انقطع ضحكى فجأة، وصرخت مهدّدة إيّاه جادة أنى سأترك منزل الزوجية إن فعل.. فكان يتركنى وقد شحب لونه وانقبض.

لكم كان ولا يزال يثير شفقتى. ولكم كنت أعنف نفسى وأكرهها كلما رأيته بائسا بسببى. كنت أقول لنفسى إنى شاذة، وانه ليس من العدل أن أعامله هذه المعاملة. نعم كنت أعتقد أنى أنا وحدى قد خلقت هكذا. ولم أعرف إلا فيما بعد ــ سواء من الحياة أو من قراءاتى ــ أن هناك من هنّ مثلى.

هذه هى الميزة الأساسية لقراءة الراويات فى رأيى، وهذا هو عيب الأنعزال عن الناس. فالخطر الخطر أن يظنّ المرء أن حالته فريدة لا يشاركه فيها أحد.

غير أنى قد أكون شاذة بالفعل. من يدرى؟ شاذة بالمعنى الآخر.. سأخبرك الآن بأمر لم تنفرج عنه شفتاى من قبل. كنت يوم الجمعة الماضى فى نادى الجزيرة أجلس مع زوجي إلى مائدة بالحديقة. ومرّت بنا ونحن جلوس امرأة بالغة الجمال، طويلة القامة، ناضجة الجسم إلى درجة غير معقولة. لم استطع أن أحّول ناظرى عنها، وجعلت أتابعها وأتلفت مراقبة إيّاها حتى لحظ زوجى ذلك وطلب منى فى حدّة وتعجب أن أكف..

تذكرت لحظتها أيام المدرسة الثانوية. كنت فى حوالى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة . وكانت هناك بنتان على الأقل من طالبات الفصول العليا معجبتان بى، شديدتا الحب لى. كانتا فى السادسة عشرة من العمر، ناضجتى الجسم إلى حدّ بعيد.. خاصة الثديين. كانت الواحدة منهما تأتى إلىّ فى مكانى بالفناء وقت الفسحة، فتضع ذراعها حول خصرى، وتأخذني إلى أقصى فناء المدرسة الواسع ونجلس فى كشك هناك، تبثنى حبها، وتلثم وجهى وعنقى، وتعانقنى، وتتحسس جسمى كله، وتجعلنى أتحسس ثدييها.. كانتا مغرمتين بى غراما حقيقيا؛ تفتقدانى إن غبت، وتدسّان فى يدى الهدايا الصغيرة من وقت لآخر ، وتغار كل واحدة منهما من الأخرى. وكانتا تمطرانى بالإطراء على وداعتى وجسمى النحيل الضئيل ووجهى الذى كانتا تريانه شاعريا حالما. أما عنى فقد كنت معهما أشعر بارتباك شديد، وكان وجهي يحمرّ. غير أنى كنت سعيدة بهذه العلاقة ، يسرّنى لمسهنّ إياى ولمسى لثدييهما الكبيرين للغاية . وكنت أثناء الحصص أنتظر لحظة نزولي إلى الفناء، وأشعر بأن الأجازة الصيفية طويلة طويلة لا تنتهى.

من يدرى؟ ربما كان هذا هو ميدانى الطبيعي، وكانت هذه هى ميولى الحقيقية، وأنى مجرد قد ضللت الطريق.

لا. إنما كنت أمزح. فأنا أعلم أين كان ميدانى الطبيعي: أن أكون راهبة. نعم. كان هذا دائما مثلى الآعلى: أن أكون عروس السيد المسيح فى السماء. وكنت فى سن الخامسة عشرة قد عقدت العزم على دخول الدير. وإذ أخبرت أهلى بذلك ثارت ثائرتهم وكانت ضجة استمرت أشهراً كنت خلالها الموضوع الرئيسى فى حديث العائلة. غير أني حتى أثناء أحلام يقظتى فى ذلك الوقت كنت أتخيل رئيسة الدير تفضلنى على غيرى من الراهبات، وتقرّبنى وتحضنني وتقبّلنى فى غرفتها..

وإلى الآن تعجبنى من النساء الطويلة القوية ممتلئة الجسم.. كمديحة مثلا.

غير أنه قد تكون هناك أسباب أخرى لموقفي من الجنس. فكثيرا ما كانت تصل إلى مسامعى وأنا صبيّة أطراف حديث عن فتيات يُقتلن فى الصعيد بسبب حوادث شرف. وكان ما يصلنى من هذه الأحاديث يهزّنى هزا عنيفا ويؤرق مضجعى.. أو ربما هو ذلك الحادث الذى وقع لى حين كنت في السادسة من العمر، حين دخل والدى للنوم بعد الغداء، ووجدت نفسى فى المطبخ مع خادم أسود لنا فى الرابعة عشرة (لا أذكر أين كان إخواتى وقتها). وحاول الخادم ارتكاب عمل فاضح معى، فأصابنى الفزع، وأخبرته أنى سأبلّغ والدى متي استيقظ. فإذا الخادم بدوره يفزع، ويمسك بسكين فى المطبخ ويهدّدنى بالقتل به إن أنا أخبرت والدى... ولكنى أخبره بالفعل حين يستيقظ، فأمسك بعنق الخادم وانهال عليه ضربا حتي خرَّ فاقد الوعى وقد أصابه ارتجاج فى المخ بسبب لكمة قوية على أذنه.. ويصاب أبى بدوره بالفزع خشية أن يكون الخادم قد مات..آخ! كان الأمر فظيعا برمته...

أنا أعلم أنه من الواجب أن أحادث أولادي فى الجنس . غير أنى لا أدري كيف أبدأ. هل تحادث أنت أولادك عن الجنس؟ لا أعتقد أنى سأستطيع.. منذ يومين دخلت غرفت بناتى فوجدت سناء وليلى منفردتين قد كشفت الأولي عن صدرها، بينما تظاهرت الثانية بأنها ترضع منها. سناء بالذات قد بدأت تتفتح عيناها علي الجنس، وكثيرا ما أفاجئها وحدها وقد تعرّت من ثيابها تتحسس جسمها أو تحضن نفسها.. لا أدرى هل أوبّخها أم لا. الغريب أن إدوارد، وهو أكبرهم، هو أكثرهم سذاجة فى هذا المضمار.. أنا أيضا فى صباى حدث لى أمر شبيه بما شاهدته أمس الأول بين ليلى وسناء.. كنت في الثانية عشرة أحبّ الأطفال حبا جما. وقد حدث أن زارنا بعض أصدقاء العائلة وجاءوا بطفل رضيع لهم، فحملته وانصرفت به إلى غرفتى مغلقة الباب خلفى. وفى الغرفة كشفت عن ثديى ووضعت حلمته فى فمه.. شعرتُ بسعادة جمة.. غير أنه لم تمض بضع دقائق حتى دخلت أختى الكبرى جانيت الغرفة علينا فجأة، وإذ رأتنى على هذه الحال بدرت منها صيحة استنكار: «مارى! أجننت؟ ماذا تصنعين؟!». وودت لو أن الأرض انشقت فابتلعتنى. «هل أخبر والدتى؟ سأخبر والدتى» هكذا قالت . وتوسلت إليها ألا تفعل، وأقسمت أن الطفل كان يبكى فظننت أني بإعطائه الثدى قد يكفّ. «كيف! إنك غير متزوجة كيف تعطينه الثدى إذن؟ أتعلمين أىّ أمر جنيت؟». وعدتُ أتوسل إليها واعدة إياها أن أفعل كل ما تطلبه منى وأن أعطيها كل ما تريد «تقسمين؟». «نعم». «فاعطنى ألبوم طوابع البريد». وفتحت مكتبى وأعطيتها الألبوم الذى كان قد جاءنى هدية فى عيد ميلادى، وكانت تلح علىّ أن أعطيها إياه مقابل عقد لها فأرفض.. فهل تصدّق أنها ظلت قرابة أربع سنوات بعد ذلك تستخدم هذا الحادث

يوميا تقريبا فى تهديدى حتى أفعل ما تريد؟ «أقول لماما؟». «لعلك قد نسيت ما فعلت!»، أو حتى مجرد نظرة دون كلام. ولم يخطر ببالى أن أثور على طغيانها إلا بعد أربع سنوات. طلبتَ منى شيئا فرفضت، فسألتنى: أقول لماما ؟ قلت: نعم.. فبهتت وسكتت، ولم تقل لماما. ولا عادت إلى مثلها بعد ذلك.

آخ! يجب أن أحدثك عن أختى جانيت هذه! كانت جميلة جميلة لدرجة أنى كنت أبدو إلى جانبها كالفأرة باهتة اللون. وكانت ذكية لبقة الحديث ممتلئة حيوية ونشاطا. فأما المعجبون بها فمئات. وإذ جعلتْ مني منذ حادث الطفل أمينة سرّها، فقد كانت تصحبنى إن خرجت إلى موعد لها مع صديق، أجلس معها إن شاءت، وأقوم لأتمشى بعيدا إن شاءت. فإن كانت تحادث أحدهم تليفونيا وهى فى البيت فأنا التى أقف على رأس الممر لأحذّرها إن اقترب أحد.. ولن أنسى يوما كان لديها موعد فيه مع أحد الشبان فى حديقة جروبى . أخذتنى معها رغما عنى، وطلبت لى ولنفسها آيس كريم صنودا وبعض السندوتشات فالكيك موقنة أن الشاب سيدفع عند حضوره. وإذ تأخّر فى الحضور طلبت طبق الحلوى المعروف بالخنازير الثلاثة، لى ولها. وفرغنا من تناوله هو أيضا والشاب لا يحضر، وليس لديها أو لدىّ غير قرشين أو ثلاثة. وإذ بدا واضحا أن أمرا قد عاقه عن الحضور وجاء الجارسون فى طلب الحساب، أخبرته جانيت أنها نسيت النقود فى البيت وأنها ستمضي إليه لاحضارها وستتركنى رهينة عنده ريثما تعود. بكيت متوسلة: «جانيت. ستتركينني؟» . «نعم وماذا فى ذلك؟» ثم مضت. وباستطاعتك أن تتصور منظرى فى حديقة جروبى جالسة وحدى أرتعد، والجارسون يتحقق بين الحين والحين من استمرار بقائى..

ومرت ساعة وساعتان وهي لا تحضر . وإذ أشفق علىّ الجارسون فى

النهاية تركتنى أذهب بعد أن أقسمت له أننا سنعود بالنقود هرعت إلى المنزل، فإذا بها في غرفتها تدير بعض الأسطوانات!

... تقدّم لطلب يدها عشرات من خيرة الشباب، فكانت ترفض الواحد تلو الآخر؛ تسخر منهم، وتعّدد معايبهم، وتقلّدهم ضاحكة. وكنت وأختى الكبرى نغار منها ونعجب؛ فقد كان أىّ منهم فوق ما نتمنّى نحن... وفجأة، لا ندرى كيف، بلغت جانيت الثامنة والعشرين دون أن نشعر، وبدون زواج، وبدون أى من الخطّاب.. كيف؟ لو حاولت جهدى أن أتذكر المراحل التدريجية التى أدّت إلى هذا الوضع ما استطعت. فكأنما تغيرّ الحال بين ليلة وضحاها... غير أنه كان هناك أحدهم... موظف كبير معها بمؤسسة فورد قد جاوز الخمسين، قصير سمين، قبيح رزيل، واسع الثراء، تقدم لطلب يدها وهى فى الثامنة عشرة فكادت تموت ضحكا.. وضحكنا يومها معها. ثم انسحب من الميدان دون أن تغفل عينه عنها حتى تخلى من هو أصغر وأكثر وسامة منه عن محاولاتهم. فما خلا الميدان حتى عاد إلى الظهور.. وأعاد طلبه. وجاءت هى إلىّ يوما تضحك والدموع فى عينيها: «سأخبرك بأمر لن تصدّقيه. لقد قررت قبول عادل». وصُعقْت.. لولا دموعها ما صدّقت.. ثم تزوّجَتْه. فاسمع ما حدث:

فى الشهر التالى للزواج أمر الزوج زوجته بقطع علاقاتها بكافة أفراد أسرتها، بما فيهم أمها وإخوتها. كان يعتقد أننا المسئولون عن رفضها الزواج منه طوال السنوات العشر السابقة. ومنعها من زيارتنا كلية ومنعنا من زيارتها، بل وقطع صلته بزوجى الذى كان زميلا له في العمل، فلم يعد يلقى عليه حتى تحية الصباح إذا قابله. وأوصى عامل التليفونات فى المؤسسة بأن يخبره إن حاولت زوجته الاتصال بعائلتها تليفونيا، وأن يرفض توصيل أىّ من

أفراد عائلتها بها.. أتعلم أننا لم نعد نراها على الإطلاق، وأن والدتى لا تكف عن البكاء بسببها؟ أحيانا تأتينا خادمتها خفية برسالة منها، فتهجم عليها والدتى تمطرها بوابل من الأسئلة: «كيف هى؟ أصدقينى القول! كيف هى؟ هل هى سعيدة؟ كيف يعاملها؟ لا أصدّق أنها سعيدة!» وتقسم لها الخادمة أن سيدها يعبد الأرض التى تمشى عليها زوجته، وأنه لا يخمن رغبة لها إلا حققها، يغدق عليها الهدايا ويمطرها بنقوده؛ إن ذكرت عرضا أن قطعة من الأثاث قد أصابها البلى غيرّ أثاث الحجرة كله، وإن أبدت إعجابها بقطعة حلىّ فى واجهة متجر دخله وابتاعها لها... وتمصمص والدتى شفتيها: « نعم، نعم. سجن من ذهب. ولكن، هل هى سعيدة؟» وتقسم الخادمة أنها سعيدة لا ينقصها غير عائلتها، وهي النقطة الوحيدة التى لا يتغير بصددها الزوج ولا يتحوّل.. أتصدّق أنه عندما مات عمى منذ حوالى شهرين، أوصلها زوجها إلى بيتنا لحضور المأتم بشرط أن تمكث ربع ساعة فحسب انتظرها خلالها فى الطريق قبالة الباب؟!

غير أنها كانت دائما تحلم بالثراء، وقد نالته. وكان بوسعى أنا الأخري أن أكون فى مثل ثرائها لو كان تحقق ما كان المفروض أن يحدث.

كنت قد خُطبت وأنا فى الثامنة عشرة إلى ابن عمتى، وهو فى مثل سنى، وله ملامح شديدة الشبه بملامحك. (ربما كان هذا أحد أسباب ميلى إليك). وكان والده واسع الثروة، يملك من بين ما يملكه أربع عمارات ضخمة متجاورة فى شارع قصر النيل، وتلك التى تشغلها حاليا وزارة السياحة. غير أن عمتى (والدته) اختلفت مع والدى بشأن ممتلكات لهما، ودخلا فى منازعات قضائية طويلة سمّمت جوّ الأسرة، وأصيب أبى أثناءها بالشلل، وخيّم على بيتنا بعد أن خسرنا القضية وساءت حالتنا المالية جوّ من الكآبة

والحزن لا أحسب أنى أفلحت حتى اليوم من التخلّص من آثاره... بالنسبة لى أنا بالذات كانت تلك الفترة أحسم فترة فى حياتى، رغم أن إخوتى جميعا، وحتى والدتى، قد تمكنوا من التحرر من وطأة ذكرياتها.. ربما كان السبب هو أنى كنت وقتها أحبّ الناس إلى أبى.. كنت دائما إلى جوار فراشه، وهو راقد لا يستطيع حراكا وقد بات لسانه بالغ الثقل، أقرأ له من الكتاب المقدس أو السيرة الذاتية لسانتا تيريزا، أو أحدثه أو أقبل يده أو أبكى معه وهو يربت على شعرى.. وإذ طالت سنوات مرضه وساءت أحوالنا المالية عقدت العزم على قطع الدراسة والبحث عن عمل لى للمساعدة فى الإنفاق على الأسرة. ولم يحاول أحد، ولا حتى والدى، أن يثنينى عن عزمى. وامتدحت أختاى قرارى بينما واصلتا دراستهما! وعثرت بفضل أحد أقربائنا على وظيفة كتابية فى شركة «شل» بمرتب يبلغ نحو ثلاثين جنيها.

نعم... لا أعتقد أنى ذقت للسعادة طعما منذ إصابة والدى بالشلل.. فى تلك السن المبكرة عرفت قبح المرض، وفردية المريض، وذل الفقر وتقلب الحال، وسطحية مشاعر البنوة والأخوّة والزوجية والصداقة.. كنت الوحيدة التى لم تملّ خدمة أبى أثناء مرضه، لا لأني قديسة أو لقوة احتمال عندى غير عادية، وإنما لأنى إزاء ما خبرته في تلك الفترة تبخرت كل رغبة خاصة عندى.. حتى والدتى كانت أشد حاجة منى إلى ما يفرّج ويسرّى عنها، وأنفد صبرا مع أبى لما تسبّب فيه مرضه من ضيق لنا.

وفى تلك الفترة ارتكبت أكبر خطأ فى حياتى. فسخت خطوبتى لابن عمتى.. فسختها بدافع الحقد وحده، لأغيظ والدته وعائلته وانتقاما لأبى. فقد كنت أعلم أنه يحبنى إلى حدّ العبادة، وأنه كان يقف فى قوة ضد عائلته فى خصومتها مع أبى، بل كان كثيرا ما يزور أبى ليعبر عن تعاطفه معه. غير

أنى أردت أن يتسبب شقاؤه، وحنقه على والدته فى إشقاء عائلته وتسميم الجو فيها مثلما تسمم الجو عندنا . وبالفعل، اتصلت بى أمه خفية بعد أيام ترجونى أن أعدل عن عزمى، وألا أدع الخلاف بينها وبين والدى ينعكس على علاقتى بابنها، بل وتعرض بعض التنازلات بصدد نزاعها القضائى مع أبى، معبّرة عن حبها الشخصى لى، وذاكرة أنها لاترجو لابنها زوجة أفضل منى.. ولكنى رفضت.. رفضت فى برود وقحة وعناد وأنا أعلم فى قرارة نفسى طيلة الوقت أنى مخطئة . غير أنى شعرت بلذة الانتقام والتشفّى إذ أتصور بؤس عمتى وابنها . وهو بؤس لم يدم ـــ لهلعى الشديد ـــ إلا فترة قصيرة لسبب لم يكن ليخطر لى على بال.

كنت قبل فسخى للخطوبة بنحو أربعة أشهر قد أصاب صحتى تدهور ملحوظ، وأصبحت تنتابنى نوبات من السعال الحاد. وطلبت من الشركة التى أعمل بها عرضى على طبيبها، فأرسلتنى إليه . وبعد أن كشف على صدرى ألمح إلى أن حالتى ليست على مايرام، وطلب منى أن أعاود زيارته. ثم بات يرسل إلى الشركة فى طلبى للكشف علىّ، فكان المدير يأمرنى بالذهاب. وفى المرة الرابعة أو الخامسة بدرت منه أثناء كشفه علىّ تصرفات نابية قمت على إثرها مغضبة لارتداء ملابسى. وعندما عاد يطلبنى بعد شهر أخبرت المدير بأمره فاستغنت الشركة عن خدماته. غير أنه اتضح أنه كان قد أخبر بعض العاملين فى الشركة أنى مصابة بالسلّ ـــ وهو غير صحيح بالمرة. فتطوع أحدهم من معارف عائلة خطيبى بإخبارها بالأمر. فكان للخبر الذى جاء بعد فسخى للخطوبة بأقل من شهر أكبر الفضل فى تهدئة حزن ابن عمتى على فقدانه إياى، وفى رأب الصدع بينه وبين عائلته.

فلو أنى كنت قد تزوجته لما كنت هنا الآن ، ولا كنت عرفتنى، ولكنتُ قد

أصبحت من أغنياء مصر المعروفين. وهو أمر لم تغفره لى والدتى حتى الآن، ولا غَفَرَتْه لزوجى! ولا نزال إلى اليوم كلما مررت ووالدتى بإحدى العمارات التى يملكها ابن عمتى أرى والدتى ترمقنى مغيظة من طرف عينها فأضحك.. أما هو فقد ظل بضع سنوات دون زواج، ثم تزوج من إحدى ملكات الجمال اليونانيات تعرف بها فى اثينا. غير أنه بعد أن ولدت له بنتا، اكتشف علاقة بينها وبين رجل يونانى مقيم فى مصر، فطلقها، وتركت له الطفلة عائدة إلى وطنها.. ولا يزال هو إلى اليوم يزورنى وزوجى مرة أو مرتين فى السنة، جالبا معه لأولادى من ثمين الهدايا ما يفوق الوصف، وكذا عمتى، أمه، التى تزورنى وحدى دون سائر إخوتى.

إننى من ذلك النوع من النساء الذى يُعجب العجائز.. عمتى، حماتى، جميع النسوة العجائز من أقرباء زوجى ومعارفنا يعتقدن أنى امرأة مثالية. وحتى لو أنهن رأيننى على حقيقتى فلا أخالهن سيصدقن أعينهن. لقد رسمن لأنفسهن صورة لى لن يكلفن أنفسهن عناء تغييرها: صورة المرأة الوديعة المطيعة الصامتة المستمعة فى طيبة إلى أحزان الآخرين تسرَد علىّ، دون أن تكون لدىّ أحزانٌ تُسْرَد. وقد ولى الآن الوقت الذى كان بإمكانى فيه أن أتحرّر من القيود التى تفرضها علىّ فكرتهم عنى. ولو أنى حاولت الآن، لثرن علىّ ولكرهننى، أو لظننّ بى مسّا من الجنون، وهو أسهل.

ولكن لماذا خصصتُ النساء العجائز دون غيرهن؟ الرجال أيضا لديهم نفس الفكرة عنى: مارى الوديعة الطيبة الوفية... الوفية!! ثم يضيف البعض ــ خاصة من النساء ـ صفة البرود.. مارى التى لا مشاكل لديها، والتى لا يمكن أن يكون لديها مشاكل.. فلأنى لا أحب أن أشكو إليهن من زوجى كما يفعلن، وأقتصر على الاستماع دون التحدّث بدورى عن متاعبى العائلية،

قد بتن ينظرن إلىّ وكأنى قسيس الاعتراف، أو صورة العذراء، أو مجرد أذن تسمع . غير أن السبب الحقيقى فى هذا الموقف منى ـ بالإضافة إلى نزوع شيطانى عندى إلى تثبيت فكرتهن عنى ـ هو أنى حقيقة لا أحب الشكوى، ولا أعتقد أنه من العدل أن تشكو المرأة للغير من زوجها الذى تراه وتلمس خلقه من قريب. إنها أسوأ من خيانة الأمانة؛ هى قلة ذوق. وهو شعورى حين قرأت الكتاب الذى كتبته فرانسواز جيلو عشيقة بيكاسو عنه بعد فراقه إياها.. والمؤلم فى الأمر أن أزواجا كان المرء يظنهم رجالا أفاضل، أسمع من زوجاتهم من القصص عنهم مالايكاد يصدق. ثم يجىء الزوج وزوجته لزيارتنا، فلا أجد فى نفسى القدرة على رفع عينى إلى الزوج، خشية أن يقرأ فيهما احتقارى له.. والزوجة هادئة وعادية جدا، بل قد تستنكر منى هذا النفور الواضح تجاه زوجها!.

على أى الأحوال، فحتى لو لم يكن لدى هذا الاعتقاد فى خطأ الشكوى لما وجدت الكثير مما أستطيع أن آخذه على زوجى. فهو فى الحقيقة لا بأس به، طيب القلب، وجنايتى عليه كانت دائما أكبر من جنايته علىّ.. إن زملاءه فى العمل يحسدونه علىّ، ويخبرونه أنه وحده بينهم الذى وفق فى اختيار زوجه. ولو علموا ما فعلوا. لو علموا أنه لم يصل إلىّ منذ أكثر من شهرين، وأننى كلما قربنى أتظاهر بالنوم، أو المرض، وأتلقف التعلات للنوم فى حجرة أولادى فرارا من رغبته! لو علموا أني لا أقبل النوم معه إلا بدافع الإشفاق، وأنه لايجدنى أبدا حين يعود من عمله ليلا على استعداد للحديث والدردشة معه، وأنى كثيرا ما أقفز إلى الفراش وأغمض عينى لحظة سماعى مفتاحه يدور فى الباب عند عودته!.

وهو مع ذلك، ورغم افتقار علاقتنا إلى الحب المتبادل، لم يدع طوال

الخمس عشرة سنة التى مرت على زواجنا مناسبة تمر ــ كذكرى زواجنا أو عيد ميلادى ــ إلا أرسل إلىّ باقة زهور، وأتى لى بهدية ثمينة. فهو فى اعتقادى لايرى فى عزوفى عن النوم معه ما يمس كبرياءه ولا يظنه نابعا عن كراهية له. هو يرى أن السبب مجرد برود جنسى لدىّ.. هل تعتقد أنت أنى باردة جنسيا؟ هه؟ اليوم فقط قرأت مقالا فى مجلة «روزاليوسف» عن ختان البنات وأثره فى خفض الرغبة الجنسية لدى النساء عندنا.. ماذا؟ أما كنت تعلم أن الأقباط هم أيضا يختنون بناتهم؟ الحقيقة أن جهل كل طائفة منا بالطائفة الأخرى أمر يدعو إلى الأسف... إنى لأذكر ذلك اليوم الرهيب الذى ختنت فيه أنا وأختى وبنات خالاتى.. كنا جميعا فى الريف عند أقارب لنا. وقد لمسنا منهم طوال الأيام السابقة تدليلا عجبنا له، واستجابة لكافة رغباتنا. غمرونا بالحلوى، وأرسلوا فى طلب الأحصنة لنركبها، وفتحوا لنا خزانة خشبية كبيرة مليئة بالمجلات والكتب القديمة لنتفرج عليها ونقص الصور منها . وفى صباح ما، أخذونا الى بيت تقيم به ثلاث نسوة مفتولات العضلات، لهن أجسام حاملى الأثقال. وأدخلونا غرفة وأوصدوا الباب علينا. ثم فتح باب آخر فيها وجاءت امرأتان منهن وحملتا بنت خالة لى وأدخلاها غرفة مجاورة تجلس فيها الثالثة، وأغلقتا الباب علينا. وتناهى الصراخ إلى أسماعنا قويا رهيبا. ونظرنا من ثقب الباب، فإذا ابنة خالتى على الأرض فى شبه غيبوبة، وقد مدّت ساقيها والدم ينزف منها بغزارة... ثم جاءت المرأتان تحملانى.. وصرخت.. آخ ! لا أريد أن أتذكر.. كانت مجزرة لا أدرى كيف سمح والدىّ بها ولا كيف رضيا أن تقوم فلاحات بها بطريقتهن الوحشية الفجة دون الأطباء... وكانت أختى جانيت الثالثة والأخيرة رغم أننا كنا نحو سبع فتيات فى الانتظار، فقد أصيبت أثناء العملية بنزف خشى منه على حياتها..

ظلت تنزف وتنزف، ووالدتى تلطم خديها، والفلاحات الثلاث يحاولن وقف تدفق الدم، حتى جاء والدى وحمل جانيت إلى المستشفى بأقرب بندر.

فاتحتُ زوجى يوما بشأن رغبتى أن نتوقّف، أعنى أن نستغنى عن الجانب الجنسى من علاقتنا، فحدجنى بنظرة أخرستنى ولم أعد لمثلها قط. إنه ليس هذا ما يزعجه فى الواقع. فنادرا ما ننام معا. والمرات التى أقبل فيها أن يصل إليّ لا أحسبه يشعر أثناءها بمتعة على الإطلاق لإحساسه بعدم تجاوبى وتعبيرى عن إحساسى بالألم. لا. ليس هذا ما يزعجه. إنما تزعجه خشية من أن يأتى اليوم الذى يظهر فيه فى حياتى من بإمكانه أن يفتح هذا القلب الذى عجز هو عن النفاذ إليه، وأن يوقظ الرغبة التى فشل هو فى إذكائها.. إنه غيور، ليس فى هذا شك. وكثيرا ما كان يقطّب ويكتئب فى حضرة من يعتقد في قدرتهم على ترك تأثير قوى فىّ، حتي يفقدوا الرغبة فى الإبقاء على صلتهم بنا، أو حتى أستغنى أنا عن صحبتهم إكراما له.. وقد بدأ مؤخرا يُغفل ذكرك كلية، فإن ورد اسمك فى الحديث غيّره أو قطّب جبينه إن لم يستطع تغييره... إنه يغار منك بكل تأكيد.

أما عنى فلا أشعر بغيرة عليه علي الإطلاق، وإن كنت أكاد أجزم ــ دون أن أملك أدنى دليل ــ بأن له عشيقة تهوّن عليه الأمر وتسلّيه.. مرة واحدة فحسب فى كل السنوات الخمس عشرة الماضية ثبت لى فيها، أو كاد ، أنه يخوننى. وذلك منذ نحو عشر سنين، ومع فتاة مسلمة التحقت بخدمتنا. كانت مجرد خادمة، غير أنها كانت بالغة الجمال، لا بأس بهندامها، وتلم بالقراءة والكتابة.. كانت تكره أن تعامل كخادمة ، وتذكر للكافة فى كل مناسبة أو بغير مناسبة أنها اضطرت إلى الخدمة بسبب خلاف مع خالتها التى كفلتها بعد وفاة والديها.. وهي تقرأ المجلات، وتتبع أخبار نجوم السينما

خاصة، وتحتفظ فى صوانها بصورة عبد الحليم حافظ وصور ممثلة تشبهها أو تظن أنها تشبهها. والظاهر أنها كانت تأمل أن يكتشفها مخرج يوما ما فتصبح نجمة سينمائية.. خاصة أنها كانت تبذل جهدا كبيرا حقا فى تحسين نطقها والتخلص من اللهجة والتعابير الريفية.

المهم أن المسكينة وقعت فى حب زوجى فى الشهر الأول من خدمتها. وما كانت لتحاول أن تبذل ولو جهدا بسيطا لإخفاء هذه الحقيقة عنى. كانت إذا انصرف إلى عمله تهرع إلى الشرفة لتراقبه من طابقنا الخامس وهو يخرج السيارة من الجراج. وفى الثانية بعد الظهر ــ موعد عودته من الفترة الصباحية ــ تترك كل ما هى فى سبيل أدائه وتسرع إلى الشرفة تنتظر وصوله.. فإن دخل الشقة لمعت عيناها فرحا وظلت تحوم حوله كالكلب حين يعود سيده. وكان يبدو أنه هو وحده الذى لا يرى ما هو جلىّ كالشمس.. غير أنه فى تلك السنة بالذات انتابنى من ضعف الصحة ما اضطررت معه إلى الدخول إلى المستشفى مدة شهرين لإجراء بعض التحليلات وللعلاج. وعندما عدت إلى البيت، خمّنت ــ دون أدنى احساس بالضيق ــ أنه قد حدث بينهما شيء. خمنته من نظراتها الراضية الهادئة، ومن تجنّبه النظر إليها في حضورى عندما يضطر إلى مخاطبتها.

ولكى أثبت لك أنى لم أكن غَيْرَى، سأروي لك الواقعة التالية:

دخلت عليها غرفتها ليلا ذات مرة لأمر ما، فتبيّنتُ أنها ترتدى «بيبى دول» لا قِميص نوم.. وأىّ «بيبى دول» ذلك الذى كانت ترتديه! أتعلم ما صنعت ؟ عدت إلى غرفة نومنا وأيقظت زوجى. «ماذا حدث؟». «تعال، أريد أن أريك شيئا». وأخذته من يده حتى باب غرفة الخادمة، وطلبت منه أن يدخل. قال فى دهشة : ولكن فاطمة هنا . قلت: « أدخل وسترى».

ودخل، فإذا به يراها نائمة وهى شبه عارية.. وهرع عائدا إلىّ وهو غاضب: «ما هذا؟ أجننت؟ ماذا تقصدين من وراء هذا العبث؟ »، بينما كنت أنا قد انفجرت فى ضحك كاد جنباى أن ينشقّا له.

والواقع أنى لم أطردها إلا حين بدأت تبدى قلة احترام لى وتستخف بشأنى. وكان هو فى الحقيقة الذى طردها لا أنا. ومع ذلك فقد أخبرت هى البواب وكافة خدم العمارة أن «الست» طردتها لغيرتها منها.

أأخبرك بما حدث بعد سنتين من فصلها؟ كنت بالكابين على البحر فى سيدى بشر عند بعض أصدقائنا عندما لمحت إبنا لصديقتى صاحبة الكابينة (وكان طالبا بكلية الطب) يلعب كرة المضرب على البلاج مع فتاة جميلة ترتدى المايوه. ظللت أحملق فى وجهها وأحاول جاهدة أن أتذكر أين ومتى رأيتها من قبل. وأخيرا بدرت منى صيحة، وسألت صديقتى: «من هذه الفتاة مع أبنك؟» قالت: «مارى! أصدقينى. فالواضح أنك تعرفينها. من هى ؟ » قلت: «ألا تذكرينها؟» قالت: لا قلت : «لقد رأيتها فى منزلى». «فى منزلك؟ كيف ؟ متى؟» وعندما أخبرتها كادت تخّر مغشيا عليها. ثم قالت «أتعلمين أن أبنى مدلّه بحبها وأنها أخبرته أن أباها لواء بالجيش اضطر إلى البقاء مع أمها فى القاهرة لسبب ما فأرسلاها للتصييف وحدها بالإسكندرية؟»... وفى اليوم التالى، فى الساعة السادسة صباحا، استيقظت على صوت جرس الشقة يدق دقا متواصلا . وعندما فتحت الباب رأيت ابن صديقتى وهو شاحب الوجه شحوب الموت: «أصحيح ما ذكرتيه لوالدتى؟» وطلبت منه فى رفق أن يدخل ويهدّىء من نفسه. غير أنه دون أن ينبس ببنت شفة استدار على عقبيه ومضى يعدو.

لا أكتمك أن ضميرى ظل مدة يوبخنى على ما فعلت. غير أن الجميع يوافقنى على أنه لم يكن من حقى أن أكتم صديقتى الخبر.

أما ما إذا كانت لزوجى الآن عشيقة فهو الراجح إن كانت لا تزال لديه فى الجنس رغبة. المسكين ! أتعلم أنه كثيرا ما يحدث أن يمدّ يده وهو نائم إلى جسدى يتحسسه، فأركله بقدمى وأنا نائمة لأردّه عنى، فيستيقظ وأستيقظ للركلة، وأحس به يبتعد بائسا إلى أقصى السرير مديرا ظهره لى؟ أنا أعلم أنه لم يكن ينوى شيئا، وهو يعلم أنى لم أركله عمدا، وأن كل هذا إنما حدث دون إرادة منا.. ومع ذلك.....

ولكن كفى! إلى متي سأظل ألوم نفسى وحدها وأجدها مذنبة دوما؟ أكان قلبى الذى عجز عن أيقاظه دائما من حجر؟ ولماذا استيقظ لندائك أنت دون ندائه؟ ما كان ينبغي أن ألوم نفسى بهذه الشدة والقسوة، فقد تسبّب هذا قطعا فى زيادة كراهيتى له.

صفة واحدة فحسب لا أخال المرأة تستطيع أن تغفرها لزوجها أبدا.. وهى الجبن .. أن تراه ذليلا أمام الغير.

وهى صفة فيه، وفى معظم الأقباط على ما أعتقد، ولّدها اضطهادكم لنا على مرّ القرون.. ما من موظف قبطى يتأخر دقيقة عن موعد الحضور، أو يبكّر دقيقة فى الأنصراف، أو يردّ على مديره فى جرأة، أو ينتقد تصرفا أو سياسة سواء من رئيس الجمهورية أو من رئيسه المباشر.

... أتعلم أن هذا بالضبط هو أول ما جذبنى إليك، جرأتك وتحديك للمدير واستهتارك بالعمل وبمواعيد المكتب؟ أتذكر فى «فاوست» قولة مرجريت: «ومن جرأتك عرفت طيب محتدك؟».

سأروى لك ماحدث منذ أربعة أشهر:

جاءنى الفراش هنا يوما يسلمنى ورقة صغيرة قذرة وهو يهمس: «شخص من المباحث العامة جاء بها». وقرأتها، فإذا هى من ضابط بالمباحث العامة يطلب منى الحضور فى اليوم التالى إلى مكتبه فى الحادية عشرة. لم يذكر الغرض من استدعائى، غير أنى أصارحك بأن أول ماقفز إلى ذهنى ــ سامحنى الرب ــ هو أن زميلتنا فوزية قد وشت بى. لماذا؟ لا أدرى. ربما لكراهيتها العميقة للأقباط.. لاتحاول الدفاع عنها.. هى تكره الأقباط وتكرهنى لأنى قبطية وأنا على يقين من ذلك.. لا بأس . المهم هو أنى لم أنزعج ولم أهتز لهذا الاستدعاء. إذ ما الذى يمكن أن يأخذوه علىّ؟ أما زوجى فكان منظره حين أخبرته يستحق الفُرجة حقا! آخ! كاد يجن من القلق. أخذ يذرع الصالة جيئة وذهابا ويضرب جبينه بقبضته ويصرخ فىّ دون سبب متهما إياى بالتهور والإهمال وعدم المسئولية والسذاجة والإفراط فى الثقة فى المسلمين وعشرات من مثل هذه التهم. لم يستطع أن يأكل، واستغرب أن يرانى أجلس لآكل. وكان استيقاظه صبيحة اليوم التالى فى الخامسة صباحا ــ إن كان قد ذاق طعم النوم على الإطلاق ــ وكأنما هو على موعد لمقابلة رئيس الجمهورية. وظل يلقننى ما أجيب به على ما عسى أن يسألونى إياه، وطلب منى أن أكون مؤدبة لطيفة مهما بلغت وقاحتهم، وألا أستفزهم. وصمت برهة يفكر ثم قال: سآتى معك. لن أذهب إلى المكتب اليوم وسآتى معك.

وفى العاشرة والنصف كنت معه فى وزارة الداخلية. فى غرفة انتظار بها نحو عشرين كرسيا شغلها المنتظرون من أمثالى وفى يد كل منهم ورقة كتلك التى سُلّمت إلىّ، وإلى جانب الباب جندى شاب، حسن المظهر ، صارم

الوجه. سألنى عما إذا كنت أتكلم العربية فأجبته بالإيجاب.

ــ حضرتك مصرية؟

ــ نعم.

ــ وحضرته من؟

ــ زوجى.

ــ لا لزوم لبقائه هنا.

وسأله زوجى بلهجة ذليلة ارتعدت اشمئزازا منها :

ــ معلهش.. لو سمحت مكثت معها.

أجابه الجندى دون أن ينظر إليه: لا

قال زوجى لى وهو ينصرف: سأنتظرك فى السيارة بالخارج.

فقال الجندى: وسيكون انتظارك طويلا.

وانتظرت نحو ساعتين دون أن يستدعينى أحد، ودون أن أظهر أى ملل أو تبرم . ولعل برودى هذا هو الذى جعل الجندى فى النهاية يسألنى:

ــ ما إسم الضابط الذى استدعيت لمقابلته؟

فأريته الورقة الصغيرة.

ــ آه! لا أظنه حضر اليوم. غير أن باستطاعتك مقابلة فلان (وسمى ضابطا آخر). ثم نادى ساعيا وطلب منه اصطحابى إلى مكتب الضابط الأخير.

واستقبلني هذا في مكتبه الفخم بأدب، وسألني: أي خدمة؟

أخبرته أنهم هم الذين استدعوني. فطلب من الساعي أن يذهب في طلب الضابط المذكور اسمه في الورقة. ثم طلب مني الجلوس في انتظار حضوره.

ـ هل لديك فكرة عن السبب في استدعائك؟

ـ لا فكرة على الإطلاق.

ـ حضرتك تتكلمين العربية بطلاقة.

ـ ولم لا؟

ـ حضرتك مصرية؟

ـ نعم.

ـ من أين إذن هذا الإسم الأجنبي، ماري ستيفانوس؟

ـ ليس أجنبيا على الإطلاق. هو مجرد إسم قبطي.

ـ لا مؤاخذة.

ثم سكت وسكتّ. لم يكن أمامه على المكتب أي أوراق، غير أنه ظل نحو خمس دقائق ساكتا يعبث بمسطرة خشبية ويقلبها في يديه.. وأخيرا سألني وكأنما يريد قطع الوقت ريثما يحضر الضابط الآخر: أين تعملين؟

ـ في المركز الألماني للتنقيب عن الآثار.

ـ ومديرك؟

ـ السيد فولفجانج فايلاند.

ـــ هممم.. أى نوع من الرجال هو؟

ـــ من أية ناحية؟

رفع كتفه وقال وكأنما قلت منه هذا السؤال لمجرد تضييع الوقت:

ـــ بوجه عام.

ـــ لا بأس به.

قطب حاجبيه وحدجنى بنظرة جانبية، ثم سكت خمس دقائق أخرى، ضغط بعدها على جرس الى جانبه.

ـــ شف لى الساعى فلان.

ودخل الساعى الذى كان قد أرسله فى طلب الضابط يقول: إن حضرة الضابط المذكور لم يحضر ذلك اليوم.

ـــ أنا آسف جدا يامدام.. يمكنك الانصراف الآن وسنتصل بك فى خلال أيام إن كان يريدك فى شأن هام. آسفون للإزعاج.

وانصرفت. ووجدت أنيس فى السيارة. وفسر لى كل ماحدث:

ـــ أول كل شىء أنه لاوجود أصلا للضابط المذكور اسمه فى الورقة والذى استدعيت لمقابلته. وكل ما حدث مدبر من ألفه إلى يائه: انتظارك الساعتين القصد منه تحطيم أعصابك ومحاولة إدخال الرعب إلى قلبك قبل استدعائك إلى من كان فى النية منذ البداية أن تقابليه. واستقباله لك فى أدب جم القصد منه إشعارك بالفارق الجم بين الحالين: حال الرعب وحال الطمأنينة. وسؤالك مرتين عما إذا كنت مصرية وعما إذا كنت تتكلمين العربية القصد منه إظهار الشك في وطنيتك بسبب دينك وأن عليك أن تثبتى وطنيتك بالتعاون معهم. وسؤال الضابط إياك عما إذا كانت لديك

فكرة عن سبب استدعائك القصد منه أن تفكرى فى كل خطاياك فى حق الدولة فيصيبك الانزعاج . وإرساله الساعى فى طلب الضابط الوهمى وغياب الساعى ثلث ساعة وسكوت الضابط طويلا دون أن يكون مشغولا بعمل القصد منه إعطاؤك فرصة للحديث والإفاضة فى الكلام عن المركز الألمانى ونشاطه ومديره والموظفين فيه، وعما إذا كنت لاحظت شيئا مريبا فتكونين بذلك قد أثبت وطنيتك ومصريتك واستعدادك للتعاون. غير أنك إذ لم تفعلى نادى الساعى ثم صرفك معتذرا.. وأراهنك أنهم لن يستدعوك مرة أخرى.

وبالفعل، لم يستدعونى مرة ثانية.

ولكن، قل لى بصراحة. لماذا يفعلون هذا؟ أحقا يشكون فى وطنيتنا ومصريتنا أم هم يتظاهرون بذلك لغرض فى نفوسهم؟ أنحن معشر الأقباط الدخلاء على هذا الوطن أم أنتم؟ وهل إسم مارى ستيفانوس أقل مصرية من اسم فاطمة البغدادى أو خديجة المغربى؟

نعم هناك اضطهاد للأقباط لاريب. ولايحز فى نفسى قدر مايحز فيهاهجرة الأقباط من مصر . أتعرف أن كلا من أخوى وابن خالة لي قد هاجر إلى كندا؟

كلما سمعت بخبر قبطى يعتزم الرحيل غلى دمى فى عروقى. لمن تتركوننا؟ ألا تدركون أنكم بهجرتكم هذه تزيدون مركزنا حرجا وتجعلون منا أقلية أضعف؟ تتركون البلد ونحن أصحابها الشرعيون، سلالة المصريين القدماء، وخيرة القبط ممن لم يهنوا ويضعفوا حيال ضغط العرب أو فرارا من الجزية؟ وماذا عساكم كنتم تصنعون إذن لو أن جماعة إسلامية متطرفة نجحت فى الوصول إلى حكم مصر؟!.

آه لوعلمت ما سببه لنا الإخوان المسلمون من الذعر فى طفولتنا وصبانا! سببوا لنا ذعرا كانت تنخلع له أفئدتنا.. كان أقاربنا ومعارفنا يحدثوننا عن نية هذه الجماعة فى استئصالنا جميعا مالم نعتنق الإسلام، وعن قوائم اعدتها بأسماء كبار الشخصيات من القبط ممن ينوون اغتيالهم واحدا إثر آخر، وكيف أن أفرادها متى حان أوان اغتيال قبطى يقومون فى الأمسية السابقة ليوم قتله برسم علامة الصليب علي داره حتى لا يخطئها القتلة..

تصور شعورنا إذن حين خرجت والدتى يوما لتبتاع شيئا من السوق ، وكان والدى يومها بالإسكندرية يترافع فى قضية، ثم إذا بها تعود لاهثة هلعة تولول وتقول إن علامة الصليب قد رسمت على دارنا.. مازاد الأمر سوءا هو أنه كان لدينا خادم مسلم خامرنا الشك فى أنه عضو بهذه الجماعة. كان يدعى عبده، فى الرابعة عشرة من العمر، وهو ابن لخادم عجوز كان عند عائلة والدى، وتولى أبواى رعاية عبده هذا منذ كان طفلا. لم يكن من الممكن طرده حتى بعد أن أخبرنا بعض أقاربنا أنه من الإخوان المسلمين. فبالإضافة إلى أن عائلتنا هى التى رعته وربته، كان صبيا طيبا وديعا إلى درجة من الصعب أن نتخيل شرا يصدر عنه. (وإن كنا قد فصلناه من خدمتنا فيما بعد حين كبرنا نحن الفتيات وكبر ولاحظنا أنه أصبح رغم تدينه يتابعنا بنظراته وخطواته خاصة كلما دلفنا إلى الحمام أو إلى غرفة النوم).. كان يعرف القراءة والكتابة، يطيل الصلاة ويصوم رمضان ويكثر من النظر فى الكتب الدينية . وقد وصلنا أنه يتردد أحيانا على مقهى يجتمع فيه بعض البوابين والخدم من جماعة الإخوان.. وإذا رأت والدتى علامة الصليب علي دارنا كان أول خاطر يمر بذهننا هو أنه لابد من أنه هو الذى دل الجماعة علينا.. واجتمعنا نتشاور سيهاجموننا إذن هذه الليلة. هل نخطر البوليس؟ لا. أولا

لأنه ليس لدينا دليل وقد يسخرون منا، ثم لأن رجال الشرطة أنفسهم قد يكونون متواطئين معهم بدليل ماكنا نسمعه عن أنهم كثيرا ما غضوا الطرف عما يرتكبه الإخوان من جرائم ضد الأقباط.. سيكون من السهل أن نحصن أنفسنا داخل الشقة ليلا. ولكن، هل من الحكمة أن ندع الخادم يبيت داخلها وبإمكانه أن ينهض من فراشه ليفتح الباب لهم؟ لا. ولكن، كيف السبيل الى إخطاره بالمبيت فى الخارج؟.. وأخيرا استقر رأى والدتى على استدعائه. نادته وأجلسته إلى جانبها ، وذكرته بأفضال أسرتنا عليه وعلى والده، ومضت توضح نواياها الطيبة الخاصة بتأمين مستقبله. ثم أخبرته بما سمعته عن صلته بجماعة الإخوان المسلمين، فما أنكر ولا أقر، وبعلامة الصليب التى رأتها يومها فابتسم، وبنيتنا تحصين أنفسنا ليلا فضحك. حتى إذا ما عبرت عن شكها في نيته تجاهنا ظهر على وجهه من الامتعاض والغضب ما طمأننا تماما.

وهبط الليل، فدفعنا صوانا سددنا به الباب من الداخل، ثم مقاعد ضخمة عززنا به الصوان، ثم لوح زجاج كبيرا متى وقع استيقظنا على صوت تهشمه. ودخلنا جميعا للنوم فى حجرة والدتى ونحن نرتعد، وغطينا رؤوسنا بالألحفة من قبيل التمادى فى التزام الحيطة.. ومع ذلك، فإنه عند منتصف الليل استيقظت على صوت صادر من غرفة نومنا نحن الأطفال وكانت خالية.

كان مكتب والدى يشغل حجرتين من شقتنا الواسعة، فكان باب الشقة يترك مفتوحا طوال ساعات عمله من أجل زواره وزبائنه. لذلك فكثيرا ما كانت القطط الشاردة تدخل شقتنا من الطريق مع الداخلين، فلا نحس بها إلا وهى فى فراشنا أو فى المطبخ أو مكورة على مقعد فى الصالون.

كان ينبغى إذن حين سمعت صوتا فى تلك الليلة المشهودة أن أفكر فى احتمال أن يكون صادرا عن قطة من تلك القطط . غير أن الفزع الذى اثاره الحديث عن علامة الصليب حال بينى وبين كل منطق، فصرخت صرخة مكتومة أيقظت والدتى وإخوتى. ومضينا جميعا على أطراف الأصابع إلى الغرفة المجاورة، فدفعت والدتى بابها بعنف دون أن تدخل، وصاحت بصوت يرتعد: «من؟ من هنا؟» ثم إذا بى ألمح من وراء ظهر والدتى عينين تلمعان فى ظلام الغرفة، فصرخت صرخة مروعة، ثم أغمى علىّ..

وإلى اليوم ترانى لا أطيق القطط، فإن اقتربت منى إحداها فزعت، وإن لمستنى صرخت.. أطفالى يضحكون منى لهذا، وزوجى يعجب من استمرار خوفى منها مع علمى بالأصل القديم لهذا الخوف.

وقد استبدت بى فى تلك الليلة من الرعدة والهستيريا ما جعلهم يصطحبوننى فى اليوم التالى إلى طبيب أعصاب لفحصى. كنت شديدة التوتر فى تلك الفترة من حياتى.. أقلت فى تلك الفترة؟! ومتى لم تكن مارى ستيفانوس ــ الشهيرة بالمرأة الباردة التى لايهزها شىء ــ شديدة التوتر؟

١٤ × ٣٠٠

معذرة لقارىء «الأهالى»، إذ لا وقت لدىّ لكتابة مقال طويل أو منمّق، ولا حتي لمراجعته... فبعد أقل من ساعة أتوجّه إلى المطار.. وسائق سيارة رئيس التحرير فى الخارج ينتظر مقالا للعدد القادم من الجريدة.

حقائبى فى الصالة، والأوراق اللازمة فى الحافظة: جواز السفر، تذكرة الطائرة، شهادة التطعيم، الشيكات السياحية، وورقة سجّلت فيها بعض الأفكار ورؤوس الموضوعات التى سيتناولها حديثى فى الندوة... وهذه أقراص الملاريا اللازمة عند السفر إلي المناطق الاستوائية قد تناولت منها قرصا منذ أسبوع، وبقى قرصان أحتفظ بهما لنيروبى حيث نعقد ندوتنا التى ينظمها برنامج الغذاء العالمى التابع للأمم المتحدة، حول أفضل السبل لمقاومة المجاعة الناجمة عن الجفاف والحروب الأهلية فى شرق أفريقيا وجنوب السودان.

كانت إدارة البرنامج قد ذكرت فى دعوتها لى بالمشاركة أنها ستتحمل نفقات السفر والإقامة ، مع مصروف يد يبلغ ثلاثمائة دولار للفرد عن كل يوم من أيام الندوة.. وعندنا سألتهم عما إذا كان هناك بالإضافة إلى هذا مكافأة إجمالية، أجابوا بالنفى... لا بأس. فأيام الندوة

كثيرة، (١٤ يوم ×٣٠٠ دولار = ٤٢٠٠ دولار ×٣٢٠ قرشا سعر الدولار فى السوق السوداء = ١٣٤٤٠ جنيها مصريا، تغطى مصروفاتى علي مدى ستة أشهر).. لا بأس إذن. ولا داعى للإصرار على المكافأة الإجمالية.

كان هناك اتجاه إلى عقد الندوة في أحد الأقطار التى تعاني من المجاعة (كإثيوبيا أو جنوب السودان أو الصومال)، حتى ندرس الأوضاع ومعاناة الجماهير على الطبيعة.. غير أن برنامج الغذاء العالمى ـ وحسناً فعل ـ فضّل عقدها فى نيروبى، (رغم أن كينيا لم تصبها المجاعة)، لاحتواء تلك المدينة على فنادق أفخم، وتسهيلات أوفر، ومراعاة منها لرغبة الخبراء المشتركين في الندوة فى القيام برحلات السافارى الممتعة في يومى السبت والأحد (يومى عطلة مدفوعة الأجر)، كي نروّح عن أنفسنا بعد عناء المناقشات..

وعلى أىّ حال، فإن منظّمى الندوة قرروا إيفاد مصوّرين من السويد إلى مناطق المجاعة فى نفس فترة الندوة، لالتقاط صور فوتوغرافية لضحاياها، (أقصد ضحايا المجاعة لا الندوة بطبيعة الحال.. ها ها ها !)، من البشر والحيوانات.. وقد اعترض بعض السخفاء من الصحافيين على ضخامة المكافآت المالية المدفوعة لهؤلاء المصوّرين السويديين، (تسعين ألف دولار لكل مصوّر، بالإضافة إلى نفقات السفر والإقامة والتنقل وأفلام التصوير)، وذكروا أنه لو كانت الأمم المتحدة كلّفت مصوّرين أفارقة من أبناء الأقطار المنكوبة بتصوير ضحايا المجاعة، (والراجح أنهم كانوا سيقبلون القيام بهذه المهمة الوطنية والإنسانية دون أجر)، لأمكن توفير مبالغ طائلة ينفق منها على شراء الأغذية.. غير أن هؤلاء الصحافيين الحاقدين تجاهلوا أو نسوا أن كاميرات الأفارقة ومستواهم في الأداء دون كاميرات السويديين ومستواهم،

وأن الهدف هو التقاط صور فنية بديعة، تنشر فى صحف الدول المتقدمة الغنية، فتثير العطف والشفقة فى قلوب أبنائها، وتدفعهم إلى التبرع السخىّ للمنكوبين البؤساء. وهى تبرعات لا شك فى أنها ستغطى تكاليف ندوة الخبراء، ومكافآت المصوّرين، بل وقد يتبقى منها ما يكفى لشراء بعض الأغذية.

* * *

لا شأن لنا إذن بهؤلاء الحاقدين الساخطين الذين لا يكلّون من ترديد اتهامهم الكاذب بأن الهدف الوحيد من عقد ندوات ومؤتمرات الأمم المتحدة هو خدمة موظفيها وخبرائها وشركات الطيران وفنادق الشيراتون والهيلتون.. (الكلاب تنبح، والقافلة تسير).. فنحن جميعا نعلم جيدا أن الغرض من ندوة نيروبى (وأمثالها) غرض إنسانى نبيل.. ولا أدلّ على ذلك من أن المشاركين فيها (من أمثالى) من كبار الخبراء بالتغذية، والإخصائيين فى المجاعات، ذوو نظرة عالمية شاملة، وأفكار عميقة، وشهامة رفيعة. فبالرغم من أننا نتحرك دائما فى نطاق الأوساط الراقية، ونسافر فى الدرجة الأولى بالطائرات، ونقيم فى فنادق من فئة الخمس نجوم، فإن أفكارنا دائما هى مع الجماهير الكادحة، الجماهير المنكوبة، الجماهير المطحونة، والمستضعفين فى الأرض... إذ أنه ما من أدنى شك فى أن إقامتنا فى فنادق الشيراتون والهيلتون وغيرها فى الدول التى تعقد فيها المنظمات التابعة للأمم المتحدة ندواتها ومؤتمراتها، تسهّل على المشتركين فيها مهمة التفرّغ الذهنى الكامل لمناقشة مظاهر الظلم الاجتماعى، والاحتجاج عليها، وتوفر لهم الراحة اللازمة لدراسة سبل إزالة المظالم والمعاناة عن الفقراء والمنكوبين... فها نحن اولاء اثناء تناولنا للجمبرى ولحم البقر المشوى، واحتساء الأنبذة الفاخرة فى ساعة الغداء،

تناقش موضوع سوء التغذية الذى تعانى منه شعوب شرق أفريقيا ودول أمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا، ونخطط وقت الشاى لسبل مواجهة المجاعات، ووقت العشاء لطرق مكافحة الفيضانات والتصدّى لمشكلات القحط والجفاف... وكلها مشكلات نواجهها نحن الفقراء بفم مفتوح (أقصد بعقل مفتوح) وكثيرا ما يؤدى إختلاف وجهات النظر لدى المشاركين فى الندوة بشأن وسائل العلاج إلى موافقة بالإجماع على ضرورة إحالة أمد الندوة لعدة أيام أخرى، فنضمن بذلك للشعوب المطحونة قرارات أكثر جدية وعمقا، مقابل ما نضمنه لأنفسنا من المزيد من الوجبات الفاخرة وبدل السفر.. (ملحوظة: غالبا ما تمتدّ الندوة أربعة أيام إضافية: ٤ ×٣٠٠ دولار= ١٢٠٠ دولار ×٣٢٠ قرشا سعر الدولار فى السوق السوداء = ٣٨٤٠ جنيها مصريا).

* * *

آه لو رآنا الناس أثناء نقاشنا ومداولاتنا، وسمعوا ما يقذف به كل منا فى وجوه الآخرين من ألفاظ جسام ضخمة، واصطلاحات صعبة، وتعابير جديدة، وتعريفات تزيد الأمور المعرّفة غموضا وإبهاما، وكلام لا يصدر عن غيرنا معشر المثقفين من حاملى شهادة الدكتوراه، وكلها مما يضفى على اجتماعاتنا رونقا خاصا، وطابعا ذهنيا يحيّر ألباب العامة، ويدفعهم دفعا إلى الإقرار لندوتنا بالجدوى والفعالية، ولمداولاتنا بالجدية والعمق... هذا يحدّثنا عن الظاهراتية المصاحبية، وهذا عن التنامى المتكافىء، وثالث عن خط التماطر، ورابع عن الإسقاط الإيسومترى المتقايس، وخامس عن التشاكل

الثنائى، وسادس عن المَشيج والتماشج، وسابع عن التضاغطية، إلى آخر هذه التعابير التى ينطبق عليها قول المتنبى:

ملاعبُ جِنّةٍ لو سار فيها!

سليمانٌ لســار بترجمــان!

هذا إلى اعتراض من هذا على رأى ذاك بأنه صحيح من الناحية النظرية، وغير صائب من الناحية العلمية، يقابله اعتراض من ذاك على رأى هذا بأنه صحيح من الناحية العلمية، وغير صائب من الناحية النظرية.. .. وكلها أمور من شأنها بكل تأكيد أن تخفف من حدّة المجاعات، وتدفع خطر الفيضانات، وتذهب بوطأة الجفاف، وتردّ القحط من حيث جاء. كما أن من شأنها ــ بعد طبع آلاف النسخ من التقرير الختامى عن أعمال الندوة وتوزيعها ــ أن تبدّد أى شك يثور حول جدوى أنشطة المنظمات التابعة للأمم المتحدة، وأىّ استخفاف بجدّية الندوات والمؤتمرات.

* * *

والغالب أن يحدث فى نهاية أعمال الندوة، أثناء الحفل الختامى الذى تقيمه الدولة المضيفة تكريما للمشاركين فيها ، أن يقدم لنا المسئولون الهدايا تعبيرا عن امتنانهم لجهودنا، هى عادة من التماثيل الإفريقية أو جلد القرود أو التماسيح، أو الحراب والفؤوس، أو الأقنعة الأبنوسية، أو العلب العاجية، وغير ذلك من الهدايا التى يزخر بأمثالها مسكنى فى الزمالك، وينشرح لها قلب زوجتى.. غير أنى مع هذا شديد الحرص على أن أزيّن الجدران أيضا بالصور المبروزة التى تصوّر مظاهر الفقر وضحايا المجاعات فى دول العالم الثالث، وهو ما لا يبهج كثيرا قلب زوجتى التى تزعم أن مثل هذه الصور

تفسد شهيتها، وتعكر من راحة بالها.. وكانت النتيجة أنى اكتفيت بتعليقها على جدران حجرة مكتبى، حتى يدرك زوّارى أننا فى ندواتنا ومؤتمراتنا نحرص على الإلمام بالأحوال المعيشية لأدنى الطبقات الاجتماعية، وأننا أثناء قيامنا بواجبنا الإنسانى، ومهامنا الخطيرة، نلتزم بوصية السيد المسيح لنا في الإنجيل:

«فليكن الفقراء دوما فى أذهانكم».

الفديـــة

١

بعد مرور الساعات الطوال على موعد عودة الحاج عبد الرحمن النجدى (الشهير لدى زملائه من تجار سوق الفاكهة ، ولدى جيرانه وأقربائه بعبد الرحمن النكدى) شرع ابنه الأكبر محمود فى اجراء عدة اتصالات تليفونية بزملاء ابيه ومعارفه .. وحين أكد التجار له أن والده غادر السوق بسيارته وحده فى الموعد المعتاد ، وكان الظاهر أنه فى طريقه إلى البيت ، طلبت الأم من محمود وأخوته الذكور الأربعة ، أن يتوجه كل منهم إلى الأماكن التى يحتمل أن يكون والدهم قد قصدها بعد خروجه من السوق .. وفى ساعة مبكرة من الصباح عاد الخمسة إلى أمهم دون أن يعثروا لأبيهم على أثر .. وهنا اضطرت العائلة إلى ابلاغ قسم البوليس عن واقعة اختفاء الحاج عبد الرحمن .

عثرت الشرطة على السيارة فى موقع مهجور بعين الصيرة فى الطريق بين القاهرة والمعادى ، فانتفت بذلك شبهة وقوع حادث تصادم ، كذلك نفت المستشفيات أن يكون الحاج من بين المقيدين فى سجلاتها . ونفت سلطات المطارات والموانىء أن يكون قد غادرها إلى خارج البلاد .. وحين أكدت

العائلة أن الحاج كان صبيحة يوم اختفائه فى حالة نفسية عادية ، وأنه لم تكن بينه وبين أحد يعرفونه عداوة من القوة بحيث تثير شبهة قتله ، انتهى التحقيق إلى أن الاحتمال الغالب هو أن يكون بعض الأشقياء العارفين بثراء الرجل قد اختطفوه من أجل مطالبة عائلته بفدية كبيرة فيما بعد ، حين تكون حملة التفتيش قد هدأت .

٢

مر شهران شهدت خلالهما حياة أسرة الحاج عبد الرحمن تغييرات شاملة . فبعد أن استقر لدى افرادها الاعتقاد بأن احتمال عودته ضئيل ، بدأوا فى ترتيب أمورهم على افتراض أن غيبته دائمة . وقد حل الابن الأكبر مكان أبيه فى سوق الفاكهة ، غير أنه لم يسلك مسلك أبيه فى التقتير على أسرته ، فوسّع فى الانفاق عليها ، وكان يوزع الدخل من السوق توزيعاً لقى امتنان الجميع ، واشترى لأخيه الأصغر الصبى الدراجة التى كان يحلم بها منذ أمد بعيد ، والتى كان الحاج يأبى فى اصرار أن يشتريها له ، ولم يعترض بكلمة واحدة ، ولا حتى بتعبير على وجهه ، حين رأى أمه وأخته يتخليان عن الحجاب الذى فرضه الحاج عليهما فرضاً ، وتعودان إلى الملابس العصرية ، وتكثران من الخروج ومن التزاور مع الأهل والجيران ، ولا كان محمود يعترض على أخويه قاسم ومرزوق حين كانا يصرحان من وقت لآخر بأن لديهما احساساً قوياً أن أباهما المختفى موجود بالاسكندرية ، أو فى مرسى مطروح ، أو فى الغردقة ، أو فى أسوان ، وأن من واجبهما السفر إلى هذه المدينة أو تلك لعدة أيام ، مع عدد من الأصدقاء ، للبحث عنه . والمرة الوحيدة التى مارس فيها محمود

حقه فى الاعتراض كانت حين صرح له مرزوق بأن لديه أدلة قوية (لم يذكرها) على أن أباه موجود فى باريس ، وطلب تمويل رحلته إليها للتحقق من صحة الخبر .

٣

بعد مرور ثلاثة أشهر كانت الشرطة قد كفت عن البحث والتحقيق . وفى إحدى أمسيات الأسبوع الأول من الشهر الرابع ، كانت العائلة مجتمعة أمام التليفزيون تراقب مسلسلاً تمثيلياً حين دق جرس التليفون وطلب المتحدث أن يكلم « محمود » .

ـ محمود ؟ والدك الحاج عبد الرحمن عندنا فى الحفظ والصون يا ولدى . وأن أحببتم أن نرده إليكم ، فتعال وحدك فى الثامنة من مساء الخميس القادم ومعك ثلاثون ألف جنيه فدية له ، فى نفس المكان الذى عثرت فيه الشرطة على السيارة ، وإياك اياك من اللجوء إلى أى تحايل أو ابلاغ البوليس بأمر هذه المكالمة ، وإلا قتلنا والدك .

أعاد محمود السماعة إلى مكانها وقد اصفر وجهه ، واتجه إلى جهاز التليفزيون يطفئه ، ثم إلى مقعده بين أفراد عائلته يخبرهم بفحوى المكالمة .

ـ أفيدونى برأيكم : نبلغ البوليس لنصب الكمين ، أم نستجيب للمطلب ونسلم المبلغ ؟

تفرست الأم فى وجوه أولادها . فلما لم يبد على أحدهم نية الرد قالت :

ـ نحمد الله أولاً على أن والدكم حى يرزق . كان الله معه فى محنته . فأما

عن ابلاغ الشرطة فأمر مستبعد أصلاً خشية أن يشعر المختطفون بالفخ المنصوب لهم فيصيبوا والدكم ـ والعياذ بالله ـ بمكروة من قبل أن تتمكن الشرطة من انقاذه من براثنهم . وأما عن الفدية المطلوبة فمبلغ فى مقدورنا دفعه ، وليست بالمبالغ فيها . غير أن لدى اعتراضين على دفع هذه الفدية . أولهما : أن أمر اختفاء الحاج بات معروفاً عند الكثيرين ونشرته الصحف ، ومن الجائز أن تكون المكالمة التليفونية مجرد حيلة من البعض من أجل الحصول على المال دون أن تكون له صلة باختطاف أو غيره ، ولا يكون قد شاهد والدكم فى حياته قط .. والاعتراض الثانى قائم على مبدأ وهو أن الاستسلام لابتزاز المجرمين واجابة مطالبهم ليسا فى مصلحة أحد ، ولا فى مصلحة المجتمع ، ولا من شأنهما إلا تشجيع الغير على الاقدام على أفعال مماثلة سعياً وراء الكسب السريع السهل . ثم ما الذى يضمن ألا يقوم نفس المختطفين أو غيرهم فى المستقبل بنفس الفعلة مع والدكم ، أو مع أحد منكم ، ثم يطالبوا بفدية أخرى بعد نجاح محاولتهم الأولى ؟

أنصت الأولاد إلى حديث أمهم وفى أعينهم نظرات الاعجاب والتقدير العظيم لمنطقها وحكمتها ، وكان أن أيد جميعهم دون استثناء رأيها . وكان أن مر اليوم الذى حدده المختطفون موعداً لتبادل الفدية بالأب دون أن يفعل الأولاد شيئاً .

٤

وفى صباح الجمعة جاءت المكالمة التليفونية الثانية :

ـ محمود ؟ ماذا حدث ؟ لماذا لم تحضر فى الموعد الذى حددناه لك ؟ أبوك

بخير ويهديكم السلام ، ويطلب منكم التعجيل بافتدائه ، وسنكون فى نفس المكان يوم الاثنين القادم فى الثامنة مساء .. وهذا آخر انذار منا . وحذار حذار من ابلاغ الشرطة .

وفى صباح الثلاثاء جاءت المكالمة الثالثة :

ـ ما هذا ؟ تريد أن يكلمك والدك لتطمئن إلى أنه معنا حقاً ؟ هو الآن بجانبى أن أحببت أن تحادثه .. لا ؟ هل المبلغ غير جاهز ؟ هل هو أكبر مما يمكنكم جمعه ؟ سنخفضه إلى عشرين ألفاً اكراماً لكم . وآخر موعد هو الخميس ، فى نفس المكان . فان لم تحضر تركنا لكم جثة الحاج فيه .

وفى صباح الجمعة :

ـ ما هذا العبث ؟ أهان عليكم والدكم إلى هذا الحد ؟ لم نقتله هذه المرة اكراماً لكم . غير أن صبرنا لن يطول . وسنخفض المبلغ إلى عشرة آلاف . وهذه هى كلمتنا الأخيرة . ولا تخفيض بعد ذلك .. راعوا أننا ننفق عليه وعلى مأكله ومشربه منذ خمسة أشهر من جيوبنا . موعدنا هو الثلاثاء القادم نفس المكان . نفس الوقت . وقد أعذر من أنذر .

وفى صباح الأربعاء مجرد كلمتين فى نغمة حادة :

ـ يا ولاد الكلب !

٥

ثم لا مكالمات أخرى مدة شهر بأكمله . والظاهر أن المختطفين أجروا خلال ذلك الشهر تحرياتهم الخاصة عن مسلك أفراد العائلة فى غياب

والدهم ، وراقبوا تحركاتهم ، ووصلوا إلى نتيجة غير مطمئنة .

وفى مطلع الشهر السابع ، جاءت المكالمة التليفونية السادسة :

ـ محمود ؟ أنا عوضين .. عوضين .. أحد مختطفى والدك . اسمعنى جيداً. لقد أنفقنا على والدك حتى الآن ما يزيد على ثلاثة آلاف جنيه ، وليس فى مقدورنا أن ننفق عليه أكثر من ذلك . فإما أن تحضر لنا هذا المبلغ يوم الخميس القادم ، فى نفس المكان ، نفس الوقت ، واما اضطررنا إلى اخلاء سبيله كى يعود إليكم . وأؤكد لك أنه لا يزال معنا . وفى أكمل صحة وسعادة ، وأن شئت أن تحادثه فهو الآن بجانبى .. لا ؟ كما تحب .. وان فضلتم أن يبقى فى ضيافتنا فلا أظن أن ألف جنيه شهرياً مبلغ فيه مبالغة خاصة ان رأيتم أن نوسع الانفاق عليه ، وأن نحيطه بكل مظاهر ، الحفاوة والاكرام ، آه ! اسمع ! ان كان الموعد غير مناسب لك ، وتريد تغييره أو الاستفسار عن أى شىء آخر ، فيمكنك الاتصال بى تليفونياً فى هذا الرقم : ٢٩٠٥٠٠٣ .

أعاد محمود السماعة إلى مكانها وقد اصفر وجهه واتجه إلى جهاز التليفزيون يطفئه ثم إلى مقعده بين أفراد عائلته يخبرهم بفحوى المكالمة .

٦

تفرست الأم فى وجوه أولادها ثم قالت :

ـ نحمد الله أولاً على أن والدكم فى أكمل صحة وسعادة كما يقولون . وفى ظنى أنه من العدل ، ومن الواجب أن نرد للمختطفين ما أنفقوه على والدكم

خلال الأشهر الماضية . بل ان ذلك فيه مصلحة للحاج نفسه . فإن نحن لم ندفع لهم ما أنفقوه فقد يدفعهم الغضب والغيظ إلى الحاق الأذى به . بل وقد يقتلونه من قبيل الانتقام ، إذ يرون أن اختطافهم له قد عاد عليهم بالضرر لا بالنفع . أرى من وجوهكم أنكم تؤيدون هذا الرأى . حسناً . نأتى إلى العرض الآخر . وهو أن نترك الحاج فى ضيافتهم مقابل ألف جنيه فى الشهر . من حيث المبدأ المبلغ غير كبير إذا أخذنا أمرين بعين الاعتبار : ارتفاع تكاليف المعيشة ، ورغبتنا فى أن يلبوا للحاج كل مطالبه واحتياجاته المادية . غير أن السؤال الجوهرى هو : هل نقبل العرض أم لا ؟

توقفت الأم لتتطلع من جديد إلى وجوه أولادها وابنتها وقد طأطأوا رءوسهم فى تفكير عميق ، عدا الصبى الأصغر الذى كان يرنو إلى مكان دراجته فى شرفة الصالة . ثم استطردت قائلة :

ـ بطبيعة الحال ودون أدنى شك ستكون سعادتنا غامرة بعودة الحاج إلينا بعد طول غياب . غير أن فرحنا هذا قد يحول بيننا وبين التفكير الهادىء الموضوعى ، ويدفعنا إلى التسرع فى اتخاذ القرار ، وهو ما يجعل من المصلحة أن نستشير شخصاً محايداً يبذل لنا نصحه بعد دراسة هادئة لكل جوانب الوضع واحتمالاته . وقد ترون أن يكون هذا الشخص هو جارنا فى الشقة المقابلة سليمان بك عيسى .

٧

وجاءهم سليمان به حال استدعائه ، وهو رجل أعزب بهى الطلعة فى حوالى الخمسين ، أنيق الثياب ، ممشوق القامة. والواقع أن الرجل ، منذ

اختطاف عبد الرحمن النكدى ، لم يأل جهداً فى التخفيف عن أفراد أسرته ، ومحاولة التسرية عنهم ، وبذل خدماته والنصح لهم ، رغم أنه لم يكن يحمل ودا عظيماً للحاج الذى كان يضايقه منه بالأخص أنه ما كان ليدع صلاة جمعة أو عيد تمر دون أن يمر أولاً على شقة سليمان بك يطرق بابها ، ويصر على اصطحاب سليمان إلى المسجد ، رافضاً قبول أى عذر ، أو حتى القول بأنه فى سبيل ارتداء ملابسه وأنه سيلحق به .

قال سليمان :

ـ الحقيقة أنه أمر محير ، فعلى قدر شوقنا جميعاً إلى رؤية الحاج بيننا مرة أخرى ، وعلى الرغم من الدوافع الجديرة بالتقدير التى جعلتكم تحجمون عن دفع الفدية للمختطفين ، فانه من السهل أن تتصوروا شعوره وموقفه منكم عند عودته ، خاصة أنه فى الغالب سيعزو رفضكم دفع الفدية إلى دوافع أخرى غير صحيحة . فى هذه الحالة يمكننا أن نتوقع أن يسود البيت جو من التوتر ليس فى صالح أحد ، لا فى صالحكم ولا فى صالحه .. وقد سرنى ما سمعته منكم نقلاً عن المدعو عوضين من أن الحاج فى أكمل صحة وسعادة فى موقعه الجديد . فان كان القرار على أى حال متروك لكم ولوالدتكم العزيزة ، فإنى أنصح بقبول ما عرضه المختطفون وتسليمهم الألف جنيه شهرياً ، مع الاصرار على شرط أن يوفروا للحاج كل احتياجاته واحاطته بالرعاية الكاملة.

وكان أن اقتنع كل افراد العائلة بمنطق سليمان بك وعيسى وحجته . وفى الساعة الثامنة من مساء الخميس كان محمود فى المكان المحدد فى عين الصيرة يحمل حقيبة صغيرة بها أربعة آلاف جنيه ، ثلاثة آلاف قيمة نفقات الأشهر السالفة وألف للشهر الجديد .

٨

غير أنه أصبح من النادر بعد ذلك الا يتجاوز الانفاق الشهرى على الحاج الألف جنيه ، فمرة يذكر عوضين فى احدى مكالماته التليفونية التى تزايد عددها وتميزت بوجه عام بقدر كبير من الأدب والود ، أن الحاج أصيب بمرض استدعى رعاية الأطباء وشراء الدواء . ومرة يذكر أن الحاج يريد قضاء شهر على الأقل من شهور الصيف على شاطىء بليس فى العجمى ، ومرة يذكر أن الحاج ـ جزاه الله كل خير ـ يصر على التبرع بمبلغ خمسمائة جنيه مساهمة منه فى بناء مسجد يشيد بالقرب من الدار التى يقيم بها . والحق يقال أن « محمود » ما قصر مرة واحدة فى تلبية احتياجات والده . كما أنه من الانصاف أن نشير إلى أن عوضين ورفاقه لم يتعدوا ـ إلا نادراً ـ ألفاً اضافية من أجل تحقيق هذه الرغبات .

٩

وفى ليلة من ليالى سبتمبر من العام التالى استيقظ افراد عائلة الحاج على جرس باب شقتهم يرن رنيناً متواصلاً . وحين هرع جميعهم إلى الصالة فى ملابس النوم واتجه محمود لفتح الباب ، إذا بهم يرون والدهم الحاج عبد الرحمن ، لاهثاً يتصبب عرقاً ، وقد علا وجهه الأحمر العريض تعبير ارتعد لمرآه الجميع .

بادرت الأم بعد أن أفاقت من ذهولها بالترحيب بزوجها : عبد الرحمن !

ألف حمد الله على السلامة يا عبد الرحمن !

ـ ألف حمد الله على السلامة يا بابا !

قال الحاج وهو يتفرس فى وجوههم :

ـ سلامة يا ولاد الكلب ؟! سلامة ياولاد ستين فى سبعين ؟! طيب . نؤجل الكلام إلى الغد . هات لى شيئاً أكله قبل أن أنام .

وهرعت الأم تجهز عشاء له . وحاولت هى وأولادها استدراجه فى الحديث وهو يلتهم الطعام لمعرفة ما حدث ، فلم يفهموا غير أنه تمكن فى غفلة من مختطفيه من أن يلوذ بالفرار .

١٠

ودخل الحاج حجرته بعد العشاء فألقى بنفسه على الفراش دون أن يغير ملابسه . وسرعان ما وصل غطيطه إلى أهله المجتمعين فى الصالة .

وساد الصمت الرهيب بينهم ربع ساعة ، فربع ساعة آخر ، ثم نظر محمود إلى أمه وأخوته يتفحص وجوههم ، ثم إذا به يتجه على أطراف أصابع قدميه إلى مكان التليفون ليطلب رقماً ويقول هامساً :

ألو ! عوضين ؟ أنا محمود يا عوضين ....

المحتويات

مؤلفات
حسين أحمد أمين

١	دليل المسلم الحزين	الطبعة الأولى دار الشروق ١٩٨٣ الطبعة الثانية دار الشروق ١٩٨٥ الطبعة الثالثة مكتبة مدبولى ١٩٨٧
٢	الحروب الصليبية	مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣.
٣	ألف حكاية وحكاية من الأدب العربى القديم المجلد الأول.	الطبعة الأولى دار الشروق ١٩٨٤ الطبعة الثانية دار الشروق ٩٩٠
٤	ألف حكاية وحكاية من الأدب العربى القديم المجلد الثانى.	دار الشروق ١٩٨٩
٥	ألف حكاية وحكاية من الأدب العربى القديم المجلد الثالث.	(تحت الطبع)
٦	حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية	الطبعة الأولى دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٥. الطبعة الثانية مكتبة مدبولى ١٩٨٧
٧	فى بيت أحمد أمين	الطبعة الأولى دارالهلال ١٩٨٥.
٨	فى بيت أحمد أمين ومقالات أخرى.	الطبعة الثانية مكتبة مدبولى ١٩٨٩.

٩	الإسلام فى عالم متغير	مكتبة مدبولى ١٩٨٨.
١٠	مسرحية الإمام.	مكتبة مدبولى ١٩٩١.
١١	مصابيح أقوال العرب	مكتبة مدبولى ١٩٩١.
١٢	حوليات العالم الإسلامى.	مكتبة مدبولى ١٩٩١.
١٣	المائة الأعظم فى تاريخ الإسلام.	مكتبة مدبولى ١٩٩١.
١٤	الموقف الحضارى من النزعات الدينية، ومقالات أخري	(تحت الطبع)
١٥	محمد	(تحت الطبع)
١٦	رسالة من تحت الماء وسخريات صغيرة أخرى.	دار سعاد الصباح للنشر ١٩٩٢.

تأليف بالاشتراك

١٧	التراث وتحديات العصر	مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ١٩٨٥.
١٨	l'islam en Questions	Bernard Grasset باريس ١٩٨٦.
١٩	التسامح الدينى والتفاهم بين لمعتقدات	اتحاد المحامين العرب بالقاهرة ١٩٨٦.
٢٠	تكنولوجيا تنمية المجتمع العربى.	المركز الأقليمى العربى للبحوث فى العلوم الاجتماعية ١٩٨٧.
٢١	Le Défi du Fondamenta lism Islamique	Labor et Fides (جنيف) ١٩٨٨.
٢٢	أزمة حقوق الإنسان فى الوطن العربى	أتحادالمحامين العرب بالقاهرة ١٩٨٩.
٢٣	Euro - Arab Understanding andcultural exchanges	Council of Europe ١٩٩١.

ترجمـــة

٢٤ معضلة الرجل الأبيض للورد بويد أور — سلسلة الألف كتاب ١٩٦٣.

٢٥ فضل الإسلام على الحضارة الغربية لمونتجومرى وات. — الطبعة الأولى دار الشروق ١٩٨٣. الطبعة الثانية مكتبة مدبولى ١٩٩١.

٢٦ ثلاث مسرحيات عالمية.

أ ـ المقامرون. لجو جول

ب ـ لله مائة إسم لأيش

جـ حوض الأزهار لأوجو بيتّى (تحت الطبع)

باللغة الفرنسية

٢٧ Guide du musulman désemparé La D'ecouverte (Paris) ١٩٩٢.



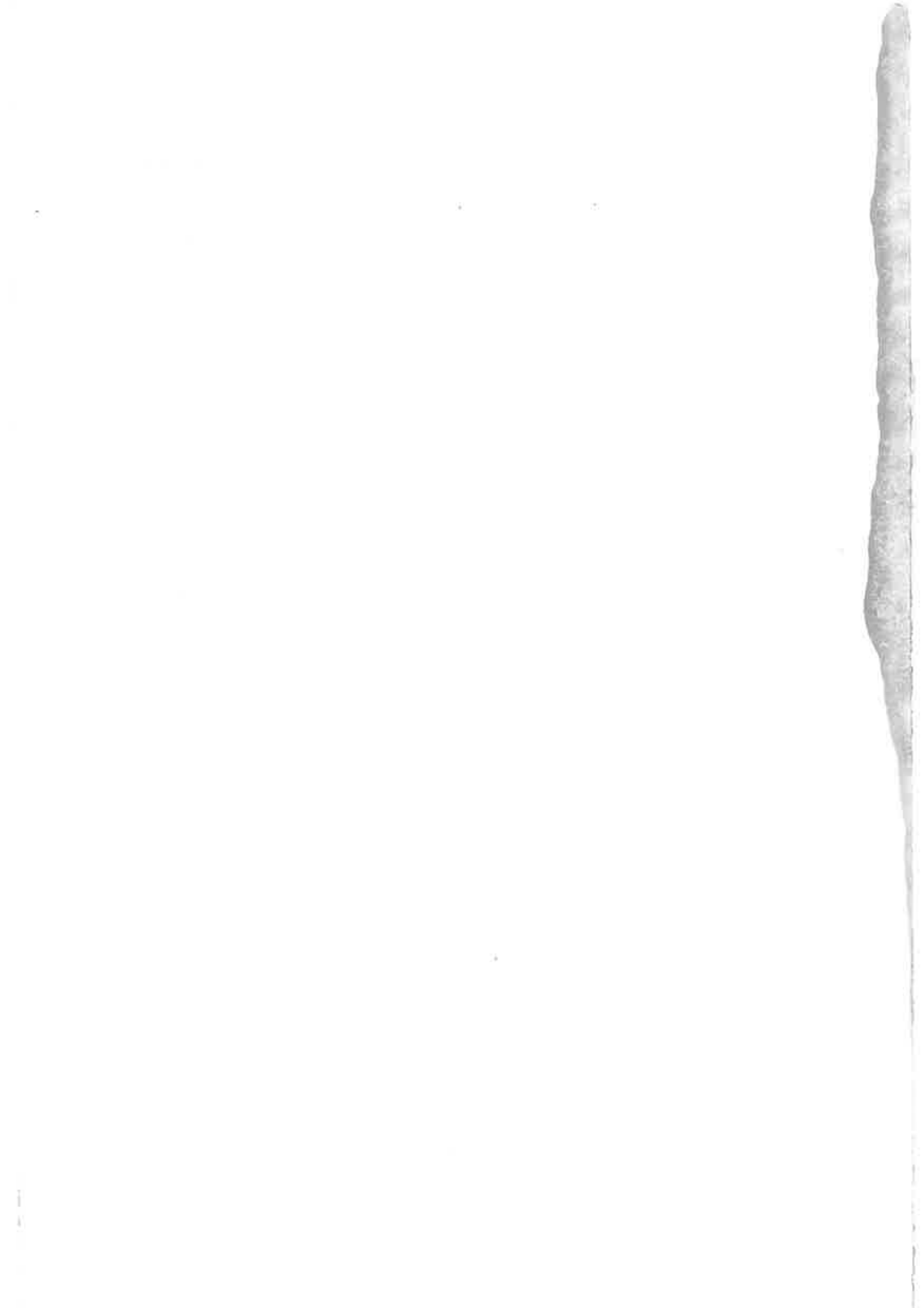
المؤلف

- ولد فى القاهرة فى ١٩ يونيو ١٩٣٢، وهو نجل المؤرخ الاسلامى الكبير الدكتور أحمد امين.
- تخرج فى كلية الحقوق، جامعة القاهرة، عام ١٩٥٣، ثم درس الادب الانجليزى بجامعة لندن.
- عمل محاميا، فمذيعا بالاذاعة المصرية، فمذيعا بالقسم العربى بهيئة الاذاعة البريطانية بلندن.
- التحق بالسلك الدبلوماسى المصرى، وعمل ملحقا فسكرتيرا ثالثا بالسفارة فى اوتاوا (كندا)، فسكرتيرا ثانيا بالسفارة فى موسكو (روسيا)، فمستشارا بالسفارة فى لاجوس (نيجريا)، فوزيرا مفوضا بالسفارة فى بون (المانيا)، فقنصلا عاما فى ريودى جانيرو (البرازيل)، فسفيرا لمصر فى الجزائر
- انتدب خلال عمله بوزارة الخارجية مستشارا فنيا لوزير الثقافة، وأعير للعمل نائبا لمدير مركز الامم المتحدة للاعلام بالقاهرة.
- يجيد الانجليزية والفرنسية والروسية والالمانية والبرتغالية.
- حصل كتابه «دليل المسلم الحزين» على جائزة احسن كتاب فى معرض القاهرة الدولى للكتاب عام ١٩٨٤. وقد صدرت الترجمة الفرنسية له فى باريس فى ابريل ١٩٩٢.
- كما أهدت له الحكومة الالمانية وسام الاستحقاق الاكبر عام ١٩٨٣.

● متزوج وله ثلاث بنات.

● من مؤلفاته: دليل المسلم الحزين (١٩٨٣) - الحروب الصليبية (١٩٨٣) - فضل الاسلام على الحضارة الغربية (١٩٨٣) - الف حكاية وحكاية من الأدب العربى القديم (١٩٨٤) - حول الدعوة الى تطبيق الشريعة الاسلامية (١٩٨٤) - فى بيت أحمد امين (١٩٨٥) - التسامح الدينى والتفاهم بين المعتقدات (١٩٨٦) - تكنولوجيا تنمية المجتمع العربى (١٩٨٧) - الاسلام فى عالم متغير (١٩٨٨) - ازمة حقوق الانسان فى الوطن العربى (١٩٨٩) - مسرحية «الامام» (١٩٩٠) - مصابيح أقوال العرب (١٩٩٠) - حوليات العالم الاسلامى (١٩٩٠) - المائة الاعظم فى تاريخ الاسلام (١٩٩١).

● له العديد من المقالات والبحوث نشرت فى مجلات - الثقافة - الرسالة المجلة - المسرح - روزاليوسف - صباح الخير - الاهرام الاقتصادى - اكتوبر - المصور - الطليعة - ادب ونقد - الهلال - اليسار - ابداع - العربي الكويتية - الدوحة القطرية - وجرائد المصرى - الاخبار - الجمهورية - الاهالى - اهرام ويكلى - الوطن الكويتية - الشعب الجزائرية، كما أذيعت له تمثيليات فى اذاعة الشرق الادنى، والاذاعتين المصرية (البرنامج الثانى)، والبريطانية (القسم العربى).



عربية للطباعة والنشر

٧، ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين
ت: ٣٠٣٦٠٩٨

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهى نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الابداع المختلفة.

دار سعاد الصباح

ص.ب : ٢٧٢٨٠

الصفاة ١٣١٣٣ ـ الكويت

ص. ب: ١٣ المقطم ـ القاهرة

